

خارطة الطوائف

تاريخٌ موجز للأديان
وعرضٌ للمشهد العالمي
واستشرافٌ للصراع

أحمد دعدوش

السبيل

خارطة
الطوائف

من إصدارات

السبيل

al-sabeel.net

بالتعاون مع

مؤسسة قطر الندى للثقافة والإعلام والنشر

يطلب هذا الكتاب في المغارب العربية الأقصى والأوسط والأدنى من:

مؤسسة قطر الندى للثقافة والإعلام والنشر - الدار البيضاء - المملكة المغربية

IMM (6) - GH (11)Madinati - Sidi Elbernoussi

Casablanca - Royaume - du Maroc

Tel: +212667893030

وفي موريتانيا ودول الساحل والصحراء من:

ديوان الشناقطة - انواكشوط - الجمهورية الإسلامية الموريتانية

مبنى جامعة محمد الأمين الشنقيطي - حي سوكوجيم - قرب وزارة [illegible]

Tel: (+222)20011000-49497878

وفي مصر والمشرق العربي من:

دار الذهبي - القاهرة - جمهورية مصر العربية

[illegible]

Tel: (+2)01115550071/72

وفي تركيا والعالم الغربي من:

مكتبة اسماعيل - الريحانية - مدينة هاتاي - الجمهورية التركية

Yeni Mahalle İstiklal Caddesi Dilek Apartman

Reyhanlı - Hatay - Türkiye

Tel: (+9)05395438998-05316233353

الطبعة الأولى

1445هـ/2024م

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية (الخزانة العامة) للمملكة المغربية

2024MO1260

الرقم الدولي المعياري لهذا الكتاب (ردمك)

978-9920-583-85-5

+212667893030

QATRUNNADA_MA

QATRUNNADA.MA

FONDATIONQATRUNNADA

FONDATIONQATRUNNADA@GMAIL.COM

خارطة الطوائف

تاريخٌ موجز للأديان
وعرضٌ للمشهد العالمي
واستشرافٌ للصراع

أحمد دعدوش

من إصدارات

السبيل

2024

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل من لا يكتفي بالأجوبة الجاهزة والقوالب النمطية البالية، ويتشوّف إلى التكامل المعرفي وعمق التحليل...

أرجو أن تجد في هذا الكتاب ما يشبع نهمك!

المحتويات


مستقبل
الخوف
أحمد دعدوش
H. P. Blavatsky and Mabel Collins
Stop!
Oui
LUCIS
KHALISTAN
REFERENDUM

المقدمة

أقرّ في البداية بأن اختيار عنوان هذا الكتاب كان مهمّة شاقة استغرقت الكثير من الوقت وطلب المشورة، فهو كتاب عصيّ على التصنيف، إذ حاولتُ تضمينه كلًا من التأريخ والعرض والاستشراف، لأرسُم من خلاله خارطة عامة تُعين على فهم أهم الطوائف الدينية في عالمنا اليوم.

ينطلق بحثي من تاريخ تشكل العقائد، ويمرّ بتطورها المؤدي إلى واقعها المعاصر، مع محاولة تفكيك عناصر "القوة الناعمة" في بعضها، والإشارة إلى توظيفها من قبل قيادات الأمم المتنافسة، وصولًا إلى استشراف مستقبل الصراع بأدوات الدين والثقافة. وقد كانت نواةُ البحث سلسلةَ مقالات نُشرت على موقع الجزيرة نت، ثم أعدتُ جمعها وترتيبها في إطار أوسع، لتشكّل في النهاية هذا الكتاب.

لا أزعم تقديم دراسة بحثية بأدوات أكاديمية، ولا خارطة موسوعية تستوعب الصورة الشاملة لأديان ضاربة في العمق والتنوع، بل أطرح رؤية تستند إلى تداخل التاريخ والجغرافيا في قصة نشوء الأديان وتطورها، وأحاول توسيع مدارك المثقف غير المتخصص لفهم موقعه في عالم محتدم بالصراع، كما أقدّم أيضًا لصنّاع الرأي والقرار صورة حديثة للمشهد العالمي الذي تتسارع أحداثه بطريقة غير مسبوقة، وتتبدل بعض ملامحه في المدى القصير بما يستلزم مواكبةً مستمرة لمستجدّاته.

وبما أني باحث مسلم ومشتغل بالجدل العقدي، فإني لا أقف في كتابي هذا موقف المراقِب المحايد، بل أضع في الحسبان أنه كتاب موجّه لمن يشاركني العقيدة، وأتجاوز الخوض في مسائلها معتبرًا أنها ليست موضوع البحث، كما

أضع في الحسبان مسبقًا أن الحكم على الأديان الأخرى بمعيار دين الباحث حقٌ مشروع طالما ظل مقيّدًا بالإنصاف وتجنب الافتراء. وإن كان الإنصاف عزيز -كما يقال- فهو مع ذلك ممكن، أما التجرّد المطلق فمُحال أصلًا.

خلاصة القول هي أن الكتاب ليس بحثًا في مقارنة الأديان، ولا سفرًا من أسفار التاريخ، ولا حتى كتابًا إستراتيجيًا في التحليل السياسي، بل محاولة لاقتباس شعلة من الحقول الثلاثة. وهو مُصنّف بقلمِ صحفيٍّ قضى عشر سنوات في غرفة أخبار شبكة الجزيرة، وفي الوقت نفسه باحث أكاديمي في العقيدة ومقارنة الأديان، وأيضًا ناشط في النقاشات الفكرية والسياسية. والعبد الفقير مقرّ بلا شك بقصوره البشري، وملتمسٌ العذر من القارئ الذكي.

الطاوية.. ديانة السلام والقوة الناعمة للصين

في منتصف عام2022، أثير الجدل في مواقع التواصل الاجتماعي عن مؤتمر دولي للسلام في إسطنبول. ففي ختام فعالياته، انتشرت صور يقرع فيها بعض الزعماء والسياسيين جرسًا معدنيًا ضخمًا، كما قُدمت في المؤتمر أنشطة فنية وثقافية تحمل شعارات السلام، وذلك ضمن طقوس تحييها منظمة تابعة للديانة الطاوية.

سرعان ما اندلع الجدل على مواقع التواصل ووسائل الإعلام بشأن قرع الجرس، وتساءل الكثيرون في تونس: هل اعتنق الرئيس الأسبق المنصف المرزوقي تلك الديانة الوثنية؟ مما دفعه إلى إصدار بيان يوضح فيه تمسكه بالإسلام، وأن الأمر لا يعدو كونه تقليدًا ثقافيًا.

وكانت القصة قد بدأت باحتضان إسطنبول في يومي السابع والتاسع من شهر يونيو القمة الاقتصادية الأوروآسيوية الخامسة والعشرين، والتي حضرها رؤساء دول وحكومات ومسؤولون من أكثر من 40 دولة، حيث ناقش المؤتمر -تحت شعار "إعادة البناء بشكل أفضل"- قضايا السلام والاقتصاد والطاقة والتنمية المستدامة وأزمة الغذاء وتغير المناخ، لا سيما في حقبة ما بعد وباء كورونا، وتداعيات الحرب الروسية في أوكرانيا.

وكان اتحاد السلام والمحبة العالميين (FOWPAL) من أبرز المنظمات التي دعيت للمساهمة في فعاليات القمة، وهو منظمة أنشأها الناشط الصيني هونغ طاو تزي بالولايات المتحدة عام 2000، ونجح في ضمها إلى عائلة المنظمات غير الحكومية التابعة للأمم المتحدة.

وبحسب الموقع الرسمي للاتحاد، تحرص هذه المنظمة على تنظيم فعاليات دولية لنشر ثقافة السلام، ومن أبرزها إحياء "اليوم العالمي للضمير" كما يقدم الموقع بعض رسائله في إطار ديني، مثل أغنية "صلاة من أجل السلام" [1].

وفي اليوم الأخير لقمة إسطنبول، احتفل الاتحاد بقرع جرس السلام والحب الذي يزن 240 كيلوغرامًا، وهي فعالية يحرص الاتحاد على دعوة زعماء العالم في مناسبات عدة للمشاركة فيها، وتتطلب قرع الجرس بمطرقة ضخمة ثلاث مرات، مع إضمار ثلاث أمنيات (صلوات) قبل كل طرقة، ففي الأولى يدعو الطارق دعاء السلام للنفس، وفي الثانية بالسلام للناس، ثم في الثالثة بالسلام للعالم كله.

فلسفة الأجراس



يتمتع الجرس بمكانة خاصة في الثقافة الصينية، فالمكتشفات الأثرية تكشف عن الاهتمام بالأجراس في العصور السابقة على أسرة تشين (القرن الثالث قبل الميلاد) التي وحدت الصين. وبعد دخول البوذية هذه البلاد أصبحت الأجراس أدوات مهمة، إذ يقول المثل الصيني "هناك أجراس في كل معبد، وبدون أجراس لن تكون هناك معابد".

---

(1) للاطلاع: www.fowpal.org

تمايزت أشكال وأنواع الأجراس بحسب استخداماتها، فكانت هناك أجراس بوذية وأجراس طاوية، وثالثة للبلاط الإمبراطوري، ويمكن سماع دوي الكبيرة منها على بعد خمسة كيلومترات، لذا رُبط استخدامها في المعابد بأداء الطقوس لجذب قلوب المصلين وبث الرهبة في نفوسهم.

وبحسب المصادر الطاوية، فإن قرع الأجراس يؤدي إلى تحريك المصلين والأرواح معًا، ودفعها نحو الاندماج والاتحاد مع "الطاو"[(1)].

أصول المعتقد

كي نفهم جذور هذه الطقوس، لنعد إلى منبع العقيدة نفسها، فالأديان الشعبية الصينية تنتمي إلى عائلة المعتقدات الآسيوية التي لا تنفك عن أصلها الباطني (الغنوصي)، حيث يغلب الاعتقاد بحلول كائنات روحية في الكون، تتنوع بين طرفي الخير والشر، وهي أقرب ما تكون إلى الآلهة، وقد يعود بعضها إلى الأسلاف الغابرين.

ظهرت الفلسفة الكونفوشية في القرن السادس قبل الميلاد خلال عهد سلالة تزو الحاكمة، ومع أن الطاوية نشأت في الوقت نفسه فإنها لم تنتشر إلا في عهد سلالة هان بالقرن الثالث قبل الميلاد، وذلك قبل أن تنتشر البوذية (ذات الأصل الهندوسي والتي نشأت في نيبال) بعهد سلالة تانغ، التي تزامن حكمها مع ظهور الإسلام بجزيرة العرب.

يعتبر الفيلسوف لاو تسي المؤسس الأبرز للطاوية، ويشكك بعض المؤرخين في وجوده ويعتقدون أنه شخصية رمزية، بينما يرجّح آخرون وجوده فيما بين عامي 600 قبل الميلاد و500 قبل الميلاد. وتقول الروايات إنه كان مؤرخًا ومشرفًا على حفظ الوثائق، فيما يشبه منصب أمين المكتبة الوطنية اليوم،

---

(1) خالد بشير، "ماذا تعرف عن الطاوية؟"، موقع حفريات hafryat.com، 12 مارس 2018.

وعندما فقد الأمل في إصلاح بلاده التي أنهكتها الحروب قرر الخروج إلى الغابات والتنسّك كالرهبان (1).

وتذكر الرواية -والتي يعتبرها البعض أسطورة- أن حرس بوابة المدينة طلبوا من لاو تسي أن يترك لهم كتابًا يختصر فيه كل حكمته قبل الرحيل، فقدّم لهم كتابًا يتضمن 81 قصيدة قصيرة تلخّص أفكاره، وسمّاه "طاو تي تشينغ".، ونشأ بذلك مفهوم الطاوية، أي "الطريق" (2).

عقائد الطاوية لا تختلف عن مثيلاتها الباطنية (الغنوصية) الآسيوية، حيث تكثر فيها التعبيرات المجازية وتتعدد احتمالات التأويل، وهي لا تقدم لنا مفهومًا واضحًا للألوهية، ولا نجد لديها وصفًا لشعائر العبادة.

تحتفي الطاوية بما يسمى "الطاجيتو"، وهو رمز شهير بالثقافة الصينية ولا يُعرف تاريخ نشأته، ويمثل مفهوم الاتحاد بين مبدأين متعارضين "يين ويانغ" فيُرمز لهما بدائرة خارجية تمثل "كل شيء" وبداخلها منحنيان متداخلان، إذ يؤدي تفاعل طاقة الين "الأسود" مع اليانغ "الأبيض" لنشوء الحياة وتعدد أشكالها.



(1) وان هايمينغ، الأفكار الفلسفية الصينية، دار النشر الصينية عبر القارات، بدون تاريخ، ص 22.

(2) Livia Kohn, Daoism Handbook, Boston: Brill Academic Publishers, 2000, p. 50- 56.

وترى هذه الفلسفة أن الأضداد يحتاج كل منها للآخر كي يوجد ويستمر، فالظلام يتكامل مع النور، والسكون يحتاج إلى النشاط، والبارد يتحد مع الساخن، والذكر يتحد مع الأنثى، وهكذا تستمر الحياة.

وكما هو حال معظم الفلسفات الباطنية الأخرى، ينبثق الكون لدى الطاوية من فوضى أولية (هيولى بالمصطلح الفلسفي) ثم يدخل في سلسلة منظمة من دورات الاتحاد بين الين واليانغ، لتتشكل بذلك هيئة الأشياء، سواء كانت أرواحًا أو أجسادًا مادية[1].

وتمدد الطاوية مفهومها لصراع الأضداد لتفرضه على كل مناحي الحياة، فهو أساس الطب الصيني الشعبي مثلا، إذ يقسم العمليات الحيوية في جسم الإنسان على أساس أن تكون كل منها من جزأين متضادين ومتكاملين في الوقت نفسه، لتصبح مهمة الطبيب قائمة على إعادة ضبط التوازن بين العنصرين في كل عضو، وفي كل وظيفة حيوية على حدة[2].

فمثلًا، عندما ترتفع نسبة الين في الجسم تظهر أعراض ارتفاع درجة الحرارة والصداع واحمرار الوجه والتهاب الحلق، فيسارع الطبيب إلى ممارسة الطقوس واستخدام الأدوية والأطعمة التي تحرض على رفع نسبة اليانغ، طمعًا في استعادة العافية.

تنجيم وطقوس

تتشابه الطاوية أيضًا مع الأديان الصينية والهندية الأخرى بتقديسها للأرواح، إذ تمتلئ المعابد الطاوية بالأعلام المربعة والمثلثة، وهي تحمل مخططات

---

(1) Annellen M. Simpkins; Alexander C. Simpkins, Simple Taoism: a guide to living in balance, Boston: Tuttle Publishing, 1999, p. 10- 13.

(2) Stephan Feuchtwang, Religions in the Modern World: Traditions and Transformations. New York: Routledge, 2016, p. 150- 151.

تهدف إلى تحقيق وظائف عدة، أبرزها توجيه أرواح الموتى، والتقرب للآلهة و"الخالدين".

ويحظى التنجيم بحفاوة بالغة لدى الطاوية، كما تتداخل مهام كهنة المعابد بما كان يمارسه العرافون والشامانات والسحرة في العصور الغابرة.

وعلى سبيل المثال، كان "الفانغشي" بالقرن الثالث قبل الميلاد هو الشامان الذي يمارس السحر لطرد الأرواح الشريرة والتواصل مع عالم الشياطين، واستمرت ممارساته في التطبيق مع ظهور الطاوية، وما زالت كذلك حتى اليوم، ويُزعم أن لها دورا في فنون العلاج والاستشفاء بالطاقة الحيوية.

تتميز الطاوية عن الأديان الصينية الأخرى منذ نشأتها بنبذ طقوس التضحية، فقبل تأسيس الطاوية كانت القرابين تقدم لأرواح الموتى والآلهة على السواء في المعابد، لكن الطاوية رفضت ذلك بشدة، وما زالت معابدها تحظر تقديم الأضحيات الحيوانية، وتكتفي بقبول حرق بعض النباتات والبخور.

ويحيي أتباع الطاوية أعيادهم كل سنة باحتفالات كرنفالية صاخبة، فيطلقون الألعاب النارية وينظمون مسيرات ملأى بالزهور، وينفذون رقصات الأسد والتنين، كما يرتدي بعضهم دمى ضخمة تمثل الآلهة الأسطورية، ويقدمون استعراضات الكونغ فو.

ويعتقد الطاويون أن المشاركين في هذه الطقوس ليسوا مؤدين فقط، بل تتلبس بهم الأرواح، لا سيما عندما يمارسون طقوسًا خطيرة مثل طعن أجسادهم بالسيوف والأسياخ.

وتحظى الاحتفالات والمهرجانات الطاوية بحضور جماهيري كبير في أنحاء الصين، كما تقام من قبل الجاليات الطاوية في دول عدة مثل ماليزيا واليابان وتايلند وحتى كندا.

الطاوية والسياسة

يرى بعض المؤرخين أن الطاوية تطورت بهدف تصحيح الكونفوشية، فالطاوية ترفض التشديد الكونفوشي في الطقوس وهرمية النظام الاجتماعي، وتقدم بديلًا أكثر براغماتية يتجسد في المفاهيم الطبيعية والعفوية، كما نجد فيها جذورًا للفلسفة الفردانية التي تطغى على ثقافة الغرب اليوم.

وعندما دخلت البوذية الصين استفادت كثيرًا من الطاوية، كما كان للأخيرة دور في تشكل مذهب بوذية الزن الذي يحتفي كثيرا بالطبيعة، ولا يكترث للكتب المقدسة، ويركز اهتمامه على الحياة الدنيوية. ونرى هذه الأفكار منسجمة مع نمط الحياة العلماني في الغرب الذي يجد في الطاوية وبوذية الزن تطعيمات "روحيّة" للحياة المادية بدون التزام بالطقوس والتكاليف الدينية التي تفرضها الأديان السماوية، وهو ما يبدو جليًّا في انتشار معتقدات "حركة العصر الجديد" منذ ستينات القرن العشرين وحتى اليوم.

ولعل تركيز الطاوية على التطبيق العملي ساعدها على النجاة، إذ لم تصطدم الحكومات الصينية الحديثة معها كما فعلت مع غيرها، فعندما أعلن الزعيم الصيني ماوتسي تونغ فرض الشيوعية الإلحادية على الأمة الصينية أواخر أربعينات القرن العشرين، بدأت الحملة على الأديان لاستئصالها من المجتمع، فأُغلقت الكنائس والمساجد والمعابد البوذية، ثم جرّمت "الثورة الثقافية" حيازة النصوص الدينية، فاضطر الكثير من رجال الدين للتخفي أو الهرب.

وبالرغم من هذا الاضطهاد الواسع، ظلت الكونفوشية والطاوية في مأمن نسبي من حملات الاستئصال، فهما جزء أصيل من التراث الصيني الذي

يصعب الفكاك عنه بعكس الأديان الأخرى، كما جرت العادة منذ القدم على اعتبارهما فلسفة للحياة أكثر من ضمهما إلى عائلة الأديان [1].

وعندما تراجع الشيوعيون عن اضطهاد الأديان منتصف السبعينات، وعن مزاعم "الثورة الثقافية" باعتبار التراث الديني سببًا للرجعية، عادوا للاحتفاء والعناية بمعابدهم حتى مع إنكارهم للاعتقاد بوجود أرواح وآلهة، لا سيما مع اعتقادهم بإمكانية توظيف هذه الفلسفات في تأليف المجتمع الصيني، واختراق مجتمعات الغرب أيضًا.

كان المؤسس لاو تسي يركز على إقحام مفهوم "الطاو" في الأفكار الاجتماعية والسياسية لتحقيق السلام والازدهار، فخصص الكثير من وصاياه للحكام، وقال "إذا اتبع الملوك والنبلاء أحكام الطاو، فلن تستطيع حتى الأشباح والأرواح أن تزعجهم" مطالبًا إياهم بتجنب الصدام مع شعوبهم، ومشددًا على رفض الحروب وضرورة العمل الدؤوب على تجنبها بكل وسيلة ممكنة [2].

تحدث لاو تسي أيضًا عن ضرورة تواضع الحكام، وتجنُّب التدخل في تفاصيل حياة الشعب، وكان يميل إلى التبسيط والعودة إلى نمط الحياة البدائي، فيقول إنه كلما كان الحاكم أقل ذكاءً زادت سعادة الشعب، وكلما صغر حجم المدن وقلّ عدد سكانها مالت حياتهم إلى الطمأنينة والهدوء [3].

ويرى نشطاء السلام في فلسفة الطاوية اليوم ما يدعم أهدافهم، وقد يكتفي البعض باقتباس نصوص لاو تسي، أو الاستفادة من كتاب "فن الحرب"

---

(1) "تحولات الثقافة في مجتمعات حديثة.. ما "النهضة الدينية" الجارية في الصين؟"، موقع الجزيرة نت، مترجم عن موقع The Conversation، 13 يناير 2022.

(2) أحمد فرحات، "تعلّموا السياسة من الصينيين"، العربي الجديد، 24 فبراير 2015.

(3) الأفكار الفلسفية الصينية، ص 24- 25.

الذي وضعه في القرن السادس قبل الميلاد الفيلسوف والقائد العسكري الصيني سن تزو، لكن منظمات أخرى ترى في دعوات السلام هذه نافذة لترويج المعتقدات الطاوية نفسها، باعتبارها الحامل الفلسفي للمبادئ السياسية السلمية.

وعلاوة على ذلك، يمكن القول إن الطاوية باتت إحدى وسائل القوة الناعمة للصين الصاعدة اليوم، فمع أن قادة الحزب الشيوعي لا يتبنّون -كما يبدو- شيئًا من نصائح لاو تسي، إلا أنها تقدّم لهم التسويغات الدبلوماسية الملائمة لتقديم سياستهم الخارجية في صورة سلمية.

ففي آخر فصول الاستغلال السياسي لهذه الديانة القديمة، أعلنت الحكومة الصينية "الملحدة" في 24 سبتمبر 2023، عن تأسيس الاتحاد العالمي للطاوية، وذلك أثناء انعقاد المنتدى الدولي الخامس للطاوية في جبل "ماوشان" الطاوي الشهير بمقاطعة جيانغسو شرقي الصين، وبحضور أكثر من ألف شخص.

ويضم الاتحاد 52 منظمة طاوية من 20 دولة ومنطقة، وهو يهدف -بحسب المؤسسين- إلى "تعزيز وحدة وتعاون الطاويين في جميع أنحاء العالم، وتسهيل الانتشار الدولي للطاوية"، إلى جانب المساهمة "في التنمية السلمية للعالم، وبناء مجتمع المستقبل المشترك للبشرية" (1).

أثار هذا الحدث انتباه العديد من وسائل الإعلام الأجنبية، فالمنتدى ينعقد كل أربع سنوات منذ 2007، ويشهد تطورًا مستمرًا في كل دورة. وتبلور نشاطه أخيرًا بتأسيس اتحاد عالمي يضم في عضويته شخصيات من روسيا والولايات

---

(1) "تأسيس الاتحاد العالمي للطاوية لتعزيز وحدة الطاويين"، وكالة زينهوا الصينية، arabic.news.cn، 25 سبتمبر 2023.

المتحدة وكندا والمكسيك وإيطاليا وفرنسا، وحتى إيران [1]. ويتحدث المسؤولون علنًا عن سعيهم من خلاله لتسهيل "الانتشار الدولي للطاوية"، وكأن الحكومة الشيوعية أصبحت تتبنى مشروع الدعوة لهذا الدين!

وبالخلاصة، إلى جانب السلاح النووي والصواريخ الباليستية وحاملات الطائرات الصينية، هناك أيضًا أجراس السلام التي يقرعها الناشطون الطاويون الصينيون برفقة مئات الزعماء، حاملين معها شعارات المحبة إلى أنحاء العالم، وفي الوقت نفسه طيفًا من الأساطير الدينية، والمصالح السياسية أيضًا.

(1) Frédéric Lemaître, "In China, the political correctness of Taoism", lemonde.fr, 8 October 2023.

الكونفوشية.. فلسفة للحياة قاومت الاستبداد الشيوعي وأصبحت فخرًا للصين الحديثة

بالرغم من مرور أكثر من خمسة وعشرين قرنًا على ظهورها، وبعد كل ما عانته من قمع ممنهج على يد الحزب الشيوعي، ما زالت الكونفوشية تحظى باحترام بالغ في الصين، إذ لم تكتف بتجاوز عقبات الزمن وتقلبات السياسة، بل أصبحت إحدى أدوات القوة الناعمة للصين الحديثة، ووعاءً للحفاظ على هوية القوة الصاعدة إلى صدارة اقتصادات العالم.

تنسب هذه الفلسفة -أو الديانة- إلى كونفوشيوس، وهو شخصية ما زال الجدل قائمًا حول هويتها الحقيقية، إلا أن الشائع عن سيرته أنه ولد في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وكان اسمه الحقيقي "كونغ فو تسِه"، كما تذكر بعض الروايات أنه كان معاصرًا لمؤسس الطاوية لاو تسي.

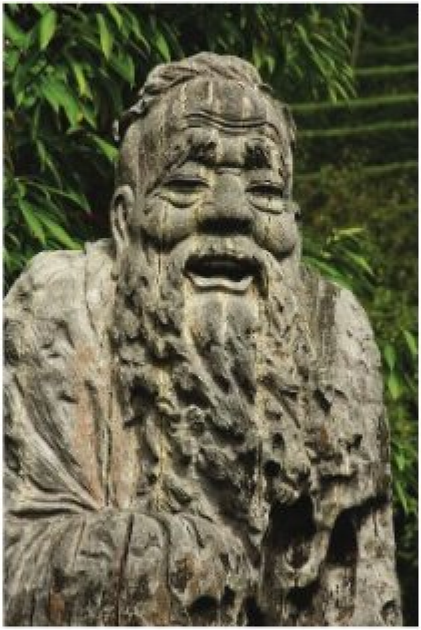
نشأ كونفوشيوس في أسرة فقيرة بولاية "ليو" (مقاطعة شاندونغ حاليا)، وترقّى في عدة مناصب حكومية، ثم تفرّغ في سن التقاعد لتدريس الناس قواعد الحكمة، ولم يكن يعدّ نفسه مبتكرًا لفلسفة جديدة بل ناقلًا لتقاليد أخلاقية قديمة.

كان كونفوشيوس معتادًا على الطواف في الأقاليم الصينية للتبشير بأفكاره، وكان جلّ اهتمامه منصبًا على إصلاح الحكام والأمراء. لم تجر الرياح غالبًا بما تشتهي سفنه، وعانى كثيرًا من الرفض والنبذ، فحتى مع فوزه ببعض التكريم والمناصب من قبل حفنة من الحكام إلا أنه لم ينجح في إقناع أي منهم بتطبيق فلسفته على الوجه الصحيح.

لم يترك كونفوشيوس كتبًا تحفظ لنا أفكاره وأقواله بطريقة يمكن التيقّن من نسبتها إليه أو سلامتها من التحريف والتبديل، فأقدم النصوص المنسوبة

له لم يُدوّن إلا بعد رحيله بنحو أربعة قرون، لذا سيظل الجدل مستمرًا حول الكثير من تفاصيل حياته ومعتقداته، فالبعض لا يستبعد كونه نبيًا مرسلا من الله إلى شعبه، لا سيما أنه كان يتحدث عن أن السماء أوكلت إليه مهمة علاج بلاده من أوجاعها، كما كان يشير إلى ثقته بأن السماء لن تخذله، وأنها الوحيدة التي تفهمه[1].

تقول الحكمة المأثورة "لا كرامة لنبي في قومه"، وقد كانت لكونفوشيوس كرامة في قومه ولكن ليس في عصره، فبعد موته ببضع قرون أصبحت فلسفته هي المظلة الأعم للتقاليد الدينية الصينية، حتى نُسبت إليه معظم المؤلفات التاريخية التي أنتجها الفكر الصيني في العصور الغابرة، وأقيمت الهياكل والتماثيل لتبجيله على عادة الصينيين في تقديس الأسلاف، حتى كاد البعض يرفعه إلى مصاف الآلهة في السماء.



تمثال لكونفوشيوس في أحد معابد الصين

ومن أهم الكتب المنسوبة له كتاب "تعاليم كونفوشيوس"، وهو مجموعة مدونة من أقوال وأفعال كونفوشيوس وتلامذته، كما يضم العديد من حواراته معهم. ويمكن اعتباره المصدر الرئيس لأفكاره وتعاليمه، والتي ما زال لها تأثير كبير على الفكر والقيم في الصين ودول شرق آسيا حتى اليوم.

(1) فؤاد محمد شبل، حكمة الصين: دراسة تحليلية لعالم الفكر الصيني منذ أقدم العصور، دار المعارف، 1968، ص 77.

الأصل الباطني

تشترك الكونفوشية مع الطاوية وبقية المعتقدات الصينية في غموض نشأة الوجود، فمعظم الأديان الباطنية (الغنوصية) الآسيوية تضفي على الكون بعدًا روحيًا يجعله مستقلا بذاته، وربما مستغنيًا عن الخلق. فالكون يخلق نفسه من فوضى أولية، ثم تنتظم مكوناته من خلال قطبية العنصرين المتناقضين "ين ويانغ"، حيث تستمر عملية التخلق في دورات لا نهائية ما زلنا نرى آثارها إلى اليوم.

تشير مأثورات كونفوشيوس إلى "تيان" الذي يحلّ في السماء، ويتحدث كتاب "تعاليم كونفوشيوس" عن تيان بصفته مصدرًا للحياة، كما ينص على أنه يراقب البشر ويحكم عليهم، إلا أن الباحثين المعاصرين يصرون على أن "تيان" لا يمكن فهمه بطريقة تشابه مفهوم الإله في الأديان السماوية، فهو ليس إلهًا فاعلًا خالقًا مريدًا، بل هو مثل "الطاو" في الطاوية و"براهمان" في الهندوسية، أي أنه مبدأ الانتظام في الطبيعة، ومن خلال التأمل والاتحاد معه يكتشف البشر كيف يجب أن يعيشوا ويتصرفوا.

بناء على ذلك، تستبعد الكثير من المراجع المعاصرة اعتبار المعتقدات الصينية -ومنها الكونفوشية- دينًا [1]، على اعتبار أن شعائر التقديس والتبجيل لا تأخذ صفة العبادة، وأن من يمارسها لا يقصد بها نيل رضا إله ما أو محبته، ولا انتظار مثوبة في الأخرة، بل يبحث من خلال تقربه إلى "المطلق" عن اتباع الطريق الأمثل للحياة، والتناغم مع بقية مكونات الوجود.

وفي كتاب "تعاليم كونفوشيوس"، يحث كونفوشيوس أتباعه على ممارسة الشعائر المناسبة (لي) التي تعني احترام المواقع وحسن التقدير، كنوع من العبادة (جينغ) للآلهة (شِن)، التي تنبثق وتنبع من "تيان".

---

(1) الأفكار الفلسفية الصينية، ص 13.

وعندما يسأل تلميذ كونفوشيوس عن تقديم القرابين، يجيبه بضرورة معرفة واحترام تيان أولا، ثم تأدية شعائره التي تشمل تقديم القرابين بشكل صحيح، وعليه أيضًا أن يقدم تضحيات شخصية وأن يؤثّر في الوجود، وإلا فإن عمله لن ينتج شيئًا. والنتيجة هي ربط الشعائر دائما بما تتركه من أثر في النفس، وفي الوجود كله [1].

وفي موقف آخر، سأله أحد تلاميذه عن الموت، فقال كونفوشيوس: "إنك لا تعرف الحياة فكيف ستعرف الموت؟"، مستبعدًا بذلك أن يفهم الإنسان الكثير من أسرار الحياة الملموسة، ما يجعل من المستحيل الغوص في الغيبيات وما بعد الموت، كما أنه أنكر وجود الأرواح ولم يعتنِ بالبحث عن الإله [2].

التركيز على الأخلاق

لم ينشغل كونفوشيوس كثيرًا بفلسفة الوجود، فكان ينطلق من الأسس الباطنية التي استقاها من المعتقدات الموجودة سابقًا في الصين ليربطها بالأخلاق والسلوك وتنظيم المجتمع، وإصلاح القيادة السياسية.

وبما أن السماء وُجدت -حسب تعاليم كونفوشيوس- بنظام منضبط، فيتعيّن على الإنسانية أن تتبعه في انتهاج "طريق معتدل" يحفظ التوازن بين قوى الين واليانغ، وهذا التناغم الاجتماعي القائم على التمسك بالأخلاق الحميدة يتطلب احترام الأجداد العظماء إلى درجة تقديسهم وعبادتهم، وذلك من خلال تبجيل تماثيلهم وتقديم القرابين لأضرحتهم.

---

(1) Homer Dubs. Theism and Naturalism in Ancient Chinese Philosophy, University of Hawaii Press. 1960, p. 160- 175.

(2) الأفكار الفلسفية الصينية، ص 13.

كما يتطلب هذا التناغم ضبط السلوك الجماعي بخمسة ثوابت، هي: رن (الإحسان للآخرين)، يي (الحق)، لي (ممارسة الشعائر)، شي (المعرفة)، سين (النزاهة).

أما سلسلة الأخلاق السلوكية فتتضمن أربع فضائل رئيسية، هي شون (الإخلاص)، سيا (بر الوالدين)، سييه (العارض السماوي)، ويي (الحق) الذي يوجد أيضا ضمن قائمة الثوابت الخمسة. وتضاف إلى هذه الفضائل عناصر أخرى فرعية، مثل الصدق والرحمة والشجاعة واللطف والتواضع [1].

التأثير في السياسة

تكتسب الكونفوشية أهميتها من دمجها للنظامين السياسي والاجتماعي في وحدة متكاملة، فالفضائل الشخصية التي حث كونفوشيوس أتباعه عليها يجب أن يتشارك فيها الحكام والشعب على السواء.

كان كونفوشيوس يدعو إلى حكومة أبَوية بطريركية (تسلّطية) يتمتع فيها الحاكم باحترام شديد، وذلك بمقابل احترام الحاكم لمنظومة الفضائل وتقيّده بها حتى يبلغ الكمال، ويصبح قدوة لشعبه.

ومع أن بعض الباحثين المعاصرين يرون في التقليد الكونفوشي تكريسًا للاستبداد، وتسهيلا لحصول الحاكم على التفويض بسلطات "إلهية"، فهو أشبه بالأب الذي يطيعه الأطفال بدون اعتراض، إلا أن البعض يدافع عن كونفوشيوس بأنه كان يدعو إلى تعميم التعليم بين كل أبناء الشعب بدون طبقية، وأنه كان يحث على التزام الحكام والمحكومين معًا بالفضيلة.

كان كونفوشيوس يحلم بدولة يستتب فيها النظام عن طريق نشر الشعائر (لي) والموسيقى، وكان يهتم كثيرًا بإنشاد القصائد الصينية القديمة بألحان

(1) Dictionary of philosophy, Kahle/Austin Foundation, 1983, p. 338- 339.

موسيقية، ويطوف أقاليم بلاده ليقنع الحكام بأن تمتعهم بالفضيلة سيجعل الدول في غنى عن تشريع القوانين واستخدام القوة، لكن هذه الدعوة كانت أقرب إلى الطوباوية من الواقع.

وبالرغم من عدم نجاحه في حياته، فقد انتشرت أفكاره كونفوشيوس بعد وفاته، وانتشرت المدارس في أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة "المعلم الأكبر"، وأصبحت أفكاره نواة لمنظومة دينية تقام لها المعابد والمعاهد، لا سيما في فترة الحروب الطاحنة التي عصفت بأقاليم الصين وممالكها الممزقة.

والمفارقة العجيبة أن أول من وحّد الصين ومنحها صفة الأمة والإمبراطورية الموحدة هو أشد الحكام عداءً لإرث كونفوشيوس، وهو تشين شي هوانغ -أو شي هوانغ دي- أول إمبراطور للصين، والذي اتخذت البلاد اسمها من اسمه.

في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، نجح تشين في تشكيل أقوى جيش بالمنطقة، ومن حسن حظه سقوط مملكة هان (التي نشأ فيها كونفوشيوس) في عصره، ثم تكبُّد دولة تشاو خسائر مؤلمة جراء زلزال مدمر، فانتهز تشين الفرصة في غزو كل الممالك وإسقاطها واحدة تلو الأخرى لتشكيل دولة الصين الكبرى.

كان تشين معروفًا بطغيانه وجبروته، ويقال إنه دفن مئات العلماء والفلاسفة أحياء، ورجم آخرين حتى الموت بمجرد مخالفتهم له. وبما أن الكونفوشية كانت مزدهرة في بعض الممالك التي أسقطها فقد عدّها تهديدا لسلطته، وأمر بإحراق كل الكتب التي لا تتوافق مع الفلسفة الوحيدة التي اعتمدها، وهي "القانونية"، إذ كان القانونيون يرون أن التاريخ يشهد بفشل أحلام كونفوشيوس في التعويل على اتخاذ الحكام قدوة، وعلى الفضائل التي يتمتع بها الشعب، وأصرّوا على أن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الحكام، وأن الناس يجب أن يرغموا على الطاعة حتى تصبح جزءا أصيلا من طبيعتهم.

وكما يقول ويل ديورانت في كتابه "قصة الحضارة"، فقد كُتب لفلسفة كونفوشيوس النصر آخر الأمر، فما إن انقضى عهد الإمبراطور الأول، وعهد أسرته قصير الأجل، حتى تربع على العرش أباطرة آخرون أعادوا للفيلسوف مجده الأول، وجعلوا حكمته أساسًا لبرامج التعليم والحكومة، ونقشوا أقواله على حجارة المعابد، واعتمدوا فلسفته دينًا رسميًا للدولة، فما يكاد اسم فيلسوف آخر يضاهي اسمه في الصين منذ ألفي سنة [1].

ويقول الدكتور وان هايمينغ، وهو أكاديمي صيني تلقى تعليمه في الولايات المتحدة، ربما لم يخطر على بال كونفوشيوس أن فلسفته ستتمتع بالاحترام من قبل حكام الصين منذ أسرة هان الملكية وحتى اليوم، وأن تأثيره سيمتد إلى البلدان المجاورة مثل الجزيرة الكورية وفيتنام واليابان، ثم ستصبح فلسفة عالمية تحظى بالقبول في الغرب [2].

القوة الصاعدة

في عام 1993، طرح المفكر الأميركي صامويل هنتنغتون نظريته "صراع الحضارات"، متسببًا بموجة كبيرة من الجدل حول العالم، حيث رأى أن الصراعات المقبلة ستكون بين الحضارات المتمايزة ثقافيًا ودينيًا وليس اقتصاديًا كما كان شائعًا في ظل العولمة. واعتبر أن أكثر الحضارات المرشحة للصدام مع الحضارة الغربية هي الحضارة الإسلامية، كما لم يغفل مخاوفه من الصدام مع الحضارتين الأرثوذكسية (الروسية) والصينية.

وبعد طرح تلك النظرية، ما زال الكثير من المنظّرين الإستراتيجيين يعتبرون الفضاء الثقافي الصيني Sinosphere كتلة متجانسة، كما يعتبرون الكونفوشية أحد أهم مكوناته. فمع أن الصين تنكّرت لتراثها ودينها وتبنت

(1) ويل ديورانت، قصة الحضارة، المجلد 1 الجزء 23، ص 1121.

(2) الأفكار الفلسفية الصينية، ص 17- 18.

الإلحاد الشيوعي منذ إعلان ماو تسي تونغ تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام 1949، لكن الصين الصاعدة اليوم بقوة أصبحت أكثر تصالحا مع هويتها الكونفوشية.

ومنذ أواخر سبعينات القرن العشرين، سمح الحزب الشيوعي الحاكم بإعادة الاعتبار للأديان، كما يواصل الرئيس الحالي شي جين بينغ سياسة التسامح مع الدين باعتباره مكوّنًا مهمًا من مكونات التاريخ والهوية، وأيضًا للاستفادة من دوره في ملء الفراغ الروحي والأخلاقي الناشئ عن النمو الاقتصادي المتسارع.

ويبدو أن هذا التسامح يلقى ترحيبًا من الشعب، إذ كشف استطلاع للرأي أجراه مركز بيو للأبحاث في عام 2020 أن 48.2% من سكان الصين يقرون باعتقادهم بأحد الأديان، وهي نسبة كبيرة في بلد يُعتقد أن الكثير من مواطنيه لا يجرؤون عن الإفصاح عن أفكارهم بحرية، ما يعني أن نسبة التدين والإيمان قد تكون أكبر بكثير.

وفي ظل هذا التغير، لم يكتف الحزب الشيوعي بالتخلي عن انتقادات مؤسسيه للتعاليم الكونفوشية. والذين رأوا فيه ممثلا للرجعية البورجوازية، بل أصبح الحزب نفسه اليوم حارسًا للتقاليد الكونفوشية. لا سيما أنها توفر له أساسًا متينًا لانضباط الشعب واحترام الزعيم، لذا أصبح من المألوف السماح ببناء المزيد من المعابد والمعاهد الكونفوشية، ورعاية المؤتمرات والمهرجانات، وحتى تقديم محاضرات لمسؤولي الحزب عن التعاليم الكونفوشية، في حين يعاني أتباع المسيحية والإسلام من القمع والتضييق.

واليوم، يدير الجهاز الحكومي "هانبان" -التابع لوزارة التربية والتعليم في الصين- حوالي 500 معهد وأكثر من ألف فصل كونفوشي في جامعات ومدارس حول العالم لتعليم اللغة والثقافة الصينية، إذ ما زال هذا الجهاز الذي تأسس

عام 1987 يتوسع تحت شعارات التفاهم المتبادل وتعزيز الصداقة مع شعوب العالم، بينما يراه المراقبون أحد أهم أدوات القوة الناعمة للسياسة الصينية (1).

وبعد نحو عقد ونصف العقد على نشر مجلة "فورين أفيرز" المقال الذي بشّر فيه هنتنغتون بنظريته -قبل أن يفرد لها كتابًا لاحقًا- نشرت المجلة نفسها في صيف 2017 مقالا للأستاذ بجامعة هارفارد غراهام أليسون، جدد فيه التأكيد على أن الصراع بين الغرب والصين سيكون ثقافيًا بالدرجة الأولى وليس اقتصاديا فحسب، ولفت الأنظار إلى المبدأ الكونفوشي الأول: "اعرف وطنك"، والذي تعتز به سلطة الصين اليوم لتوحيد صفوف شعبها من خلفها، في حين ينظر الشعب الأميركي -والغربي عمومًا- إلى الحكومة على أنها "شر لا بد منه" (2).

أضف إلى ذلك أن الكونفوشية تزرع في الفرد الصيني قيم التضحية من أجل المجتمع، ما يجعله مستعدًا للتنازل عن جزء كبير من حرياته وحقوقه في سبيل ضبط النظام ومنع الفوضى، بينما ينشأ الفرد الغربي على مفاهيم "الفردانية" والحرية الشخصية، ما ينذر بالمزيد من مخاوف تفكك المجتمعات الغربية.

لذا يرى المفكر الروسي ألكسندر دوغين أن قطب الصين الصاعد بقوة يستغل الماركسية الغربية، التي أعيدت صياغتها بشكل كبير في الماويّة، بحيث تنمو بشكل علني على نحو متزايد في الثقافة الكونفوشية، وتمنح رئيس الحزب

---

(1) "بإنشاء 500 من معاهد كونفوشيوس.. الصين تفتح بوابة عبور ثقافتها إلى العالم"، موقع arabic.cri.cn، 6 أغسطس 2015.

(2) Graham Allison, "China vs. America Managing the Next Clash of Civilizations", foreignaffairs.com, September/October 2017.

الشيوعي الصيني (زعيم البلاد نفسه) تفويضًا سماويًا لحكم "كل ما تحت السماء" باعتباره الإمبراطور التقليدي (تيانشيا) (1).

"لو لم يكن الإله موجودًا لوجب علينا اختراعه"، هكذا تكلم فولتير إبان الثورة الفرنسية التي تمردت على طغيان الكنيسة، إذ كان يرى أن الدين ضروري لضبط بوصلة المجتمع، وأن وجود الإله ضروري لتأسيس مفهوم العدالة. ويبدو أن عقودًا متطاولة من محاولات تكريس الإلحاد الشيوعي في الصين لم تنجح في استئصال هذه الضرورة، فحتى لو كان الدين مشوبًا بالأساطير والخرافات والأصول الغامضة، سيظل اعتناقه من قبل السلطة والشعب على السواء أفضل من الارتماء في هوة العدم، وأكثر قدرة على تعزيز الهوية والانتماء ومقارعة القوى الكبرى على انتزاع موقع الصدارة.

(1) ألكسندر دوغين، "سبع حضارات ستحكم النظام العالمي الجديد"، موقع الخنادق alkhanadeq.com، 1 سبتمبر 2023.

الشنتوية.. تراث أسطوري يحكي قصة اليابان من نشأتها حتى الاستسلام

كما هي حال الديانات الآسيوية الضاربة في عمق التاريخ، يتراكم تراث طويل من الأساطير والتقاليد لتشكيل "الشنتوية"، ديانة اليابان القومية وصانعة هويتها المميزة، التي ما زالت حاضرة في أروقة السياسة ونُصب الحروب ومراسم الزواج، وحتى أفلام الأنمي (1).

وبالرغم من اعتماد معظم اليابانيين العلمانية نمطًا لحياتهم، وليس منهجًا سياسيًا فحسب، فإن التراث الشنتوي ما زال حاضرًا في تفاصيل كثيرة، وقد يكون الابتعاد والاقتراب منه مؤشرًا لمعايير النجاح في شتى المجالات، لا سيما مع تصدر الحزب الليبرالي الديمقراطي (2) للمشهد السياسي منذ عقود، وهو الذي يحرص على إيجاد توليفة للجمع بين الليبرالية الغربية وإحياء الهوية الشنتوية للبلاد.

وقد يفاجأ القارئ بالاطلاع على تداخل الديانات في اليابان، فالإحصاءات تشير إلى أن عدد معتنقي الشنتوية يبلغ 160 مليونا، وأن عدد من يعدون أنفسهم بوذيين 96 مليونًا، مع أن إجمالي عدد السكان هو 125 مليون نسمة. وسبب وجود زيادة في عدد معتنقي الديانتين عن إجمالي عدد السكان هو

---

(1) يطلق مصطلح الأنمي على الرسوم المتحركة اليابانية التي تجذب ملايين المراهقين والشباب حول العالم، ولها طابع فني وثقافي يميزها عن مثيلاتها الغربية.

(2) هو حزب يميني قومي، واصل نجاحه في قيادة الحكومة لأكثر من خمسين عاما منذ عام 1955 وحتى عام 2009، كما عاد للحكم في السنوات الأخيرة، وفاز مجددًا في انتخابات صيف 2022.

الجمع بين الشنتوية والبوذية لدى كثير من اليابانيين، إذ لا يجدون أي مشكلة في دمج معتقداتهم بأديان من أصل غير قومي أيضًا.

ومن الشائع في اليابان الاحتفال بالأعياد الشنتوية والبوذية والمسيحية معًا، وقد تقام حفلات الزفاف في أحد المعابد أو الكنائس، كما يفضل كثيرون إقامة طقوس الدفن على الطريقة البوذية.

أصول تسبق التأريخ

مع أن الغموض يكتنف كل الديانات الآسيوية الباطنية (الغنوصية)، إلا أن الشنتوية قد تكون أكثرها غموضًا في نشأتها، إذ لا يُعرف حتى الآن مصدرها الأول، وقد تعود جذورها إلى التقاليد السحرية والوثنية في "فترة جومون"، التي تمتد إلى ما قبل التاريخ، ثم ترسخت في أثناء "فترة يايوئي" خلال القرن الأول قبل الميلاد مع ظهور زراعة الأرز في اليابان وبدء تشكل الحضارة.

ظلت العرّافات (الشامانات) متزعمات للكهنوت الديني في تلك الفترة من خلال اتصالهن "بالأرواح"، وبالأحرى شياطين الجن، وكانت لهن سلطة كبيرة في المجتمعات الزراعية، ثم تناقصت أدوارهن مع بدء توحيد البلاد لتشكيل نواة الدولة الجديدة في "فترة كوفون"، تحت سلطة سلالة الأباطرة "ياماتو" التي بدأ حكمها في القرن الرابع الميلادي وما زالت مستمرة حتى يومنا هذا.

ويرجع أصل تسمية فترة كوفون إلى الأكوام الكبيرة من التراب التي اتخذت أضرحة للقادة الكبار، التي كان طول بعضها يمتد إلى أكثر من 200 متر، على هيئة ثقب المغلاق، وكانت تحاط بأطباق لتقديم القرابين للآلهة.[1]

وفي القرن الميلادي الخامس، ومع تشكل الدولة واكتمال نضجها، وضع الكهنة طقوسا معقدة وطويلة لكل مراحل حياة الإنسان، من الولادة إلى البلوغ

---

(1) Tony Hoang, "Kofun Period", worldhistory.org, 23 March 2016.

ثم الزواج والوفاة. وفي هذه الفترة نفسها بدأ دخول البوذية عن طريق الاتصال بالحضارة الكورية، واندمجت بالشنتوية في سلسلة من حلقات التأثير بين الطرفين.

تعود أولى مراحل التدوين في اليابان إلى القرن السابع الميلادي، أي بعد دخول البوذية وتشكل الكثير من مظاهر الحضارة والدين، مما يعني صعوبة تخمين ما حدث في البدايات السابقة قبل ذلك. وتعد سجلات "كوجيكي" أقدم الكتابات اليابانية، وهي سابقة بقليل على مدونات "نيهون شوكي"، التي نتعرف منها على أسطورة نشأة بلاد اليابان، وعلى نسب العائلة الإمبراطورية. وكان هدف تدوين هذه الكتابات المبكرة وغيرها هو تسجيل أسبقية معتقدات الشنتوية ومدى توافقها مع البوذية الدخيلة (1).

آلهة غامضة وتاريخ مقدس

حسب الأسطورة الشنتوية، كان الكون في حالة غامضة من عدم التشكل والسكون، ثم تشكلت الجزيئات الأولية تلقائيًا. فتربع الضوء على قمة الكون، وتكثفت من تحته جزيئات المادة المظلمة. وبطريقة غير مفهومة، بدأ ظهور الأشكال الأولى من الآلهة، ولم يكن لها جنس محدد، وكانت تختبئ عند ولادتها، إلى أن ظهرت خمسة أزواج من الآلهة، كل منها مكون من إله ذكر وإلاهة أنثى.

وكان الإله "إيزاناغي" والإلاهة "إيزانامي" هما آخر الأزواج، وقد أوكلت لهما مهمة إنجاب العالم وخلق أرخبيل اليابان، فوقفا على جسر السماء العائم، وقذفا في المحيط رمحًا مرصّعًا بالجواهر، ثم رفعاه إلى السماء فتقاطرت منه قطرات أصبحت جزر اليابان "المقدسة". ومن خلال تزاوجهما الطبيعي، نتجت سلالة الجنس الياباني، أما إلاهة الشمس "أماتيراسو أومي كامي" فانبثقت من

(1) Tarō Sakamoto, The Six National Histories of Japan: Rikkokushi, John S. Brownlee, 1991, p. 40–42.

العين اليسرى للإله "إيزاناغي"، والتي نتجت عنها السلالة المقدسة لأباطرة اليابان.

تعتقد الأسطورة أيضا بوجود الأصل الباطني للوجود: "كامي". وهو مفهوم غامض تصعب ترجمته للغات الأخرى، ويشمل كل ما يتعلق بعالم الأرواح غير المادي. يرفض كهنة الشنتوية تعريفه بالإله أو الآلهة، فهو في اعتقادهم أكثر شمولا، إذ يطلق على كل تشكلات الآلهة وعلى أرواح القادة العظماء -وعلى رأسهم الأباطرة- كما يتمثل في كل قوى الطبيعة من جمادات وأشجار وحيوانات، ولا يمكن فهمه إلا من خلال معتقدات الحُلولية الغنوصية التي تضفي معنى روحيًا على الكثير من مظاهر الوجود(1).

وتربط الشنتوية بين كل ظاهرة وآلهة معينة، فأعداد الكامي لا يمكن حصرها، ويمكن لكل قرية أو عشيرة أو عائلة أن تحدد الكامي التي تريد عبادتها، فتقدم لها القرابين وتتوقع منها التكرم بالرزق والحماية. وفي العصر الحديث المتسم بالفردانية، يمكن لأي شخص أن يفترض وجود آلهته الخاصة حسب نمط حياته.

وبما أن الأباطرة يتربعون على قمة الهرم، فمن المتوقع اعتبار الكامي الخاصة بسلالتهم هي الأقدس والأشهر. وقد أدت الشنتوية دورًا جوهريًا في تشكيل ثقافة الانضباط بالمجتمع الياباني، بدءًا بإضفاء القداسة على البلاد نفسها، ثم على قادتها المنتسبين إلى الإلاهة الشمس.

ومن الجدير بالذكر أن الشنتوية ديانة عرقية مرتبطة بأرض اليابان، فهي لا تعنى بالتبشير، كما ينظر إليها اليابانيون على أنها شعائر وممارسات للاتصال بالكامي وليست وسيلة فلسفية لفهم العالم والوجود.

---

(1) Inue Nobutaka, "Perspectives toward Understanding the Concept of Kami", kokugakuin.ac.jp.

الأسطورة في خدمة السياسة

تقول سجلات "نهون شوكي" إن الإمبراطور جيمو أسس اليابان عام 660 قبل الميلاد، لكن كثيرًا من المؤرخين المعاصرين لا يقرون بوجود حقيقي له، ويرون أن الإمبراطور آنكو من القرن الخامس الميلادي، الذي يحتل المرتبة العشرين في السلالة، هو أول حاكم تاريخي لليابان، مع أنهم ليسوا متأكدين أيضًا من دقة تاريخه.

ومع أن الأصل الإلهي للملوك كان أسطورة شائعة حول العالم لإضفاء الشرعية على الحكم، لكن اليابان هي البلد الوحيد الذي احتفظ بأسطورته تلك، حتى بعد دخوله السريع في عالم الحداثة ولحاقه بالثورة الصناعية التي كانت مرادفة للعلمانية في الغرب.

ولعل تراجع العديد من الأباطرة عن التمسك الفعلي بمقاليد الحكم لعب دورًا في احتفاظهم بقداستهم، فمنذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي كان الشوغون (الحاكم العسكري لليابان) هو صاحب السلطة العليا، بحماية محاربي الساموراي، وظل هذا العرف سائدًا حتى نهاية فترة إيدو عام 1868، أي مع بدء التاريخ الحديث للبلاد الموافق لبداية فترة مييجي، وهي التي شهدت ما سمي بالإصلاحات السياسية والاقتصادية والإدارية المقتبسة من أوروبا، وما تبع ذلك أيضًا من اقتباس لأسباب النهضة العلمية والصناعية.

وفي عام 1924، جلس ولي العهد هيروهيتو على العرش الإمبراطوري، مبتدئًا أطول مدة حكم في تاريخ البلاد، ولعلها أيضًا الأكثر خطورة، ففي عهده اندلعت الحرب الصينية اليابانية الثانية عام 1937، وبعدها ببضع سنوات دخلت اليابان الحرب العالمية الثانية، ولم تخرج منها إلا بسقوط القنبلتين النوويتين الوحيدتين في التاريخ على اثنتين من كبرى مدنها، هيروشيما وناغازاكي.

وفي 15 أغسطس/آب 1945، بثت الإذاعة بلاغًا بصوت الإمبراطور هيروهيتو معلنًا إنهاء الحرب، وجاء فيه "بدأ العدو باستخدام قنبلة جديدة وأشد ضراوة، لا تحصى قدرتها على الأذى، وتسبب خسارة الكثير من الأرواح البريئة. إذا واصلنا الكفاح، لن يؤدي ذلك إلى انهيار الأمة اليابانية وطمسها في نهاية المطاف فحسب، بل سيؤدي أيضًا إلى الانقراض التام للحضارة الإنسانية."

ثم قال "في هذه الحال، كيف ننقذ الملايين من مواطنينا، أو نكفّر عن أنفسنا أمام الأرواح المقدسة لأسلافنا الإمبراطوريين؟ هذا هو السبب في قبولنا أحكام الإعلان المشترك لدول التحالف". ومنعًا للبس، أكدت الإذاعة أن اليابان قبلت "الاستسلام"، وهي لفظة لم ينطق بها الإمبراطور حفاظًا على الهيبة.

حرصت الولايات المتحدة على الاحتفاظ بما بقي من هيبة الإمبراطور، أملا في تحقيق السلام بعد الحرب، ولم يحمّله الإعلام الغربي المسؤولية التي أدت إلى شيطنة حليفيه، زعيمي ألمانيا وإيطاليا أدولف هتلر وبينيتو موسوليني، بل اعتُبر الإمبراطور بمثابة "رئيس صوري" أمام مجلس الوزراء والأوليغارشية العسكرية.



الإمبراطور هيروهيتو بجانب الجنرال الأميركي دوغلاس ماك أرثر بمقر السفارة الأميركية في طوكيو بعد الاستسلام

ومع ذلك، سقطت عن الإمبراطور آخر أوراق القداسة التي احتفظ بها أجداده طوال قرون، وأدرك شعبه أخيرًا أنه ليس سوى إنسان مثلهم، لا سيما بعد نشر صورته بجانب الجنرال الأميركي دوغلاس ماك آرثر في الشهر التالي للاستسلام، حيث بدا الإمبراطور بقامته القصيرة خاليًا من كل مظاهر الألوهية.

صراع الأسطورة والحداثة

كانت الهزيمة صدمة لليابانيين بكل المقاييس، وجاءت بعد صدمتهم الأولى بدخول بلادهم المسالِمة حقبة من الحروب والطمع في البلاد المحيطة، فلم يتخلصوا من عبئها إلا وهم ينفضون الغبار النووي عن الأنقاض.

وبينما كانت أوروبا المدمَّرة تكافح لإعادة الإعمار، والولايات المتحدة تحصد ثمار انتصارها بالتربع على صدارة العالم، تمكنت اليابان من حرق المراحل واستعادة أمجادها بسرعة، وحققت في ستينات وسبعينات القرن العشرين معجزة اقتصادية كادت أن تتغلب بها على الولايات المتحدة نفسها.

يرى بعض الباحثين أن الدستور الجديد، الذي اعتُمد عام 1947 في أعقاب الحرب، هو الذي مكّن اليابان أخيرًا من التخلص من عبء الثيوقراطية (الحكم الديني) الأسطورية التي أثقلت كاهلها، فمع أن الأباطرة "المقدسين" لم يستبدّوا بالحكم منذ ظهور الشوغون ومجالس الوزراء، إلا أن الدستور السابق كان يحفظ للأباطرة الحق الإلهي بالتشريع.

وتنص الفقرة رقم 20 من الدستور الحالي على أن "حرية الدين مضمونة للجميع. ولا يجب أن تحصل أي منظمة دينية على أي دعم مالي من الحكومة، أو أن تقوم بأي نشاط سياسي"، لكن الحكومات التالية حاولت تحقيق بعض التوازن، وأعادت إحياء تراث البلاد الديني من باب الحفاظ على الهوية، وقد لا يخلو الأمر من إثارة بعض الجدل.

ففي ربيع عام 2019، أقيمت مراسم تنصيب الإمبراطور ناروهيتو، إثر تخلي والده أكهيتو عن العرش لأسباب صحية، وفقًا للطقوس الشنتوية المعتادة. وبعد عدة شهور من بدء المراسم، أقيم طقس دايجوساي الذي يتضمن ارتداء الإمبراطور ملابس بيضاء، ثم الدخول إلى قاعة خشبية مظلمة لقضاء الليل برفقة إلاهة الشمس "أماتيراسو أوميكامي" التي ينحدر من نسلها،

كما تقول الأسطورة.

وفي العام التالي، رفع ناشطون ملحدون ومسيحيون دعاوى قضائية إلى القضاء الياباني، إذ رأوا أن هذه المراسم تنتهك الدستور العلماني، وتكلف الحكومة نحو 25 مليون دولار لتنفيذها[1].

وفي تحقيق أجراه معهد غالوب الدولي عام 2015، احتلت اليابان المرتبة الثانية -بعد الصين- في قائمة الابتعاد عن الإيمان، إذ قال 31% من اليابانيين إنهم ملحدون، بينما رأى 57% منهم أنهم بدون انتماء ديني[2]، ولا يتعارض ذلك مع الإحصاءات التي أوردناها في بداية هذا الفصل، فالياباني لا يجد حرجًا في اعتبار نفسه معتنقا الشنتوية أو البوذية، ثم يعلن أنه ملحد لا يؤمن بإله.

ولعل التعايش مع هذا التناقض هو الحل الوحيد الذي انتهى إليه اليابانيون، فاعتناقهم الشنتوية أو البوذية لا يتجاوز القيام ببعض الطقوس الاختيارية، طلبًا للبركة والهدوء النفسي، ولسد بعض الفراغ الروحي الناشئ عن نمط الحياة المادي، أما الأسئلة الوجودية فيحاولون التهرب منها بالمزيد من العمل والإنجاز المهني.

لا تقدم الشنتوية حلًا ناجعًا للقلق من الموت، فهي لا تتحدث عن البعث والخلاص، لذا يفضّل اليابانيون اعتماد الطقوس البوذية في جنائزهم، مع أنهم لا يجدون في النسخة المعدلة منها -وهي "بوذية الزِّن"- ما يشبع نهم الإنسان في البحث عن الخلود، إذ لا تتجاوز وعودها تحرر الروح من أسر التناسخ

---

(1) "مواطنون يقاضون حاكم «كيوتو» بسبب تنصيب الإمبراطور الياباني"، وكالة الأنباء الألمانية، 4 نوفمبر 2020.

(2) "Losing Our Religion? Two Thirds of People Still Claim to Be Religious", gallup-international.bg, 8 June 2015.

للاندماج بالروح الكلية للكون.

وبما أن الشنتوية لم تعد تحقق الكثير من الإنجازات، سواء على صعيد تقديم الأجوبة الفردية، أو ضبط العقد الاجتماعي، فمن المفهوم خلوّ معابد اليابان -التي يناهز عددها 80 ألفًا- من المصلّين، واقتصار أدوار كهنتها على تقديم البركة وأداء المراسم التقليدية واستقبال السياح.



الهندوسية.. خليط من الأساطير
يشق طريقه نحو الحداثة والتطرف في آن واحد

تعد الهندوسية ثالث الأديان الكبرى من حيث عدد الأتباع في العالم، إذ يزيد عددهم عن المليار، كما يعدّها مؤرخون أقدم ديانة حية حتى الآن، مع ما يشوب أصولها وعقائدها من غموض واضطراب، لكن ذلك لم يحُلْ دون ربطها بالقومية الهندية، لتصبح سلاحا بيد اليمين المتطرف، مع أنها من أدوات القوة الناعمة لعولمة الثقافة الهندية.

لا توجد رواية متفق عليها لأصل هذه الديانة؛ فالقوميون الهندوس يزعمون أن ديانتهم تعود إلى ما قبل نشأة الإنسان نفسه، وأنها نزلت على العرق الآري النبيل الذي كان يقطن الهند قبل آلاف السنين، لكن طيفا آخر من الهندوس، وكذلك المنشقون عنهم من البوذيين والجاينيين والسيخ، يعتقدون أن الهندوسية توليفة تجمع تراثا متراكما لمعتقدات وثنية وُجدت هناك قبل التاريخ.

ويرى هذا الفريق -الذي يدعمه معظم المؤرخين الغربيين- أن الروافد الأولى تشمل بقايا الوثنية الفيدية في العصر الحديدي بشمال الهند، الذي كان بدوره مركبا من أساطير ومعتقدات محلية، والثقافات الميزوليثية القادمة من الهضبة الإيرانية في العصر البرونزي، والتقاليد الدرافيدية في جنوب الهند [(1)].

وعندما هاجر الأريون إلى الهند حوالي عام 1500 قبل الميلاد، بدؤوا تشكيل الديانة التي نعرفها اليوم، كما كرّس الغزاة الأريون نظام العبودية الطبقي

(1) Bruce M. Sullivan, The A to Z of Hinduism, Rowman & Littlefield, 2001, p. 8- 15.

لإبقاء السكان الأصليين تحت السيطرة، واحتكروا لأنفسهم مناصب الكهانة، وربطوا هذه المنظومة الاجتماعية بالدين [1].

الكتب المقدسة

يميز رجال الدين الهندوس بين نوعين من الكتب المقدسة: الأول يدعى "شروتي"، وهو الذي يعتقدون أنه وحي منزل، ويشمل الفيدات والأوبانيشاد، ويرجح المؤرخون أن تاريخ الشروتي يعود إلى الفترة بين عامي 1500 و300 قبل الميلاد [2].

وتعدّ الفيدات أقدم مجموعة من الترانيم والأساطير باللغة السنسكريتية (التي تعني الكاملة المقدسة)، وهي لغة الآريين، وكان أول هذه النصوص وأهمها "ريغ فيدا"، ثم تأتي نصوص سامافيدا (أغاني تتلى خلال الصلوات)، وياجورفيدا (عبارات نثرية تتلى عند تقديم القرابين) وأتهَرفافيدا (طلاسم سحرية)، وتشكل هذه الكتب الأربعة الضخمة "الفيدات" التي يعتقدون أنها وحي تلقاه الكهنة الأوائل.

أما الأوبانيشاد فتعني "الجلوس على مقربة"، وتطلق على نصوص مقدسة سرية تناقلها الكهنة الأوائل، وأُلحقت بالفيدات.

ويدعى النوع الثاني من الكتب المقدسة "سمريتي"، وتعني المنقول أو المتُذكَّر، ويعتقد الهندوس أنها تقوم على الوحي لكن الكهنة هم الذين كتبوها بأسلوبهم.

---

(1) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص 34 وما بعدها.

(2) كيم نوت، الهندوسية: مقدمة قصيرة جدًا، ترجمة: أميرة الصادق، مكتبة هنداوي، 2022، ص 25 وما بعدها.

وتتوزع السمريتي على ثلاثة أصناف من الكتب: أولها الملاحم، وتتضمن "بهاغافاد غيتا" و"رامايانا"، ويرجع تاريخها إلى ما بين عامي 500 قبل الميلاد و100 بعد الميلاد، وتدور قصصها حول الملوك والمحاربين العظماء.

أما الصنف الثاني فهو السوترات التي كُتبت في الفترة نفسها، وتتضمن الدارما واليوغا والفيدانتا ومانو سمريتي، وتشمل مواضيعها الحِكم والمواعظ والتشريعات. وأما الثالث فهو البورانا، وهي نصوص ظهرت بين القرنين الرابع والعاشر الميلاديين، وتتناول أساطير عن الآلهة.

وتسمى المرحلة التي ظهرت فيها كتب الشروتي الفترة الفيدية، أما الفترة التالية التي ظهرت فيها نصوص السمريتي، أي قبل الميلاد بنحو خمسة قرون، فهي المرحلة الكلاسيكية، إذ بدأ فيها انتشار الملاحم والبورانات، بهدف نشر العقيدة الأساسية بين القبائل الأمية التي لم تكن منخرطة في الطقوس التي يحتكرها الكهنة الآريون.

وفي بداية هذه المرحلة كان بوذا بدأ نشر دعوته، التي انبثقت أصلا عن الهندوسية ولم تتقيد بأساطيرها وآلهتها، وتبنى الإمبراطور الهندي أشوكا في القرن 3 قبل الميلاد مهمة نشر البوذية على أوسع نطاق، لكن الهندوسية عادت إلى الانتشار لاحقًا حتى صارت لها اليد العليا في الهند بدءًا من القرن الثامن الميلادي.

طيف واسع

مع تراكم النصوص والأساطير على مر القرون، أصبحت الهندوسية مظلة واسعة لمجموعة من الطوائف والمذاهب التي تبدو متناقضة في مواضع عدة، وقد يفاجأ البعض عندما يرى تحت هذه المظلة من يؤمن بالتوحيد والتثليث وتعدد الآلهة والإلحاد في آن واحد.

ويقول المؤرخ جون كولر في كتاب "الفكر الشرقي القديم" إنه من الصعب تتبع تاريخ الهندوسية لأنه يتسم بالغموض في ما يتعلق بالأسماء والتواريخ

والأماكن؛ فالهندوسية تركز على العقائد والمبادئ أكثر من أي شيء آخر، لكن ترتيب أولويات العقائد يبدو مختلفا عن الأديان الأخرى [1].

فالعوامل المشتركة لدى جميع الهندوس هي الإيمان بالفيدات، والاعتقاد بفكرة تناسخ الأرواح ومرور الكون بدورات الخلق والانحلال، أما الإيمان بالآلهة وعبادتها، سواء بالمحبة أو الخوف، فلا يعد هذا شرطا جوهريا لبقاء الهندي هندوسيا.

وهكذا يصبح كل هندي يعتقد بالتناسخ -على أقل تقدير- ويحترم قوميّته، ولا يعتنق دينًا آخر؛ داخلا في حكم الهندوس، حتى لو كان علمانيًا ملحدًا.

الألوهية والخلق

تنص كتب الشروتي على الإيمان بإله واحد متعال، مجرد عن التجسد، لا صورة له، قدّوس، يهدي عباده ويغفر ذنوبهم. ومع ذلك، نجد في هذه الكتب أيضًا أوصافًا أخرى لمصدر أولي للكون يدعى براهمان، وهو كائن غامض انبثقت عنه الآلهة الأخرى وبقية الموجودات بطريقة الفيض.

وتقوم الميثولوجيا الهندوسية على ثلاث آلهة رئيسة انبثقت عن براهمان: أولها براهما، وهو الخالق ومانح الحياة، والثاني فيشنو إله الحياة والرحمة والحب، والثالث شيفا إله الفناء والموت والدمار [2].



تمثال ضخم يمثل شيفا في معبد بمدينة مرديشوار الهندية

(1) الفكر الشرقي القديم، ص 33.

(2) الهندوسية: مقدمة قصيرة جدًا، ص 61-72.

ويقول المؤرخ البريطاني ويل ديورانت في كتابه "قصة الحضارة" عن آلهة الهندوس "تزدحم بهم مقبرة العظماء في الهند، ولو أحصينا أسماء تلك الآلهة لتطلب ذلك منا مئة مجلد، وبعضها أقرب في طبيعته للملائكة، وبعضها هو ما قد نسميه نحن الشياطين، والبعض الآخر أجرام سماوية" (1). وهكذا يطلق الهندوس على طيف واسع من الكائنات وصف الألوهية، بما يشمل بعض الحيوانات، حتى يبلغ عددها مئات الملايين، كما تخصص بعض المذاهب والطوائف آلهة معينة بالعبادة دون غيرها.

وعندما يتعلق الأمر بالإله فيشنو، فهو يتشكل في صور متعددة تسمى "أفاتارا"، وتنص البورانا على تسجيل عشر صور مؤكدة منها، ومنها بعض الحيوانات كالسمكة والأسد والسلحفاة، ومنها شخصيات تاريخية مثل الملك راما الذي كان بطلا لإحدى الملاحم، وكذلك بوذا، وسيتجسد أيضا في صورة الفارس "كالكي" راكبا على حصان أبيض، وهو المخلّص الذي سيظهر في آخر عصر الظلام.

وتعد الروح "أتمان" بمثابة الذات الحقيقية لكل فرد، وهي حقيقة خالدة تحل في الكون كله، وثمة خلاف بين المذاهب الهندوسية بين وصفها بالحقيقة المطلقة للإله براهمان أو منفصلة عنه.

وتكتسب الأصنام والأيقونات قداستها من التأملات التي يمارسها النحات، ومن المعايير الهندسية المنصوص عليها في الكتب المقدسة، وكذلك من الطقوس التي يقوم بها الكهنة عند تنصيبها، فتحلّ فيها الطاقة الحيوية (برانا) ويتجلى من خلالها الإله، حسب معتقدهم. لذا يجب على الأتباع تقديس هذه الأصنام وتبجيلها ومنحها الحب، وقد يحجّون إليها بالمسير آلاف الأميال لنيل البركة والتواصل المباشر مع الآلهة.

---

(1) ويل ديوارنت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود ومحمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد 2 الجزء 3، ص 27.

أما تقديس الهندوس للبقرة فلم يبدأ إلا بعد كتابة نصوص السمريتي [1]، حيث رُبطت بإلهة الرخاء "شري"، وعُدت كل أعضائها مقدسة، وكل ما يخرج من جسدها -سواء كان حليبًا أو روثًا- طاهرًا ومباركًا، بل يحمل صفات علاجية، وتطور الأمر في القرن التاسع عشر عندما أصبح تقديس البقرة علامة فارقة للهندوس، فعدوا كل من يقصّر في تمجيدها دخيلًا، أما من يجرؤ على إيذائها - فضلًا عن ذبحها- فقد يُعاقب بالقتل.



بقرتان في أحد شوارع مدينة مومباي الهندية

طبقية حتمية

ينص الكتاب المقدس "ريغ فيدا" على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات بناء على أسطورة الخلق، إذ أقنع واضعو هذه الأسطورة -من الآريين- الشعب بأن

(1) "Sanctity of the Cow", britannica.com.

براهما خلق كل فئة على هيئة مسبقة، فلا يمكن تجاوزها ولا التمرد عليها، بل ينبغي لكل فرد أن يبذل جهده للقيام بواجباته الدنيوية وإرضاء الآلهة، طمعا في أن تعود روحه بعد الموت إلى إنسان آخر في طبقة أفضل حظا [1].

وأعلى هذه الطبقات طبقة البراهمة التي تضم رجال الدين الذين انبثقوا من فم الإله، ثم تأتي طبقة الكاشاتريا، وهم الأمراء والفرسان الذين خرجوا من ذراعيه، ثم طبقة الفيشيا، التي تضم عامة المجتمع الذين خرجوا من فخذيه، وأخيرا طبقة الشودرا التي تضم المنبوذين الذين خرجوا من قدميه، فهؤلاء يُحكم عليهم بالبقاء مدى الحياة في أدنى المجتمع، وينحصر دورهم في القيام بالمهن التي يأنف منها الآخرون مثل التنظيف وحفر القبور.

وإلى جانب الطبقة (فارنا) هناك أيضا الطائفة (جاتي)، ففي التقسيم الطائفي يعاد تنظيم المجتمع أيضا حسب الطُّهر النسبي؛ فالكهنة البرهميون في القمة، والمنبوذون في القاع، وهم في حُكم الأنجاس الذين يخشى الآخرون الاحتكاك بهم كي لا يصيبهم الدنس. ويكتسب كل مولود طائفته أيضا منذ ولادته، فيتزوج امرأة من الطائفة نفسها ويعمل في المهن المتاحة لها.

تنص الكتب المقدسة أيضا على احترام "الدارما"، وهي تعني الواجب أو القانون، فمن خلال إدراك كل فرد الطبقة أو الطائفة التي وُلد فيها، ينبغي أن يلتزم بالدارما الخاصة به.

ويتولى رجل الدين "البرهمن" مهمة الحفاظ على تناغم العالم من خلال انضباط الأفراد والمجتمع عموما بالدارما، كما يقوم البرهمن بتقديم القرابين للآلهة التماسا منها للحفاظ على التناغم.

ولتحقيق هذه الغاية، يمنح الكهنة المولود الذكر الجديد صفة "المولود مرتين" ما لم يكن من طبقة الشودرا، وعندما يبلغ سن الزواج يربطون بينه

---

(1) الهندوسية: مقدمة قصيرة جدًا، ص 54 وما بعدها.

وبين زوجته، كما يقومون بطقوس أخرى عند وفاته لضمان عودة روحه بسلام ضمن سلسلة التناسخ (سامسارا).

دورة الحياة

لا تكتمل دورة التناسخ "سامسارا" إلا بناءً على قواعد "الكارما"، وهو مصطلح يُترجم على أنه قانون القدَر القائم على التناسب بين السبب والمسبب، أو بين الفعل ورد الفعل، ويمكن أن نعبر عنه بقاعدة "كما تدين تُدان"؛ فالكون -وفقا للهندوسية- يحمل في ذاته آليّة الكارما التلقائية، بحيث يتلقى كل فرد جزاءه وفقا لأفعاله.

وعندما يموت، تتولى الكارما مهمة الفرز لتحديد الطبقة والطائفة التي سيعاد بعثه فيها من جديد. وعندما أراد بوذا في القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد إيجاد طريق الخلاص للخروج من بؤس الحياة استند إلى قاعدة الكارما نفسها.

وبما أن الإله والكون والإنسان جوهر واحد في الأسطورة الهندوسية، فهناك قنوات للاتصال يمكن تنشيطها عبر شحذ الطاقة الروحية للإنسان، ومن خلال التأمل وممارسة طقوس اليوغا يصبح بمقدور الروح (أتمان) أن ترتقي وتتصل ببقية الكائنات، وصولا إلى بلوغ درجة الألوهية نفسها، وليس الاتحاد بالإله فقط، وهذه هي حالة الموكشا الهندوسية، والتي تقابلها النرفانا البوذية[1].

وفي مذهب التانترا الهندوسي، تستهدف ممارسة اليوغا اقتباس الطاقة "برانا" من الكون للوصول إلى اتحاد جنسي مع الإلهة الأنثى "شاكتي"، ويتطلب ذلك تلاوة تعاويذ شيطانية، والتأمل في مخططات ورسوم رمزية تدعى "ماندالا".

---

(1) سارة عيسى المحمود، إشكالية النفس في الفكر الهندوسي، رسالة ماجستير في جامعة دمشق، 2018، ص 28- 33.

وحفظت لنا بعض المعابد من القرن العاشر الميلادي منحوتات تجسد هذه الممارسات لاستنزال تلك الطاقة السحرية، وهي مقبولة لدى طائفة من البوذيين أيضًا.

ما بين الحكم الإسلامي والحداثة

منذ عصر التابعين في القرن السابع الميلادي، تشكلت مجتمعات مسلمة صغيرة في الهند نتيجةً للاحتكاك التجاري، ثم بدأ التغلغل الإسلامي في شمال الهند بداية القرن الحادي عشر على يد محمود الغزنوي حاكم الدولة الغزنوية التركية، وتوسع الحكم الإسلامي في عصر مغول الهند بدءًا بالقرن السادس عشر ليسيطر على معظم أنحاء شبه القارة الهندية.

شابت مرحلة الحكم الإسلامي في بعض فتراتها الكثير من الشوائب، من طبقية واضطهاد وقلاقل سياسية، ومع ذلك اعتنق ملايين الهنود الدين الجديد، حتى قرر سلطان مغول الهند جلال الدين أكبر في القرن السادس عشر إنشاء "الدين الإلهي" على أسس صوفية، والذي كان بمثابة دين تلفيقي، أساسه الإسلام ويقتبس من الهندوسية والأديان الأخرى، فلم يُكتب لمشروعه الانتشار.

وفي منتصف القرن التاسع عشر، بدأ الاستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية على أنقاض الإمبراطورية الإسلامية، وحرص الاستعمار على تطبيق سياسة "فرّق تسُدْ" من خلال إثارة النعرات الطائفية، وتحريض الهندوس على المسلمين، كما نجحت سياسة التقسيم في فصل بنغلاديش وباكستان ومناطق أخرى عن بقية الهند، كي لا تبقى في الهند سوى أقلية من المسلمين، لا تكاد نسبتها تزيد اليوم على 15% فقط.

وحاول الأوروبيون -من برتغاليين وإنجليز- إدخال الهندوس في المسيحية، لكن جهود التبشير لم تفلح كثيرا، ونشأت بدلًا من ذلك دعوات إصلاحية من

داخل الهندوسية، ومن أهمها مشروع الكاهن البرهمي رام موهان روي في القرن الثامن عشر، الذي رفض النظام الطائفي الطبقي، وطالب بوقف عادة حرق الأرامل، ودعا إلى تعليم النساء، حتى أصبحت جمعيته "براهمو ساماج" منبرا لنشر هذه الأفكار [1].

في عام 1886، ومع وفاة البرهمي سري راما كريشنا، أسس تلاميذه رسميا نظام "راما كريشنا" على أسس التانترا، وفي أواخر القرن التاسع عشر حمل تلميذه سوامي فيفيكاناندا هذه التعاليم إلى نيويورك ليؤسس هناك جمعية فيدانتا، التي كانت نواة لنشر فلسفة الهندوسية واليوغا في الغرب [2].

ومع أن فيفيكاناندا توفي في بداية الأربعينات من عمره فإن نشاطه الكبير ترك بصمة مهمة في الغرب، إذ نجح في لفت الأنظار إلى الهندوسية بمشاركته في برلمان الأديان العالمي في شيكاغو عام 1893، وتمكن من خلال ارتقائه السريع في النظام الماسوني من وضع الهندوسية في صلب تعاليم الجمعيات السرية ومنظمات الثيوصوفيا الباطنية وحركة العصر الجديد التي انتشرت بقوة في الغرب منذ منتصف القرن العشرين.



صورة سوامي فيفيكاناندا أثناء مشاركته في برلمان الأديان في شيكاغو وقد كتب على الصورة بخط يده: "واحد لا نهائي الطهارة والقداسة، أسمى من العقل والصفات، أنحني إجلالًا لك".

---

(1) الهندوسية: مقدمة قصيرة جدًا، ص 76- 80.

(2) Ninian Smart, The World's Religions, Cambridge, 1998, p.409.

ونتيجة لهذا التداخل والاندماج، اقتحمت أفكار الكارما والتناسخ الثقافة الشعبية في أميركا وأوروبا، كما يتواصل انتشار اليوغا الذي يُروَّج له في صورة لا تتعارض مع العلمانية، حتى أقرت الأمم المتحدة عام 2014 الاحتفال باليوم العالمي لليوغا في 21 يونيو/حزيران من كل عام، مع أنه طقس ديني خاص بديانة لا تقبل العولمة [1].

الهندوسية السياسية

كان مهاتما غاندي قد وجد في القومية الهندوسية إرثًا مقدسًا يجمع الأتباع حوله بعد جلاء الاحتلال البريطاني، لكن محاولاته التحديثية لم ترُق لطوائف من الهندوس المتشددين الذين اعتبروه علمانيًا وخائنًا، وبعد خمس محاولات لاغتياله، لقي مصرعه في المحاولة السادسة على يد أحد الهندوس مطلع عام 1948، فاتجهت الأنظار بقوة نحو خطر التطرف الهندوسي الصاعد.

كانت الحركة القومية تحمل حلم "النهضة الهندوسية" منذ القرن 19، وكان زعماؤها يتحالفون مع المستعمر الإنجليزي للقضاء على نفوذ المسلمين، بهدف إنشاء دولة هندوسية بعد الاستقلال، وهم يرون أن الهندوس هم أبناء الهند الحقيقيون، وأن على الفئات الأخرى مثل المسلمين والمسيحيين أن يقبلوا بالعيش بصفتهم مواطنين من الدرجة الثانية، بحيث لا يُسمح لهم بالاقتراب من دوائر السياسة.

ومنذ نحو قرن، تتصدر مليشيات "راشتريا سوايامسيفاك سانغ" (RSS) الجماعات الهندوسية القومية، وهي تدرّب أتباعها على حمل السلاح، وتطالب بإعادة بقية الهنود إلى ديانتهم الوثنية الأصلية، بحجّة أن انتقال الملايين منهم

---

(1) "اليوم العالمي لليوغا"، موقع الأمم المتحدة un.org.

للإسلام والمسيحية قبل قرون كان قسريًا، وأنه لا يمكن للهندي إلا أن يكون هندوسيًا [1].

تعتمد هذه الحركات على أفكار الناشط السياسي فيناياك دامودار سافاركار، الذي ابتكر فلسفة "الهندوتفا" في عشرينات القرن العشرين، معتبرا أن "الهند للهندوس"، وأنه يجب أيضا إعادة تشكيل الهندوسية نفسها، بوصف أن الهند أرض مقدّسة، وهي الموطن الأصلي للآريين، فهُم السكان الأصليون وليسوا غزاة أو فاتحين [2].

وفي أواخر الثلاثينات، استلهم الفيلسوف المتطرف مادهاف ساداشيف من النازية فكرة الحل النهائي لتعامل الهند مع المسلمين والمسيحيين، وتبنى مادهاف ساداشيف غولووكر هذه الإستراتيجية مع تزعمه لجماعة "آر إس إس" المسلحة، وظلت الجماعة تنشر إرهابها إلى أن اضطرت الحكومة لحظرها بعد اغتيال غاندي، لكنها كانت تعود إلى العمل عبر جماعات أخرى ناشئة.

وفي مطلع الخمسينات، تأسس حزب "جانا سانغ" المتطرف، وكان يُنظر إليه على أنه الذراع السياسية لجماعة "آر إس إس" (RSS)، وظل يناهض سياسات حزب المؤتمر الوطني الحاكم على مدى ثلاثة عقود، إلى أن نشأ على أنقاضه حزب "بهاراتيا جاناتا" في بداية الثمانينات، الذي صعد بقوة في الانتخابات مستغلا الفتنة الطائفية التي اندلعت أثناء المطالبة بهدم مسجد بابري الأثري في مدينة أيوديا بولاية أوتار براديش، على اعتبار أنه بُني في موقع

(1) فاطمة بن حمد، "الهند: من هم عناصر الر.س.س القوميون الهندوس المتهمون بارتكاب العنف والإهانة ضد المسلمين؟"، موقع observers.france24.com، 3 مارس 2020.

(2) Eviane Leidig, Hindutva as a variant of right-wing extremism, Patterns of Prejudice, Volume 54, 2020 - Issue 3, p. 215- 237.

ولادة الملك راما، الذي كان أحد تجسّدات الإله فيشنو، مما يعني ضرورة استعادة المكان وإقامة معبد فيه [1].

وفي أواخر عام 1992، نجح المتشددون الهندوس -بالتعاون مع حزب بهاراتيا جاناتا- في حشد نحو 150 ألف شخص، وتمكنوا بالفعل من هدم المسجد بأدوات يدوية، رغم احتشاد قوّات الأمن، فازدادت بذلك شعبية الحزب المتطرف.

وبعد عشر سنوات، اندلعت أعمال شغب بولاية غوجارات وذهب ضحيتها مئات القتلى من المسلمين، وأشارت أصابع الاتهام داخليا ودوليا إلى حاكم الولاية آنذاك ناريندرا مودي بتأجيج العنف وإفساح المجال للمتطرفين الهندوس بارتكاب المذبحة، ومنع الشرطة من التدخل لمدة ثلاثة أيام، لا سيما أن مودي ينتمي للحزب المتطرف نفسه [2].

قاطعت دول الغرب حكومة غوجارات، ومنعت الولايات المتحدة مودي من دخول أراضيها عام 2005 بسبب الاتهامات الموجهة له، لكنه نجح في صناعة صورته الإعلامية مستغلا مواقع التواصل وصعود الخطاب المتشدد، حتى فوجئ العالم بفوزه في انتخابات عام 2014 ليتولى منصب رئاسة وزراء الهند، ويزيح حزبُه المتطرف حزبَ المؤتمر الوطني الذي حكم الهند منذ عام 1947.

وبإعلان الفوز طُويت صفحة مذبحة غوجارات، وأعلن الرئيس الأميركي آنذاك باراك أوباما أنه سيتواصل مع مودي لتقوية العلاقات الثنائية، كما جمعت مودي بالرئيس اللاحق دونالد ترامب علاقة قوية، أما العلاقة مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو فكانت أقرب إلى الصداقة الشخصية، لا

---

(1) "مسجد بابري: القضاء الهندي يبرئ زعماء بالحزب الحاكم في قضية هدمه"، موقع بي بي سي عربي، 30 سبتمبر 2020.

(2) "ولاية غوجارات الهندية.. تاريخ من التطهير العرقي ضد المسلمين"، الجزيرة نت، 6 مارس 2023.

سيما مع إعلان القوميين الهندوس أنهم يجدون في الحركة الصهيونية تجربة ملهمة (1).



ناريندرا مودي يتجه لإلقاء خطاب للأمة في القلعة الحمراء بمناسبة عيد الاستقلال في صيف عام 2021

وبالرغم من التنديد الغربي المتواصل بالاضطهاد الذي تمارسه حكومة الصين ضد المسلمين من أقلية الإيغور، فإن سياسات التمييز والاستئصال التي تمارسها حكومة مودي ضد مسلمي الهند لا تكاد تلقى أي تنديد يذكر، بل لا تثير سياساته اليمينية وتكريسه لصورة الحاكم الفردي الشمولي أي انتقاد معتبر في الأوساط السياسية الليبرالية، فهو يحظى بمكانة مهمة في التحالفات الغربية الرامية إلى احتواء الصين، وإلى منع صعود أي قوة إسلامية في المنطقة.

وفي مطلع عام 2023، انتزعت الهند من الصين لقب أكثر الدول سكانًا في العالم، حيث أكدت منظمة "World Population Review" أن عدد

(1) Sumit Ganguly, "Modi Walks a Political Tightrope with Israel", foreignpolicy.com, 18 MAY 2021.

سكان الهند بلغ 1.423 مليار نسمة، مقابل 1.411 مليار شخص في الصين، كما توقعت أن ينمو عدد سكان الهند بشكل مطرد حتى عام 2050 ليصل إلى 1.688 مليار شخص، في مقابل انكماش سكان الصين إلى 1.317 مليار (1).

ويقدر عدد المسلمين في الهند بنحو 210 ملايين فقط، كما يتوقع مركز بيو للأبحاث أن عددهم سيصبح 311 مليونًا بحلول عام 2050 (2). أي أن نسبتهم الحالية إلى مجمل السكان تقدر بنحو 6.7%، وستهبط في 2050 إلى 5.4%، ومع ذلك يواصل المتطرفون الهندوس -بما فيهم أعضاء الحزب الحاكم- نشر الشائعات والمعلومات المضللة عن "انفجار ديمغرافي" وشيك، محذرين من وجود مؤامرة إسلامية لتحقيق التفوق العددي للمسلمين في الهند (3)، ما يدفع حركات قومية متطرفة مثل "باجرانغ دال" إلى حشد أنصارها للتظاهر في الشوارع والمطالبة بقوانين تحد من تزايد عدد المسلمين.

فعلى سبيل المثال، قالت وزيرة المالية الهندية نيرمالا سيترامان -وهي من الحزب الحاكم- أثناء مشاركتها في منتدى دولي في أبريل 2023 إن الهند لديها ثاني أكبر عدد من المسلمين في العالم، وإن النمو السكاني في البلاد يقتصر على المسلمين وحدهم، لكن الخبراء ردّوا على هذه الدعاية المتطرفة بأنه لا يمكن أن يتجاوز عدد المسلمين عدد الهندوس خلال الألف سنة المقبلة (4).

(1) "في ظل تراجع الصين.. الهند تصبح الأكثر سكانا في العالم"، وكالة الأناضول، 19 يناير 2023.

(2) "هجوم ديموغرافي مضاد.. لماذا ينشر مؤثرون هندوس بيانات مضللة عن عدد المسلمين في الهند؟"، الجزيرة نت، 2 مايو 2023.

(3) المرجع السابق.

(4) "مظاهرة هندوسية تطالب بقانون يحد من تزايد عدد المسلمين الهنود"، الجزيرة نت، 17 يوليو 2023.

السيخية.. ديانة هندية
نشأت على التلفيق وتحلم بالاستقلال

تعود جذور الديانة السيخية إلى منطقة البنجاب (شمال غرب شبه القارة الهندية)، وتشكلت هويتها وتعاليمها بتقلبات الأوضاع الاجتماعية والسياسية هناك؛ فمنذ نشأتها قبل خمسة قرون واجهت صعوبات مع حكام مغول الهند المسلمين، ونجحت أخيرًا في تشكيل دولتها المستقلة فترة قصيرة قبل أن تنهار على يد البريطانيين. وبينما تعيش أغلبية السيخ في شمال الهند اليوم، فإن جالياتهم تحظى بنفوذ اقتصادي وسياسي لافت في الغرب.

كانت البداية على يد الشاب الهندوسي "ناناك" الذي ولد عام 1469 في بلدة سميت لاحقًا "ناناك صاحب"، قرب مدينة لاهور الواقعة داخل باكستان اليوم، التي كانت آنذاك تابعة لسلطنة دلهي الإسلامية، تحت حكم السلالة الغوريّة[1].

كانت نشأة ناناك في عائلة من طبقة الفيشيا، وهي الطبقة الثالثة وقبل الأخيرة في التسلسل الهرمي الهندوسي، التي يمتهن أبناؤها التجارة والوظائف البسيطة والمهن اليدوية.

انتقل ناناك في سن 16 إلى مدينة سلطانبور (شمال الهند) لمتابعة العمل في وظيفة والده، وهي المحاسبة، مما ساعده على الاحتكاك بالمزيد من المسلمين والتعرف على الإسلام من باب التصوف، كما عُرف عنه الاهتمام بالإنشاد الديني وكتابة الشعر.

---

(1) William Hewat McLeod, "Guru Nanak", britannica.com.

وفي سن الثلاثين -كما تقول بعض الروايات- بدأ ناناك الدعوة إلى ديانته الجديدة، محاولًا إيجاد حالة تجمع بين الهندوسية والإسلام معًا، فأطلق على نفسه لقب "غورو" الذي يقصد به في الهندوسية المعلم أو الإمام، وسمّى أتباعه "السيخ" أي التلاميذ (1).

وبما أنه لم يترك كتبًا تشرح رسالته بوضوح، فقد نُقلت أناشيده شفويًا حتى دُونت في بداية القرن 17، مما يلقي بظلال من الشكوك على أصالة تعاليمه وتفاصيل حياته الخاصة، لا سيما بعد اختلاطها ببعض الأساطير.

يروي بعض أتباع ناناك قصصًا عن رحلاته إلى مناطق بعيدة للتبشير بدعوته، بدءًا بالتيبت والبنغال شرقا، ومرورا ببغداد وأذربيجان والقدس ومكة المكرمة، حتى وصل إلى الفاتيكان في أقصى الغرب، لكن بعض هذه الروايات لا تحظى بتأييد كبير من المؤرخين.

توفي ناناك عام 1539 بمدينة كارتاربور، عن عمر ناهز 70 عامًا، وتقول الأسطورة إن أتباعه من الهندوس والمسلمين تنازعوا على جذب الغطاء الذي كان يغطي جثته، ففوجئوا باختفائها وظهور كومة من الزهور (2).



رسم تخيلي للمؤسس ناناك على جدار أحد المعابد

---

(1) Pritpal Singh Bindra, Guru Kian Sakhian: Tales of the Sikh Gurus, p. 75- 82.

(2) "Guru Nanak", southasia.ucla.edu.

أهم التعاليم

قد تبدو السيخية محاولة إصلاحية نشأت داخل الهندوسية، لكنها تختلف عن أصلها الهندوسي في بعض القواعد، وهي أقرب إلى الهندوسية من الإسلام، بالرغم من محاولات مؤسسها لإيجاد صيغة توافقية ملفقة بين الديانتين.

ومن أهم الأسس التي أقام عليها ناناك ديانته هو التوحيد، إذ رفض التعددية (الشركية) الهندوسية، وحاول إقناع أتباعه بأن الإله الهندوسي "فشنو" هو نفسه الإله الواحد الذي يعبده المسلمون، مبيّنًا أنه إله مجرد لا يقبل التجسد ولا يدركه العقل، ولا يليق التقرب إليه بالأصنام والصور [1].

ونظرًا لميوله الصوفية الغنوصية، احتفظ ناناك بعقيدة وحدة الوجود الهندوسية، ورأى أن غاية البشر هي التقرب من الإله للاتحاد به.

تتشابه السيخية مع الهندوسية أيضًا في أهم مبادئها، وهو تناسخ الأرواح. وكما يسعى الهندوسي إلى كسر حلقة التناسخ بعد الموت عبر الالتزام بالتعاليم وممارسة اليوغا، وذلك للوصول إلى مرحلة الانعتاق الروحي (موكشا)، يسعى السيخي أيضًا إلى الخلاص وكسر دورة التناسخ بالالتزام بتعاليم دينه، ولكن الهدف الأسمى لديه هو تكريس النفس للإله.

وعندما يتعلق الأمر بمعنى الحياة، تبدو السيخية قريبة نسبيًا من الإسلام، إذ تعتقد أن الأنانية والغضب والجشع والتعلق والشهوة هي "اللصوص الخمسة" التي تشتت الانتباه، وعلى الإنسان أن يدرك أن العالم الذي يعيش فيه بمثابة "وهم مؤقت" أو غير واقعي، لأن اللذات التي يحصل عليها لا تحقق سوى إشباع عابر يصرفه عن التقرب من الإله، والحل يكمن في تكريس النفس لإرضاء الإله بدلا من الانغماس في الشهوات.

---

(1) W. H. McLeod, The Sikhs: History, Religion, and Society, New York: Columbia University Press, 1989, p. 15- 22.

ومع ذلك، تبدو السيخية متوازنة وبعيدة عن التقشف المبالغ فيه، فهي تحرم الرهبنة، وتطالب أتباعها بالسعي لطلب الرزق، وتنهاهم عن السلبية والتقاعس (1).

وعلى الصعيد الاجتماعي، تنص السيخية على المساواة بين الرجل والمرأة في المعاملات، ويُحسب لها النص على إلغاء الطبقية الهندوسية والمساواة بين جميع البشر، مع أن التطبيق العملي لهذه التعاليم ما زال بعيدًا عن المأمول حتى الآن.

ومن اللافت أن كثيرًا من التعاليم المتبعة اليوم وُضعت بعد وفاة ناناك، إذ عهد في آخر حياته إلى الغورو أنغاد لخلافته، على أساس أن سلسلة المعلمين الذين سيتوارثون قيادة الطائفة مؤهلون لاقتباس الحكمة وتطوير هذا الدين الجديد، وكان أنغاد أول شخص يكتب في السيخية، مما يجعل كتاباته بمثابة النص الأولي للأتباع.

التطورات السياسية

ارتبط تطور السيخية ارتباطًا وثيقًا بما عاصرته من أحداث واضطرابات سياسية؛ ففي حياة المؤسس ناناك سيطر المغول المسلمون على دلهي وانتزعوها من سلالة اللوديين، وذلك تحديدا عام 1526، ثم توسع نفوذهم للسيطرة على معظم شمال الهند بعد وفاة ناناك، وازدادت بذلك حدة التوتر بين الحكام المسلمين وبين شريحة من الهندوس والسيخ.

وفي منتصف القرن السادس عشر، أسس المعلم الرابع غورو رامداس المدينة المقدسة للسيخ في البنجاب باسم رامداسبور، التي تسمى اليوم

(1) W. H. McLeod, Guru Nanak and the Sikh Religion, Oxford: Clarendon Press, 1968, p. 22-30.

أمريتسار، وتقع حاليًا في الطرف الهندي للبنجاب، وعلى مقربة من الحدود الباكستانية [1].

وبوفاة رامداس، تولى ابنه الغورو أرجان قيادة الطائفة، ويعد أهم معلميها بعد ناناك، فهو الذي جمع تعاليم السيخ لأول مرة في "الكتاب المقدس" (آدي غرانث)، وأسس المعبد الذهبي الذي يعد حتى اليوم المعبد الأكثر قداسة لدى السيخ، والأهم من ذلك أنه وضع أسس تشكيل سلطة جديدة للطائفة.

تعرض السيخ في عصر أرجان للاضطهاد من الحكام المغول، فبدأ تسليح أتباعه، مما دفع السلطان جهانكير -الذي يعد المؤسس الحقيقي لإمبراطورية المغول- لاعتقاله. وتقول المصادر السيخية إنه تعرض للتعذيب عدة أيام حتى وفاته عام 1606 عن 43 سنة؛ مما يجعله شهيدًا مقدسًا لدى السيخ حتى اليوم [2].

أحدث مقتل أرجان نقلة نوعية في مسار تطور الديانة الناشئة، إذ تخلى المعلمون اللاحقون عن مبادئ المحبة والسلام، وتأججت الروح القتالية لدى الأتباع في عصر الغورو الخامس هارغوبيند الذي بدأ تشكيل جيش سيخي للانتقام لمقتل والده أرجان، وكان يتقلد سيفين يرمزان للعالمين الروحي والزمني، وهما اللذان أصبحا رمزا للسيخ فيما بعد.

خاض جيش هارغوبيند أربعة حروب ضد المغول، وظلّت الحرب سجالًا بين الطرفين، إذ صمد السيخ طويلا بالرغم من خسائرهم الكبيرة، وهدأ التوتر في عصر المعلمين التاليين هار راي وهار كريشنا، إلى أن جاء الغورو التاسع تيغ بهادور الذي كان محاربًا جلدًا، ووقع أسيرًا في قبضة الإمبراطور المغولي محيي الدين أورنغزيب.

---

(1) W.H. McLeod, Textual Sources for the Study of Sikhism, University of Chicago Press, 1990, p. 28— 29.

(2) "Arjan, Sikh Guru", Encyclopædia Britannica, britannica.com.

يعد أورنغزيب آخر سلاطين مغول الهند العظماء، وكان سياسيًا محنكًا أتقن استمالة الهندوس بتوليتهم مناصب عليا في الجيش والحكومة، فنجح في فرض الهوية الإسلامية على أنحاء الهند، وكان لا يتهاون في معاقبة المسلمين الذين استمالتهم الهندوسية في بعض المناطق، كما اتخذ سياسة صارمة في التصدي للسيخ وفرض عليهم الجزية.

تقول بعض المصادر إن أورنغزيب حاول إجبار الغورو تيغ بهادور على اعتناق الإسلام تحت الضغط والتعذيب، وعندما رفض الأخير الانصياع كان مصيره الإعدام بتهمة التمرد، ليكون ثاني المعلمين "الشهداء" في تاريخ السيخ، وخلَفه من بعده المعلم العاشر والأخير غورو غوبيند سينغ.

أضاف غوبيند سينغ تعديلات جديدة على الديانة السيخية؛ ففي عام 1699 ابتكر مفهوم "خالصة" (1)، المقتبس عن المصطلح العربي، وهو نظام للحياة يقوم على صفاء القلب والعقل، وعلى الاستعداد الدائم لمحاربة الظلم، وأصبح الرجال السيخ الذين يتم تعميدهم وفقا لهذا النظام يتخذون لقب "سينغ" أي الأسد، إذ ما زال هذا اللقب شائعًا بين السيخ حتى اليوم.



وضع غوبيند سينغ أيضًا القواعد الخمس التي يجب على الرجال السيخ الالتزام بها، وجميعها تبدأ بحرف الكاف باللغة البنجابية، وهي "كيسا" أي إطالة شعر الرأس واللحية للرجال مع وضع العمامة، و"كنغاها" وهي حمل

---

(1) "Khalsa, Sikhism", Encyclopædia Britannica, britannica.com.

مشط دائما لتصفيف الشعر، و"كاشا" التي تعني لبس سروال متسع ينتهي تحت الركبتين، و"كارا" وهي اتخاذ سوار فولاذي حول المعصم، وأخيرا "كيربان" التي تلزم السيخي بحمل خنجر فولاذي للتحلي والحماية من أعدائه غير السيخ.

ومن أهم إنجازاته، وضع غوبيند سينغ الصورة النهائية "للكتاب المقدس"، فأضاف إلى "آدي غرانث" ملحقًا آخر سمي "غورو غرانث صاحب"، معلنًا أن هذا الكتاب سيكون هو المعلم الحادي عشر والأبدي للسيخ. وما زالوا يعظّمون هذا الكتاب حتى اليوم، فيحتفظون به تحت مظلة على منصة مرتفعة، ويخلعون أحذيتهم في وجوده.

من الإمبراطورية إلى التقسيم

مع وفاة السلطان أورنغزيب عام 1707، بدأت شمس مغول الهند بالأفول، لينتهز السيخ الفرصة بإعادة تنظيم صفوفهم وتوسيع مجال نفوذهم في مساحات الانحسار، فشنّوا حملات ضد فلول المغول وضد الأفغان في الغرب، ونجحوا في تأسيس ولايات متحالفة فيما بينها، تمهيدًا للاستقلال.

وبعد قرن على وضع نظام "خالصة"، نجح رانجيت سينغ في توحيد السيخ تحت سلطته وتأسيس أول إمبراطورية سيخية، واتخذ لنفسه لقب مهراجا، باسطًا سلطته على مناطق واسعة من البنجاب وكشمير ولداخ وبيشاور، كما اعتنق العديد من الفلاحين المسلمين والهندوس في تلك المناطق الديانة السيخية المهيمنة[1].

تشير التقديرات إلى أن نسبة السيخ من سكان الإمبراطورية لم تكن تزيد على 15%، فالأغلبية كانوا من المسلمين، بجانب أقلية صغيرة من الهندوس؛ لذا انتهج الحكام السيخ سياسة الانفتاح على رعاياهم، ومنحوا المسلمين مناصب مهمة في الدولة.

---

(1) Ranjit Singh, "Maharaja, Sikh Cyber Museum", Sikhcybermuseum.org.uk, Marc 2016.

وعندما بدأ البريطانيون احتلال الهند في القرن التاسع عشر، حرص السيخ على مهادنتهم وعدم الاصطدام بهم، كما حرص البريطانيون على تقييد النفوذ السيخي عند حدود نهر ستليج الذي شكل خط الحدود بين الدولتين.

وبعد وفاة رانجيت سينغ عام 1839، وقعت مملكته الناشئة في الفوضى، وتوتر الوضع عند الحدود مع البريطانيين، فاندلعت أول حرب بين الطرفين عام 1845، وخلال بضع سنوات تم حلّ الدولة السيخية وانهار حلم الاستقلال.

ومع كل ما سبق، نجحت السياسة البريطانية في استمالة السيخ إلى جانبها، وتكثفت حركة تجنيد السيخ من البنجاب في الجيش الهندي البريطاني، حتى أصبحوا قوة ضاربة طيلة 90 عامًا التالية من حكم الراج البريطاني في الهند، وكان لهم دور في قمع حركات التمرد الوطنية ضد الاحتلال.



شعار السيخية مكون من سيف ذي حدين وسلاح الشاكرام الدائري وخنجرين

وبعد قرن على انهيار الدولة السيخية، استقلت شبه القارة الهندية عن الاحتلال البريطاني، وبدأت مرحلة أخرى من الاضطرابات بتقسيم البلاد بين الهند وباكستان، فكانت البنجاب الواقعة بينهما من أكثر المناطق تضررا، إذ

اضطر ملايين السيخ والهندوس والمسلمين للانتقال بين طرفي الحدود، وانتهى الأمر باستقرار أغلب السيخ في الجزء الهندي من البنجاب.

طالب السيخ منذ استقلال الهند عام 1947 بدولة خاصة بهم تحت مسمى "خالصتان"، وتأسست لذلك حركة سياسية باسم حركة سوبا البنجابية، وبعد عقدين من المحاولات وافقت الحكومة الهندية على وضع البنجاب ضمن منطقة شانديغار ومنحها صفة المنطقة الاتحادية التي تدار مركزيًا، لكن ذلك لم يكن كافيًا، حيث طالب قادة السيخ في عام 1973 بحكم ذاتي، ولكن من دون جدوى.

خلال عقد السبعينات، نشط بعض قادة السيخ في باكستان والولايات المتحدة وبريطانيا للفت الأنظار إلى قضيتهم، وفي عام 1980تأسس "مجلس خالصتان" في لندن، وبدأت بذلك بعض المناوشات الطائفية بين الهندوس والسيخ في الهند، مما دفع الحكومة إلى إطلاق عملية أمنية باسم "النجم الأزرق"، تضمنت بإرسال قوات عسكرية للقضاء على التمرد في يونيو 1984 [1]، وانتهت باقتحام المعبد الذهبي المقدس في مدينة أمريتسار بالبنجاب ومقتل المئات من المسلحين والمدنيين وعناصر الجيش.

وفي أواخر أكتوبر/تشرين الأول 1984، صُدم العالم بنبأ اغتيال رئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي، التي كانت أول امرأة تشغل هذا المنصب في تاريخ الهند، إذ لقيت مصرعها على يد اثنين من حراسها الشخصيين السيخ انتقامًا لطائفتهم.

أدى حادث الاغتيال إلى تجدد العنف الطائفي بين السيخ والهندوس، فقُتل خلال الأيام التالية ما يزيد على ثلاثة آلاف من السيخ، معظمهم في أحياء

(1) Karishma Mehrotra, "India sees signs of renewed Sikh separatism and sounds the alarm", washingtonpost.com, 16 April 2023.

السيخ بالعاصمة نيودلهي، بينما فرّ نحو 20 ألفًا من المدينة. ولم تشهد المحاكمات بعد ذلك إلا حكمًا واحدًا بإعدام أحد القتلة الهندوس لتورطه في قتل السيخ، ثم حدثت في أواخر عام 2018 -أي بعد 34 عامًا من التأخير- أول إدانة رفيعة المستوى للمتورطين في المجازر باعتقال النائب في البرلمان ساجان كومار، الذي حكمت عليه محكمة نيودلهي العليا بالسجن مدى الحياة(1).



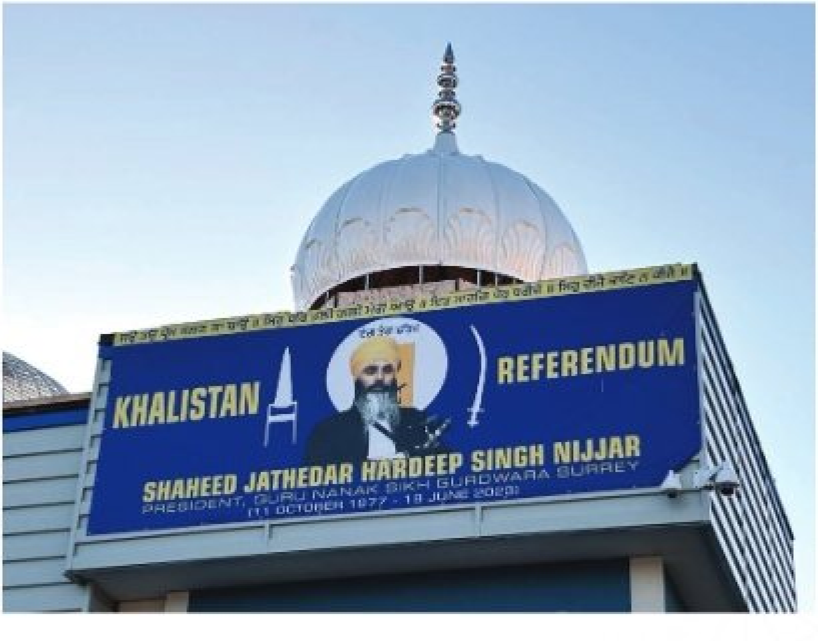
المعبد الذهبي في أمريتسار

هدأ التوتر بعد المجازر الدامية، حيث توالت الخلافات الداخلية بين الانفصاليين، كما تجددت المفاوضات مع الحكومة لإيجاد حل سياسي. وفي بداية تسعينات القرن العشرين تجددت محاولات التمرد التي واجهتها قوات الأمن الهندية بالقوة، وتزايد في الوقت نفسه نشاط الانفصاليين في الخارج.

(1) "1984 anti-Sikh riots: Sajjan Kumar convicted! HC reverses acquittal, hands life term to Congress leader", financialexpress.com, 17 December 2018.

ومنذ ذلك الوقت، يتواصل خروج المظاهرات المطالبة بتأسيس "خالصتان" في بعض المدن الأميركية والكندية والأوروبية وسط تنديد الحكومة الهندية.

في 18 يونيو 2023، قُتل رجل الدين السيخي هارديب سينغ نيجار بالرصاص أمام المعبد الذي كان يقوده في ضواحي مدينة فانكوفر الكندية، ووُجهت اتهامات غير رسمية للمخابرات الهندية بقتله بعدما فشلت في محاولات تسليمه لنيودلهي، حيث كانت تتهمه بتدبير عمليات قتل مستهدفة في الهند[1]. وأدى اغتياله إلى مظاهرات حاشدة في كندا واندلاع أزمة دبلوماسية بين البلدين، كما حاول أنصاره إشعال النار في القنصلية الهندية بمدينة سان فرانسيسكو الأميركية.



لوحة تحمل صورة نيجار وشعار خالصتان على المعبد الذي كان يقوده في كندا (بعدسة المؤلف)

---

(1) Anirudh Bhattacharyya, "Canadian police frees Khalistani 'separatist' Hardeep Nijjar after 24 hours in custody", Hindustan Times, 27 April 2018.

نجاح في الغرب

يبلغ عدد السيخ في العالم اليوم نحو 35 مليونًا [1]، معظمهم في الهند، في حين تتوزع كبرى الجاليات بين الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا، إلى جانب أقليات صغيرة في أنحاء العالم، أما عددهم في باكستان فيُعتقد أنه يقترب من 790 ألفًا [2].

يحظى السيخ في بعض الدول الغربية بنفوذ لافت، لا سيما مع تمتعهم بوضع اقتصادي جيد، الأمر الذي يمكن نسبته جزئيًا إلى تعاليم ناناك المشجعة على السعي والكسب بدل التقشف.

كما أدت ثقافة التكاتف والانغلاق التي تراكمت خلال قرون من الصراع مع المغول إلى احتفاظ الجاليات السيخية بقدر مهم من الانضباط والتعاون، الأمر الذي يبدو جليًا في ضخامة معابدهم ببعض المدن الأميركية والأوروبية، والتفاف أبناء الجالية حول الجمعيات الثقافية الخاصة بهم.

وإلى جانب التكاتف بين أبناء هذه الجاليات، ينجح العديد من أبنائها في ارتقاء سلم النجاح الاقتصادي والسياسي؛ ففي كندا -على سبيل المثال- نجح 20 سيخيًا في الانتخابات البرلمانية عام 2015، ثم أصبح أربعة من هؤلاء النواب السيخ وزراء في حكومة رئيس الوزراء جاستن ترودو، وهو عدد يزيد على عدد الوزراء السيخ في الهند [3].

---

(1) "Sikhs in Wolverhampton celebrate 550 years of Guru Nanak", BBC News, 12 November 2019.

(2) "Pakistan's dwindling Sikh community wants improved security", The Dawn, Pakistan, 17 April 2017.

(3) "Sikhism in Canada", en.wikipedia.org.

ومن أبرز هؤلاء الوزراء هارجيت سينغ ساجان الذي تولى منصب وزير الدفاع الكندي منذ 2015 وحتى 2021، وذلك بعد خدمته الطويلة في صفوف الشرطة والاستخبارات والجيش، وظلّ ملتزمًا بعمامته السيخية طوال تلك الخدمة.

أما المحامي الكندي جاغميت سينغ، فنجح عام 2017 في تولي رئاسة الحزب الديمقراطي الجديد، ودخل في عام 2021 سباق الانتخابات على رئاسة وزراء كندا، مع التزامه أيضًا بمظهره الديني الذي يشمل إطالة اللحية وارتداء العمامة.

من جانب آخر، تنظر الحكومة الهندية بعين الريبة للجالية السيخية في الشتات، وتضغط على بعض الحكومات الغربية لمحاولة احتواء الانفصاليين منها، كما تتكرر كثيرًا أحداث الصدام بين السيخ والهندوس في المدن الغربية ولا سيما أثناء تظاهر السيخ للمطالبة بدولة "خالصتان".

البوذية.. فلسفة إلحادية روحية
نشأت في الهيمالايا واندمجت في الحداثة

تعدّ البوذية من كبرى الديانات الرئيسية عالميًا، إذ تحتل المرتبة الرابعة من حيث عدد الأتباع، وهي تحظى بانتشار متزايد في الغرب لتوافُقها مع العلمانية، لكن قصة نشوئها وأساطيرها محفوفة بالغموض، ومبادئها في اللاعنف لا تصمد كثيرًا أمام إغراءات السياسة.

نشأت البوذية في شمالي الهند على يد شاب يدعى سِدهارتا غوتاما، والذي ولُد في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، ولأسرة أرستقراطية هندوسية، فكان والده زعيمًا لقبيلة شاكيا التي تستوطن سفوح الهيمالايا داخل حدود نيبال اليوم.

وتقول الأسطورة إن والدته تلقّت في المنام نبوءة أثناء حملها بأنه سيكون ذا شأن عظيم، وعند ولادته لاحظ والده علامات في جسده تتوافق مع النبوءة، فكان مؤهلا لأن يكون إما حكيمًا أو مِلكًا عظيمًا، لذا حرِص والده على تدريبه تدريبًا عسكريًا مميزًا، مع إغراقه منذ طفولته بكل متطلبات الحياة الرغيدة، كي يصرفه عن الاحتمال الأول (1).

وبحسب الأسطورة، كان سدهارتا ذكيًا وفضوليًا وعميق التفكير، وبدا أنه أكثر اهتمامًا بفهم الكون من القضايا السياسية والعسكرية. وبعدما بلغ سن الشباب وتزوج وأنجب طفلا، خرج أربع مرات من قصور والده في جولات بالعربة، فالتقى بالمهمّشين الذين يكابدون الحياة ويعانون من الأمراض، كما التقى بجنازة أحد الموتى، وكان يعود إلى قصره في كل مرة ليتأمل في طبيعة

(1) داميان كيون، البوذية: مقدمة قصيرة جدًا، ترجمة صفية مختار، مكتبة هنداوي، ص 29 وما بعدها.

الحياة، حتى رأى في المرة الأخيرة ناسكا متسوّلا، فقرر أن يختار لنفسه هذا الطريق، وكانت تلك هي بداية تحقق النبوءة التي حاول والده إبطالها [1].

غادر سدهارتا القصر ليبدأ طريق البحث عن معنى الحياة، وتلقى مبادئ التأمل من بعض النساك، فسبق كل المعلمين في بلوغ حالات الاستغراق التي يغيب فيها الوعي، ثم أخذ يجرّب التقشف في حدوده القصوى، فكبَح كل شهوات جسده، واكتفى بملعقة طعام كل يوم، حتى شارف على الهلاك، فاقتنع أخيرا بضرورة اختيار "الطريق الوسطي" بين التقشف والرفاه [2].

وفي أحد الليالي، وبينما كان يمارس عادة التأمل تحت شجرة تين، اكتشف حالة اليقظة الكاملة التي كان يسعى إليها (التنوير)، والتي أطلق عليها "النيرفانا"، فيقال إنه رأى سلسلة الحيَوات السابقة التي كان يعيشها، ثم اكتسب بصيرة خارقة كشفت له رؤية ميلاد ووفاة كل الكائنات، وقبل طلوع الشمس، تلقى معرفة تؤكد له أن قد تخلص من كل ما يدنّس روحه ومن كل شهوات جسده إلى الأبد.

تقول الأسطورة إن سدهارتا ظل يفكر سبعة أسابيع فيما يفعله بعد ذلك، ثم ألهمه أحد الآلهة بأن تعليم الناس هو الخيار الأمثل، فانطلق ليبشّر بما تلقاه من "تنوير"، وقد أصبح اسمه بوذا أي المستنير، وسرعان ما آمن به خمسة من أصدقائه ليشكلوا أول نواة للرهبنة، ثم اتسعت دائرة الأتباع ممن نجحوا في تكرار تجربة بوذا، لكن اللقب ظل حكرا عليه لكونه المكتشف الذي تلقاه بنفسه وليس تعليما من أحد.

---

(1) أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، ص 140- 142.

(2) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص 183 وما بعدها.

ويقال إنه ظل ينشر تعاليمه في رحلاته بشمال الهند، حتى مات في سن الثمانين، وهو في أقصى حالاته التأملية، ودخل بذلك حالة "النيرفانا" الخالدة [1].

ويجدر بالذكر أن سيرة حياة بوذا ليست مؤكدة، بل يشكك كثير من الباحثين في وجوده التاريخي، فالقصة ظلت متداولة شفويًا ضمن أناشيد متوارثة يصعب التحقق من دقتها، وأقدم مدوّناتها المؤكدة هو "قانون بالي" الذي كُتب في سريلانكا في القرن الميلادي الأول، وهناك نظريات كثيرة عن إقحام الأساطير في القصة الأصلية، كما يرى البعض أن سدهارتا كان نبيًّا يتلقى الوحي من السماء قبل أن تُحرف رسالته، وهي دعوى لا يمكن التحقق منها أيضًا.

دين أم فلسفة؟

يحتل هذا السؤال صدارة النقاش عند التطرق للبوذية، فلو أخذنا بأبسط تعريف للدين وهو الإيمان بالخالق وعبادته، فالبوذية لن تكون دينا، إذ تُنكر وجود إله خالق، بالرغم من إيمانها -كالهندوسية- بوجود عدد هائل من الآلهة.

لذا يعتمد بعض الباحثين على نظرية الأسكتلندي نينيان سمارت التي تحلل الدين إلى سبعة أبعاد رئيسة [2]، وهي البعد العملي الشعائري، والبعد العاطفي الشعوري، والبعد القصصي، والبعض العقائدي الفلسفي، والبعد الأخلاقي التشريعي، والبعد الاجتماعي المؤسسي، وأخيرًا البعد المادي. وعند تطبيق هذه المعايير على البوذية، يمكننا دراستها على أنها دين متكامل الأركان.

---

(1) البوذية: مقدمة قصيرة جدًا، ص 40.

(2) شرح سمارت هذه النظرية في كتابه "ظاهرة الدين" The Phenomenon of Religion الصادر عام 1973.



تمثال كبير لبوذا في أحد معابد تايلاند

أهم التعاليم

في أول خطبة لبوذا، والتي تعد نقطة انطلاق هذه الديانة، تحدَّث عن أربعة حقائق نبيلة [1]؛ لتُشكل أركان الدين الجديد، الأولى هي "المُعاناة"، وتعني ضرورة فهم قيام الحياة الإنسانية على مبدأ المعاناة المتواصلة، منذ الولادة وحتى الممات.

والحقيقة الثانية هي "أصل المعاناة"، ومعناها أن الانسياق وراء الشهوات هو أصل المعاناة، وأن الجهل بهذه الحقيقة يولِّد الشهوانية والحقد والوهم، ثم تتولد عن هذه الأصول كل الرذائل.

والحقيقة الثالثة هي "إيقاف المعاناة"، والتي تؤكد إمكانية كبح الشهوات، ومن ثم القضاء الكلي عليها.

أما الحقيقة الرابعة فهي "الطريق الذي يؤدي إلى إيقاف المعاناة"، وهو مؤلف من ثمان مراحل، ويسمى بالدرب الثماني النبيل، وهي مصنفة بدورها داخل ثلاث فئات: فالفئة الأولى هي الحكمة التي تشمل الرؤية الصحيحة والعزم الصحيح، والثانية هي فئة الأخلاق التي تضم الكلام الصحيح والسلوك الصحيح والعيش الصحيح، وأخيرا فئة التأمل التي تشمل الجهد الصحيح والوعي الصحيح والتأمل الصحيح [2].

وبالنتيجة، يعتقد البوذيون أن من يلتزم بهذه التعاليم سيصل إلى مقام العصمة عن الخطأ والتخلص التام من الشهوات، وهذه غاية لا نجدها لدى الأديان الأخرى، فحتى الأنبياء والملائكة لا يبلغونها في اليهودية والمسيحية.

---

(1) البوذية: مقدمة قصيرة جدًا، ص 59 وما بعدها.

(2) الفكر الشرقي القديم، ص 188 وما بعدها.

الكارما والتناسخ

تعد "الكارما" من أهم عناصر العقيدة البوذية، ويمكن تلخيصها بأن كل ما يفعله الكائن الحي (إنسان أو حيوان) لا بد أن تترتب عليه عواقب، وهي تتوالد وتنمو إلى أن تنضج لتسقط على صاحبها، فيكون جزاؤه إما ثواب أو عقاب.

وبما أن العُمر قد يقصُر عن اكتمال دورة العدالة، فتأتي أسطورة تناسخ الأرواح لسدّ هذه الثغرة، إذ يتحتم على الكائن أن يُبعث مرة أخرى في جسد جديد لينال الجزاء الذي يستحقه.

ويعمل نظام الكارما وفق قانون طبيعي مستقل، فهو لا يخضع لإرادة إلهية، وهو نظام صارم ومتعدد الأوجه، فقد تتحدد من خلاله كل صفات الإنسان كالجمال والذكاء والعمر والثراء والمركز الاجتماعي، إذ يعتقد البوذي أن أي نقص يعتري حياته هو عقوبة لأخطائه التي ارتكبها عندما كان يعيش حياة سابقة لا يذكُر منها شيئا، والعكس بالعكس أيضا.

وقد تؤدي سلسلة التناسخ إلى أقصى درجات الانتكاس أو الارتقاء، فربما يعود في حياته التالية إلى جسد حيوان عقوبة له، أو يُكافأ على امتثاله للتعاليم الصارمة بأن يُبعث بعد موته على هيئة إحدى الآلهة، فيخرج بذلك من سلسلة التناسخ[1].

من الجحيم إلى الجنة

تُقسِّم البوذية الوجود إلى ستة عوالم، ومع أنها مصنفة طبقيا إلا أنها تُصوَّر في ترتيب دائري داخل "عجلة الحياة" لأن الكائنات تدور بينها صعودا وهبوطا، وهذه العوالم مقسمة إلى درجات يصل مجموعها إلى 31 قسما.

نجد في الطبقة السفلى عالم الحجيم، وهو الذي تهبط إليه الكائنات الشريرة لتنال عقابها، وفيه من أشكال العذاب ما نجده تقريبا في وصف

---

(1) البوذية: مقدمة قصيرة جدًا، ص 43- 50.

الجحيم لدى الأديان السماوية، وفوقه يوجد عالم الحيوانات، والذي يخشى البوذيون أن يولدوا فيه أيضا حتى لو كان خاليا من التعذيب، ثم يأتي عالم الأشباح التعيسة، وهم يطوفون حول عالمنا البشري ويتلقون عقابهم في السجن بانتظار الخلاص. أما العالم الرابع فهو عالم الجبابرة (الشياطين) الذين يعشقون الحروب ويعيشون أسرى لنزعات العنف.

في العالم الخامس يعيش البشر، وقد يولد فيه الإنسان مرة أخرى ليعيش في جسد جديد، مع اختلافات كبيرة في تفاصيل حياته وفقا لمنظومة الثواب والعقاب على ما اقترفه في الحياة السابقة.

أما العوالم التالية، من السادس وحتى الواحد والثلاثين، فهي منازل الآلهة (ديفا)، وهم ليسوا سوى أشخاص مثلنا أعيدت ولادتهم في ذاك العالم غير المادي بطبقاته الستة والعشرين، جزاءً على امتثالهم لتعاليم بوذا والتزامهم بالفضيلة، وقد تُعاد ولادة من يصل إلى هناك أيضا وينزل إلى العالم البشري، باستثناء من يصل إلى الجنات الخمس العليا فهي خاصة بغير العائدين، أي الذين لن يعودوا إلى أجساد بشرية.

ويعتقد البوذيون أن بوذا وصل إلى المستوى الواحد والثلاثين عندما بلغ حالة اليقظة التامة "الاستنارة" (النيرفانا) تحت شجرة التين وهو في سن الخامسة والثلاثين، ثم انتقل إليه ليخلد فيه عندما مات في الثمانين، أي أن بلوغ هذه الدرجة عبر تطبيق طريق الثماني والتأمل هو أمر ممكن في هذه الحياة. ولكن في تجارب مؤقتة فقط، ثم بعد الموت يحدث الانتقال النهائي إلى هذا العالم الخالد، في حالة ذهنية تتلاشى فيها فكرة العدم، وتُعرف باسم "الإدراك واللاإدراك"(1).

(1) Steven Collins. Selfless Persons: Imagery and thought in Theravada Buddhism. Cambridge University Press. 1990, p. 80- 85.

ويجدر بالذكر أن بوذا رفض المفهوم الهندوسي للإله (براهمان) وللروح (أتمان)، إذ كانت الهندوسية تؤمن بأن براهمان هو المُطلق الميتافيزيقي الذي انبثق عنه الكون، ولكنه ليس إلهًا مريدًا كما في الأديان السماوية، وأن أتمان هي الجزء الذي انبثق من براهمان وحلّ في جسد كل كائن حي. لكن بوذا اعتبر أن الكائن الحي مكوّن من جسد وأحاسيس ومعارف وطبائع ووعي، ولم يؤمن بوجود الروح، فالتناسخ ليس انتقالا للروح بل إعادة تشكل.

تأليه بوذا

بعد رحيل بوذا بدأ الانقسام بين أتباعه، وظهرت طائفتان كبيرتان، ثم تشتتت كل منهما إلى طوائف أصغر سرعان ما اندثر معظمهما، إلى أن أصبحت طائفة الماهايانا هي الأكثر انتشارا، والتي تشكلت في غضون القرن الميلادي الأول قبل الميلاد.

ظهر داخل الماهايانا مبدأ "البوديساتفا" (1)، وهو لقب يطلق على الشخص الذي يتعهد بالعمل على مدار كل حيواته المتتالية على أن يقود الآخرين إلى النيرفانا، فانطلق بذلك دعاة البوذية للتبشير بها، وبرز فيها كهنة كبار، ثم ظهرت فكرة انتظار المخلّص الآخر الذي سيظهر في نهاية العصر الحالي، واسمه مايتريا، ليعيد دعوة الناس إلى التنوير كما فعل بوذا من قبل.

نشأت أيضا مفاهيم جديدة حول مصير بوذا، فاعتقد البعض أنه لم يرحل إلى العالم العلوي ويتركهم بدون تواصل، بل انتقل إلى عالم سماوي ليعمل على منح السعادة للكائنات، وهكذا أصبح شبيهًا بالإله الذي يتقربون منه بالصلوات وتقديم القرابين (2).

---

(1) Jonathan A. Silk, "Bodhisattva", britannica.com.

(2) البوذية: مقدمة قصيرة جدًا، ص 73.



تمثال بوذا الكبير في لينغ شان بمقاطعة جيانغسو الصينية يبلغ ارتفاعه 88 مترًا

انتشار البوذية

في القرن الثالث قبل الميلاد، اعتنق إمبراطور الهند أشوكا موريا البوذية، وجعلها ديانة رسمية لمملكته بدلًا من الهندوسية، ثم انتشرت بقوة في سريلانكا ونيبال وبورما وتايلاند وفيتنام وبوتان وكمبوديا وكوريا، لكنها اندثرت لاحقا في الهند لصالح الهندوسية والإسلام.

وفي الصين، تعثرت البوذية بسبب وجود الديانة الكونفوشية، التي تحثّ على توطيد العلاقات الأسرية والاجتماعية تحت سلطة الدولة، أما البوذية فكانت أشبه بحركة تمرد تشجع الشباب على الانعزال بحثًا عن الخلاص الفردي، وبالرغم من محاربة السلطة لها فقد انتشرت بين الصينيين لأنها

قدمت لهم أجوبة على الأسئلة الوجودية، وهو ما لم يجدوه في دياناتهم المحلية.

مع ذلك، تداخلت البوذية مع ديانة الطاوية الصينية، ونشأ عنهما مذهب "تشان"، وهو الذي انتقل إلى اليابان في القرن الثالث عشر الميلادي ليتحول هناك إلى مذهب "بوذية الزِّن".

أما هضبة التيبت، على سفوح جبال الهيمالايا، فوصلت إليها البوذية في القرن الثامن، وتشكلت فيها طائفة التانترا، وهي مليئة بالتعاليم السحرية واستخدام التعاويذ والعزائم، كما أبدت تساهلًا في العلاقات الجنسية التي قُدمت في إطار فلسفي روحاني، مع أنها تُعد من الشهوات التي يجب كبحها في البوذية الأصيلة.

وقد تعرّف المسلمون على البوذية وأهلها منذ القرن الهجري الأول، فبعدما غزت الدولة الأموية آسيا الوسطى بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي بدأ الاحتكاك بين الأمتين، وعُرفوا آنذاك بين المسلمين باسم السَمَنيّة أو الشُمَنية، وهو مصطلح مشتق من السنسكريتية الهندية وتلفظ "شرَمَنَه"، أي الناسك المتصوف.

عُرف السمنية في كتب العقيدة بأنهم أول من طرح فكرة الإلحاد وإنكار وجود الخالق، فكانوا سببًا في ظهور بوادر البدع وتشكّل الفِرق الكلامية. إذ يقول أحمد بن حنبل في كتابه "الرد على الزنادقة والجهمية" إن الجهم بن صفوان، الذي كان من علماء خراسان المسلمين في القرن الأول، "لقي أُناسًا من المشركين يقال لهم السمنية فعرفوا الجهم، فقالوا له: نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك. فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألست تزعم أن لك إلهًا؟ قال الجهم: نعم. فقالوا له: فهل رأيت إلهك؟ قال: لا. قالوا: فهل سمعت كلامه؟ قال: لا. قالوا: فشممت له رائحة؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له حسًّا؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له مجسًّا؟

قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟ قال: فتحير الجهم فلم يدرِ من يعبد أربعين يومًا، ثم انتهى إلى أن الله لا يُرى له وجه، ولا يُسمع له صوت، ولا تُشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان" (1). وكان من نتائج هذا الاحتكاك ظهور فرقة الجهمية داخل الإطار الإسلامي، التي يُنسب إليها تعطيل صفات الله تعالى.

ويعرّف أبو الريحان البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة" السمنية بأنهم "أصحاب البُدّ"، وهو مصطلح معرّب لبوذا، الذي يُنطق اسمه في بلاده "بودا". ويضيف البيروني أن نفوذ البوذيين امتد إلى خراسان وفارس والعراق، وصولًا إلى حدود الشام، ثم انحسر بظهور زرادشت واعتناق الإمبراطورية الفارسية لديانته، فتراجعت البوذية إلى مشارق بلخ (2).

كما يقول ابن النديم في كتابه "الفهرست" إنه اطلع على مخطوطة لأحد المؤرخين من أهل خراسان، فوجد فيها أن السمنية كان لهم نبي يدعى "بوداسف" (3)، ويبدو أنه تعريب لكلمة "بوديساتفا" التي ذكرناها سابقًا، والتي تعني المستنير.

أما ابن الأثير فتحدث عن غزو محمد بن القاسم لبلاد السند ودخوله "مُلتان" بعد حصار، وهي مدينة تقع بمحافظة البنجاب في باكستان اليوم، فنزل أهلها على حكمه، وبذلك "قتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة البدّ، وهم ستة آلاف، وأصابوا ذهبًا كثيرًا... وكان بُدّ الملتان (أي التمثال) تهدى إليه الأموال ويُحج من البلاد ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده" (4)، وعُيّن محمد بن القاسم بعد ذلك

---

(1) أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، المطبعة السلفية، القاهرة، 1973، ص 19.

(2) أبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، عالم الكتب، بيروت، 2011، ص 19.

(3) ابن النديم البغدادي، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، 1978، ص 408.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج1، ص 342.

واليًا على السند في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وعاش البوذيون تحت سلطة المسلمين من غير إكراه، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة رغب في دعوتهم إلى الإسلام، فأرسلت قيادة البوذيين في التيبت مندوبًا إلى دمشق يطلبون معلمًا مسلمًا، وعاد المندوب ومعه معلم يدعى الحنفي [1].

تمرد البوذيون لاحقًا عندما ضعفت الدولة الأموية، ثم أعاد العباسيون السيطرة على المنطقة ودمروا العديد من معابد المتمردين، وعندما شيّد أبو جعفر المنصور عاصمته الجديدة استعان بمهندسين من الهند، وسماها بغداد مقتبسًا اسمها من السنسكريتية وتعني "هبة الرب" [2].

ويبدو أن المسلمين في تلك الحقبة كانوا لا يميزون كثيرًا بين أتباع الديانات الشرقية، إذ نجد في الروايات أحيانًا بعض الصفات مثل ألوان ملابس الكهنة والسدنة وهيئاتهم المميزة، فنكتشف أن القصة تشير إلى أتباع طائفة الجاينية أو البوذية أو الهندوسية أو الزرادشتية (المجوسية)، إذ لم يكن علماء المسلمين مهتمون آنذاك بتصنيف هذه الديانات ولم تنشأ بعد دراسات الملل والنحل (مقارنة الأديان)، بل كان الجهد منصبًا على توسيع الفتوحات ودعوة الآخرين إلى اعتناق الإسلام أو الرضوخ لسلطة دولته.

وفي الغرب، تأخر اكتشاف البوذية إلى القرن الثالث عشر، وظلّت محاطة بالأساطير المغلوطة، ثم بدأ الأكاديميون بدراستها وترجمة نصوصها في القرن الثامن عشر. ومع تزايد اهتمام الأوروبيين بالخوارق والسحر في القرن التاسع عشر، ومع الانتشار السريع للجمعيات السرية والطوائف الباطنية، تزايد الاهتمام الغربي بالهندوسية والبوذية معًا، لا سيما في ظل الاحتلال البريطاني

---

(1) حامد محمد قاسم، صراع البوذية مع الإسلام في العصر الحديث، رسالة ماجستير في جامعة المدينة العالمية، كوالالمبور، 2017، ص 59.

(2) المرجع السابق، ص 61.

للهند، وكذلك هجرة نحو نصف مليون بوذي من شرق آسيا إلى الولايات المتحدة، التي كانت آنذاك القوة الصناعية الصاعدة [1].

وبعد الحرب العالمية الثانية، وفي ظل انتشار أفكار التمرّد واللاسلطويّة (الأناركيّة)، وصعود نجم حركة "الهيبيز" وحركة العصر الجديد، سرعان ما أصبحت "بوذية الزن" بضاعة رائجة في الولايات المتحدة، وصار استخدام المخدرات وسيلة لبلوغ حالة النيرفانا، كما وجد بعض معلّمي البوذية فرصة لافتتاح مدارس التأمل وبيع المنتجات.

ومما شجع على انتشارها في الغرب، ظهور البوذية في صورة الفلسفة العقلانية العلمانية، لا سيما أنها تستبعد وجود الخالق، فالكثير من مدارس التأمل تتجنب الحديث عن العوالم الخفية وتناسخ الأرواح، وتكتفي بطرح فلسفة المعاناة وطريق الخلاص عبر مفاهيم عملية، وتُبرز الدراسات العلمية التي تثبت ما يحققه التأمل من نتائج إيجابية.

من اللاعنف إلى الإرهاب

اشتهرت البوذية عالميًا بثقافتها السلْمية، إذ كان بوذا يقول إن الجنود الذين يُقتلون في المعارك يذهبون إلى الجحيم، وفُسر ذلك بأنه حتى الدفاع عن النفس يُعد خطأ، كما لا ينبغي للبوذي أن يقتل الحيوانات لأي غرض كان، سواء للهو أو حتى للأكل، بل عليه أن يرفق بالحيوان ويعده مساويًا له في الخلْق وليس أدنى منه [2].

ويذكر التاريخ أن الإمبراطور البوذي الأول أشوكا طبّق هذه التعاليم السلميّة بالفعل، وذلك بعدما ولغ في دماء أعدائه قبل اعتناقه لهذا الدين. وفي

(1) البوذية: مقدمة قصيرة جدًا، ص 134 وما بعدها.

(2) أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى: ص 177.

القرن الثاني الميلادي، ظهرت تأويلات تسمح باللجوء للحرب في حالة فشل الوسائل السلمية، كما سجّلت وثائق تاريخية سريلانكية تبجيل بعض الملوك لأنهم قادوا معارك مظفّرة ضد الهندوس.

ويُعتقد أن الجناح المتشدد من البوذيين نجح في تحريف مبدأ "الأهيمسا" (اللاعنف) الذي يعد من المبادئ الخمسة الأساسية للتعاليم البوذية، وزعموا أن بوذا قتل في أحد الأيام كاهنًا من البراهمة (الهندوس) لأنه شتم أسفاره المقدسة، وعندما عوتب بوذا على القتل قال إن البراهمي هبط إلى الجحيم بعد قتله، ثم وُلد من جديد بالتناسخ وعاش عشرة أحقاب أخرى، وكأنه يبرر بذلك قتله [(1)].

وفي سفر "سوستيتاماتي باربريتشا" يجد البوذيون ما يبرر القتل بأن المقتول ليس سوى اسم وفكرة، فإن استطاع القاتل أن يُخلي ذهنه من الأفكار والأسماء أثناء القتل فلا يُعد فعله قتلا، إذ "ليس ثمة سيف ولا كارما ولا عقاب"، وكل ما حدث هو محض خيال [(2)].

كما نجح رهبان البوذية في تسويغ العنف بأن ميزان الكون "دهارما" قد يتطلب أحيانًا التدخل، بل يصبح القتال ضد قوى الشر ضروريًا من إجل إعادة التوازن إلى الكون، وهكذا يصبح العنف جزءًا أصيلا من سلوك المقاتل البوذي الذي يؤمن أصلا بأنه يخوض حربًا عادلة [(3)].

وفي اليابان، أصبحت الأديرة البوذية خلال القرون الوسطى مؤسسات ثرية تمتلك الأراضي وتجنّد المحاربين لحمايتها، بل دمج مقاتلو الساموراي معتقدات "الزن" في مهاراتهم القتالية.

---

(1) صراع البوذية مع الإسلام في العصر الحديث، ص 63.

(2) المرجع السابق، ص 64.

(3) المرجع نفسه، ص 64.

أما في العصر الحديث، فلم تعد البوذية أقل عنفًا من أي ديانة أو أيديولوجية أخرى، ففي الحرب العالمية الثانية شارك البوذيون في كل المعارك بحماس بالغ، وشاركوا أيضًا في الحرب الكورية خلال الستينات، وفي السبعينات تعالت أصوات كهنة بوذيين في تايلاند وغيرها لإبادة الشيوعيين.

في ميانمار (بورما)، حازت زعيمة المعارضة أون سان سوتشي على جائزة نوبل للسلام عام 1991، وصارت بطلة عالمية لفلسفة اللاعنف، كما تحدى الرهبان البوذيون المجلس العسكري الحاكم أثناء "ثورة الزعفران" عام 2007، وبعدما وصلت سوتشي للسلطة صُدم العالم بصمتها على تحريض الرهبان الصريح للعنف ضد أقلية الروهينغا المسلمة، ثم خرجت عن صمتها واتخذت موقفًا مؤيدًا لاضطهاد المسلمين [1].



الرئيس الأمريكي الأسبق باراك أوباما ووزيرة الخارجية هيلاري كلينتون يزوران أون سان سوتشي في منزلها بمدينة رانغون في عام 2012

(1) "سو تشي.. ناشطة حقوقية تشرف على إبادة الروهينغا"، موقع الجزيرة نت، 16 مارس 2015.

ويستخدم المتطرفون البوذيون في ميانمار نفس الخطاب الذي ترفعه الحركات الهندوسية القومية في الهند، إذ يستحضرون تاريخ الفتوحات من العصر الأموي ويعدّونها اعتداءات عسكرية قضت على الوجود البوذي مناطق واسعة [1]، لا سيما في باكستان وأفغانستان وإيران، ويرون أن مهمتهم تقتضي إعادة السكان -في بلادهم على الأقل- للبوذية التي كان يعتنقها أجدادهم قبل أكثر من ألف سنة، وإلا فلا بد من طردهم من البلاد.

ومنذ عام 1999 وحتى اليوم، تقود حركة "969" البوذية القومية أعمال العنف الدموي ضد أقلية الروهينغا في إقليم أراكان بميانمار، حتى أصبحت هذه الأقلية توصف بأنها الأكثر اضطهادًا في العالم.

وكان الراهب البوذي آشين ويراثو، قد انضم لحركة "969" في عام 2001 وصار من أبرز وجوهها بخُطبه النارية وتحريضه على العنف، فقبضت عليه السلطات بعد عامين وحُكم عليه بالسجن لمدة 25 عامًا، لكن أُطلق سراحه في عام 2012 مع سجناء سياسيين آخرين، ولكن تجربة السجن لم تكن قد أجدت نفعًا إذ عاد للتحريض بجرأة أكبر من السابق.

وفي 2013، نشرت مجلة "تايم" الأميركية صورة آشين ويراثو على غلافها تحت عنوان "وجه الإرهاب البوذي"، كما اضطر موقع فيسبوك لإغلاق صفحته بعد تحذيره مرات عدة من مغبة نشر خطاب الكراهية، إذ كان يطالب باستمرار بمقاطعة الشركات المملوكة للمسلمين، وإلى طرد مسلمي الروهينغا من بلاده.

حظي ويراثو بشهرة عالمية، وظل يقود المظاهرات ويلقي الخُطب المليئة بالشتائم بحرّية، ففي مطلع عام 2015 وصف مبعوثة الأمم المتحدة يانغي لي بأنها "عاهرة" وطالبها بتقديم نفسها للمسلمين، ثم وصلت به الجرأة في 2019

---

(1) صراع البوذية مع الإسلام في العصر الحديث، ص 66.

إلى إطلاق الوصف المشين مرة أخرى خلال خطبة علنية على أون سان سوتشي وهي على رأس السلطة، فقُبض عليه مجددًا وسُجن.

وفي فبراير 2021، انقلب المجلس العسكري على الحكم واعتقل سوتشي، بينما أطلق في المقابل سراح الراهب البوذي المتطرف، ليعود مجددًا إلى ممارسة التحريض تحت شعارات بوذية. والأغرب من ذلك أنه حظي بأعلى تكريم في ميانمار بمنحه لقب "ثيري بيانشي" في مطلع عام 2023، وذلك "لعمله المتميز لصالح اتحاد بورما (ميانمار)" (1).

وحتى المسيحيون من أقلية إثنية تشين في غربي ميانمار يتعرضون للضرب والإجبار على اعتناق البوذية، فالثقافة السائدة بين كثير من الرهبان هي "أن تكون بورميًّا يعني أنك يجب أن تكون بوذيًّا" (2).

وفي سريلانكا، لعبت الشوفينية البوذية دورًا كبيرًا في توظيف المشاعر الدينية بين طائفة السنهاليين البوذيين خلال الحرب الأهلية ضد تمرد الأقلية الهندوسية بقيادة نمور التاميل، والتي انتهت عام 2009 بعد مقتل نحو 40 ألف مدني، وما زالت خطابات الكراهية تتصاعد هناك حتى اليوم، كما تنتصب تماثيل بوذا في مناطق الهندوس بالجزيرة لتذكيرهم بهزيمتهم.

---

(1) "لقبته التايم بـ"وجه الإرهاب البوذي".. ميانمار تكرم راهبا اشتهر بمعاداته لأقلية الروهينغا المسلمة"، الجزيرة نت، 3 يناير 2023.

(2) بول فولر، "هل يواجه مسلمو الروهينغا تطهيرا عرقيا من المتطرفين البوذيين؟"، موقع "حفريات" نقلا عن موقع The Conversation، 13 ديسمبر 2017.

الزرادشتية المجوسية.. ديانة للفرس
اندثرت على يد الصحابة وتعود من جديد

بعد قرون طويلة من اندثارها على يد الخلافة الراشدة، نشطت الدعوة مؤخرًا في إقليم كردستان العراق لاعتناق الديانة الزرادشتية القديمة، التي وجد فيها البعض روابط تاريخية ذات أبعاد قومية، مما أثار الجدل حول أصولها ودوافع إحيائها، لاسيما أن الباحثين يشككون في روايات نشأتها وتطورها إلى ما آلت إليه اليوم.

تعود البداية إلى القرن السادس قبل الميلاد على الأرجح، وربما إلى بداية الألفية الثانية قبل الميلاد، عندما ظهرت بعض "المعجزات" -وفقًا للأسطورة- لرجل بسيط من سكان أذربيجان، ويقال أيضا تركمانستان أو شمال إيران، لتبشّره بأنه سيولد له طفل ذو شأن عظيم، ثم ظهرت البشارة لوالدة الطفل أثناء الحمل بأنها ستلد نبيًّا يدعى زرادشت. ولما انتشر نبأ ولادته، حاول السحرة أن يتخلصوا منه، لكن العناية الإلهية حفظته من مكائدهم.

وعندما أصبح زرادشت شابًا، حاول الشيطان إغراءه بمنحه سلطة على الأرض مقابل تخليه عن الرسالة الدينية، فلم يقبل. وتقول بعض الروايات إن زرادشت كان كاهنًا على دين قومه الوثني، ثم انشق عنهم ونزل عليه وحي النبوة في سن الثلاثين عن طريق أحد الملائكة، إذ عُرج به إلى السماء للقاء الإله "أهورا مزدا".

وتذكر الرواية أن زرادشت بدأ بدعوة قومه إلى الدين الجديد، فلقي من الصدّ والاضطهاد ما يلقاه كل الأنبياء. وبعد عشر سنوات من المحاولات الصعبة، انطلق زرادشت إلى حاكم إقليمي يدعى غوشتاسب لإقناعه، فعُقدت

في القصر مناظرات بين زرادشت والكهنة، ولما انتصر عليهم آمن الحاكم بنبوّته، وبدأ بذلك انتشار الدين الجديد.



فارافاهار هو رمز الزرادشتية ويصوّر زرادشت على شكل طائر وكان شعارًا للإمبراطورية الفارسية

الكتاب المقدس

يعتقد الزرادشتيون أن زرادشت كان نبيًا يوحى إليه من الإله أهورا مزدا، وأن كتابه المقدس هو الأفيستا أو الأبِسْتاق، وهذا الاسم يعني باللغة الأفيستية "البناء القوي".

ويقولون إن النص الأصلي كان موزعًا على 29 كتابا، كُتبت جميعها بماء الذهب، ثم أتلف أغلبها عندما غزا الإسكندر الأكبر مدينة تخت جمشيد عاصمة الإمبراطورية الأخمينية، ولم يبق من الكتاب الآن سوى رُبعه تقريبًا، وهو مقسم إلى 5 أقسام، أهمها "ياسنا" الذي يضم تراتيل تدعى غاثا، وهي تتحدث عن نشأة الكون وشعائر العبادة.

وفي وقت لاحق أضيفت نصوص أخرى على قسم "الفستيراد"، كما كُتبت نصوص التأويل والشريعة "زندافيستا" باللغة البهلوية في زمن غير معروف، مما يجعل التحقق من النصوص الأصلية وتمييزها عن الدخيلة متعذّرا.

تنص هذه الديانة على أن الإله أهورا مزدا لم يكن سواه في الوجود، فاختار أن يوجِد روحين توأمين هما سبينتا ماينيو وأنغرا ماينيو، ومنحهما حرية الاختيار، فاختار الأول الخير ودُعي بـ"الروح القدس"، واختار الثاني الشر ودُعي بـ"الروح الخبيث"، ثم بدأ الصراع بينهما.

وقد بلغت الجرأة بالشرير -الذي صار اسمه أهريمان- أن يتمرّد ويصبح ندًا للإله الأعلى نفسه، وهكذا أصبح الصراع بين إله الشر أهريمان وإله الخير أهورا مزدا.

لاحقًا، انبثقت عن أهورا مزدا ستة كائنات روحانية قدسية تدعى "الأميشا سبينتا" ليدعموا الروح القدس، وذلك عن طريق "الفيض" من نوره، وبالفيض أيضًا أوجَدت هذه الكائنات كائنات طيبة أخرى هي "الآهوريون"، في حين أخرج أهريمان إلى الوجود كائنات روحانية متفوقة اسمها "ديفا" لمساعدته، وهكذا تشكلت الملائكة والشياطين.

وبحسب الأسطورة، خلق أهورا مزدا العالم المادي ليكون ساحة لهذا الصراع، وذلك على ست مراحل زمنية، ثم أوجد آدم "ماشيا" وحواء "ماشو"، وبدأ الصراع أيضًا بين بني آدم وعالم الشياطين.

ولا يزيد عمر هذا الكون، وفقا للأسطورة، عن 12 ألف سنة، وهو مقسّم إلى دورات للصراع بين إلهي الخير والشر، ويظهر فيه منقذون (مخلّصون) [1].

تنصّ الزرادشتية على أن الإنسان يُحاسب بعد ثلاثة أيام من موته، فتوزن أعماله بالميزان، ويُمتحن بالعبور على صراط المصير، وهو جسر يتسع ويضيق بحسب أعمال الشخص، فإن عبَره دخل الجنة، وإلا سقط في الجحيم، الذي يبدو منطقة باردة تعيش فيها كائنات متوحشة لتعذيب المذنبين.

---

(1) "المنقذ في الزرادشتية"، الموسوعة المهدوية wikimahdaviat.ir.

وعلى صعيد العبادات، تتضمن الزرادشتية أداء الصلاة خمس مرات في اليوم، وتسبقها عملية تنظيف تشبه الوضوء، وتتضمن الوقوف في حضرة الإله وتلاوة مقاطع من تراتيل الغاثا. ولم تتطلب الزرادشتية القديمة سوى تطهير الجسد والملابس، مع أداء الصلاة في أي مكان، كما كان زرادشت ينهى عن صنع الصور والتماثيل للإله والملائكة، ويرفض الرهبانية والكهنوتية [1].

ويُشاع عن هذه الديانة أنها تعبد النار لذاتها، لكن تقديس أتباعها النارَ لا يزيد عن اتخاذها رمزًا للإله، وفي عصور لاحقة شُيدت المعابد المليئة بالصور والتماثيل، وزوّدت بمواقد للنار المقدسة.



معبد النار (أتشكاه) على أطراف مدينة باكو عاصمة أذربيجان يعود إلى القرن السابع عشر (بعدسة المؤلف)

(1) سهيل بشروئي ومرداد مسعودي، تراثنا الروحي: من بدايات التاريخ إلى الأديان المعاصرة، دار الساقي، ص 110 وما بعدها.

الدين والسياسة

في ظل الإمبراطورية الأخمينية، وهي الإمبراطورية الفارسية الأولى، توالت التغييرات والتحريفات على الديانة الزرادشتية، ونشأت طبقة الكهنة المتفرغين لسدنة معابد النار الذين عُرفوا باسم "موغان"، والمفرد يدعى "موغ"، وهذا المصطلح كان يُطلق على الكهنة في الأديان الفارسية السابقة لدى القبائل الميديّة، لكن الكهنة الزرادشتيين في العصر الأخميني أصبحوا أكثر سلطة وتنظيمًا.

ومن هنا جاء مصطلح "المجوس" الذي تداوله العرب للدلالة على الكهنة "الموغان"، حتى نُسبت الديانة إليهم فسُميت بالمجوسية. كما اشتق الأوروبيون من هذه الكلمة مصطلح "ماجيك" (magic) باللاتينية، الذي يعني السحر نظرًا للإرث السحري القديم لدى الكهانة الفارسية.

وفي عام 330 قبل الميلاد، انهارت الدولة الأخمينية على يد الإسكندر الأكبر، وضاعت بذلك معظم النصوص الدينية الزرادشتية، ووقعت معظم أراضي الإمبراطورية السابقة تحت حكم المملكة البطلمية والإمبراطورية السلوقية، إلى أن استعاد الإيرانيون توحدهم في القرن الثاني قبل الميلاد لتأسيس الإمبراطورية الفرثية، التي لم تصمد سوى عقدين تقريبا من الزمن.

تمكّن الملك أردشير الأول من تأسيس الدولة الساسانية على أنقاض الفرثية، ويقال إنه منح شرعية الحكم لأسرته بناءً على مفهوم زرادشتي يُدعى "إكسواراه"، ويعني "المجد الملكي الإلهي"، وهو بركة باطنية إلهية تنزل على الملك الذي يستحقها. وهنا أصبحت الزرادشتية المصدر الروحي المطلوب لاستمرار أعظم سلالة حكمت بلاد الفرس.

في القرن الثاني بعد الميلاد، كان مذهب الزورفانية قد أصبح مسيطرًا في ظل الدولة الساسانية. وبتأثير من عوامل يونانية وبابلية قديمة -كما يرى

بعض المؤرخين- أعيد تشكيل العقيدة الزرادشتية ليصبح الزمن اللامتناهي "زورفان أكاناراك" هو الأصل، ويُعدَّل اسم أهورا مزدا إلى أوهرامَزد، ويُبتكر إلهٌ جديد للشر اسمه "أهريمان" بدلا من أنغرا ماينيو.

وهكذا زعم الكهنة الجدد (المجوس) أن أهريمان وأوهرامَزد توأمان أزليان، وذلك بعدما كان الشيطان أنغرا ماينيو إلهًا حادثًا لا أزليًا وموازيًا لإله الخير سبينتا ماينيو، وأصبحت هذه العقيدة هي الدين الرسمي للدولة الساسانية الطامعة في التوسع، كما تم ربطها بالقومية الفارسية بعد أن كانت ديانة عالمية تسعى لهداية كل البشر.

في أواخر القرن السادس الميلادي، كانت الدولة الساسانية قد بلغت أوج توسعها، وعندما وصل كسرى الثاني إلى الحكم، كانت المعابد المجوسية تنافس الكنائس البيزنطية في عظمتها وأيقوناتها، ولما قرر الجنرال الفارسي بهرام التمرد كان ينطلق من التشكيك في شرعية مؤسس السلالة الساسانية بمبدأ "إكسواراه"، لكن كسرى الثاني تمكن من القضاء عليه بعد حروب مضنية، ثم انشغل بحروب أخرى مع البيزنطيين.

ومع ظهور الإسلام، أرسل النبي محمد ﷺ إلى كسرى الثاني رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام، لكن الملك الذي كان في أوج قوته لم يعبأ بالتفكير في التخلي عن منظومة دينية أقيمت على أساسها شرعية الحكم، فمزق الملكُ الرسالة، وطرد السفير الذي حملها وهو الصحابي عبد الله بن حذافة السهمي، فدعا عليه النبي عليه الصلاة والسلام بتمزيق ملكه، وقال أيضا "إذا هلكَ كسرى فلا كسرى بعدَهُ، وإذا هلكَ قيصرُ فلا قيصرَ بعدَه" [أخرجه البخاري ومسلم].

وسرعان ما تحققت النبوءة، فاغتيل كسرى الثاني على يد ابنه، وكان هو آخر الأكاسرة بالفعل، ثم حاول حفيده يزدجرد الثالث توحيد الصفوف لمواجهة جيوش الخلافة الإسلامية، لكنه فشل وانهارت في عهده الدولة بانتصار المسلمين في معركة القادسية سنة 636م بقيادة الصحابي سعد بن أبي وقاص.



طبق من الفضة يعود إلى القرن السابع الميلادي ويُعتقد أنه يصوّر كسرى الثاني وهو يصيد الغزلان على فرسه

ومع انهيار الدولة الساسانية وتوسع الفتوحات الإسلامية، اندثرت الديانة الزرادشتية المجوسية، واعتنقت معظم شعوب تلك المناطق الدين الإسلامي، وفرّ جزء من الكهنة وأتباعهم إلى الهند، كما أظهر جزء آخر إسلامه وأضمر تمسّكه بديانته القديمة، وكان لهذا الفريق دور في القلاقل السياسية والفكرية التي شغلت الدولة العباسية لاحقا.

ويرى بعض المؤرخين أن كلمة "زنديق" -التي أطلقت على المنافقين والمبتدعين- تعني متتبّع كتاب الزند، وهو مجموعة الشروح القديمة للأفيستا، مع أنها كانت تطلق عامة على معتنقي الديانات الفارسية الأخرى، مثل المانوية

والمزدكية، اللتين نشأتا بعد ظهور الزرادشتية ولم تحظيا بنفس انتشارها في إيران وما حولها.

وتعليقًا على ما يقال عن اقتباس المسلمين قصة صعود المخلّص الزرادشتي "ويراذ" إلى السماء، واعتبارها أصلًا لقصة معراج النبي محمد ﷺ إلى السماء، فالتحقيق يثبت العكس، حيث وردت القصة الزرادشتية في "نصوص أردا ويراذ ناماك" التي تعود إلى القرنين التاسع والعاشر الميلادي، أي بعد فتح بلاد فارس على يد المسلمين واندثار المملكة الساسانية، فالظاهر أن من بقي من الكهنة المجوس هم الذين اقتبسوا القصة من المسلمين، لذا نجد تطابقًا في بعض التفاصيل التي قيل إن ويراذ رآها في رحلته عند مقارنتها بما تحدث عنه النبي محمد ﷺ(1).

أما ملامح التشابه الأخرى بين الزرادشتية والإسلام في العبادات والنبوءات، فلا تختلف كثيرًا عن أوجه التشابه بين الإسلام وبقايا شرائع الأنبياء التي طالتها التحريف، وقد فصّلت الدكتورة هدى درويش في دراسة هذا التشابه في عبادة واحدة فقط وهي الصلاة، وذلك في كتابها المهم "الصلاة في الشرائع القديمة والرسالات السماوية: اليهودية- المسيحية- الإسلام"، وأوضحت أن ما وصلنا من أوصاف لشروط وأركان إقامة الصلاة لدى المصريين القدماء يتطابق مع الكثير مما جاءت به الشريعة المحمدية، وقد ذكر لنا القرآن الكريم أن الأنبياء كانوا يؤدون الصلاة ويأمرون بها الناس، كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: 87]، وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ [ص: 24]، وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ

(1) آرثر كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، ص 421 وما بعدها.

بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [مريم: 55]، كما قال تعالى عن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران: 39]، وقال عن جملة الأنبياء الكرام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم: 58].

محاولات الإحياء

ذكرت دراسة أجراها "اتحاد الجمعيات الزرادشتية لأميركا الشمالية" عام 2012 أن مجموع أعداد الزرادشتيين في العالم يقدر بنحو 112 ألفًا أو 122 ألفًا فقط، مشيرة إلى أن عدم الدقة يعود إلى تباين التقديرات في إيران. وتأتي الهند في المقدمة بنحو 61 ألفا ممن يطلق عليهم اسم "البارسيين"، تليها إيران بأقل من نصف هذا العدد(1).

ولم تذكر الدراسة وجود أي زرادشتيين في العراق، لكن مع توسع النزاعات الطائفية والعرقية في السنوات القليلة الماضية، أقدمت مجموعة كردية في إقليم كردستان العراق على إعادة إحياء الزرادشتية اعتقادًا بأنها الديانة الأنسب لجذورهم القومية.

ففي تقرير نشره موقع الجزيرة نت في 2015، قال رئيس المجلس الأعلى للديانة الزرادشتية في إقليم كردستان لقمان حاجي حكيم إن إحياء هذه الديانة "يزيد من ثقة الأكراد في أنفسهم"، معتقدا أن غياب هذه الديانة كان سببا في عدم امتلاك الأكراد دولة مستقلة.

---

(1) Zoroastrian World Pop Table, "Federation of Zoroastrian Associations of North America", fezana.org.

وأضاف أن تزايد أعدادهم دفعهم إلى فتح أول معبد لهم في أغسطس 2015 بمدينة السليمانية، مؤكدًا أن آلاف الأشخاص التحقوا بهم فور الإعلان عن تشكيل المجلس الأعلى للديانة [1].

وتشير تقارير إعلامية إلى أن هجمات تنظيم الدولة الإسلامية على كردستان العراق في أغسطس2014 أسهمت في الترويج للزرادشتية هناك، فبعد بضعة أشهر اعترف برلمان الإقليم بالزرادشتية ديانة رسمية، مع أن الدستور العراقي لا يعترف بها، وتوالى بعد ذلك تأسيس المعابد والمنظمات الزرادشتية.

وفي تقرير آخر أعده مراسل الجزيرة نت في كردستان في 2021، أقر رجل الدين الزرادشتي إسروان قادرؤك بأن أتباع هذه الديانة كانوا يمارسون شعائرهم سرًّا منذ سقوط الإمبراطورية الساسانية على يد الصحابة، مضيفا أنهم بدؤوا بممارستها في العلن بعد اعتراف حكومة الإقليم بديانتهم [2].

وفي أواخر عام 2020، نشر الأكاديمي الكردي فَرسَت مرعي بحثًا بعنوان "النخبة الكردية العلمانية ومحاولتها إحياء الزرادشتية"، وأشار فيه إلى أن محاولات ربط القومية الكردية بالديانة الزرادشتية بدأت على يد الأخوين الكرديين جلادت وكاميران بدرخان، من خلال المجلة القومية "هاوار" التي أصدراها في دمشق عام 1932، مستشهدًا بدراسات استشراقية تؤكد ارتباطهما بالمخابرات الفرنسية.

كما أشار الباحث إلى نفي العديد من المؤرخين الكرد والعرب وجود تلك الرابطة القومية المزعومة، لافتًا إلى أن الزرادشتية ديانة فارسية بامتياز، وأن

---

(1) عبد الحميد زيباري، "الزرادشتية بكردستان العراق.. سياسة بثوب الدين"، الجزيرة نت، 8 سبتمبر 2015.

(2) طه العاني، "الزرادشتية.. ديانة مندثرة تعود من جديد إلى كردستان العراق"، الجزيرة نت، 29 مايو 2021.

معظم معابد النار تقع ضمن المجال القومي الفارسي، ولم يوجد منها في أراضي الكرد إلا القليل في شرق كردستان، حيث أبدى الكرد ممانعة لانتشار هذه الديانة الفارسية، لا سيما مع انتشار أديان أخرى بينهم هي الوثنية الكردية والميثرائية والمسيحية، وصولًا إلى الإسلام الذي يعتنقه معظم الكرد اليوم [(1)].

(1) فَرسَت مرعي، "النخبة الكردية العلمانية ومحاولتها إحياء الزرادشتية"، موقع الزهاوي zahawi.org، 21 ديسمبر 2020.

حركة العصر الجديد..
تصاعد الروحانية الباطنية في عصر العلمانية والعلم

تشهد الروحانيات الباطنية الحديثة إقبالًا متزايدًا في الدول الغربية، فبالتوازي مع انحسار المسيحية وتمدد العلمانية تسعى هذه الثقافة لملء الفراغ الذي قصُرت عنه المادية، كما تبدو من أكثر العقائد مواءمة للتوظيف سياسيًا واقتصاديًا.

تعدّ "حركة العصر الجديد" (New Age Movement) المظلّة الأوسع لمعظم النزعات الروحانية الجديدة، وهي امتداد لمذاهب الباطنية (الغنوصية) التي اختلطت بالسحر والشامانية في العصور الغابرة، كما تستمد جذورها من وثنيات وفلسفات ضاربة في القدم مثل الهندوسية والبوذية والطاوية والأفلاطونية الجديدة، وكذلك من الطوائف الباطنية التي ظهرت من داخل الأديان السماوية مثل القبّالاه اليهودية والغنوصية المسيحية والتصوف الفلسفي في الإسلام.

العقائد الباطنية والعلوم السرية

يجدر بنا في البدء تلخيص الخلفيات التاريخية للمذاهب الباطنية الروحية الغنوصية (Gnosticism)، وهي تشمل من حيث المبدأ كل مذهب ديني يعتمد العرفان أو الكشف الروحي الذاتي مصدرًا أساسيًا للمعرفة. ومنذ القرن الميلادي الثاني أصبح مصطلح الغنوصية يطلق على مجموعة من الأفكار التي يشترك فيها معتنقو المسيحية واليهودية والأديان الوثنية، وحتى الإسلام.

تسمى العلوم السرية الغامضة التي يعتنقها الغنوصيون أيضًا "إيزوتيريك" (Esotericism)، أي العلوم الباطنية، في مقابل العلوم الظاهرية (Exoteric)، فالعلوم الباطنية تستند للتجربة الذوقية الخاصة بالشخص وباتصاله بكيان غيبي مزعوم، أما العلوم الظاهرية فتستند إلى المعرفة الخارجية والمستقلة عن تجربة الشخص، ويمكن لأي شخص آخر التحقق منها.

كانت الغنوصية منذ بدايتها مرتعًا للسحر والاتصال بالشياطين، ففي كل مذهب غنوصي تقريبًا نجد قصصًا متشابهة للمؤسسين "الحكماء" الذين يقيمون بنيانهم العقدي على تلقي أسرار الوجود من كائنات "روحية" تخصّهم بالمعرفة، وقد تزعم تلك الكائنات أنها آلهة أو ملائكة أو كائنات فضائية، أو كائنات روحية من نوع خاص، وتتنوع تسمياتها وصِفاتها ووظائفها لكنها تبقى دائمًا متشابهة، ومنها الديميورغوس والأرشون [1]. وفي الجانب العملي، تخلط معظم هذه المذاهب عقائدها بممارسات سحرية تتضمن استخدام الطلاسم والعزائم والخيمياء، إضافة إلى تقديم القرابين والشعائر التعبدية أحيانًا للكائنات الروحية التي تتقرب لها.

حفلت أوروبا كغيرها بالممارسات الباطنية والسحرية منذ ما قبل التاريخ، وكذلك في ظل الحضارات الوثنية المتعاقبة. وعندما سيطرت الكنيسة الكاثوليكية على معظم القارة تم تقييد السحر وكل ما يتبعه من عقائد، لكن هذا لم يمنع الأفكار الغنوصية من التسلل تحت غطاء يهودي أو مسيحي، فكانت الغنوصية شكلاً من أشكال التوفيق بين المسيحية ومعتقدات بلاد فارس وما بين النهرين كالمانوية والمزدكية والمندائية والزرادشتية (المجوسية).

كانت فلسفة القبّالاه اليهودية (الكابالا) أيضًا من أهم مداخل الأفكار الباطنية إلى العالم المسيحي، فهي مذهب يهودي باطني لتفسير الكتاب المقدس

---

(1) نحن نؤمن في الإسلام بأن هذه الكائنات ليست سوى شياطين الجن من أتباع إبليس.

يقوم على افتراض أن لكل كلمة ولكل حرف معنى خفيًا، ويتضمن نظريات مستوردة من فلسفات أخرى لتفسير وفهم الخلق وطبيعة البشر وحقيقة الروح والقدر. وقد حظيت هذه الفلسفة باهتمام كبير لدى رواد حركة النهضة الإيطالية في فلورنسا خلال القرن الخامس عشر، وانتشر تأثيرها لاحقًا إلى الممالك الأوروبية.

في القرن السابع عشر، أعاد القس السويدي إيمانويل سويدنبرغ إحياء الغنوصيات المسيحية القديمة لتفسير الكتاب المقدس برؤى باطنية، فزعم أنه تلقى المعرفة بتأملاته الصوفيّة الخاصة وأبحر في عوالم الغيب ليعيد تشكيل المسيحية بمفهوم جديد، وشجّعت هذه المحاولات فلاسفة آخرين على شق طريقهم نحو هذه العوالم الغامضة من داخل الدين ومن دون مصادمة الكنيسة (1).

ومع انتشار العلمانية وتراخي قبضة الكنيسة، خرجت الممارسات السحرية في القرن التاسع عشر من عالم الظل إلى الأوساط الفكرية الأوروبية، وتبنّى بعض المثقفين الفكر الباطني بصفته مصدرًا للحكمة السرية، وتزامن ذلك مع توسع حركة الترجمة على يد علماء مقارنة الأديان والأنثروبولوجيا لمحاولة فهم الثقافات الهندوسية والبوذية وغيرها، لا سيما مع الاحتكاك المباشر في ظل الاستعمار، فاستورد البعض فكرة "الكارما" (2) مثلًا بعد دمجها بمفاهيم مسيحية كي يسهل فهمها، ثم تقبّلها.

ومن جانب آخر، أُدمجت بعض الأفكار الباطنية في المنظومة العلمانية من باب العلم نفسه، مثل نظرية التطور الداروينية التي قُدمت في البيولوجيا (علم الأحياء) لتفسير نشوء وتطور الحياة بعوامل طبيعية ذاتية لا تحتاج إلى خلق

---

(1) "Emanuel Swedenborg: Swedish philosopher", Encyclopædia Britannica.

(2) سبق شرح هذا المصطلح في فصل "الهندوسية".

وتدبير إلهي، فمن خلالها أُقحمت بعض النظريات الباطنية لنشأة الوجود وتطوره، وأصبحت لدى بعض معتنقيها أكثر توافقًا مع "العلم الحديث".

أما علم النفس الحديث فكان بوابة واسعة للباطنيات المستوردة إلى أميركا وأوروبا، وخصوصًا على يد سيغموند فرويد وكارل غوستاف يونغ اللذين قدّما مفاهيم جديدة لفهم النفس من منطلقات باطنية، لكن العالم استقبلها على أنها نظريات علمية معلمنة.

وخلال القرن التاسع عشر ظهرت أربع حركات دينية باطنية كبرى، يمكن اعتبارها الروافد الأساسية لحركة العصر الجديد، التي اكتمل تشكّلها في أوائل القرن العشرين. الحركة الأولى هي "الفلسفة المتعالية" (Transcendentalism) التي نشأت على يد رالف إمرسون في أميركا الشمالية، معتمدة على الترجمات المبكرة للكتب الهندوسية المقدسة، فاعتنقت أفكار وحدة الوجود والبحث عن المعرفة بالحدس والعرفان الصوفي[1].

أما الحركة الثانية فهي "الفكر الجديد" (New Thought) التي أسسها فينياس كويمبي، حيث آمن بوجود طاقة حيوية تتسبب بالشفاء والسعادة، وحاول مزجها مع الفلسفة المثالية العقلانية.

في الوقت نفسه كانت "حركة الأرواحية" (Spiritualism) -وهي الحركة الثالثة- تنتشر على يد فلاسفة يحاولون طرح تفاسير باطنية جديدة للكتاب المقدس، ويمارسون طقوس استحضار الأرواح و"الخروج من الجسد" عبر التأمل.

وأما الحركة الرابعة، والأكثر عمقًا وشمولًا وتنظيمًا، فهي التي أسّستها عام 1875 الروسية هيلينا بلافاتسكي مع زميلها الأميركي هنري ستيل أولكوت تحت

---

(1) أحمد دعدوش وفوز كردي، "حركة العصر الجديد"، موسوعة السبيل al-sabeel.net، 26 أغسطس 2017.

مسمّى جمعية الحكمة الإلهية "الثيوصوفيا" (Theosophy)، حيث أعادت صياغة الأساطير الباطنية السرية المتراكمة عبر قرون معلنة كشفها لعامة الناس، كما زعمت أن الفلسفة الباطنية هي أصل كل الأديان والبديل الذي ينبغي انصراف البشرية كلها إليه كي تحقق التنوير وتبلغ نهاية التاريخ [1].

وتعدّ الجمعية الثيوصوفية أنضج المؤسسات والحركات التي جمعت أهم المعارف الباطنية والسحرية، وتتبعها بعض المؤسسات ودور النشر والأكاديميات. ومنذ سبعينات القرن العشرين أصبح مصطلح حركة العصر الجديد يُطلق على المعتقدات التي تبنتها الثيوصوفيا باعتبارها المظلة الأوسع لهذا الفكر، لاسيما أنها استوعبت معظم الحركات السابقة.

(1) Mark Bevir, The West Turns Eastward: Madame Blavatsky and the Transformation of the Occult Tradition, Journal of the American Academy of Religion, volume 6, Issue 3, Fall 1994, p. 747--767.

هيلينا بلافاتسكي والثيوصوفيا



هيلينا بلافاتسكي

ولدت هيلينا بيتروفنا بلافاتسكي [(1)] لأسرة نبيلة في جنوب روسيا عام 1831، فكان والدها ضابطًا في الجيش وأمها روائية مثقفة، كما كانت جدتها من جهة الأم الأميرة هيلينا دولغوروكي، وهي من سلالة أرستقراطية ألمانية انتقلت إلى روسيا بدعوة من الإمبراطورة كاثرين العظيمة [(2)]، أما جدها من جهة الأم بافيل دولغوروكي فكان عضوًا في الماسونية وفي جمعية "الصليب الوردي"، وكانت مكتبته حافلة بالكتب النادرة عن الديانات الباطنية والغامضة، مما سمح لحفيدته الاطلاع على ما لم يكن متاحًا لغالبية أبناء جيلها [(3)].

وجاء في سيرتها الذاتية أنها بدأت برؤية "الأرواح" منذ طفولتها، فكانت ترى تحديدًا شخصًا هندوسيًا مهيبًا ينقذها من المخاطر كلما تعرضت لحادث ما، واعتبرته "حافظًا" لها.

---

(1) اقتبسنا معظم سيرتها الذاتية من مقالات موسوعة الثيوصوفيا (Theosophy Wiki) ومقدمة كتابها "العقيدة السرية".

(2) بعض المصادر تشكك في الأصول النبيلة التي زعمتها لنفسها.

(3) Richard B. Spence, "The Link of Theosophy to Occultism and Espionage", wondriumdaily.com, 24 Oct 2020.

تلقت هيلينا تعليمًا جيدًا في صغرها، وأتقنت عدة لغات أوروبية. وفي سن الثامنة عشرة، انطلقت في سلسلة من الرحلات حول العالم لأكثر من عقدين، بهدف اكتساب المعارف الصوفية الباطنية التي أثارت فضولها، ومن أهم المناطق التي زارتها وأقامت فيها عدة سنوات الهند والتيبت ومصر والمكسيك[1].

من أهم القناعات الجوهرية التي كانت تسيطر على فكر هيلينا أثناء طوافها بين الجماعات الباطنية حول العالم هي فكرة الإخاء العالمي السري، واعتقادها بوجود "سادة صاعدين" (Masters)، وهم حكماء تناسخت أرواحهم قبل ملايين أو آلاف السنين ويمكن التواصل معهم روحيًا لاقتباس المعرفة والتوجيه، وعلى رأس هؤلاء الحكماء المهاتما كوت هومي (Koot Hoomi) والمهاتما موريا (Morya)، حيث جاء في كتاباتها لاحقًا أنها التقت بهذين الشخصين في التيبت، وأنهما كان من ملهميها طوال حياتها من خلال تواصلها معهما بالتخاطر والاستبصار. ومع أن الباحثين الذين كتبوا عن هيلينا والثيوصوفية لاحقًا شككوا في وجود الشخصيتين واتهموها باختلاقهما من الخيال إلا أننا لا نستبعد أنهما كانا من شياطين الجن الذين يتواصل معهم السحرة من أمثال هيلينا وأتباعها، وسيأتي الحديث لاحقًا عن "السادة الصاعدين".

في عام 1873 انتقلت هيلينا إلى نيويورك، وكان عمرها آنذاك 42 سنة، وتعرفت هناك على العقيد في الجيش هنري ستيل أولكوت الذي كان مولعًا بالسحر والفلسفة الباطنية، وتعاونا على إجراء التجارب السحرية والخيميائية ونشر المقالات عن المعرفة الباطنية والتنجيم والقبّالاه (الكابالا).

---

(1) يرى بعض الباحثين المتشككين أنها لم تقم بهذه الجولات بل قضت فترة شبابها في أوروبا، وأن معظم المعلومات الباطنية التي حازتها كانت من مكتبة جدها.

في مايو 1875 قررا تشكيل لجنة تحقيق خاصة تحت عنوان "نادي المعجزة" لدراسة واختبار وإثبات الظواهر الروحانية، ولكن المشروع تعثر، وبعد شهرين أسسا الجمعية الثيوصوفية في نيويورك، وانضم إليهم بعض المهتمين من جنسيات أخرى. وكتبت هيلينا في مذكراتها إن "الأوامر جاءت من الهند مباشرة بتأسيس جمعية دينية ثيوصوفية، واختيار اسم لها، وكذلك تعيين أولكوت رئيسًا"[1].

في الفترة نفسها أصدرت هيلينا كتابها "كشف النقاب عن إيزيس" (Isis Unveiled)، وهو كتاب من مجلدين كبيرين. ويقول أتباعها إنها كتبت كل ما فيه بدون العودة إلى أي مراجع، وإنها كانت تتلقى إلهامًا كشفيًا بالاستبصار أثناء كتابته[2]، بينما اتهمها آخرون بالسرقة وقالوا إن الكثير من نصوص الكتاب منسوخة من كتب معروفة وشائعة آنذاك بين المهتمين بالسحر والباطنية[3]. ولخّصت هيلينا في المجلد الأول أهم العلوم السحرية والفلسفات الباطنية، مع محاولة إثبات أنها لا تتعارض مع العلوم الحديثة بل تستوعبها وتتجاوزها، ثم حاولت في المجلد الثاني إثبات أن الأديان الكبرى مثل المسيحية والبوذية والهندوسية والزرادشتية تنحدر من مصدر مشترك، وهو "دين الحكمة" القديم الذي يمنح أصحابه كل مفاتيح العلم والحكمة، وانتصرت أيضًا لفلسفة تناسخ الأرواح مع منحها مفاهيم خاصة.

بعد حصولها على الجنسية الأميركية، انتقلت هيلينا مع أولكوت في أواخر 1878 إلى الهند الخاضعة للاحتلال البريطاني، وأسسا في بومباي المقر الثاني

---

(1) "Helena Petrovna Blavatsky", theosophy.wiki.

(2) Ibid.

(3) James D Hart and Phillip Leininger, The Oxford Companion to American Literature, Oxford University Press, 1995, pp. 71-72.

للجمعية التي لقيت ترحيبًا من الحركات الهندوسية الإصلاحية، وأطلقا من هناك مجلة شهرية باسم "الثيوصوفي". ثم قاما برحلة إلى جزيرة سيلان، وأعلنا اعتناقهما للبوذية وسط ترحيب شعبي كبير، إذ كان الشائع آنذاك أن الغربيين لا يزورون تلك البلاد إلا لتحقيق مصالح الاحتلال أو للتبشير بالمسيحية، ولم يُبدِ أي غربي تقريبًا في تلك الفترة اهتمامًا باعتناق معتقدات الشعوب الخاضعة للاحتلال.



صورة التقطت في لندن عام 1888 لهيلينا بلافاتسكي وهنري أولكوت

في عام 1984 انطلق الثنائي في رحلة إلى أوروبا، وواجهت هيلينا في تلك المرحلة قضايا واتهامات في الصحافة والمحاكم بالاحتيال، مثل قضية عائلة كولومب التي نشرت رسائل قيل إن هيلينا كتبتها بنفسها ونسبتها إلى "سادة الحكمة" الروحيين تحت مسمى "رسائل المهاتما"، وكذلك تقرير الباحث ريتشارد هودجسون الذي أشار إلى ما يُنسب لها من ظواهر خارقة واتهمها بأنها من أكثر المحتالين براعة في التاريخ، كما شكك البعض في رواياتها الشخصية

عن الرحلات التي قادتها إلى مصر وأميركا اللاتينية وجبال الهيمالايا، وإقامتها في التيبت سبع سنوات على فترات متقطعة، حيث زعمت أنها زارت "أماكن أبعد في التيبت وهي أماكن لم يزرها أي أوروبي آخر من قبل، ولا يمكن أن يأمل في زيارتها على الإطلاق" [1]، وقالوا إنها قضت فترة شبابها في أوروبا، إذ كان من المستحيل تقريبًا تمكّن شابة أوروبية من السفر بمفردها إلى المناطق النائية قبل ظهور الطائرات والسيارات، وخصوصًا في حقبة الاستعمار. انتشرت الاتهامات على نطاق واسع وأضرّت بسمعة الجمعية الثيوصوفية، لكن باحثين آخرين شككوا في صحة الاتهامات [2]، واستمر افتتاح المزيد من فروع الجمعية ومحافلها وخصوصًا في الهند وسيلان، ثم انتهت جولة الثنائي بالاستقرار في لندن، حيث أسسا في عام 1887 محفلًا تحت اسم " Blavatsky Lodge of theosophical Society".

وفور تأسيس المحفل على يد نخبة من الباطنيين الإنجليز، تأسست دار للنشر الكتب الثيوصوفية، كما بدأوا بإصدار مجلة شهرية تحت اسم "لوسيفر" وهو الاسم المعروف لإبليس في الكتاب المقدس.

وفي العدد الأول من المجلة، كتبت هيلينا مقالًا بعنوان "ماذا يوجد في الاسم؟ لماذا سميت المجلة لوسيفر" [3]، وأوضحت أن اسم المجلة سيساء فهمه لدى القراء المسيحيين، وأنها مع ذلك أصرت على اختياره لأن رسالتها هي الرسالة الواردة في الكتاب المقدس وهي جلب الضوء إلى المناطق الخفية في الظلام، معتبرة أنه لا يوجد عنوان أفضل من "لوسيفر" الذي يعني نجم

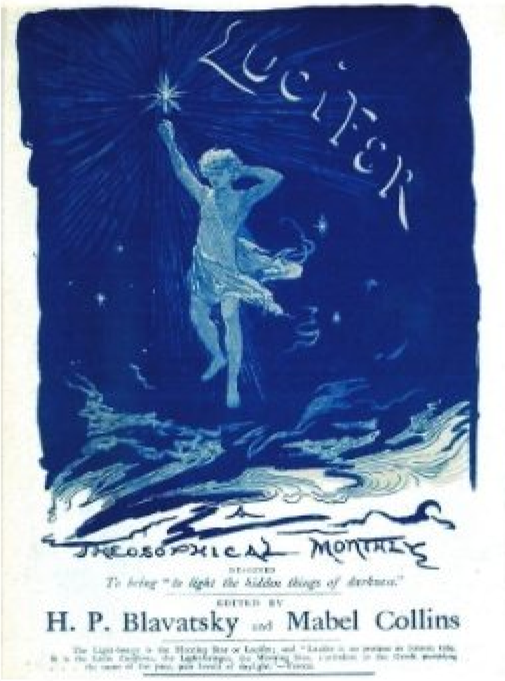
---

(1) Helena Petrovna Blavatsky, Collected Writings, Theosophical Publishing House, Wheaton, 1988, vol. vi, p. 272.

(2) Tim Rudbøg, "Helena Petrovna Blavatsky", wrldrels.org, 5 July 2019.

(3) "Lucifer (periodical)", theosophy.wiki.

الصباح (1)، فهو نذير التوهج الكامل لشمس الظهيرة، ثم سخِرت في مقالها من إطلاق المسيحيين لقب "حامل الضياء" على الشيطان نفسه (2).



غلاف عدد من مجلة لوسيفر

(1) لوسيفر (Lucifer) كلمة لاتينية تعني حرفيًا «حامل الضياء»، لذا أطلقها الرومان على كوكب الزهرة لأنه يبقى مضيئًا في النهار فصار يسمى رمزيًا «كوكب النهار»..

(2) كلمة لوسيفر (Lucifer) اللاتينية وردت في بعض الترجمات القديمة لسفر أشعياء من الكتاب المقدس في هذا النص: {كيف سقطت من السماء يا نجمة الصباح المنير؟ كيف طرحت إلى الأرض يا قاهر الأمم؟} [أشعياء: إصحاح 14: 12:11] لكن الترجمات الجديدة كلها تقريبًا تترجمها إلى "نجمة الصباح" أو "الزُهرة"، ويفسرها بعض علماء المسيحية بأنها إشارة لإبليس الذي سقط من السماء بسبب تكبره، فاليهودية والمسيحية تعتقدان أن إبليس كان من الملائكة، لكنه سقط من السماء لأنه تكبر، وسقط معه كثير من الملائكة. أما الغنوصية المسيحية فاعتنقت عقيدة الثنائية التي تؤمن بوجود إلهين يتصارعان ويمثلان عالَمي الخير والشر، وزعمت أن الإله (يهوه) هو الإله الشرير والمزيف، فهو الذي حبس أرواح البشر في الأجساد المادية التي خلقها، ويتطابق وصفه مع صفات الشيطان (الثعبان)، أما الإله الجيد فهو "الأب" الذي خلق الأرواح والعالم الروحي. لكن الغنوصية المتحررة من الأديان تقطع شوطًا آخر بعكس هذه الصورة، فالإله الجيد عندها هو "لوسيفر" حامل الضياء لأنه يسعى لحمل المعرفة والحكمة إلى البشرية، بينما يمثل الإله الآخر عندهم الإله الشرير الذي تعبده الأديان، وهذا المفهوم المقلوب هو الذي تتبناه الثيوصوفيا.

العقيدة السرية

في عام 1888 نشرت هيلينا الجزء الأول من كتابها "العقيدة السرية" (The Secret Doctrine)، الذي يُعد بمثابة إنجيل الثيوصوفيا، وحاولت أن تقدم فيه تفسيرًا باطنيًا جديدًا لأصل الكون، باعتبار أن النظريات العلمية مخطئة في ذلك.

يبدأ مفهوم هيلينا للكون بالإيمان بوجود "كائنات عليا ممجدة" (higher and exalted beings)، كانت تراقب طفولة الإنسانية، ثم نقلت بعض أسرار الوجود والمعرفة إلى الحكماء من البشر الذين امتلكوا الجرأة والشغف للاتصال بهذه الكائنات بحثًا عن المعرفة، فالكتاب يكشف ما وصل إلى هيلينا من "حكمة العصور المتراكمة" التي تم تمريرها شفهيًا عبر آلاف الأجيال من العرافين والمنجّمين والسحرة وحكماء الباطنية، وقد حان الوقت حسب زعمها لكشف هذه الأسرار لعامة الناس، بعدما ظلوا حبيسين للأديان والخرافات وحتى العلم المادي التجريبي الحديث، فكل الأجوبة التي تقدمها هذه المنظومات قاصرة أمام الحكمة الحقيقية التي أخفاها السحرة.

الفلسفة الباطنية لا تنظر إلى الكون كوعاء واسع للكواكب والمجرات والفراغات، بل هو وعاء روحي تطورت مكوناته بظهور كائنات روحية متسلسلة هرميًا تبنيه وتوجهه منذ ملايين السنين، وهذه الكائنات الروحية الخارقة هي رسل للقوانين الكارمية التي تقوم بالمهام الموكلة إليها. ويتدرج الكون إلى سبع طبقات، ولكل طبقة عوالم وكائنات وكواكب ورموز تحفل بها كتب القبالاه والسحرة والمنجمين [1]، وسيأتي الحديث عن الكائنات السماوية لاحقًا.

يكتشف القارئ بعد هذه المقدمات أن الحكمة المقصودة لا تخرج عن العقائد الباطنية المعروفة، فقد كُشفت على مر التاريخ الكثير من الكتب

---

(1) "Orders of Celestial Beings", theosophy.wiki.

والمخطوطات والروايات التي حرص الباطنيون على إخفائها، والنظرية الكونية "الكوسمولوجية" في كتاب هيلينا ليست سوى فلسفة وحدة الوجود المقتبسة عن الهندوسية والطاوية، إذ نشأ الكون عن "الجوهر الإلهي الواحد المتجانس"، وهو كون وهمي مؤقت زائل، وكل شيء محكوم بالطاقة الحيوية والوعي، وكل الموجودات تتدرج في هرم الوجود بحسب درجة وعيها، وهي متصلة فيما بينها من خلال الطاقة والوعي.

خصصت هيلينا الجزء الثاني من الكتاب لأصل الإنسان، وزعمت أننا انحدرنا من "أعراق جذرية" عاشت قبل ملايين السنين، وأن دورة الحياة تتضمن سبعة أعراق جذرية، كان أولها عرق "أثيري" (روحي) غير مادي وغير جنسي، فكل أفراده كانوا من جنس واحد، لا يتمتعون بالفهم واللغة والمعرفة، وقد أنتجتهم على الأرض كائنات إلهية هي البيتريس القمرية التي تسمى في الهند "بارهيشاد". فأفراد هذا العرق مولودون ذاتيًا وهم ظلال نجمية لأسلافهم البيتريس، وقد ظهروا على الأرض بعد 300 مليون سنة من تطور الغطاء النباتي.

لاحقًا ظهر العرق الثاني، وكان ماديًا خنثويًا وعاش في قارة تسمى "هايبربوريا"، وهي قارة أسطورية في القطب الشمالي، ذُكرت في الميثولوجيات الإغريقية والإسكندنافية حيث كانت موطنًا لحضارة متقدمة غير بشرية، كما نجد لها ذكرًا في الأساطير الهندية التي تقول إن أصل الهنود كان من هناك.

العرق الجذري الثالث هو عرق الإنسان الحقيقي الذي تطور إلى جنسين من ذكر وأنثى، وقد عاشت شعوبه وقبائله في قارة ليموريا المفقودة التي كانت موجودة بين المحيطين الهندي والهادي. وكانت أعمار هذا العرق أطول من أعمارنا وأجسامهم أضخم بكثير (عمالقة). ثم تطور العرق الرابع في قارة أتلانتس، وهي الدولة التاريخية الأولى التي لدينا بعض المعرفة عنها لأن أفلاطون

تحدث عنها، وكان الأتلانتيون هم الذين نصبوا تماثيل جزيرة الفصح الضخمة لتكون نصبًا تذكارية للعمالقة الذين كانوا آخر أحفاد العرق الثالث.

وفي مرحلة مبكرة من ظهورهم كانت عقولهم قد أوقظت على يد الحكماء، وكانت العين الثالثة ما زالت نشطة في أجسادهم، مما ساعدهم على التواصل الروحي والاستبصار وتلقي الحكمة والاتحاد بالروح الكونية العظيمة، ولم يكن لديهم دين ولا شعائر، بل كانوا متحدين مع بعضهم ومع كل الكائنات بالحب والتبجيل والثقة. كانت الآلهة في هذا "العصر الذهبي" القديم تسير على الأرض وتختلط بحرية مع البشر، ثم رحلت الآلهة وأصبحت غير مرئية، وصار البشر يعبدونها بشكل رمزي في المعابد [1]. وفي نهاية هذه المرحلة غرقت أتلانتس أيضًا مثل ليموريا، وانطمست آثارها قبل 11 ألف سنة من الآن [2].

وباندثار العرق الرابع بدأت مرحلة سيادة العرق الخامس على الأرض، وهو العرق الآري الذي بدأ ظهوره قبل حوالي مليون عام، حيث تتعايش الأعراق المختلفة في فترات متقاطعة قبل أن يندثر الأسبق منها، ففي عصرنا الحالي ما زال يعيش بيننا أفراد متحدرون من سلالة العرق الرابع الذي عاش في أتلانتس، كما كان المصريون القدماء والإغريق والرومان من سلالتهم.

وينقسم كل عرق جذري إلى سبعة أعراق فرعية، وكل منها ينقسم إلى سبعة أخرى بسبب التغيرات الجيولوجية والطبيعية الكبيرة، ولكن هذا لا يعني أفضلية عرق إلى آخر، فمع أن بعض الباحثين يتهمون هذه النظرية بأنها شكّلت رافدًا للعنصرية النازية والفاشية لكن أتباع الثيوصوفية يستشهدون بنصوص

---

(1) Gertrude W. van Pelt, "Archaic History of the Human Race", Theosophical University Press, 1934, theosophy-nw.org.

(2) Helena Petrovna Blavatsky, The Secret Doctrine, Theosophical Publishing House, Wheaton, 1993, vol. II, p. 433.

من كتاب هيلينا تؤكد أن الاختلافات العرقية تعود إلى ظروف ثقافية وجغرافية فقط وأن الأجساد ليست سوى ملابس مادية للأرواح التي تتناسخ في سلاسل طويلة[1].

تنص "العقيدة السرية" أيضًا على أن فناء الأعراق يحدث بكوارث كبرى، مثل الطوفان العظيم الذي قضى على العرق الجذري الرابع عقابًا لهم على شهوانيتهم وعدم امتثالهم لتعاليم مرشديهم. وقبل فناء كل عرق، يتجسد أحد الحكماء العظام (مانو) على هيئة أحد أفرادهم ليختار أفضل فريق منهم وينقذهم ليكونوا بذرة تشكيل العرق التالي، ثم يُقضى على البقية، وهذه الفكرة موجودة أيضًا لدى الهندوس في كتابهم "فيشنو بورانا". وتزعم هيلينا أن ما جاء في الكتب السماوية عن قصة النبي نوح عليه السلام والطوفان هي تشويه أسطوري للقصة الحقيقية التي ذكرتْها.

نحن نشهد الآن المراحل الأخيرة من وجود العرق الجذري الخامس، والذي انقرضت منه أربعة أعراق فرعية، عاش كل منها أكثر من مئتي ألف سنة. وحاليًا تُعتبر الحضارة الهندية الأكثر تطورًا روحيًا، فأبناؤها الآريون ينتمون إلى العرق الفرعي الأول من العرق الجذري الخامس، أما الحضارة الأوروبية فهي الأكثر تطورًا على المستوى الفكري وهم العرق الفرعي الأخير من العرق الجذري الخامس. والأعراق الفرعية الحالية تعيش مرحلة الهبوط لدورة وجودها، بينما يستعد العرق الجذري السادس للصعود، والذي تتكوّن بذورُه منذ ثلاثة قرون في القارة الأميركية من الأنجلوسكسونيون الذين شكّلوا عرقًا فريدًا باختلاطهم وتطورهم، وبعد حوالي 25 ألف سنة ستغرق قارة أوروبا بدءًا من الجزر البريطانية ثم فرنسا وبقية القارة، وستصعد القارتان الغارقتان ليموريا

(1) Helena Petrovna Blavatsky, Collected Writings, Theosophical Publishing House, Wheaton, 1988, vol. XII, p. 302.

وأتلانتس ليزدهر فيهما العرق السادس، حيث تعيش القارات مراحل دورية من الصعود والهبوط[1].

وبعد اندثار العرق السادس، ستخلو الساحة للعرق السابع والأخير، وسيكون له مرشده الخاص (بوذا) كما كان هناك مرشد لكل عرق قبله، لكن أفراد هذا العرق أكثر تطورًا وقربًا من الكائنات الروحية. وفي نهاية هذه الدورة سيصبح الإنسان "ديان شوهان" (Dhyan Chohan) وهم الكائنات السماوية التي شيّدت الكون، ولن يعود الإنسان مقيدًا بحدود جسده وكوكبه الأرضي، بل يصبح حرًا في التنقل بين السلاسل الكوكبية السبعة.

تدخل الأرض بعد كل جولة حياة (مانفانتارا) في حالة راحة أو انحلال صغرى (برالايا)، كما تدخل الحياة في حالة "نيرفانا"، ثم تتجدد الحياة في جولة ودورة جديدة (مانفانتارا)، لكن بعد اكتمال الدورات السبعة تبدأ البرالايا الكوكبية، وبعد إنجاز سبع سلاسل كوكبية تأتي البرالايا الشمسية[2]، وهكذا يتجدد الكون (الذي تمثله المجموعة الشمسية) في مراحل متناوبة من الخلق والانحلال إلى ما لا نهاية، وهذه الفكرة موجودة أيضًا لدى الهندوسية مع اختلاف في بعض التفاصيل.

كشفت بلافاتسكي أيضًا في المجلد الثاني من الكتاب عن مفهومها للكائنات الروحية التي تحكم عالمنا، والتي سنفصل الحديث عنها لاحقًا، وقالت إن مجموعة مكونة من 30 كائنًا سماويًا يُطلق عليهم اسم "سادة اللهب" (Lords of the Flame)، كانوا يستوطنون كوكب الزُهرة (نجمة الصباح)، وإن الكوكب كان يُحكَم من قبل مجلس يديره سبعة كائنات تدعى كومارات، وعلى رأسهم "سانات كومارا" (Sanat Kumara) الذي انتُدب من قبل المجلس ليذهب

(1) "Fifth Root-Race", theosophy.wiki.

(2) "Pralaya", theosophy.wiki.

إلى الأرض قبل ملايين السنين، من أجل مساعدة البشرية في مراحل نموها الروحي عبر الدورات المذكورة سابقًا[1].

تظهر شخصية "سانات كومارا" في أديان أخرى سابقة، فأصل الكلمة في اللغة السنسكريتية يعني "الشباب الأبدي"، وهو في الكتاب الهندوسي "تشاندوجيا أوبانيشاد" أحد الحكماء المستنيرين الذين أدركوا الحقيقة عبر التأمل وكتبوا ترانيم الفيدات. وتتشابه قصته مع ما ورد في أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس عن إبليس الذي كان من الملائكة، فسقط مع أتباعه (الملائكة الساقطة) إلى الأرض بعدما عصى أوامر الرب، لكن علوم السحر والتنجيم والغنوصية القديمة والثيوصوفية أعادت سرد القصة بوضع إبليس في موضع الملاك المحبّ للبشرية والساعي إلى تطويرها وخدمتها.

وبحسب الثيوصوفيا، يتمتع كوكب الزهرة بدرجة متقدمة روحيًا على الأرض، والكائنات السماوية تعيش هناك في المستوى الأثيري الروحي المتجرد من المادة. لذا كانت بلافاتسكي وبقية كتّاب الثيوصوفية يشددون على أن العقيدة اليهودية والمسيحية حرّفت دين الحكمة القديم وزعمت أن الزهرة هي موطن لوسيفر والملائكة الذين سقطوا من الملكوت إلى الأرض، والحقيقة -في رأيها- هي أن هذه الكائنات الروحية أسيء فهمها وتمت شيطنتها.

وفسّرت بلافاتسكي سبب بقاء هذه "التعاليم الروحية" في نطاق سرّي ضيق بضرورة حفظها من التشويه والتدنيس وسوء الاستخدام من قبل أصحاب السلطة على مر العصور، فكان لا بد من إخفائها وتداولها بين نخب الطوائف الغنوصية والجمعيات السرية إلى حين اكتمال نضج البشرية واستعدادها لتقبل هذه "الحقائق".

---

(1) The Secret Doctrine, vol. II, p. 106.

وفي كتابها "مفتاح الثيوصوفيا"، الذي نشرته عام 1889، قالت بلافاتسكي إن الغرض الرئيسي من إنشاء المجتمع على مبادئ الثيوصوفيا هو إعداد البشرية لاستقبال "حامل شعلة الحقيقة" (Torch-bearer of Truth)، وهو الرسول المنتدب من الأسلاف الحكماء الروحيين (السادة الصاعدين)، كي يوجّه تطور البشرية نحو المسار الصحيح[1].

أطلقت بلافاتسكي على هذا المخلّص المنتظر اسم "مايتريا"، وهو مقتبس من البوذية، لكن الثيوصوفية زعمت أنه شخص واحد يتكرر ظهوره وتجسّده عبر التناسخ في مختلف العصور والأعراق. وفي العرق الآري الحالي كان قد تجسد سابقًا في صورة الإله الهندوسي كريشنا بصفته رئيس كهنة الهند، كما تجسد في صورة بوذا، ولاحقًا أيضًا في صورة المسيح على أرض فلسطين.

التسلسل الهرمي الروحي

يعتقد مؤسسو حركة العصر الجديد أن هناك عالمًا روحيًا أضخم بكثير من العالم المادي الذي نعرفه، ويتكون "التسلسل الهرمي الروحي" (The Spiritual Hierarchy) من كائنات كونية (Cosmic Beings)، وسادة صاعدين (Ascended Master) أو "سادة الحكمة القديمة" (Masters of the Ancient Wisdom).

يشمل تصوّر الثيوصوفيا لعالّم الكائنات السماوية الكثير من الملائكة (Angels) و"الديفاس"، ويطلق عليها أيضًا مصطلح "ديان شوهان"، وهم الوكلاء القائمون على تنفيذ وحراسة القوانين الكارمية والكونية.

فالكون ينشأ من جديد -ضمن سلاسل النشأة والانحلال كما أسلفنا- على يد "التسلسل الهرمي" للكائنات التي يشار إليها عمومًا باسم "البنّائين" أو

(1) Blavatsky, The Key to Theosophy, The Theosophical Publishing Company, London, 1889, p. 306–307.

"المهندسين المعماريين"، فهم الذين يشكّلون المادة ويُنشئون الكواكب، ويُطلِق عليهم الماسونيون اسم "مهندس الكون الأعظم" (1)، ومع أن الشائع أن الماسونية تؤمن بالإله المشترك بين أتباع الديانات الإبراهيمية إلا أن المقصود بهذه الإله عندهم -كما تؤكد بلافاتسكي- هو مجموعة الكائنات الروحية المنبثقة عن أصل روحي للوجود، وهذا ما يُكشف لأعضاء الماسونية في درجاتها العليا، فالباطنية الغنوصية لا تؤمن بإله واحد كلي الإرادة والقدرة كما هو موضح في القرآن الكريم والكتب السماوية.

تقول بلافاتسكي إن "البنّائين" ينقسمون إلى اثنتي عشرة نظامًا، يرتبط كل منها بإحدى إشارات الأبراج السماوية (Zodiac)، وقد وصلت أربعة أنظمة منها إلى التحرر، والخامسة على وشك بلوغه لكنها ما تزال نشطة على المستويات الفكرية، في حين ما زالت سبعة أنظمة تحت القانون الكارمي المباشر، وهي التي تعمل في نطاق عالمنا وتؤثر فيه (2).

تشمل الكائنات السماوية معظم أسماء الملائكة المتداولة في اليهودية والمسيحية والإسلام، فالثيوصوفيا تعتقد أنهم كانوا يعملون على تدبير شؤون الكون قبل ظهور العرق الجذري الأول.

ومن بين الكائنات السماوية فئة تسمى كومارات، وهي -في الهندوسية- مكونة من أربعة أبناء وُلدوا من أطراف الإله الهندوسي براهما، لكن بلافاتسكي تقول إنهم سبعة، وهم موجودون خارج النظام الشمسي، وقد لعبوا دورًا في تطور الإنسان أثناء تشكل العرق الجذري الثالث، ومن بين هؤلاء "سانات كومارا" الذي ذكرناه سابقًا، حيث تؤكد بلافاتسكي أنه أحد أعضاء المجلس المكون من سبعة كائنات سماوية على كوكب الزهرة، وأنه انتُدب لرعاية البشر

(1) Helena Petrovna Blavatsky, Collected Writings, vol. x, p. 342.

(2) Ibid, vol. ii, p. 77.

على الأرض. أما الزوجان "مارك وإليزابيث النبي" -وهما من قادة حركة العصر الجديد وسنعرّف بهما لاحقًا- فقالا في أحد كتبهما إن سانات كومارا هو أحد أعضاء مجلس الحكماء السبعة، وإن المعلّمة فينوس (Lady Master Venus) هي زوجته أو توأمه الروحي "توأم الشعلة"، ولديهما ابنة تدعى المعلّمة ميتا، التي سبق أن هبطت من كوكب الزهرة وتجسدت (أفاتار) في أتلانتس على هيئة رئيسة كهنة معبد الشفاء، كما تجسدت في أفاتار آخر في عهد الإمبراطورية الساسانية في بلاد فارس وتزوجت بشريًا وأنجبت منه.

كما ذكرت "إليزابيث النبي" في كتاب "الخيمياء" أن العالم يشهد صراعًا بين إلهين، فإله الخير هو "سانات كومارا" في مقابل الشيطان إله الشر. وهذا يتطابق مع أهم العقائد الغنوصية القديمة التي تتعدد مسمياتها وتتكرر مبادئها، فهي تؤمن بالثنوية الإلهية وتضع إبليس في جانب الخير، بعكس الغنوصيات الدينية -كالمسيحية- التي رفعت إبليس إلى درجة الألوهية لكنها أبقته في الجانب المظلم باعتباره عدوًا للإله (الأب) وندًا له.

في مثال آخر، أصدر الدكتور الهندي المعاصر بارفاثي كومار في 2009 كتابًا بعنوان "تعاليم سانات كومارا"، ووصف في مقدمته هذا الكائن السماوي بأنه معلم المعلمين وحاكم الحكام وسيد الكوكب، وأنه رب العالم الذي يرأس المحفل الأبيض للسادة من عرشه في عالم شامبالا، وهو عالَم أثيري يطفو فوق صحراء جوبي (الحدود بين الصين ومنغوليا) ويُعد مركز الطاقة الرئيس للكوكب، ولا تراه العيون البشرية. ويضيف أن سانات كومارا يمسك بيده مقاليد الحكومة الداخلية، وقد اختير لمراقبة تطور البشر والديفاس على هذا الكوكب.

يقول أيضًا: "سانات كومارا يذيب أنماط الرغبة غير المرغوب فيها، عند استدعائها. تصور أنك تدخل إلى شامبالا في مناطق شمال الهيمالايا وأنك عند

بوابة الأشرم (الصومعة الهندوسية)، تنتظر نعمة سانات كومارا. هذا سيعيد ترتيب رغباتنا إلى وضع أفضل على سبيل اليوغا" (1).

ويزعم المؤلف أن سانات كومارا أعطى 24 وصية للإمبراطور بروثو، وأنها نُقلت عبر المبعوث "مايتريا" حتى دُونت في أحد كتب الفيد المقدسة لدى الهندوس، وهي التي يعيد المؤلف جمعها وإصدارها في كتابه مؤكدًا أنها "الوصايا التي أصدرها سيد الكوكب لتشكل الطريق الكامل للتلمذة" (2).

ويتكرر اسم "سانات كومارا" لدى معظم كتّاب الثيوصوفيا، ويعتبرون أنه سيد الأرض أو الوصي عليها من قبل الكائنات السبعة، ويذكر البعض أنه نزل إلى عالم شامبالا فوق الأرض قبل 4.5 مليون سنة (3)، بينما يرى آخرون أنه هناك منذ 18.5 مليون سنة، وأنه أحضر معه عددًا من سادة اللهب من الزهرة لمساعدته (30 بحسب ليدبيتر وآني بيسانت أو 105 بحسب أليس بيلي) (4)، وهو يجتمع بانتظام مع مايتريا، وماها تشوهان ، وجوال كل، وسانت جيرمان، ويسوع، وغيرهم من سادة الحكمة القديمة لمناقشة خطة الأرض وتقييم التقدم الذي أحرزته البشرية في جميع مجالاتها، كما يستقبل "سانات كومارا" سفراء من أنظمة شمسية أخرى للمساعدة في تطوير الحياة على هذا الكوكب.

وبناءً على هذا الوصف، فإن "سانات كومارا" هو مؤسس "التسلسل الهرمي الروحي" على الأرض، المكوّن من سادة الحكمة الذين يتصدرهم الرسول مايتريا.

---

(1) K. Parvathi Kumar, The Teachings of Sanat Kumara, Visakhapatnam, India, 2009, the Introduction.

(2) Ibid, the Introduction.

(3) "Sanat Kumara", ascension-research.org.

(4) "Lord Sanat Kumara", thepranichealers.com.

و"سانات كومارا" هو كائن سماوي عظيم يتجاوز بكثير الصفات التي يصعب حتى على سادة الحكمة "الصاعدون" تحقيقها.

وفي بعض المصادر، ارتقى بوذا إلى منصب "سيد العالم" في عام 1956، وأصبح بذلك "سانات كومارا" الوصي على عرش سيد الكوكب، تاركًا مهامه لبوذا كي يتفرغ بنفسه للتخطيط طويل المدى وعلى مستوى المجرة، وليعمل على إعداد الأرض لقبولها النهائي في "اتحاد الكواكب المجري" (1).

أما السادة الصاعدون فهم أفراد من البشر عاشوا في فترات سابقة، وربما وُلدوا في إحدى الدورات (الأعراق) السحيقة قبل ملايين السنين، وكانوا من عباقرة علماء السحر والتنجيم الذين طوروا قواهم النفسية والروحية الكامنة لدى بقية البشر، ثم تناسخت أرواحهم إلى أجساد عظماء عدة في التاريخ البشري، قبل أن ينتقلوا إلى المستوى الأثيري الذي لا نراه بأعيننا، ويُطلق على أفرادهم أحيانًا اسم "المهاتما" أي المعلم.

ووفقًا لمؤلفات هيلينا بلافاتسكي، فالسادة الصاعدون تخلّوا عن حقهم في دخول عالم النيرفانا، وهي جنّة سماوية يرتقي إليها المبجّلون مثل بوذا، فقد تنازلوا عن هذا النعيم الذي يشتاقون إليه من أجل البقاء على اتصال مع البشر ومساعدتهم، ولا يخفى ما في ذلك من تضحية كبيرة. وتؤكد بلافاتسكي أنهم ليسوا مجرد أرواح مجردة، بل لهم أجساد ولكن في العالم الأثيري.

أوضحت بلافاتسكي لأتباعها أيضًا في بداية تأسيس جمعيتها أن السادة لا يلتفتون إلى محاولات الأعضاء بطلب خدمات شخصية لهم، فهم لا يتحنون للحظة واحدة من أجل التفكير في المشاكل الفردية وحتى الجماعية المتعلقة بحياة الناس في عالم "المايا" أي الوهم -وهو العالم الدنيوي الذي نعيش فيه- بل كان السادة يشجعون أتباعهم على الانسحاب مثلهم من تفاصيل الحياة

---

(1) Ibid, thepranichealers.com.

والاهتمام بمصير العالم [1]. وقد نجحت هذه القواعد في دفع الأعضاء للمزيد من التفاني في خدمة الجمعية، والاقتناع بأنهم يقومون بخدمة عظيمة للبشرية كلها.

تتكون جماعة "الإخوان البيضاء الكبرى" (Great White Brotherhood)، والمعروفة أيضًا باسم جماعة إخوان النور (Brotherhood of Light) من هؤلاء السادة الصاعدين، بالإضافة إلى تلاميذهم غير الصاعدين (chelas) وأتباعهم المهرة (adepts) في العوالم الأرضية المادية.

التلميذ (chela) هو الذي يعرض نفسه على أحد أساتذة الحكمة الصاعدين ليتعلم منه ويدخل سلك "التنشئة" (Initiation)، وهذا يعني أنه سيتلقى المعرفة من كيان روحي يُزعم أنه كان من البشر ومات وتناسخت روحه، وقد يتجسد في هيئة بشرية مادية أو يبقى في عالمه الأثيري ويبقى التواصل معه بالتخاطر. وبحسب مؤلفات بلافاتسكي نجد أن شروط قبول التلميذ ليست سهلة ولا تتوفر إلا لأصحاب الهمم، فالتنشئة تتطلب الكثير من التقشف والصبر وضبط شهوات النفس والجسد والالتزام بالطقوس [2]، ما يؤكد أن سلوك هذا الطريق ليس متاحًا لأي فضولي أو مغامر أو باحث عن التسلية والتشويق.

يتشابه منهج "التنشئة" من حيث الصرامة والغموض مع منهج الجماعات السرية كالماسونية، ومع أن حركة العصر الجديد -التي وضعت بلافاتسكي أصولها- جعلت من هذه المعرفة أمرًا متاحًا ومطروحًا في الكتب بدون شرط الانتظام في عضوية الجماعات السرية، إلا أن الارتقاء فيها يتطلب الاتصال بتلك الكائنات الروحية (السادة الصاعدون) ولا يُنال بالتثقيف الذاتي.

---

(1) C. Jinarajadasa, The Early Teachings of the Masters 1881-1883, The American Theosophical Society, Chicago, 1923, p. iv.

(2) Helena Petrovna Blavatsky, Collected Writings, vol. iv, p. 607.

ولا يدخل التلميذ سلك التنشئة أصلًا ما لم يكن في درجة "الماهر"، أي أنه أستاذ متضلع في العلوم الغامضة والسحر والتنجيم. وتقول بلافاتسكي: "لو كانت المهارة سهلة المنال لحققها الكثيرون، لكنها أصعب مهمة في الطبيعة"(1).

وبحسب بلافاتسكي، هناك خمس درجات من التنشئة، قد يستغرق التطور فيها عدة سنوات من عمر التلميذ، وعندما يبلغ التنشئة الرابعة يدخل المستوى النيرفاني، وينتقل بذلك إلى المرحلة الخامسة والأخيرة، ويصبح هنا إنسانًا كاملًا (أسيخا في البوذية) لأنه لم يعد أمامه المزيد ليتعلمه، كما يصبح متحدًا مع الكون ومع الذات الواحدة المطلقة، وعندما يغادر جسده المادي بالموت فإنه يرتفع إلى مستوى النيرفانا وقد يلتحق بالسادة الصاعدين(2).

يتوزع السادة الصاعدون في التسلسل الهرمي على سبع فئات، وهي تتوافق مع الأشعة السبعة، وتقول هيلينا إن أعضاء اثنتين من هذه الفئات غامضون، وممثلوهم على الأرض نادرون جدًا، فلا يظهر إلا واحد أو اثنان منهم كل ألفين أو ثلاثة آلاف سنة.

ويشرح ليدبيتر توزيع السادة السبعة كما يلي:

الشعاع الأول: يقوده موريا الذي يلعب دورًا كبيرًا في إرشاد الرجال وتكوين الأمم.

الشعاع الثاني: يقوده كوت هومي، وهو شعاع الحكمة الذي يعلّم حكماء العالم.

الشعاع الثالث: يترأسه بول الفينيسي، وهو معلم علم التنجيم.

الشعاع الرابع: يقوده سيرابيس الذي كان من عظماء مصر القديمة.

---

(1) Collected Writings, vol. ix, p. 165.

(2) "Initiation", theosophy.wiki

الشعاع الخامس: على رأسه هيلاريون القبرصي، وهو يتواصل مع معظم العلماء العظماء في العالم، ويعتمدون عليه في تلقي ملاحظات دقيقة تتعلق بأبحاثهم.

الشعاع السادس: يقوده يسوع المسيح، وهذا هو شعاع القديسين المتعبدين والرهبان من كل الأديان.

الشعاع السابع: يقوده الكونت دي سان جيرمان، الأرستقراطي الأوروبي من القرن الثامن عشر، والذي كان من كبار السحرة.

والتوزيع السابق ليس محل إجماع، فبعض المراجع الثيوصوفية تذكرهم بالترتيب الآتي: موريا، لانتو، بول الفينيسي، سيرابيس، هيلاريون، السيدة نادا، الكونت دي سان جيرمان. ويرتبط كل واحد منهم بمكمّل إلهي (توأم) للتزاوج [1].

وسبقت الإشارة إلى ما ذكرته هيلينا بلافاتسكي عن المعلّمَين اللذين تلقت منهما أهم التعاليم، وهما موريا وكوت هومي، إذ نسبت إليهما الفضل في إرشادها لتأسيس الجمعية الثيوصوفية، فضلًا عن توجيهها للانتقال إلى الهند والقيام بمهام كثيرة طوال حياتها.

وكتبت هيلينا في مذكراتها أنها التقت موريا بجسده المادي البشري لأول مرة في عيد ميلادها العشرين في بلدة رامسغيت قرب لندن، كما ذكرت أنها التقت كوت هومي بهيئته البشرية عدة مرات في التيبت [2].

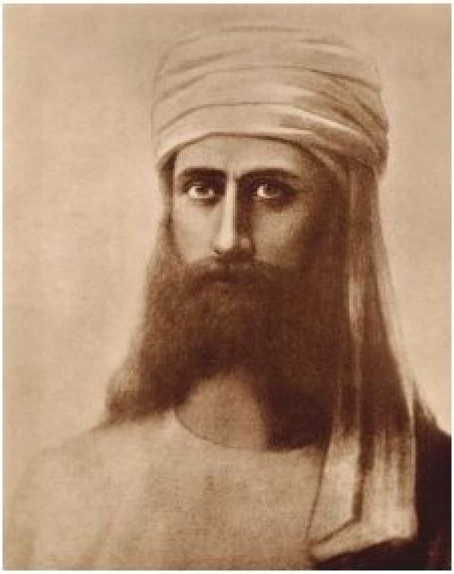
---

(1) "Archangels, Elohim & Chohans", ascension-research.org.

(2) "Helena Petrovna Blavatsky", theosophy.wiki.

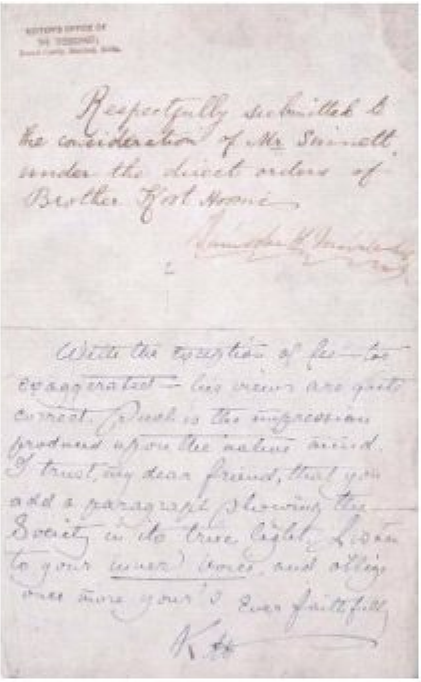


صورة كوت هومي كما رسمها الفنان الثيوصوفي هيرمان شميتشين بطلب من بلافاتسكي عام 1884



صورة موريا بريشة هيرمان شميتشين

وفي عام 1923، نشر المؤلف تريفور باركر كتابًا من 650 صفحة بعنوان "رسائل المهاتما إلى أ.ب. سينيت"، وكانت قصة هذا الكتاب قد بدأت عام 1880 عندما زارت بلافاتسكي صديقها الثيوصوفي الإنجليزي ألفريد بيرسي سينيت في مدينة شيملا الهندية، وأخبرته عن تلقيها رسائل تخاطرية من معلّميها المهاتما كوت هومي والمهاتما موريا، ومع أنه كان مؤيدًا لأفكارها فقد قرر أن يختبر الأمر كي لا يبقى لديه شك، فكتب رسالة موجهة للمعلّم الروحي وتركها على طاولة مكتبه، وبعد نحو يومين وجد ردًا مكتوبًا بخط اليد على طاولة مكتبه، وفقًا للكتاب. وهكذا بدأت سلسلة الرسائل بين الطرفين لمدة خمس سنوات تقريبًا، ثم نُشرت في الكتاب المذكور(1).


Respectfully submitted to the consideration of Mr Sinnett under the direct orders of Brother Koot Hoomi

With the exception of few — too exaggerated — his views are quite correct. Such is the impression produced upon the native mind. I trust, my dear friend, that you add a paragraph showing the Society in its true light. Listen to your inner voice, and oblige once more yours ever faithfully

K.H.

صورة لإحدى الرسائل التي يفترض أنها كتبت بخط كوت هومي وقد نشرت في مقدمة الكتاب

وكانت هذه الرسائل قد تسببت بأزمة كبيرة للثيوصوفية كما أشرنا سابقًا، ففي عام 1884، سافر المحقق الأسترالي الخاص ريتشارد هودجسون إلى الهند خصيصًا لفحص الرسائل التي كشفتها عائلة كولومب إثر خلافها مع بلافاتسكي، ونشر تقريرًا جاء فيه أن الخط يتطابق مع خط بلافاتسكي، ما يعني أنها كتبتها بنفسها ولم تُكتب بيد المعلمين، فأضر ذلك بسمعتها كثيرًا. ولكن بعد نحو قرن، فحصَ الباحث فيرنون هاريسون تقرير هودجسون في عام 1986 وأعلن أن هودجسون كان متحاملًا. وبين هذين

---

(1) "The Mahatma Letters to A. P. Sinnett (book)", theosophy.wiki.

الرأيين لا يمكننا البتّ في الأمر، لكننا لا نستبعد أن يكون المهاتما وكل "السادة الحكماء" من الجن، وأنهم قادرون على تدوين الرسائل كما يفعل البشر.

أولكوت وبيسانت واكتشاف المايتريا

في عام 1891، توفيت هيلينا بلافاتسكي بسبب إصابتها بالإنفلونزا قبل أن تبلغ الستين من العمر، وكانت جمعيتها قد بلغت آنذاك قمة الشهرة، وانضم إليها تلاميذ أوفياء لمتابعة المسيرة. وهي تعد إلى اليوم رائدة حركة العصر الجديد، وأول من كشف الحجاب عن أسرار الجماعات السرية والديانات الغامضة (آيزوتيريك) وأتاحها للدراسة والبحث والممارسة.

كان المهاتما غاندي من أشهر الشخصيات التي انضمت لمحفل بلافاتسكي في لندن، حيث التقى بها قبل وفاتها بقليل أثناء دراسته للقانون في المملكة المتحدة، وقرأ الكتب التي ألّفتها، وعندما عاد إلى الهند بعد ثلاثة عقود قاد حركة الاستقلال وأصبح زعيم الهند، ويُعتقد أيضًا أن جواهر لال نهرو أول رئيس وزراء للهند المستقلة كان عضوًا في الثيوصوفية [1].

واصل أولكوت مهمة قيادة الجمعية الثيوصوفية في مقرها الرئيس بالهند، وكانت البريطانية آني بيسانت ذراعه اليمنى. انشق الفرع الأميركي عنهما بقيادة ويليام كوان جادج، وأطلق الزملاء الأميركيون على المقر الهندي بقيادة أولكوت وبيسانت اسم "الثيوصوفيا الجديدة" لاتهامهما بالتراجع عن بعض مبادئ بلافاتسكي والتركيز على استكشاف الحياة الماضية في المستوى النجمي من خلال الاستبصار، والبحث الحثيث عن المايتريا.

من جانب آخر، كان لأولكوت دور كبير في إنعاش البوذية في شبه القارة الهندية، إذ اعتبر نفسه البطل القادم من الخارج لإنقاذ شبه القارة المحبطة

(1) Mehmet Hasan Bulut, " Theosophy and Gandhi: How Mahatma learned from occult group", dailysabah.com, 23 Feb 2022.

من الموت الروحي في ظل الاحتلال البريطاني [1]، لذا ما يزال أولكوت في نظر السريلانكيين حتى اليوم بطلًا عظيمًا. وبعد وفاته عام 1907 أطلقوا اسمه على شارعين رئيسيين في مدينة كولومبو وجالي، ونصبوا له تمثالا أمام محطة قطار بالعاصمة.

بعد وفاته استلمت بيسانت قيادة الجمعية في الهند، وهي ناشطة بريطانية ثورية شهدت انقلابات كبرى في حياتها من التدين المسيحي إلى الإلحاد، ثم العودة إلى الروحانيات عبر بوابة الثيوصوفيا.

كانت آني بيسانت قد تزوجت في سن العشرين من رجل دين مسيحي، ثم انفصلت عنه مع تبنيها أفكارًا علمانية، واشتهرت بعد طلاقها بتأييدها لتحديد النسل والأفكار النسوية والاشتراكية، ثم أصبحت المتحدثة باسم كل من الجمعية الفابية والاتحاد الاشتراكي الديمقراطي الماركسي، وكتبت الكثير من المقالات ضد الدين والكنيسة.

في عام 1889، كُلفت آني بإجراء مراجعة صحفية لكتاب "العقيدة السرية"، وكانت حينئذ في سن الثالثة والأربعين وقد أصبحت أكثر اهتمامًا بالفلسفة ونفورًا من المعارك السياسية والاجتماعية، ويبدو أن الكتاب سلب عقلها، فسارعت للقاء هيلينا بلافاتسكي شخصيًا، وما لبثت أن التحقت بمحفلها في لندن، وولّت ظهرها للإلحاد ولجمعية فابيان الاشتراكية. ووهبت نفسها للثيوصوفية.

انتقلت آني بيسانت إلى الهند في 1893، تزامنًا مع أزمة اندلعت بين خلفاء بلافاتسكي نشأ عنها انفصال الجمعية الأم في نيويورك عن المقر الثاني في مدينة تشيناي (مدراس) الهندية، وأصبحت آني هناك من أهم المناضلين لاستقلال الهند.

---

(1) Stephen Prothero, "Henry Steel Olcott and 'Protestant Buddhism'", Journal of the American Academy of Religion, vol. 63, p. 295.

انضمت بيسانت إلى "النظام الماسوني العالمي للرجال والنساء" (Le Droit Humain) وهو منظمة ماسونية أُنشئت في فرنسا لتجاوز القواعد القديمة التي ترفض عضوية النساء، ثم أسست بيسانت في إنجلترا أول محفل للماسونية المشتركة (Co-Freemasonry)، وكان لها دور مهم لاحقًا في تأسيس محافل إضافية للماسونية المشتركة التي تستقبل النساء، في الهند وأستراليا وأميركا الجنوبية[1].

في عام 1898، أسست بيسانت في الهند الكلية الهندوسية المركزية، وكان للكلية منذ تأسيسها دور في تخريج أجيال من الهندوس القوميين المتعصبين، إذ كانت بيسانت (القادمة من إنجلترا) ترى أن المدارس الحكومية تشوه اللغة الهندية والديانة الهندوسية، فعملت على تأسيس هذه الكلية للحفاظ على الأصولية الهندوسية "ساناتانا دارما"، وحصلت بذلك على دعم كبير من من الهنود الأثرياء الذين لم يعتادوا على رؤية شخص إنجليزي يبدي اهتمامًا بثقافتهم[2].

في عام 1907 أصبحت بيسانت رئيسة الجمعية الثيوصوفية، وأبدت مع زملائها اهتمامًا أكبر بالبحث عن المبعوث الذي سيخلّص البشرية "مايتريا". وفي أبريل 1909، كان تشارلز ويبستر ليدبيتر -وهو من القادة الإنجليز لمقر الثيوصوفية في الهند- عند شاطئ مقر الجمعية على نهر أديار، ولاحظ صبيًا

---

(1) The International Bulletin, The International Order of Freemasonry for Men and Women (Le Droit Humain), 20 September 1933.

(2) أصبحت الكلية لاحقًا جزءًا من جامعة باناراس الهندوسية (BHU) المستمرة حتى اليوم، ومع أن الكلية استقطبت اهتمام الهنود القوميين في السنوات الأولى من عملها لكن بعضهم اعترض لاحقًا على تدريسها للهندوسية في إطار الثيوصوفية، وانتهى الأمر بانتزاع السيطرة على الكلية من الثيوصوفيين بحلول عام 1911.

هنديًا يدعى جيدو كريشنامورتي، فأدهشته الهالة النورانية المحيطة به -كما تقول الرواية- وتبين أنه ابن موظف فقير حصل على وظيفة في مقر الجمعية. كان الفتى في سن الرابعة عشرة، متواضعًا بسيطًا يتيم الأم، ووجدت فيه بيسانت المواصفات المناسبة، فأقنعت والده بأن تكون الوصي القانوني له ولشقيقه الأصغر نيتيا، وأعلنت بالفعل أنه سيكون "المعلم العالمي"، واجتذب النبأ أتباعًا من الروحانيين والباطنيين من جميع أنحاء العالم.

حظي كريشنامورتي برعاية فائقة، وتولى زملاء الجمعية مهمة تعليمه وحمايته، ثم أنشأت الجمعية الثيوصوفية في عام 1911 "نظام النجمة في الشرق" (OSE)، وهي منظمة دولية تتخذ من تشيناي الهندية مقرًا لها وتتولى مهمة إعداد العالم للسير وراء المعلّم العالمي، عُيِّن كريشنامورتي رئيسًا لها، وبيسانت وليدبيتر حماةً للنظام الجديد، وفُتح باب العضوية لأي شخص يقبل عقيدة المايتريا. اندلع جدل كبير داخل الجمعية الثيوصوفية وخارجها بشأن صحة اختيار المعلم، وكذلك في الأوساط الهندوسية والصحافة الهندية، وانشق بعض الأعضاء عن الجمعية ومؤسساتها لعدم اقتناعهم، لكن الجمعية واصلت عقد المؤتمرات والمحاضرات لتقديم المايتريا الفتى للجمهور.

في العام التالي لجأ والد الفتى للقضاء مطالبًا بإلغاء وصاية بيسانت على ولديه، وقال إنه لم يكن يعرف أنها ستؤلّه ابنه وتسمح لأتباعها بالسجود له. وفي النهاية فازت بيسانت بالقضية عند الاستئناف.

انتقل كريشنامورتي إلى إنجلترا وتعلم الإنجليزية، وقام مع شقيقه نيتيا بجولة أوروبية، ووفّرت له الأميركية الثيوصوفية الثرية ماري ميليسا هودلي دودج حياة مترفة. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى شرع في تقديم سلسلة من المحاضرات والاجتماعات والمناقشات حول العالم، ثم استقر في عام 1922 في كاليفورنيا، وبدأ يتعرض في السنة نفسها لنوبات ألم تعقبها حالة روحية من

الانتشاء، وسمّى أتباعه هذه الحالات التي شهدها بعضهم باسم "العملية" (process)، ومع أن قادة الجمعية عجزوا عن تفسيرها إلا أنهم اعتبروها من الخوارق التي ينبغي أن يتمتع بها المايتريا.



أني بيسانت بصحبة جيدو كريشنامورتي وشقيقه الأصغر نيتيا في زيارة لإنجلترا عام 1911

في عام 1925، توفي نيتيا في عمر السابعة والعشرين بعد مرض عضال، واهتز إيمان كريشنامورتي بالثيوصوفيا بعدما تلقى تأكيدات قادة الجمعية بأن صحته ستتحسن وأن بقاء شقيقه بجانبه ضروري لإكمال مهمته. احتدم النقاش داخل الجمعية، وفي 3 أغسطس 1929 ألقى كريشنامورتي خطبة أمام نحو ثلاثة آلاف من أتباعه في مؤتمرهم السنوي في هولندا، وأعلن فيه حلّ "نظام النجمة في الشرق"، مؤكدًا أنه اتخذ قراره بعد دراسة متأنية طوال العامين الماضيين (1).

كان كريشنامورتي قد بلغ آنذاك سن الثانية والثلاثين، وتلقى تعليمًا واسعًا وأصبح قادرًا على التفكير والفهم باستقلالية. قطع علاقته بالجمعية، وأبقى

(1) "Truth is a pathless land", jkrishnamurti.org.

على علاقة الودّ بآني بيسانت التي ظل يعتبرها بمثابة الأم حتى وفاتها، كما كان ذكيًا في التنصل من مهمة المايتريا بدون إعلان الحرب على الجمعية وأعضائها، وأعاد الأموال والعقارات والأراضي المتبرع بها للنظام المنحلّ، ثم انخرط فيما بقي من حياته في مهمة شخصية لإلقاء المحاضرات وتأليف الكتب باعتباره روحانيًا يسعى للسلام فقط [1].

تسبب انسحاب كريشنامورتي بأزمة هائلة داخل الجمعية الثيوصوفية، حيث أضرت كثيرًا بمؤسساتها وبالمكانة العامة لفكر الثيوصوفيا. وكان عدد أعضاء الجمعية الثيوصوفية يُقدّر آنذاك بحوالي 45 ألف عضو، لكن ثلثهم تقريبًا غادرها بعد تلك الحادثة. قللت الجمعية من أنشطتها الخارجية والتحدث إلى وسائل الإعلام واهتمت بالإصلاحات الداخلية، كما أجرى بعض قادتها مراجعات لأجزاء من عقيدتها لامتصاص الصدمة وتقديم تفسيرات مقبولة لما حدث، وكانت الرواية المعتمدة هي مقولة ليدبيتر: "لقد سار مجيء المايتريا بشكل خاطئ" [2].

نجحت آني بيسانت جزئيًا في احتواء الأزمة بسبب تعلقها الشخصي بكريشنامورتي الذي تبنّته في سن المراهقة، فاشترت قطعة واسعة من الأرض بالقرب من مقر الجمعية الثيوصوفية ومنحتها له كي تضمن سلامته وعدم تعرضه لأي اعتداء من الأعضاء الغاضبين، وأصبحت هذه الأرض لاحقًا المقر الرئيسي لمؤسسة كريشنامورتي في الهند. وفي عام 1933، توفيت بيسانت عن عمر يناهز 85 عامًا، ولقيت تكريمًا واسعًا بصفتها من المدافعين عن استقلال الهند.

---

(1) Mary Lutyens, The Open Door, Krishnamurti Foundation Trust Ltd, 2003, p. 277-283.

(2) Mary Lutyens, p. 279.

أما كريشنامورتي فصار من مشاهير العالم، وربما تضاعفت شهرته بعد قرار انسحابه بأضعاف كثيرة عما كانت قبل ذلك، واستقبلته المنظمات الدولية بصفته أحد المعلّمين والحكماء الهندوس الساعين للسلام، وظل يقدم المحاضرات ويلتقي بكبار الشخصيات ويخوض النقاشات الفكرية مع كبار المفكرين والعلماء إلى أن توفي عام 1986 عن عمر يناهز 90 عامًا.

ألیس بیلي ولوسیفر ترست

سنعود في سردنا لقصة الثيوصوفيا إلى الوراء قليلًا للتعرف على سيدة بريطانية أخرى تدعى أليس بيلي، التي يُنسب إليها الفضل في ابتكار مصطلح "العصر الجديد"، والذي صار لاحقًا اسمًا للثيوصوفيا وكل الحركات المشابهة.

نشأت أليس مثل آني بيسانت على التدين المسيحي، وتزوجت مثلها أيضًا رجل دين وانفصلت عنه عام 1915. كانت قد انتقلت قبل طلاقها إلى أميركا، واستقرت فيها، وفي عام 1917 تعرفت على الجمعية الثيوصوفية وانضمت إليها، وسرعان ما أصبحت من أهم أعضاء المقر الأميركي، ثم تزوجت فوستر بيلي الذي كان أمينًا وطنيًا للجمعية الثيوصوفية.

قبل انضمامه للثيوصوفية، انضم فوستر بيلي في عام 1913 إلى محفل تشارلز دبليو مور الماسوني، وترقى إلى الدرجة الثالثة والثلاثين، وهي الدرجة العليا التي تُكشف لصاحبها كل الأسرار، كما ألف كتابًا أسماه "روح الماسونية" (The Spirit of Masonry)[1].

اختلف الزوجان أليس وفوستر مع بيسانت التي اعتُبرت مؤسسة لتيار جديد، بينما كان الزوجان يحاولان العودة بالجمعية إلى مبادئ مؤسستها بلافاتسكي، وانتهى الخلاف بفصلهما، حيث لم تستمر عضوية أليس أكثر من أربع سنوات تقريبًا.

---

(1) "Foster Bailey", theosophy.wiki.

واصلت أليس بيلي عملها بالتأليف خارج الجمعية، وكانت تزعم أن معظم أعمالها قد تم إملاؤها بالتخاطر من قِبل أحد أساتذة الحكمة القديمة، وهو ممن زعمت بلافاتسكي أنها تلقّت عنه أيضًا محتوى كتاب "العقيدة السرية" وكانت ترمز له بحرفين "Master DK". وبدءًا من عام 1922 كانت بيلي تصدّر كتبها بمقدمة تحت عنوان "مقتطف تمهيدي من بيان للتيبتي"، ويتضمن هذا المقتطف نصًا يُعرّف فيه عن نفسه ويقول فيه إنه معلم تيبتي يعيش في جسد مادي مثل الرجال الآخرين على حدود التيبت، وفي بعض الأحيان يترأس مجموعة كبيرة من المعلمين البوذيين التيبتيين للقيام ببعض واجباته، وهو يسعى لمساعدة المعلّمين الكبيرين كوت هومي وموريا، مشيرًا إليهما بالأحرف الأولى فقط [(1)]. ويتكرر نشر هذا البيان في مقدمة 21 كتابًا على اعتبار أنها ليست سوى إملاءات منه، أما المؤلفات التي تنسبها بيلي لنفسها بدون مساعدة من "المعلّم التيبتي" فهي سبعة فقط.

لم تذكر أليس الاسم الكامل لهذا "السيد الصاعد" لكن أتباعها يؤكدون أنه "جوال كل" (Djwal Khul)، وكان ليدبيتر قد ذكر أنه رأى "جوال كل" يظهر لحظيًا في غرفة كان يجلس فيها مع مدام بلافاتسكي [(2)]، وهذه الادعاءات إن صحّت فهي تؤكد أن قادة هذه الحركة كانوا يتلقّون التعاليم عن شياطين الجن طوال حياتهم، وهم يحسبون أنهم من النخبة التي حظيت بالاتصال بكائنات إلهية وأرواح أسلاف عظماء يسيّرون الكون.

بعد فصل الزوجين أليس وفوستر بيلي من الجمعية الثيوصوفية، أسّسا منظمة جديدة باسم "لوسيفر ترست" (Lucifer Trust)، كما أطلقا على

---

(1) Alice Bailey, Discipleship in The New Age, Lucis Trust, 1944, vol. 1, p. vii.

(2) C.W. Leadbeater, The Masters and the Path Adyar, Theosophical Publishing House Pages, Madras, 1925, p. 8.

دار النشر الناشئة اسم "شركة لوسيفر للنشر". وتعرّضا أيضًا للانتقادات من المسيحيين باعتبارهما ينتسبان للشيطان، فتم تغيير الاسم بحلول عام 1925 إلى "Lucis Trust"، وما زالت المنظمة تعمل بهذا الاسم حتى اليوم. ويبرر أحد أتباع الثيوصوفيا اختيار اسم "لوسيفر" بأن "الزوجين كانا مثل المعلمة العظيمة بلافاتسكي يكنّون احترامًا كبيرًا له، وقد سعوا إلى الحصول على فهم أعمق للتضحية التي قدمها لوسيفر. كانت أليس وفوستر بيلي تلميذين جادين ومدرسين للثيوصوفيا، وهو تقليد روحي يرى أن لوسيفر كان من الملائكة النجميين، وهي تلك الكائنات المتقدمة التي نزلت من كوكب الزهرة إلى كوكبنا منذ دهور لجلب جوهر العقل إلى الإنسان الذي كان آنذاك حيوانًا. ومن المنظور الثيوصوفي، لم يكن نزول هؤلاء الملائكة النجميين سقوطًا في الخطيئة أو العار، بل كان عمل تضحية عظيمة، وهذا هو مضمون اسم "لوسيفر" الذي يعني لغويًا حامل الضياء"(1).

(1) Sarah McKechnie, "Descent and Sacrifice", The Beacon magazine, September/October 1989.

في عام 1923 أسست أليس بيلي "the Arcane School " والتي تعني "المدرسة الغامضة"، ولها الآن ثلاث مقرات في نيويورك ولندن وجنيف، وتُقدم دروسها بكل اللغات الأوروبية الرئيسية، ويقول بيانها التعريفي إنها تدرب الناس على التأمل والخدمة لتطوير إمكاناتهم الروحية، وإن الغرض من هذا التدريب هو "مساعدة الطلاب على فهم وقبول مسؤولية التلمذة والتعرف على الدور الذي يمكنهم لعبه في تطور الوعي من خلال خدمة الإنسانية"(1).

ومن بين البرامج التي تديرها منظمة "لوسيس ترست" برنامج يسمى "المثلثات" (Triangles)، وهو مشروع أنشئ عبر الإنترنت لتشجيع الأتباع من "الرجال والنساء الأذكياء ذوي النوايا الحسنة في أي مكان في العالم" على تشكيل جماعات من ثلاثة أشخاص فقط، بحيث يتفقون على الاجتماع الافتراضي وفق جدول زمني من أجل أداء التأملات الروحية اليومية وبث الطاقة الحيوية الإيجابية في العالم(2)، ويصب البرنامج بالطبع في مصلحة المشروع الكلي وهو تهيئة الكوادر التي ستخدم المايتريا عندما يظهر.

أما أكثر مشاريع "لوسيس ترست" إثارة للجدل فهي التي تجمعها بمنظمة الأمم المتحدة، ففي عام 1932 أسست "لوسيس ترست" برنامجًا دوليًا باسم "النوايا الحسنة العالمية" (World Goodwill)، لتكون منصة للنشاط الدولي الذي لا يحصرها في نطاق الجمعيات الدينية. وبعدما تأسست منظمة الأمم المتحدة أصبحت "النوايا الحسنة العالمية" منظمة غير حكومية معتمدة لدى إدارة شؤون الإعلام في الأمم المتحدة، ولها مقرات في نيويورك وجنيف ولندن، وتقيم علاقات غير رسمية مع مجموعة واسعة من المنظمات غير الحكومية الوطنية والدولية.

---

(1) "About the Arcane School", lucistrust.org.

(2) "About Triangles", lucistrust.org.

تفاخر المنظمة الأم أيضًا بأن صندوق "Lucis Trust" مدرج في قائمة المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة، وتعلن أن "منظمة النوايا الحسنة العالمية تؤمن بقوة بضرورة دعم الأمم المتحدة باعتبارها الأمل الرئيسي لمستقبل البشرية" (1).

ووفقًا للصفحة التعريفية بمنظمة النوايا الحسنة في الموقع الرسمي للمنظمة الأم "لوسيس ترست"، فالعالم لا يعيش الآن فقط مرحلة الإعداد لحضارة وثقافة جديدة بل أيضًا "لمجيء نظام روحي جديد"، كما يقول الموقع: "اليوم، يتوقع الملايين ظهور المعلم العالمي، المسيح، ليس فقط من قبل أتباع الإيمان المسيحي ولكن من قبل أولئك من كل دين الذين يتوقعون ظهور الأفاتار تحت أسماء أخرى: اللورد مايتريا، كريشنا، المسيح، الإمام المهدي والبوديساتفا".

ثم يوضح الموقع أن هناك سوء فهم يحيط بهذه "الحقيقة"، وأنه لا بد من إعداد أشخاص من ذوي النوايا الحسنة لإدخال قيم جديدة للتعايش والتعاون والسلام. وعندما يظهر المعلم العالمي فلن يلتفت إلى أخطاء الماضي بل سيعمل على توفير متطلبات الحضارة الجديدة وإعادة تنظيم البنية الاجتماعية.

ويحفل موقع المنظمة بالكثير من المقالات التي كتبتها أليس بيلي ومنظّرون آخرون، وهي تؤكد في العموم على ضرورة الاتحاد الروحي في "العصر الجديد"، وتتفاءل كثيرًا بدور الأمم المتحدة في تحقيق أهدافها.

توفيت أليس بيلي بأواخر عام 1949 في نيويورك، وكان عمرها 69 عامًا، أي أنها شهدت نشوء الأمم المتحدة في بداياتها، لكن أتباعها في المنظمة هم الذين واصلوا المهمة. وقد تركت مؤلفاتها أثرًا أكبر من غيرها في الجمعية الثيوصوفية التي طردتها، إذ كانت أليس حريصة على الانفتاح خارج حدود الجماعة وتقديم أفكارها بشكل يتقبله الآخرون، ونجحت بالفعل في دمجها بالمسيحية نفسها،

---

(1) "World Goodwill", lucistrust.org.

معتبرة أن المسيحية والأديان الأخرى كلها تنتظر المسيح المخلّص، وأن المطلوب هو تآخي البشرية كلها بالمحبة والتعاون والاستعداد لخروج هذا المخلّص أيًا كان اسمه، فمع أنها كانت تؤمن بأن المخلّص سيكون نفس الكائن الروحي (مايتريا) الذي وصفته بلافاتسكي وبيسانت إلا أنها لم تقيّد نشاطها بمطالبة كل البشرية بالتعرف على صفاته من خلال طائفة محددة (الثيوصوفية)، بل كانت تكتفي بدعوة أتباع كل الطوائف للتعايش في سلام، معتقدة أن البشرية ستدرك في النهاية أنها كانت تنتظر المايتريا ولكنها تفرقت إلى طوائف مختلفة بتراكم الأخطاء على مرّ القرون.

استمرت شركة "لوسيس ترست" بإصدار مؤلفات جديدة لأليس بيلي بعد وفاتها، وكان معظمها كما أسلفنا يُنسب إلى "المعلم التيبتي"، ومن بينها كتاب بعنوان "إخراج التسلسل الهرمي" (The Externalisation of the Hierarchy) المنشور عام 1957، والذي يبدو أن أليس كتبته في أيامها الأخيرة، فهي تستعرض فيه العوامل الروحية المؤثرة على المشهد العالمي ما بين عامي 1919 و1949، وهو العام الذي توفيت فيه، حيث شهدت السنوات الأخيرة اندلاع الحرب العالمية الثانية بكل ما فيها من مآسٍ، والتي تعزوها أليس إلى نقص المسؤولية في الإرادة البشرية الحرة بالرغم من كل الفُرص التي قُدمت من قبل "التسلسل الهرمي" لتفادي الصراع، فهي تؤكد على أن الكائنات العليا كانت حريصة على منع البشر من القتال لكنها لا تنتهك حريتهم إذا أرادوا ذلك بأنفسهم.

المهم في الكتاب أن أليس وضعت خطة زمنية واضحة للمستقبل، وذكرت فيها أن "عام 2025 سيكون على الأرجح التاريخ الذي تم تعيينه للمرحلة الأولى من إخراج التسلسل الهرمي"[1]. ومع أن هذا الطرح جاء بعد حوالي ثلاثة عقود

(1) Alice Bailey, The Externalisation of the Hierarchy, Lucis Publishing Company, p. 531.

من انسحاب كريشنامورتي من خطة إعداده ليكون المايتريا المُنتظَر، إلا أنها أعادت بعض الاعتبار لأتباع الثيوصوفيا ومنحتهم المزيد من الوقت.

جماعات أخرى

ذكرنا سابقًا أن كريشنامورتي انسحب من مشروع المايتريا في أواخر العشرينات، مما أضر كثيرًا بسمعة الثيوصوفيا ودفع شريحة واسعة من أتباعها للتخلي عنها. ومع ذلك، كانت فترة الثلاثينات من القرن العشرين حافلة بأفكار ونبوءات حركة العصر الجديد، ففي بداية هذا العقد ظهرت حركة جديدة في شيكاغو باسم "النشاط أنا" ("I AM" Activity Movement)، على يد جاي بالارد وزوجته إدنا آن ويلر بالارد، وخلال أقل من عقد وصل عدد أتباعها إلى مليون شخص.

استفاد الزوجان من إرث بلافاتسكي، وزعما أيضًا التواصل مع مئتين من "السادة الصاعدين"، وإملاء آلاف النصوص عليهما، كما قدمت الزوجة إدنا عملية الإملاء أمام الجمهور في عام 1942. ولعل أهم ما ميّزهما هو نقل أفكار الثيوصوفيا من الوسط الفكري إلى النشاط الاجتماعي، ولعبهما على الأوتار الوطنية والقومية والطائفية لاكتساب الشعبية، فمن بين مئتي سيد صاعد زعما التواصل معهم ركّز الزوجان على الكونت دي سان جيرمان، وأسسا دار نشر باسمه لنشر الكتب، فقد كان من ملهمي إعلان استقلال الولايات المتحدة ودستورها، مما أكسب الحركة صفة وطنية، واعتبرا أيضًا أن المسيح من سادة الحكمة، وقدّما الكثير من مبادئ الحركة في قالب مسيحي، مما ساعدهما على اكتساب شعبية لم تحظ بها الثيوصوفية.

كان الخطاب السائد آنذاك أن "جماعة الإخوان البيضاء" قد اتخذت إجراءً عالميًا بدعوة الناس علنًا إلى الاستعداد لظهور المايتريا، وأن التعاليم التي ظلت حبيسة جدران الجمعيات السرية -كالماسونية وغيرها- منذ آلاف السنين

قد آن أوان كشفها للجميع. وأصدر جاي بالارد -تحت الاسم المستعار آنذاك غودفري ري كينغ- في أواخر 1930 كتابه "الأسرار المكشوفة" (Unveiled Mysteries)، الذي زعم فيه إجراء حوار مع الكونت دي سان جيرمان ليحدث القراء عن حياته الماضية في أتلانتس، ويخاطبهم بقوله: "أحبائي أبناء الأرض، أنتم تقفون على عتبة العصور. بابها مفتوح من قبل عظماء الحب الذين يدعونكم دائمًا للمشي بوعي إلى جانبهم في النور"(1).



جاي وإدنا بالارد وخلفهما صورة متخيلة لشخصية سان جيرمان (Vaivasvata, Wikimedia)

توفي جاي بالارد في أواخر الثلاثينات، ولحقت به زوجته بعد بضع سنوات، لكن الحركة ما زالت نشطة حتى اليوم، كما ألهمت آخرين للسير على نفس الطريق، ومنهم الأميركية جيرالدين إنوسنت، التي أسست في عام 1951 جماعة

(1) "Great White Brotherhood / Brotherhood of Light", ascension.research.org.

باسم "الجسر إلى الحرية" (The Bridge to Freedom) وكررت فيه نفس خطاب التواصل مع السادة الصاعدين، وقالت إن موريا كان يتواصل معها منذ 1944، ثم خضعت لسنوات من التدريب والتنشئة حتى أصبحت مؤهلة للإملاء، وصارت تتواصل حسب زعمها مع ماها شوهان وسان جيرمان.

من المتأثرين أيضًا بحركة "النشاط أنا" الأميركي ماركوس لايل الذي ادعى أنه نبيّ مُرسَل من "السادة الصاعدين"، وأسس في العاصمة واشنطن منظمة "منارة القمة" عام 1958.

سمى ماركوس نفسه "مارك النبي"، وتزوج إليزابيث كلير التي أصبح اسمها "إليزابيث النبي". وتبنى نظريات المؤامرة التي تشكك في الحكومة الأميركية باعتبارها تعمل ضد مشروع التنوير الذي يسعى إليه "السادة". ونجح في استقطاب آلاف الأتباع، وانتقل إلى قصر قديم في فيرجينيا ليصبح مقرًا للمنظمة، وأسس دار نشر وأكاديمية لتدريب الأتباع ومدرسة لأطفالهم.

زعم "مارك النبي" كأسلافه الاتصال والإملاء من السادة، ومن موريا وسان جيرمان تحديدًا، وتوفي عام 1973 تاركًا القيادة لزوجته التي كانت في سن الثالثة والثلاثين، فزعمت أن مارك صار بنفسه واحدًا من "السادة"، وألفت المزيد من الكتب التي قالت إنها كانت بإملاء "كوت هومي" وغيره من السادة، كما زعمت تلقي الوحي من المسيح الذي وجّه بتغيير اسم المنظمة إلى "الكنيسة العالمية المنتصرة" (Church Universal and Triumphant)، وصار أتباعها يطلقون عليها اسم الأم باعتبار أنها في مرتبة مريم العذراء.

تحولت "الكنيسة العالمية المنتصرة" إلى طائفة مغلقة (cult)، وصارت مهووسة بالاستعداد للحرب النووية مع الاتحاد السوفييتي، وفي أواخر الثمانينات بدأت بتخزين الأسلحة النارية والمواد الغذائية ومعدات النجاة اعتقادًا بأن المجتمع الأميركي سينهار وتعم الفوضى. وطوال عقد الثمانينات

كانت الجماعة تواجه مشاكل قضائية واتهامات بالاحتيال والابتزاز وغسيل عقول الأتباع، ونجحت إليزابيث بتوظيف هذه المصاعب في إقناع أتباعها بأنهم الفئة المختارة لإنقاذ البشرية، وتقول بعض المصادر إنها تنبأت بأن يوم 15 مارس 1990 سيكون يوم الضربة النووية السوفييتية، فقضى آلاف الأعضاء ليلة ذاك اليوم في الملجأ الذي خصصوه لذلك، وفي صباح اليوم التالي انفصل نحو ثلث الأعضاء عن الجماعة إثر فشل النبوءة، وذلك بعدما استقالوا من وظائفهم وأنفقوا مدخراتهم على شراء مستلزمات النجاة وتمويل مشاريع الجماعة. وتشير بعض المصادر إلى أن إليزابيث لم تتنبأ بوقوع الحرب على وجه اليقين، وأنها أمرتهم فقط بإجراء التدريبات في الملجأ، وأكدت لأتباعها أن الهجوم النووي لم يتحقق لأن صلواتهم نجحت في منع وقوع الكارثة، ثم حدّثت نبوءتها ومددت فترة الاستعداد 12 عامًا (1)، وقالت لصحيفة التايمز إن الصحف شوهت تصريحاتها ونسبت إليها التنبؤ بنهاية العالم، مضيفة: "حتى لو كانت هناك حرب نووية، أعتقد أننا قادرون على النجاة منها. لا أعتقد أنها نهاية الكوكب" (2).

واللافت أن غالبية الأعضاء تمكنوا من اجتياز التحديات وظلوا مؤمنين بقناعاتهم (3)، وفي عام 1996 انسحبت إليزابيث من القيادة بعد معاناتها مع

---

(1) Erin Prophet & Susan Palmer, "Church Universal & Triumphant / Summit Lighthouse", wrldrels.org.

(2) "Elizabeth Clare Prophet dies at 70; former leader of religious sect", latimes.com, 19 October 2009.

(3) في مطلع عام 1956 صدر في الولايات المتحدة كتاب بعنوان "عندما تفشل النبوءة" (When Prophecy Fails) للمؤلفين الثلاثة ليون فيستنغر وهنري ريكن وستانلي شاشتر، وهو خلاصة لدراسة أجروها في الخفاء عندما تمكنوا مع فريقهم من اختراق مجموعة دينية مغلقة (cult) =

نوبات الصرع، وتولى العضو غيلبرت كليرباوت القيادة. انشق بعض الأعضاء وأسسوا جماعات أخرى مشابهة بادعائهم أنهم الرسل الحقيقيون للسادة الصاعدين، بينما واصل كليبرباوت مسيرة الادعاء بتلقي الوحي من السيدة العذراء مريم ويسوع المسيح وسان جيرمان.

أصيبت إليزابيث لاحقًا بمرض ألزهايمر، وتوفيت في عام 2009 عن سبعين عامًا. وخلّفت خمسة أبناء. رفضوا جميعًا محاولات أمهم بإقناعهم بتولي مناصب في الطائفة فضلًا عن قيادتها، بل أعلن أحد أبنائها الإلحاد، كما كتبت ابنتها الكبرى إيرين كتابًا عن قصة الطائفة التي أسستها أمها معتبرة أنها مجرد خرافة. ومع ذلك، ما يزال هناك من يؤمن بتلك الطائفة حتى اليوم، ويعتقدون أن إليزابيث أصبحت من السادة الصاعدين، وأنها مرت بسلسلة من التناسخ في مراحل سابقة وكانت هي نفسها نفرتيتي في مصر القديمة، ثم هيباتيا فيلسوفة الأفلاطونية الحديثة في الإسكندرية في القرن الرابع الميلادي، وكذلك إمبراطورة النمسا إليزابيث في القرن التاسع عشر، إضافة إلى تجسيدات أخرى (1).

بالتوازي مع كل الجمعيات والحركات السابقة المتأثرة بالثيوصوفيا، كانت هناك جماعات باطنية أخرى تعتمد السحر منهجًا علنيًا وصريحًا، وتركز على ممارسة الطقوس الشيطانية أكثر من اهتمامها بالجانب الفكري وبالاستعداد

= ظهرت في شيكاغو، وكانت صاحبتها دوروثي مارتن تزعم تلقيها الوحي من "السادة الصاعدين" في كوكب يدعى كلاريون، وأقنعت أتباعها بترك وظائفهم وأملاكهم في انتظار المركبة الفضائية التي ستأتي لانتشالهم قبل دمار العالم. اهتمت الدراسة بمحاولة فهم ردود أفعال الأتباع عندما تفشل النبوءة، وبيّنت أن ظاهرة "التنافر المعرفي" تدفع الكثير منهم إلى تبادل الدعم النفسي فيما بينهم لمقاومة الضغط الداخلي بالتخلي عن معتقداتهم وتقليل ألم الإنكار، كما يندفعون بحماس للتبشير ومحاولة نشر معتقداتهم أملًا في ازدياد معتنقيها كي يشعروا بأنها صحيحة، وفي الوقت نفسه فإن البعض يدخلون في مرحلة خيبة أمل مؤلمة، يعقبها التخلي عن الجماعة ومعتقداتها.

(1) "Elizabeth Clare Prophet", encyclopedia.summitlighthouse.org.

لعصر جديد تقوده كائنات نورانية. وفي السنة الذي أسست فيها بلافاتسكي جمعيتها وُلد في لندن أليستر كراولي، الذي يُعد أشهر السحرة في العصر الحديث.

نشأ كراولي في عائلة مسيحية متدينة، وتوفي والده وهو في سن الحادية عشرة، فورث منه ثروة صغيرة وانطلق في بداية شبابه لممارسة هواياته ومغامراته متمردًا على الدين والمجتمع. كان يجاهر بالشذوذ الجنسي -الذي كان جريمة في بلاده آنذاك- وبممارسة كل الموبقات في دور الدعارة، ثم قاده الفضول للتعرف على الخيمياء والسحر والتنجيم فوجد فيها مراده.

انضم إلى جمعية "الفجر الذهبي" (Golden Dawn) السحرية وأصبح من قادتها، وانضم أيضا إلى منظمة سرية ماسونية تدعى " Ordo Templi Orientis" وتمكن من السيطرة عليها مع بعض زملائه. ومع ترقيه في عالم السحر ادعى في عام 1904 الاتصال بكيان خارق يُدعى أيواس، وقال إنه أملى عليه كتابًا يدعى "القانون"، وهو الكتاب المقدس لدين جديد سماه "ثيليما" (Thelema)، الذي يمجد الإله "حورس" أحد آلهة المصريين القدماء، وكان كراولي يرى نفسه نبي هذه الديانة ورسول حورس في هذا العصر.

أعلن كتاب القانون أن على الأتباع إطلاق العنان لشهواتهم كي تتواءم نفوسهم مع إرادتهم الحقيقية، وهذا يتطلب أحيانًا ممارسة "السحر الاحتفالي" الذي يتضمن أشنع أشكال العربدة، بدءًا بالزنا واللواط ووصولًا إلى تقديم القرابين البشرية.

كان كراولي نشيطًا للغاية، فتجوّل في أنحاء أوروبا وأميركا ومناطق واسعة من أفريقيا وشرق آسيا، وحيثما حلّ كان يمارس طقوس "السحر الاحتفالي" ويتكسب من كتابة الشعر والمقالات والرسم، كما استعانت به المخابرات البريطانية للتجسس في الحرب العالمية الأولى، لكنها رفضت عرض خدماته في

الحرب الثانية، وتوفي عام 1947 في لندن بعدما أنهك جسده من إدمان المخدرات والجنس.

يُعد كراولي مثالًا لجماعات كثيرة استفادت من بعض أفكار بلافاتسكي وانطلقت للغوص في السحر والعربدة إلى الحدود القصوى، لكن بلافاتسكي كانت تصر على النأي بنفسها وبجمعيتها عن الممارسات السحرية، بل كان من أهم مبادئ التنشئة في مدرستها التقشف والسيطرة على الشهوات، كما ردّت في مجلتها "لوسيفر" على بعض رسائل القراء المتسائلين عن الممارسات السحرية والخوارق باعتبار أنها ليست ضرورية، وأن "السادة الصاعدين" قد يُظهرون بعض العجائب إذا دعت الحاجة، وللمزيد من المقارنات بين التيارين نحيل إلى مقال نشره أحد أتباع بلافاتسكي في مجلة "الثيوصوفي الأميركي" عام 1978 [1].

انتعاش الروحانيات بعد الحرب

بعد الحرب العالمية الثانية، اكتسبت الأفكار الباطنية المزيد من الشهرة في الدول الغربية، ولم تعد مقتصرة على المهتمين بالأديان والغموض، حيث شاعت بين الشباب الأفكار الهدّامة والشكوكية وروح الانهزامية، وتعالت أصوات نبذ الحضارة المادية والعودة إلى الطبيعة بحثًا عن السلام، وتوافقت هذه النزعات جزئيًا مع بعض معتقدات "العصر الجديد".

وفي ستينات القرن العشرين، بلغت "الثقافة المضادة" (Counterculture) وحركات "الهيبيز" (Hippies) ذروتها مع خروج حشود من الشباب الأميركيين إلى الأرياف وتجربة نمط الحياة البدائيّ، والذي كان يعتمد على الإباحية، وحتى المشاعيّة الجنسية، وتعاطي عقاقير الهلوسة أثناء ممارسة التأمل، فوجدت أفكار حركة العصر الجديد في هذه الفترة بيئة خصبة للانتشار.

---

(1) David Reigle, "Theosophy and the Golden Dawn", The American Theosophist, vol. 66, June 1978, p. 155.

وانتشرت في تلك الأجواء فكرة التمهيد لعصر الدلو، وهو العصر الجديد المنتظَر، الذي ستشهد فيه البشرية الوفرة والنعيم والتنوير الروحي، وستعيش وفقًا لقوانين كونية تتخلص من كل الأديان والمعتقدات السابقة، وتنبذ كل أسباب الفرقة والصراع والحروب (1). وكانت مؤلفات أليس بيلي من أهم المصادر الشعبية لترويج هذه الفكرة، ومنها كتاب " مصير الأمم " (The Destiny of the Nations) الصادر في سنة وفاتها 1949.

في أواخر الأربعينات أيضًا بدأ انتشار شهادات يؤكد أصحابها أنهم شاهدوا أجسامًا طائرة مجهولة (UFOs)، أو تواصلوا مباشرة مع كائنات غير بشرية، وقد يحدث ذلك بعد الدخول في حالات "ما بعد الوعي" -عبر التأمل أو تعاطي عقاقير الهلوسة- أو من خلال تعرضهم للخطف، أو بالمشاهدة والملاحظة فقط.

فُسرت هذه الظواهر لدى البعض بأن الكائنات الفضائية الأكثر ذكاء قد بدأت بالتواصل مع البشر لتسريع مرحلة انتقالهم إلى "عصر الدلو"، ولإنقاذهم من الإبادة بعدما حدث تفجير قنبلتين نوويتين في هيروشيما وناغازاكي، ونشأت بذلك طوائف دينية متعددة اصطُلح على تسميتها "بأديان الأجسام الطائرة المجهولة" (UFO religion).

من أهم الجمعيات التي تمثل هذه الطوائف "جمعية أثيريوس" (Aetherius Society) التي تأسست في منتصف الخمسينات، وكان الباطني البريطاني بنيامين كْريم (Benjamin Creme) من قادتها، إذ يعتقد أعضاؤها أن كواكب النظام الشمسي مأهولة بالحياة لكن في البعد الأثيري الذي لا يمكننا أن نبصره، وأن من بين سكانها كائنات روحية متقدمة يُطلق عليهم اسم "السادة

(1) Gordon J. Melton, New Age Transformed, Director Institute for the Study of American Religion, 14 June 2006.

الكونيين" و"الآلهة" و"السادة الصاعدين" و"سادة الحكمة"، وقد اختار بعضهم في الماضي أن يولدوا بيننا في أجساد بشرية من أجل التعليم والمساعدة، ومنهم يسوع المسيح وبوذا وسري باتانجالي (مؤسس اليوغا في القرن الثاني قبل الميلاد) وكونفوشيوس، ولاو تسي (مؤسس الطاوية) (1)، وغيرهم كما سيأتي لاحقًا.

وبحسب بعض هذه الطوائف، يتطلب دخول الأرض في دورة تطورية جديدة المزيد من الكوارث، كالزلازل والفيضانات والأوبئة والحروب، في الوقت الذي تحرص فيه النخبة (أتباع حركة العصر الجديد) على التأهيل النفسي والروحي لتحقق شروط الاصطفاء، فهي التي ستحظى بالحماية خلال مراحل التدمير لتنجو وتعبر إلى عصر النعيم (2). ويظهر أثر الأفكار الثيوصوفية في هذه الطوائف، ولا سيما كتب أليس بيلي.

وكان بنيامين كُريم قد أعلن منذ أواخر الخمسينات اتصاله الروحي مع "السادة الصاعدين"، وفي السبعينات أسس شبكات اجتماعية لممارسة التأمل بشكل جماعي، ثم أعلن في عام 1977 أن مايتريا قد بدأ عمله الخارجي المتجسد، ثم عقد مؤتمرًا صحفيًا في لوس أنجلوس عام 1982 أكد فيه أن مايتريا يعيش متخفيًا بين الجالية الهندية في لندن، وأنه سيكشف عن نفسه لو أثبتت وسائل الإعلام جدّيتها بالبحث عنه، وأسس في السنة نفسها مجلة باسم "Share International" لترويج أفكاره، وظل طوال الثمانينات والتسعينات يسعى لجذب اهتمام كبرى الصحف والقنوات وإقناعهم بأنه يتواصل مع مايتريا وأن الأخير قد أوشك على الظهور.

---

(1) "What we believe", aetherius.org.

(2) "عصر الدلو: وبزوغ فجر عصر جديد"، موقع www.ar.innerself.com.

لم يؤخذ كُريم على محمل الجد بالرغم من نشاطه الحثيث، وكان من أكبر ادعاءاته قصة ظهور المايتريا في هيئة رجل يرتدي ملابس بيضاء بين أتباع كنيسة مسيحية في نيروبي عاصمة كينيا، حيث أعطاهم مباركته واختفى، وما زالت صور هذا الحدث معروضة على موقع المجلة التي أسسها (1)، إلى جانب صور أخرى عن ظهور الأجسام الطائرة المجهولة وأضواء براقة في أماكن مختلفة من العالم، وهي حوادث ظل كُريم يفسرها على أنها من علامات وجود مايتريا بيننا. وفي عام 2016 توفي بنيامين كُريم في سن الثالثة والتسعين وهو متمسك بآرائه.

وإلى جانب المنظمات والطوائف السابقة، ظهرت في القرن العشرين أيضًا جماعات أخرى لا تؤمن بضرورة حدوث كوارث عظيمة لتدمير الحضارة والدخول إلى العصر الجديد، بل اعتبرت أن العصر الجديد موجود بالفعل، وأن اكتشافه قد يحدث بتجربة فردية، مع سعيها في الوقت نفسه لتأسيس مجتمعات مثالية طوباوية، كما هو حال مؤسسة فيندهورن (Findhorn) التي تأسست في أسكتلندا عام 1962، وما زالت حتى الآن تستقطب الأتباع من أنحاء العالم لتجربة نمط العيش المتوافق مع هذه الأفكار.

من جهة أخرى، انتشرت الكثير من الممارسات والأفكار الروحية الغنوصية خارج الجماعات السابقة، وخصوصًا لدى المهتمين بممارسة اليوغا والتأمل وتقنيات العلاج بالطاقة بتجارب فردية أو جماعية، فقد لا يؤمن أحدهم بفكرة "عصر الدلو" وانتظار الخلاص، لكنه يضيف بعض المعتقدات والممارسات السابقة إلى عقيدته الأصلية ونمط حياته، سواء لاعتقاده بأنها

---

(1) ظهر الرجل الغامض آنذاك على أنه المسيح، لكن كُريم زعم أنه المايتريا، وأشعل ذلك غضب المسيحيين الإيفانجيليين في أميركا -الذين كانوا في أوج قوتهم آنذاك- واعتبروا كُريم عميلًا للدجال (عدو المسيح).

مفيدة صحيًا ونفسيًا، أو لملء الفراغ الروحي في حياته، أو فقط لمواكبة العادات الشائعة.

روحانية بلا دين

في أواخر عام 2018، نشر مركز بيو للأبحاث دراسة بعنوان "معتقدات العصر الجديد شائعة بين الأميركيين المتدينين وغير المتدينين"، وقال فيها إنه بالرغم من أن معظم البالغين الأميركيين يعرّفون أنفسهم على أنهم مسيحيون، فإن الكثير منهم يحملون أيضًا معتقدات "العصر الجديد"، بل يشاركهم في ذلك غير المنتمين للأديان أصلًا [1].

وبحسب الدراسة، يؤمن 61% من المسيحيين الأميركيين بواحدة على الأقل من المعتقدات الرئيسية لحركة العصر الجديد، وهي تناسخ الأرواح، والتنجيم، والوسطاء الروحيون، ووجود الطاقة الحيوية في الأشياء المادية مثل الجبال والأشجار، والمعتقد الأخير هو الأكثر شيوعا.

واللافت في الدراسة أن 22% من الملحدين الأميركيين يؤمنون أيضًا بواحدة على الأقل من تلك المعتقدات، أما النتيجة الأكثر غرابة لهذه الدراسة فهي اعتراف 56% من اللادينيين (وهي تشمل اللاأدريين) بإيمانهم بواحدة على الأقل من المعتقدات الباطنية، كما تبلغ نسبة اعتناقهم لفكرة وجود الطاقة الحيوية في الأشياء المادية 40%، مقابل 37% لدى المسيحيين.

وبالمجمل، يؤمن 62% من البالغين الأميركيين بواحدة أو أكثر من معتقدات حركة العصر الجديد، ويأتي على رأس هذه المعتقدات الإيمان بوجود الطاقة الحيوية الذي يعتنقه 42% منهم.

---

(1) 'New Age' beliefs common among both religious and nonreligious Americans, www.pewresearch.org, 1 October 2018.

Six-in-ten Christians, 'nones' hold at least one New Age belief

	Believe spiritual energy can be located in physical things	Believe in psychics	Believe in reincarnation	Believe in astrology	NET Believe in at least one
All U.S. adults	42%	41%	33%	29%	62%
Christian	37	40	29	26	61
Protestant	32	38	26	24	57
Evangelical	24	33	19	18	47
Mainline	43	44	33	30	67
Historically black	41	43	38	34	72
Catholic	47	46	36	33	70
Unaffiliated	47	40	38	32	62
Atheist	13	10	7	3	22
Agnostic	40	31	28	18	56
Nothing in particular	61	52	51	47	78

Source: Survey conducted Dec. 4-18, 2017, among U.S. adults.

PEW RESEARCH CENTER

ونستنتج من هذه الإحصاءات أن الباطنيّات الجديدة نجحت في اختراق عقائد غالبية المسيحيين الأميركيين بالرغم من التعارض الشديد فيما بينها، فالكثير من الناس لا يتعمّقون في معتقداتهم الدينية الموروثة ولا يكترثون لاحتمال نشوء هذا التعارض، وفي حال شعورهم بالتعارض -وهذا يسمى في علم النفس بالتنافر المعرفي- فلن يجدوا صعوبة كبيرة في التجاهل، إذ تغلب مفاهيم اللاأدرية واللاكتراثية لدى الكثير من الشباب في الغرب اليوم عندما يتعلق الأمر بالدين والمعتقد.

نستنتج من الدراسة السابقة أيضًا أن حركة العصر الجديد نجحت في تقديم البديل الروحي للمسيحية لدى أكثر من نصف الخارجين عن نطاق الأديان، بل تمكّنت من إقناع أكثر من خُمس الملحدين بأن المادية لا تفسر كل شيء.

في صيف 2021، نشر موقع "ذا كونفيرزيشن" (the conversation) مقالًا لأستاذتي علم الاجتماع بيني إدغيل وويني كادج، جاء فيه أن 35% من جيل الألفية يرون أنفسهم غير منتمين لأي دين، وأن الأميركيين أصبحوا أكثر قبولًا

لأشكال بديلة من الروحانية، وأقل تقبلًا في الوقت نفسه للإلحاد المطلق [1]. وهذا يعني أن الروحانيات البديلة التي تقدمها حركة العصر الجديد توفّر بديلًا مقبولًا للشباب الذين يتخلّون عن المسيحية، قبل سقوطهم في هوّة العلمانية المادية.

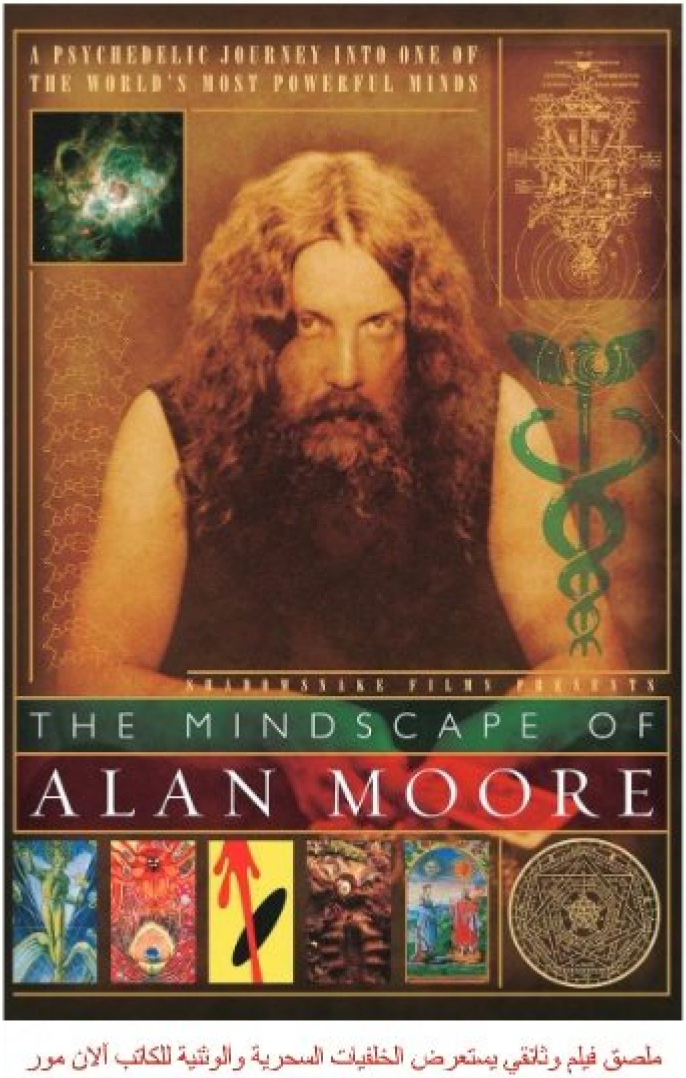
في مقابلة أجريت مع الكاتب البريطاني آلان مور، وهو من معتنقي العقائد الباطنية والسحرية ويُعد من أشهر مؤلفي القصص والأفلام الخيالية المليئة بالسحر، قال إنه يشعر بالقلق عندما يرى مئات الآلاف من البالغين يصطفّون أمام دور السينما لمشاهدة أفلام الأبطال الخارقين، إذ كانت هذه القصص تُكتب قبل 50 عامًا للترفيه عن الأطفال في سن الثانية عشر، أما في عام 2016 فكانت ستة من أفضل 12 فيلمًا من حيث الإيرادات هي أفلام الأبطال الخارقين، لأن الكبار يتهافتون على مشاهدتها، وذلك في الوقت نفسه الذي صوّت فيه غالبية البريطانيين للانسحاب من الاتحاد الأوروبي بسبب الدعاية والشائعات، واعتبر مور أن الناس أصبحوا يتهربون من مشاكلهم بمحاولة إيجاد حلول مبسطة ومثيرة [2].

أعتقد أن هذا التصريح يكشف عن جوانب خفية من الخلل، فقائله يقر بأن اهتمام الكبار بالأساطير لن يكون شيئًا مفيدًا للمجتمع، حتى لو كانوا يدركون أنها قصص للتسلية، وهذا مع أن مور نفسه ممن يعملون على نشر المعتقدات السحرية والباطنية في إطار الترفيه، وهو الذي قال أيضًا في لقاء

(1) Penny Edgell; Wendy Cadge, What Harvard's humanist chaplain shows about atheism in America, www. theconversation.com, 24 September 2021.

(2) Tom Grater, Alan Moore Gives Rare Interview: 'Watchmen' Creator Talks New Project 'The Show', How Superhero Movies Have "Blighted Culture", deadline.com, 9 October 2020.

لمجلة "الخماسي" (Pentacle) الخاصة بأتباع الطوائف السحرية إن الإله الأفعى "جليكون" هو "خدعة" كبيرة إلى درجة أنها كافية لإقناعه بتكريس نفسه لها، كما أقر بأنه يحتفظ في منزله بمذبح لعبادته (1).



ملصق فيلم وثائقي يستعرض الخلفيات السحرية والوثنية للكاتب آلان مور

(1) Ethan Doyle-White, Occultic World of Alan Moore, Pentacle, Summer 2009.

إعادة الإحياء

ساد الاعتقاد في نهاية القرن العشرين بأن الروحانيات الحديثة لم تكن سوى "موضة" عابرة تشكلت على يد الجيل الشاب الذي عانى من صدمة الحرب وتبعاتها، وأن شباب "الهيبيز" الذين خرجوا إلى الأرياف والغابات أو تجمعوا في حفلات الموسيقى والمخدرات لم يفلحوا في استقطاب الأجيال التالية، فسرعان ما عاد معظمهم إلى المكاتب والمصانع وانخرطوا في المنظومة الرأسمالية لتأمين أسباب الرزق ومواصلة الحياة.

ومع أن ظاهرة الهيبيز انحسرت بالفعل، لكن حركة العصر الجديد أعادت تشكيل قواعدها وعادت إلى المجتمع بصورة أقوى من السابق، فلم يعد الأمر يتطلب الانسحاب من الواقع إلى عالم طوباوي، بل يمكن أن نجد في الجامعات ومكاتب الشركات الكبرى طلابًا وموظفين يجمعون بين النجاح المهني وبين اعتناق فكرة انتظار "عصر الدلو"، أو ممارسة بعض الشعائر الباطنية والوثنية والشيطانية، وربما على الأقل التزيّن ببعض الرموز الباطنية وإضافة لمسة منها لنمط حياتهم اليومي.

ومن الأمثلة التي أثارت الكثير من الجدل، قصة وفاة مؤسس شركة "آبل" ستيف جوبز الذي تأثر بالبوذية في شبابه، وظل وفيًا لبعض أفكارها طوال مسيرته المهنية والعلمية الناجحة، فعندما أصيب بالسرطان -وهو على رأس أغلى شركة في العالم- امتنع عن العلاج الكيميائي ولجأ إلى فلسفة الماكروبيوتك الشرقية، حتى توفي وهو في السادسة والخمسين من عمره مع أن إصابته كانت قابلة للعلاج (1). والماكروبيوتك هو نظام غذائيّ يعتمد على تجنّب تناول معظم المنتجات الحيوانية، ويستمد فلسفته من الطاوية وغيرها من روافد حركة العصر الجديد.

---

(1) ستيف جوبز أخّر العلاج الجراحي للسرطان: لم أشأ أن يُفتح جسمي، موقع العربية نت، 21 أكتوبر 2011.

وتعد تقنيات العلاج بالطاقة من أهم منافذ انتشار حركة العصر الجديد حاليًا، ففي العقود الأخيرة ظهر المزيد من هذه المدارس العلاجية بالرغم من كل ما تتعرض له من انتقادات علمية، ومنها مثلًا تقنية "أكسس بارز" لمؤسسها لأميركي غاري دوغلاس، ومدرسة "برانا هيلينغ" التي أسسها الفلبيني تشوا كوك سوي في التسعينات.

من جهة أخرى، تنتشر أفكار التقشف ومقاومة النزعة الاستهلاكية فيما بين أتباع حركة العصر الجديد، لذا أنشأت بعض مجموعاتهم في الغرب مدارس خاصة لتعليم الأطفال خارج المنظومة السائدة، كما يسعى بعض ناشطيهم لإدخال مبادئهم الروحية تحت مسميات الحفاظ على الطبيعة والتنمية المستدامة في المقررات الدراسية أو في البرامج التعليمية المساندة، لكن هذه الحركة أصبحت هي نفسها هدفًا للسوق الرأسمالي، كما أعيد دمج بعض أفكارها ومبادئها في منظومة السوق.

وهذا يذكّرنا بكتاب عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، الذي يشرح فيه كيف ساعدت الأخلاق البروتستانتية في ظهور الرأسمالية الجديدة، انطلاقًا من ربط السعي إلى الفلاح الأخروي بالنجاح الدنيوي.

وبالطريقة نفسها، تجد المنظومة الرأسمالية اليوم في الأفكار الباطنية سوقًا استهلاكيًا هائلًا، فتقدم من خلاله ثقافة جديدة للسعي وراء النجاح، كما في برامج التنمية البشرية والتحفيز، وتحقق منه أيضًا أرباحًا ضخمة تتنوع بين برامج التدريب والأفلام والموسيقى والمنتجات الخاصة بنمط الحياة الموافق لهذه الثقافة.

وكما نجحت الرأسمالية في دمج المسيحية وأديان أخرى في منظومة السوق، حتى أصبحت الكنائس ودور العبادة الأخرى تبيع منتجاتها وخدماتها،

فقد نجحت أيضًا في تسويق حركة العصر الجديد وتحويل الكثير من أتباعها إلى مستهلكين في الأسواق الروحية الحديثة، حتى صار من الشائع تخصيص



شوارع وأزقة في وسط المدن الغربية الكبرى لعشاق هذه الثقافة، يظهر فيها الطابع السائد للهيبيز وأمثالها في المقاهي والمطاعم والأسواق، كما يظهر هذا الطابع في خدمات ومنتجات شركات كبرى تستهدف هذه الشريحة التي تشكل جزءًا مهمًا من السوق.

لذا تقول الباحثة الأميركية ليزا ألدريد إن عددًا قليلًا فقط من أتباع حركة العصر الجديد يشاركون في الأنشطة الاجتماعية، أما غالبيتهم فتقتصر مشاركتهم على شراء الكتب والمنتجات التي تستهدفهم، مما يجعل "العصر الجديد" حركة استهلاكية وتجارية بدلًا من العكس (1).

والأسوأ من تعزيز النزعة الاستهلاكية أن تُستغل هذه الروحانيات لتحقيق مكاسب غير مشروعة بطرق احتيالية، حتى نشأ في أميركا الشمالية مصطلح "الشامان البلاستيكي" (Plastic Shamans) الذي عنونت به ليزا بحثها، في إشارة

---

(1) Lisa Aldred, "Plastic Shamans and Astroturf Sun Dances: New Age Commercialization of Native American Spirituality" in: The American Indian Quarterly, University of Nebraska Press, 2000, p. 350.

إلى الأشخاص الذين يدّعون أنهم وسطاء روحيّون وحكماء وشامانات لتحقيق السلطة أو كسب المال، والأسوأ من ذلك ادعاء امتلاكهم قدرات علاجية خاصة قد تضر بصحة وحياة الآخرين بدل علاجهم، وينشط السكان الأصليون في الولايات المتحدة وكندا لمقاومة هذه الظاهرة باعتبار أنها تسيء لثقافتهم ومعتقداتهم.

ولو دقّقنا النظر، سنجد أن أفكار حركة العصر الجديد تتغلغل بشكل متزايد في الكثير من الأفلام السينمائية من أبواب الخيال والأسطورة، كما تتسلل إلى البرامج التلفزيونية والكتب وبرامج التدريب المعنية بالتنمية البشرية وتطوير الذات والتحفيز وحل المشكلات النفسية والاجتماعية والتقنيات العلاجية، وصولًا إلى أوساط السياسة والمنظمات الدولية الكبرى من خلال دعاية الحفاظ على البيئة ونشر ثقافة السلام والتسامح والأخوة العالمية.

ومما ساعد على نجاح ناشطي حركة العصر الجديد أيضًا تجنب الخوض في الصراعات السياسية، فمع أن أيديولوجيتهم تستبطن رؤى استشرافية تمس قيادات الدول الكبرى إلا أنهم لا يتورطون في تأسيس أحزاب سياسية أو المشاركة في برلمانات أو حكومات مثلًا، بل يكتفون بنشر أفكارهم على كافة المستويات بدءًا بأصحاب القرار ونزولا إلى عامة الناس، ويؤمنون كما أسلفنا بأن مشروع الخلاص الذي سيكتمل في "عصر الدلو" سيحدث على مستوى عالمي ولا تحدّه قيود الدول وحدودها الجغرافية، لذا فهم يعلّقون آمالهم على المنظمات الدولية العابرة للحدود أكثر من أي حكومة حتى لو كانت من القوى الكبرى، وهذا ما بيّناه في استعراض الخطاب المعلن لمنظمة "لوسيس ترست" التي اختارت وضع مقرها بالقرب من مقر الأمم المتحدة في نيويورك.

وأثناء إعداد هذا البحث، بحثتُ في الدليل الخاص بالمنظمات الدينية الأميركية، ووجدت عناوين عشرات المحافل التابعة لجمعية الثيوصوفيا

والمنظمات المشابهة في أنحاء البلاد، إذا ما زالت تعمل بنشاط، ومنها جميعات تنتسب إلى أليس بيلي مثل مؤسسة أكواريان، ومعبد الناس (Temple of the People)، والمحفل المتحد للثيوصوفيين في لوس أنجلوس، ومؤسسة الكلمة (The Word Foundation)، وغيرها الكثير [1].

وإلى جانب الدعم الذي تتلقاه حركة العصر الجديد أحيانًا من قوى متنفذة، فضلًا عن الترويج الإعلامي الضخم، يبدو أن جزءًا كبيرًا من نجاحها يعود إلى قدرتها أيضًا على التأقلم وإعادة التشكيل لتجمع بين الأضداد. فما بين الجانب الطقوسي السحري الغارق في الوثنية والتنجيم وعبادة الشيطان، وبين الجانب العلمي الذي يقتبس من الفيزياء. وما بين الأيديولوجيات النسوية والاشتراكية والثورية وبين الأخرى التي تدعو لعالم مثالي ينعم بالسلام مع كل الكائنات، تجد حركة العصر الجديد لنفسها دائمًا من يعتنق أفكارها بحماس، ويدفعها نحو المزيد من الانتشار.

(1) J. Gordon Melton, The Encyclopedia of American Religions, Gale, 6th edition, 1999.

الشامانية.. تراث وثني سحري
ينتشر في الغرب من جديد

يتوالى صدور الدراسات والإحصاءات التي تؤكد انحسار ظاهرة التدين والإيمان في الغرب، وهبوط نسبة معتنقي المسيحية إلى أقل من النصف. وفي حين تتجه أنظار معظم الباحثين إلى مؤشرات تزايد أعداد الملحدين واللادينيين، يلتفت بعضهم إلى ظاهرة أكثر غرابة، وهي انتشار الطوائف الوثنية والسحرية القديمة، ومنها الشامانية (Shamanism).

فوفقًا لآخر تعداد سكاني في بريطانيا، الذي نشره مكتب الإحصاءات الوطنية الحكومي (ONS) في أواخر 2022، انخفضت نسبة معتنقي المسيحية في إنجلترا وويلز خلال العقد المنصرم (2011-2021) من 59.3% إلى 46.2%، مقابل زيادة نسبة الذين لا يعتنقون أي دين من 25.2% إلى 37.2% (1).

ومن اللافت أن نسبة معتنقي الأديان الأخرى للمواطنين من أصول مهاجرة ارتفعت، في مقابل تخلي الإنجليز عن دينهم المسيحي، فبينما زادت نسبة الهندوس والسيخ بأرقام طفيفة (نحو 0.01%)، ازدادت نسبة المسلمين من 4.9% إلى 6.5%.

أما الملاحظة الأكثر غرابة، فهي ازدياد شعبية الأديان المنقرضة والطوائف التي تتعارض مع كل من المسيحية والعلمانية، حيث عرّف 74 ألف شخص أنفسهم على أنهم من أتباع الديانات الوثنية (Paganism)، و13 ألفًا صنفوا أنفسهم بأنهم من أتباع الويكا، وهي ديانة سحرية ظهرت في القرن العشرين

---

(1) Religion, England and Wales: Census 2021, www.ons.gov.uk, 29 November 2022.

لاستعادة تراث ما قبل المسيحية، بينما قال ثمانية آلاف شخص إنهم من أتباع الشامانية.

وقال معدّو الدراسة الإحصائية إن الشامانية تصبح بذلك أسرع "الأديان" انتشارًا في بريطانيا، فمع أن عدد أتباعها قليل، إلا أنهم تضاعفوا أكثر من عشر مرات خلال العقد المنصرم.



المكتبات الغربية كتب تطرح كل عام عناوين جديدة عن السحر والتنجيم والوثنيات القديمة وبعضها يصبح من الأكثر مبيعًا

ما قبل التاريخ

لا يتفق الباحثون على أصل الشامانية الاصطلاحي والتاريخي، فبعضهم يرجح اشتقاق الاسم من جذور لغوية منغولية ويُقصد بها الإشارة إلى "الشامان" أي صاحب المعرفة، وهناك من ينسبها إلى أصل هندي سنسكريتي كان يُطلق على الناسك الصوفي، كما أعادها آخرون إلى أصول لغوية أخرى آسيوية وأفريقية (1).

(1) ميشال بيران، الشامانية: فلسفة للحياة، ترجمة إدريس كثير، مشروع كلمة للترجمة - دائرة الثقافة والسياحة، أبو ظبي، 2013، ص 10- 16.

وبحسب المؤرخين وعلماء الآثار، تدل المؤشرات على وجود الشامانية في عصور سابقة لدى قبائل أستراليا وسيبيريا وكوريا واليابان والهند الصينية، وفي جميع أنحاء الأميركتين وأفريقيا، وفي مناطق متفرقة من أوروبا والشمال الإسكندنافي، وما زال وجودهم قائمًا حتى اليوم بنسبة أقل في المجتمعات القبلية والريفية. وقد أجمع خبراء عالميون أن سهول هولون بوير (شمال شرقي الصين) هي المنبع الرئيسي للثقافة الشامانية القديمة في العالم [1].



شامان في بيرو يؤدي طقوس عبادة للإلاهة الأرض

(1) أحمد الأصفر: الشامانية، الموسوعة العربية arab-ency.com.sy.

والشامان هو الساحر الذي يكاد وجوده أن يكون عاملًا مشتركًا بين القبائل في العصور القديمة، ولا سيما في مراحل ما قبل التاريخ المدوّن، التي سبقت نشوء الدول والحضارات.

ففي غياب الرسالات النبوية والوحي، قبل ظهور المعابد الكبرى والهياكل الدينية المنظمة، كان الشامان يقدم نفسه للقبيلة بصفته وسيطًا بينهم وبين عالم الأرواح. سواء كان رجلا أو امرأة، وغالبًا ما كانت توكل إليه مهام العلاج والعرافة والتنجيم، ويكون على صلة حقيقية بالشياطين -التي تسمى الأرواح- عن طريق السحر.

وإلى جانب المهام الروحية، كان الشامانات يوظفون الرقص والموسيقى في أعمالهم، كما استغلوا المعارف الطبية التي كانت متداولة في ثقافتهم باستخدام الأعشاب، وغالبًا ما أضفوا عليها أبعادًا ميتافيزيقية (غيبية).

تقسّم الشامانية الوجود إلى ثلاثة أقسام متساوية، وهي عالم الأرض بما يشتمل عليه من مكوّنات مادية، والعالم البشري، والعالم الكوني الذي يشمل النجوم والكواكب. ولكل من هذه العوالم روحه الخاصة، ويتكفل الشامان بالتواصل مع هذه الأرواح طلبًا للعلاج ونزول المطر، أو لدفع الكوارث، وغير ذلك من الأهداف.

وتؤمن الشامانية المغولية بوجود إله أعلى يدعى "آجي الخالق"، وهو يتجسد في هيئة نسر ذي رأسين، ويتربّع على قمة شجرة العالم، وتقول الأسطورة إنه هو والد الشامان الأول، الذي نتج عن تزاوج بين الإله وامرأة بشرية (1).

هناك ثلاث طرق لاكتساب الشامانية، الأولى هي الوراثة، فقد يرثها الشخص عن أبيه أو جده، فتستمر العلاقة بين الشياطين والشامان الجديد

---

(1) المرجع السابق.

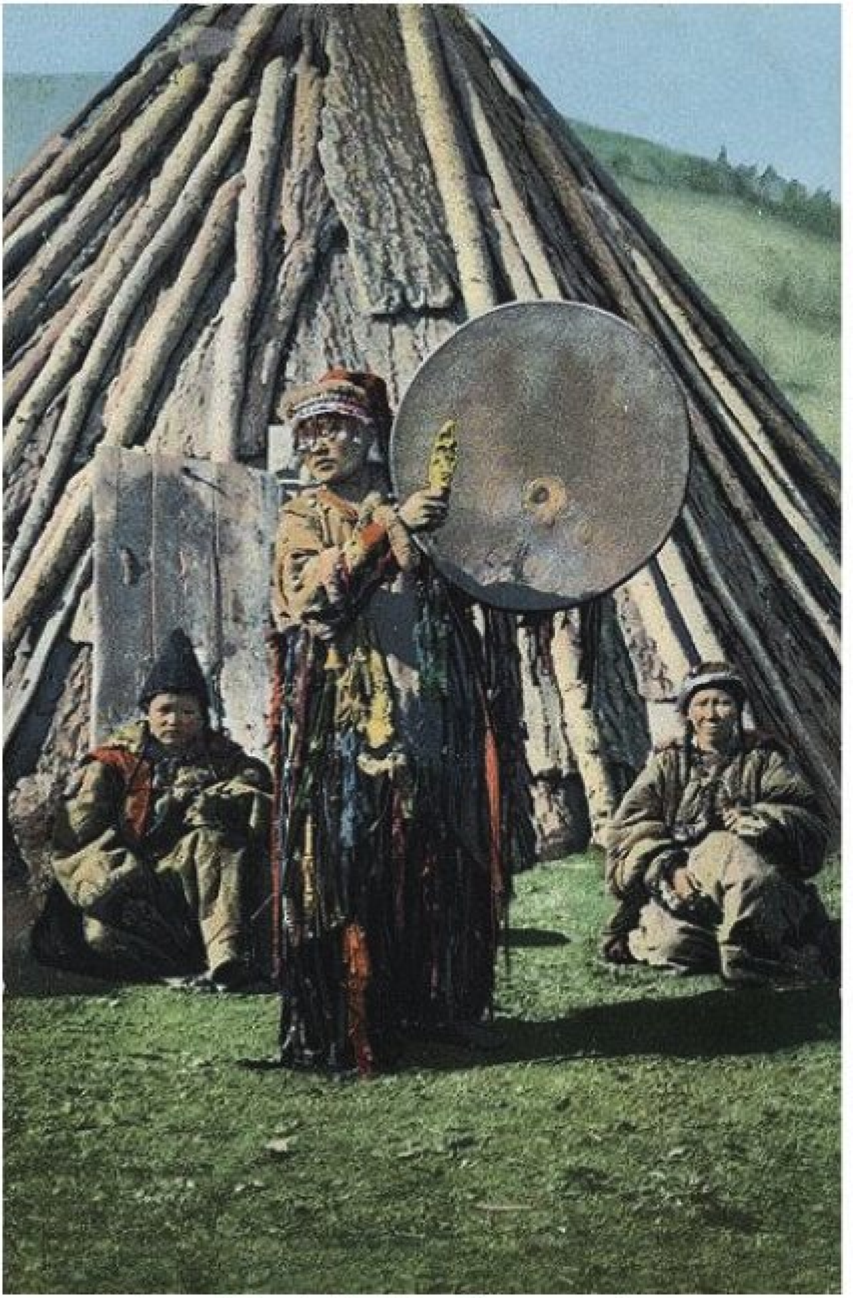
كما كانت مع الشامان الراحل، والثانية هي السعي الشخصي، وغالبًا ما ترتبط بما يسمى "طقوس العبور" التي يمارسها المراهق عند سن البلوغ لاختيار "الروح الحارسة" التي تلازمه كل حياته، والثالثة هي "اصطفاء" الشياطين للشامان بدون سعي منه، وغالبًا ما يكون هذا في سن المراهقة أيضًا، فيتعرض للكثير من الأحلام والأمراض وحالات الإغماء المتكررة وأزمات الهستيريا الحادة والنفور من بعض المأكولات، وفي النهاية يتجه إلى شامان مخضرم ليتدرب على يديه، وقد يستمر تدريبه شهورًا أو سنوات (1).

وأهم عنصر في التجربة الشامانية هو حالة الوجْد والجذب التي يتعرض لها الشامان في جلسات استحضار "الأرواح"، فبعد أداء طقوس الغناء والنقر على الطبل وتعاطي العقاقير المهلوسة، وأحيانًا تعريض جسمه للتعذيب كالطعن بالسيف والمشي على الجمر، يدخل الشامان في حالة الغيبوبة وتسيطر عليه "الأرواح"، وهنا يتعرض لإحدى حالتين، فإما يدخل في حالة خمول يتخيل فيها مفارقة الروح للبدن وصعودها إلى العالم الكوني لملاقاة أرواح الأسلاف والآلهة، أو يكتفي بإتاحة المجال للروح بالسيطرة على جسده والتحكم فيه، فينطق بصوت شخص آخر، أو يتصرف ويُصدر أصواتًا كما يفعل حيوان ما (2). وحقيقة هذا الاستحواذ هي مس شيطاني تسيطر فيه الشياطين على الشامانات، وتوهمهم بأنها أرواح مقدسة أو أرواح أسلافهم العظماء.

---

(1) ميشال بيران، ص 37- 38.

(2) ماجدولين نواصرة، "غشية الاستحواذ والوجد الشاماني في ضوء العقيدة الإسلامية"، مجلة جامعة غزة للدراسات الإسلامية، المجلد 30، العدد 1، فبراير 2021، ص941.



صورة تعود إلى عام 1908 لطقوس شامانية لدى إحدى قبائل سيبيريا

إعادة الإحياء

تتسم الشامانية بالبساطة والافتقار إلى التنظيم، فهي تعتمد أساسًا على التجربة الفردية، وعلى اللجوء إلى استشارة أو مساعدة الشامان الذي لا يتطلب الاستناد إلى هيكل منظم أو مؤسسة دينية، لذا تقلص دور الشامان في الحضارات التي اتخذت لنفسها معابد وأنظمة ميثولوجية كاملة، وبقي السحرة يعملون فيها على هامش هذه المنظومة.

ومع انتشار الأديان الكبرى، تقلص دور الشامانات في معظم الحضارات، وحوربت أفكارهم المتناقضة مع العقائد الجديدة كالإسلام والمسيحية، أو أعيد دمجها في طوائف أخرى ظهرت داخل الأديان الرسمية، كما حدث في الهندوسية والبوذية.

وفي العصر الحديث، أخذت العلمانية واللادينية في الانتشار على حساب الأديان في مناطق واسعة من العالم، واعتُبرت الروحانيات القديمة ضربًا من الدجل في المنظومة العلمية والثقافة السائدة، لكن الانحسار المتسارع للمسيحية في الدول الغربية خلال العقدين الأخيرين أتاح هامشًا لافتًا لإعادة إحياء هذه الممارسات التي كانت تُعد قبل سنوات قليلة فقط من الخرافات البائدة.

وتهتم الشامانية بمسألة التوازن بين قوى الإنسان الذاتية الداخلية والقوى الخارجية الروحية المحيطة به. وتكتسب نفوذها اليوم من ارتباطها المباشر بالتجربة الشخصية، فهي تعزز النزعة الفردانية التي تعد من أهم سمات الحضارة الحديثة، إذ لا تتطلب الممارسة انتسابًا لكنيسة ولا اعترافًا لكاهن، كما تبدو منسجمة مع نزعة التمرد اللادينية الرافضة لوجود إله متحكم في حياة الفرد، حيث لا يُلزم الممارس بأي شعائر للعبادة أو تشريعات مقيّدة.

علاوة على ذلك، تشبع الشامانية الحاجة الفطرية للانتماء، فمع أنها لا تتعارض مع الفردانية إلا أنها تنظّم أتباعها في جماعات صغيرة، وهي تقدم بذلك بديلًا للجماعات الدينية الأخوية، لكنها غير ملزمة، فلا يشكل الانتماء إليها عبئًا على العضو الراغب في التجربة، ولو كان ذلك بدافع الفضول في البداية.

تقدم الشامانية أيضًا فرصة لملء الفراغ الروحي الناشئ عن نمط الحياة الاستهلاكي، وتُقدِّم ممارساتها في إطار ترفيهي حافل بالرقص والموسيقى، وغالبًا ما تقترن بتعاطي العقاقير المهلوسة، مثل الأيوواسكا (Ayahuasca) الذي كان شائعًا في منطقة الأمازون، وهو يُصنع من خلط نبتتين محليتين، إذ يعتقد متعاطوها أنها تمنحهم دخولًا مؤقتًا إلى حالة بديلة من الوعي، تسمى بالنشوة الشامانية[1].

جدل ثقافي وطبي

مع أن انتشار النزعات الوثنية يزداد تسارعًا في الغرب، لكنها ما زالت مقتصرة على أقليات صغيرة للغاية، لذا فهي لا تثير اهتمام المتابعين حتى اليوم، لا سيما أنها تبدو أقرب إلى التجارب الروحية الفردية من الحركات المنظمة.

وعلى صعيد السياسة والدين، قد يبدي رجال الكنيسة والمحافظون امتعاضهم من تهافت بعض الشباب عليها، لكن العلمانيين والليبراليين يبدون تسامحًا أكبر تجاهها، مع أنها تتعارض جذريًا مع الموقف المادي من العالم، وقد يعود ذلك جزئيًا إلى موقف براغماتي مصلحي يرى في هذه النزعات تشجيعًا على نشر ثقافة الحفاظ على البيئة ومعالجة أزمة المناخ، أو يأتي في سياق التصالح

(1) Bill Brunton, "The Reawakening of Shamanism in the West", www.shamanism.org, Fall/Winter 2003.

مع الثقافات الوثنية المندثرة، سواء لإرضاء هوى القوميين الأوروبيين العاشقين للتراث، أو لكونه أحد مطالب اليسار الليبرالي في إعادة الاعتبار لسكان أميركا الأصليين.

ففي روسيا على سبيل المثال، أثار عدة سياسيين الجدل في السابع من يناير/كانون الثاني 2023 عندما شاركوا في احتفالات الشامانيين التي تُسمى طقوس "سامي" (Saami)، والتي وافقت عيد الميلاد الأرثوذكسي، وهو ما أثار غضب المسيحيين الأرثوذكس الذين رأوا في هذه المشاركات تعارضًا مع "الأجندة الأرثوذكسية" للحكومة الفدرالية.

في المقابل، برّر آخرون هذه الاحتفالات بأنها استعادة للثقافات الوطنية التقليدية، وأنها سلوك مقبول في زمن الحرب القائمة في أوكرانيا، وفقًا لما نقلته صحيفة "يوراسيا ريفيو" (Eurasia Review) عن أستاذ الأديان في جامعة البلطيق الفدرالية رومان شيزينسكي [1].

وفي النرويج، اضطرت الأميرة مارثا (51 عامًا) للتخلي عن ألقابها الملكية في نوفمبر/تشرين الثاني 2022، بعد إصرارها على التمسك بخطبتها من الأميركي دوريك فيريت، الذي يطلق على نفسه لقب "شامان"، والذي حاز شهرة واسعة في أوساط هوليود بتقديم علاجاته "الروحانية" للمشاهير [2].

وكان كبار السياسيين في النرويج قد أصدروا تصريحات معادية للشامان الأميركي، واتهموه بالترويج لنظريات المؤامرة والخرافات، بل تساءل البعض على

---

(1) Paul Goble, "Are Russian Governors Who Reach Out To Shamans Pandering To Constituency Or Cultivating Magical Patriotism?", www.eurasiareview.com, 21 January 2023.

(2) "بعد خطوبتها من معالج روحاني مزعوم.. الأميرة النرويجية مارتا لويز تتخلى عن مهامها الرسمية"، arabic.euronews.com، 9 نوفمبر 2022.

مواقع التواصل عما إذا كان الشامان قد "سحَر" الأميرة بالفعل. وفي المقابل، نفى فيريت كل الاتهامات وادعى أنه ضحية لاضطهاد عنصري بسبب أصله الأفريقي [1].

وبعيدًا عن الجدل السياسي والشائعات، سبق أن ظهر فيريت في الفيلم الوثائقي "The New Gurus of the USA" الصادر عام 2020، فبعدما استعرض الفيلم جانبًا من حياة الترف التي يتمتع بها هذا الشامان في كاليفورنيا، تضمن الفيلم لقطات لإحدى جلسات "العلاج" التي يقدمها للأثرياء، والتي يتقاضى فيها 900 يورو عن كل ساعة، فظهر أمام الكاميرا وهو يطلب من "الأرواح" مساعدته على تنظيف الطاقة السلبية من سيدة أعمال ثرية وشابة، فأخذ جسدها يضطرب وينتفض بعنف، ثم طلب الشامان من تلك "الأرواح" بث الطاقة الإيجابية في جسدها، حتى عادت إلى وعيها وتنفسّها الطبيعي.

---

(1) "جدل في النرويج بسبب علاقة الأميرة مارتا لويز بمعالج روحاني"، www.dw.com، 17 أكتوبر 2022.



الشامان دوريك يستعرض أحد مؤلفاته في صفحته على موقع إنستغرام

وإذا كانت هذه الاضطرابات تبدو مجرد وهمٍ لأي طبيب يقتصر علمُه على الجانب المادي، فنحن نرى أنها دليل واضح على التعامل مع الشياطين، وقد نصّ القرآن الكريم على هذا التأثير المباشر على الجسم البشري في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275].

وبصرف النظر عن الموقف من الغيبيات، يثير إحياء الشامانية في الغرب المزيد من الجدل الذي لا ينفك عن الخلاف بشأن جدوى ما يسمى بالعلاج البديل، والذي يعود جزء كبير من تقاليده إلى ممارسات طبية تقليدية توارثها السكان الأصليون لأميركا الشمالية (Native Americans)، وهم الذين كان يطلق عليهم مسمى "الهنود الحمر".

ونظرًا لشيوع ثقافة التصالح مع تلك الفئة المضطهدة، والتي تعرضت

سابقًا للإبادة الجماعية ولم يبق منها إلا القليل. تحظى تقاليد القلة الناجية من السكان الأصليين اليوم باحترام متزايد في كندا والولايات المتحدة، لا سيما أن الكثير من تطبيقات أسلافهم العلاجية أثبتت نجاعتها، وخصوصًا في مجال الطب النفسي. وهذا ما تؤكده دراسات عدة صدرت عن مراكز بحثية في السنوات الأخيرة، كما أصبحت عنوانًا لقصص مثيرة تتناقلها الصحافة (1).

وعلى سبيل المال، صدرت دراسة أكاديمية عن جامعة "ماساتشوستس أمهرست" (UMass Amherst) عام 2009، رصد فيها الدكتور لوري ثاير العديد من الأمثلة لممارسة تقنيات الشفاء الشامانية في المستشفيات الأميركية (2).

وفي المقابل، يحذّر أطباء آخرون من خطر الترويج لهذه الثقافة من دون ضوابط، لا سيما محاولات إقناع المرضى بالتخلّي عن علاج السرطان والأمراض النفسية والعقلية.

ولا يخفى في هذا السياق أن الكثير من أتباع الشامانية يبرّرون تعاطيهم للمخدرات وممارسة الطقوس الوثنية بمعالجة حالات الذهان أو الفصام، الأمر الذي يزيد حالاتهم سوءًا عندما لا يخضع لبرنامج علاجي على يد طبيب مختص.

ويمكن القول إن تزايد عدد الأطباء الأميركيين الذين يقتنعون بجدوى "العلاج الروحاني" قد يُفهم في سياق التصالح مع البعد الروحي للإنسان، والذي تم إقصاؤه تمامًا في المنظومة العلمية المادية. وتكمن المفارقة في أن هذا التصالح يأتي من بوابة الانفتاح على ثقافات وثنية وشيطانية كانت منبوذة

---

(1) Dick Russell, "How a West African shaman helped my schizophrenic son in a way Western medicine couldn't", www.washingtonpost.com, 24 March 2015.

(2) Lori L. Thayer, "The Adoption of Shamanic Healing into the Biomedical Health Care System in the United States", University of Massachusetts Amherst, 2009.

ومعرّضة للإبادة حتى وقت قريب، بينما تُنبذ المسيحية وكل ما يمتّ إليها بصلة بعدما كانت بمثابة المسوّغ الثقافي للمحتلين الأوائل القادمين من أوروبا إلى "العالم الجديد"!

اليهودية.. طائفة رهنت مصيرها بحركة عنصرية غاصبة

تعدّ اليهودية من الطوائف الصغيرة على مستوى العالم، إذ يبلغ عدد أتباعها حوالي 15.3 مليونًا فقط [1]، وهي مع ذلك من أكثر الطوائف ثراءً ونفوذًا، إذ تحظى جماعات الضغط "اللوبيات" اليهودية بقوة لا مثيل لها في عواصم الدول الكبرى، وتسيطر بعض العائلات اليهودية -مثل روتشليد- على ثروات هائلة، كما يمسك الكثير من اليهود بأدوات التحكم في كبرى شركات هوليود ووادي السليكون وإمبراطوريات الإعلام.

وبعيدًا عن نظريات المؤامرة ومبالغاتها، سنلخّص في هذا الفصل قصة نشوء وتطور هذه الديانة، وتحولها إلى خاصية ثقافية لقومية مزعومة، ثم صعودها لتصبح قوة سياسية ضاربة بعد معاناتها الطويلة مع الاضطهاد، حتى أصبحت اليوم مُمثَّلة بحركة سياسية عنصرية لتبرير إقامة دولة على أرض محتلة، ولتدخل بذلك في دوامة من الصراع العسكري والسياسي مع العالم العربي-الإسلامي، إلى جانب تورّط أتباعها الفرقاء في شقاق لا ينتهي بشأن الأسئلة الوجودية عن طبيعة الدولة المصطنعة ومبررات وجودها واستمرارها.

سلالة الأنبياء

تبدأ قصة اليهود مع النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه، وقد رُزق اثني عشر ولداً، منهم النبي يوسف، ويهوذا الذي جاء النبي داود من نسله لاحقًا، وكل واحد من هؤلاء

---

(1) "عدد اليهود في العالم يبلغ حوالي 15.3 مليون عشية رأس السنة العبرية الجديدة"، موقع قناة I24 الإسرائيلية، 25 سبتمبر 2022.

الإخوة أعقب سبطاً من أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وتنتسب إليه عشيرة من عشائر اليهود.

تذكر المصادر أن يعقوب عاش مع عائلته في أرض فلسطين ما بين القرنين الثامن عشر والسابع عشر قبل الميلاد. ويذكر القرآن الكريم والكتاب المقدس ما تعرض له ابنه يوسف من مكائد إخوته بسبب غيرتهم منه، ثم انتهى به المطاف بالبيع عبدًا في مصر، وتعرض هناك لبعض المحن قبل أن تُكتب على يده عملية إنقاذ مصر وما حولها من القحط، فتولى منصبًا رفيعًا في عهد الهكسوس، ثم لحِق به أبواه وإخوته للاستقرار في مصر، وخرجت من سلالة هذه العائلة المهاجرة أقلية تدعى بنو إسرائيل.

في القرن السادس عشر قبل الميلاد، بدأت الثورة ضد الهكسوس، وتولى الفراعنة المصريون الحكم، وبدأت بذلك سياسة الاضطهاد لبني إسرائيل انتقامًا من ارتباطهم السابق بالهكسوس الغرباء، وبلغ الظلم ذروته عندما أمر أحد الفراعنة بقتل أبنائهم الذكور واستعباد إناثهم (1)، وذلك بعد نبوءة من العرّافين بأن مُلكه سيُنقض على يد أحد أبناء بني إسرائيل.

وفي تلك الفترة الصعبة من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وُلد النبي موسى من سبط لاوي بن يعقوب، ولم ينجُ من القتل بمعجزة فقط، بل أوحى الله إلى أمه أن تضعه في تابوت وتتركه على سطح مياه النيل، ليصل إلى قصر فرعون وتتبنّاه زوجته، ثم يكبُر في قصر الطاغية الذي كان يقتل كل مواليد بني

---

(1) لم يُحسم بعد سؤال من هو الفرعون المذكور في القرآن والكتاب المقدس، ففي القرآن نجد ذكرًا لفرعون واحد في قصته مع النبي موسى، ويعتقد كثير من الباحثين أنه رمسيس الثاني، بينما تفرق مصادر الأخرى بين فرعون التسخير -وهو رمسيس الثاني- وبين ابنه وخليفته مرنبتاح الذي يدعى فرعون الخروج، وهو الذي مات غرقًا.

للمزيد انظر مقال: عبد المنعم هيكل، من "فرعون موسى"؟ ولماذا لا يبحث المصريون عن هويته؟، موقع الجزيرة نت، 22 يونيو 2023.

إسرائيل، وتتحقق النبوءة بسقوط مُلك فرعون على يد موسى، وغرق فرعون مع جنوده في البحر أثناء لحاقهم ببني إسرائيل، كما جاء في القرآن الكريم والكتاب المقدس.

وبخروج بني إسرائيل من مصر مع نبيهم موسى تبدأ مرحلة جديدة، إذ يذكر القرآن الكريم أنهم عصوا أوامر نبيهم بمقاتلة الكنعانيين وفتح فلسطين والامتثال للشريعة، فعوقبوا بالتيه في صحراء سيناء أربعين عامًا، وحُرموا من دخول الأرض المقدسة. وتوفي موسى خلال تلك الفترة فخلفه تلميذه يوشع بن نون، الذي قاد الجيل التالي من الإسرائيليين وفتح بعض المدن الكنعانية.

وبعد وفاة يوشع، تفرقت عشائر بني إسرائيل الاثني عشر، وصار لكل منها قاضٍ أو كاهن يقودها، وبدأ بذلك "عصر القضاة" الذي اتصف بالضعف والعودة إلى الوثنية، فعُبدت الآلهة المحلية مثل بعل وعشتاروت، وانحسر العمل بالشريعة الموسوية، فتسلط عليهم الكنعانيون مجددًا وشتتوا مُلكهم.

وفي آخر عصر القضاة، ظهر في بني إسرائيل نبيّ ترجّح المصادر أنه صموئيل، وهو الذي ذُكرت قصته في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 246]، فقد طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن ينصّب عليهم ملكًا يوحد شتاتهم، فأوحى الله إليه أنه سيولي عليهم طالوت (أو شاؤول كما ورد في أسفارهم)، ومع أن الكثير منهم رفض ولاية طالوت، إلا أنه نجح في جمع ما يكفي من المقاتلين وانتصر على الوثنيين، وبرز في تلك المعركة داود الذي قتل ملك الوثنيين جالوت (1).

---

(1) ربى الحسني، "اليهودية"، موسوعة السبيل al-sabeel.net، 28 يوليو 2017.

خلف داودُ الملكَ طالوت بعد موته، وفيه اجتمعت النبوة والملك، ثم خلفه من بعده ابنه النبي سليمان الذي يعدّ عهده العصر الذهبي لبني إسرائيل، ففي عصره -أي في القرن العاشر قبل الميلاد حسب التقديرات- بُني الهيكل (بيت همقدش) الذي يُعد أعظم معابد اليهود وأقدسها، وكان موقعه داخل الحرم القدسي (المسجد الأقصى) عند الصخرة أو بجانبها. ويعتقد اليهود أن قدس الأقداس في الهيكل كان يضم تابوت العهد (تابوت الشَّهادة)، وهو صندوق مطلي بالذهب ومزين بإطار من الذهب، وكانت تُحفظ فيه ألواح العهد التي نزلت على موسى عليه السلام وعليها كُتبت وصايا الشريعة [1].

بوفاة سليمان عليه السلام انقسمت مملكته بين ابنه رحبعام وغلامه يربعام، وانقسم معهما الأسباط إلى مملكتين، الأولى مملكة إسرائيل بقيادة يربعام في الشمال، وكانت عاصمتها الشومرون أو السامرة (نابلس)، ومعبدها على جبل جرزيم وكانت تضم عشرة من أسباط بني إسرائيل، واستمرت إلى أن قضى عليها الآشوريون سنة 722 ق.م، والثانية مملكة يهوذا بقيادة رحبعام بن سليمان في الجنوب، وكانت عاصمتها أورشليم (القدس)، وضمت فقط سبطي يهوذا وبنيامين، واندثرت على يد نبوخذ نصر ملك بابل سنة 586 ق.م [2].

شهدت المملكتان قبل انهيارهما عودةً للوثنية والانحلال، وذلك بالرغم من ظهور الكثير من الأنبياء فيهما، لكنهم كانوا يواجهون الرفض دائمًا، فوقع العقاب الإلهي بدمار المملكتين ومقتل الكثير من السكان وسبي نحو ثلث شعب

---

(1) يؤمن المسلمون بأن النبي سليمان عليه السلام كان على دين التوحيد مثل كل الأنبياء، وأنه أعاد بناء المسجد الذي بناه إبراهيم عليه السلام، وهو المسجد الأقصى، فهو مسجد للصلاة التي كان أتباع الأنبياء في كل العصور يتقربون بها إلى الله وليس هيكلًا أو معبدًا للأوثان أو لأي عبادة محرفة. ويؤمن المسلمون أيضًا بنزول الألواح على موسى عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145].

(2) "العهود التوراتية"، موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية www.gov.il، 15 يوليو 2021.

مملكة إسرائيل -حسب بعض التقديرات- واقتيادهم عبيدًا إلى بابل على يد الملك نبوخذ نصر.

تسبب تدمير أورشليم وهدم معابدها بضياع التوراة والكثير من الكتب، واستمر ظهور الأنبياء في بني إسرائيل خلال مرحلة السبي، وتذكر كتبهم أن النبي عزير (عزرا) أعاد كتابة التوراة المفقودة بعد العودة من السبي، لكن التحريف والتبديل والطمس طال الكثير من أسفارها حتى قبل السبي.

أما انتهاء محنة السبي فيعود فضلها إلى الفرس الذين تغلبوا على البابليين، إذ نجحت المرأة اليهودية "أستير" في استمالة قلب الملك الفارسي أحشورش، وأقنعته بإعادة قومها إلى فلسطين وبناء أورشليم و"هيكل الرب" مع بقائهم تحت سلطته، وتم ذلك بالفعل سنة 538 ق.م.

وبعد نحو قرنين، دالت دولة الفرس وتسلط ملك اليونان الإسكندر المقدوني على المنطقة، فدان له بنو إسرائيل، لكن إمبراطوريته الضخمة ما لبثت أن انقسمت بموته، لتقع أرض فلسطين تحت سلطة البطالمة، ومع أن اليهود تمردوا في البداية إلا أنهم رضخوا لاحقًا، ثم تعرضوا لاضطهاد آخر على يد السلوقيين في القرن الثاني قبل الميلاد، فأطلقوا ثورة جديدة سميت ثورة المكابيين، وانتهى بهم الأمر إلى الخضوع لسلطة الرومان الذين سيطروا على القدس سنة 63 ق.م، إذ لم تنجح محاولاتهم المتكررة للتمرد، بل دمّر الإمبراطور تيتوس عاصمتهم أورشليم سنة 70 بعد ميلاد المسيح عليه السلام.

توحيد أم وثنية؟

تُعد اليهودية ديانة متشعّبة وغامضة بامتياز، إذ يختلف الباحثون والمتخصصون في فهم أهم عقائدها التي يُفترض أن تكون محلّ إجماع، فللإله في اليهودية أسماء عدة، وأشهرها "يهوه"، الذي لا يُعرف اشتقاقه بشكل مؤكد، وبما أنه أكثر الأسماء قداسة فلا ينطق به إلا الكاهن الأعظم داخل قدس

الأقداس في الهيكل، أما العامة فيستخدمون في صلواتهم اسم "أدوناي"، أي سيدي ومولاي.

وورد في العهد القديم أيضًا اسم "إلوهيم"، وهو من أصل كنعاني ويعني الآلهة بصيغة الجمع، لذا رأى بعض الباحثين في هذا دليلا على جنوح اليهود في مراحل سابقة إلى الشرك وعبادة آلهة متعددة، لا سيما أن أوصاف إلوهيم تختلف عن صفات يهوه، فإلوهيم إله رحيم خلق السماوات والأرض ولا يشبه البشر في مقابل يهوه الذي يتجسد ويشارك البشر في صفات كثيرة، بينما رجح البعض أن لاحقة الجمع (يم) تدل على التعظيم فقط وليس الشرك.

يضاف إلى ما سبق أيضًا اسم "إيل"، وهو نفس اسم الإله الأكبر في عائلة الآلهة الكنعانية، وكثيرًا ما تضاف إليه أسماء أخرى لتصبح لقبًا، وأشهرها إسرائيل لقب النبي يعقوب، ويقال إنها تعني يجاهد مع الله، أو الله يصارع، فالألقاب العبرية تأتي بصيغة المضارع، ويعود الاسم إلى القصة المذكورة في سفر التكوين، عندما ظهر الرب على صورة ملاك وتصارع مع يعقوب حتى طلوع الفجر، فقال له "أطلقني" فقال يعقوب "لا أطلقك إن لم تباركني"، فباركه الرب وقال "لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ" [التكوين- إصحاح32: 28].

ويتضح من هذه القصة إمكان تجسد الإله لدى اليهود على هيئة بشر، وهو أيضًا إله خاص ببني إسرائيل دون غيرهم، ما يعني الإقرار بوجود آلهة أخرى لبقية الأقوام.

جاء في سفر التثنية: "حِينَ قَسَمَ الْعَلِيُّ لِلأُمَمِ، حِينَ فَرَّقَ بَنِي آدَمَ، نَصَبَ تُخُومًا لِشُعُوبٍ حَسَبَ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّ قِسْمَ الرَّبِّ هُوَ شَعْبُهُ. يَعْقُوبُ حَبْلُ نَصِيبِهِ" [التثنية- إصحاح 32: 8-9]، ويفسر الباحث جوشوا جي مارك هذا النص بأن رئيس الآلهة الكنعانية إيل منح كل آلهة سلطة على شعب من

شعوب الأرض، بينما كانت حصة يهوه هي قوم إسرائيل (يعقوب) [1]، ومع مرور الوقت، اتخذ اليهود من يهوه إلههم الأعلى والوحيد بعدما كان معروفًا مسبقًا كإله كنعاني في مرتبة أدنى من إيل [2].

ووفقا للبروفسور الإسرائيلي نيسيم أمزلاغ [3]، فإن يهوه هو إله المعادن الكنعاني، وهو مشابه للإله بتاح المصري وإنكي في بلاد ما بين النهرين وبقية آلهة المعادن في المنطقة، والتي كانت تُعبد من قبل عمّال المناجم، لذا أصبح هو الإله الأعلى لدى بني إسرائيل في العصر الحديدي (حوالي 1200 ق.م) عندما حل الحديد محل البرونز والنحاس، إذ كان يُنظر إلى هذه الصنعة على أنها نوع من الخيمياء والسحر، ولما أراد الإسرائيليون أن يتميزوا عن جيرانهم وتعزيز قوتهم رفعوا يهوه فوق مرتبة إيل واتخذوه إلهًا خاصًا بهم كما كانت تفعل كل الأقوام الوثنية، لكن المفارقة هنا هي أن بني إسرائيل كان لديهم كتاب سماوي ينص على عبادة إله واحد لا يتجسد، فحرّفوا الكتاب الذي بين أيديهم ليتطابق مع التعددية الوثنية، وليُضفوا على الإله الواحد المتعالي صفات لا تليق إلا بإله خرافي ناقص.

ومع أن الشائع بين الباحثين أنه خلال فترة الهيكل الثاني، أي ما بين عودتهم من السبي وتدمير الهيكل مرى أخرى على يد تيتوس عام 70م، راجع الأحبار ما ورثوه من عقائد لتخليصها من شوائب الوثنية واستعادة احترام التوراة والتأكيد على التوحيد، لكن الشوائب ما زالت حاضرة في النصوص المتاحة حتى اليوم.

---

(1) يجدر بالذكر أن هذا التفسير لا توافق عليه بعض المصادر اليهودية والمسيحية، ففي تفسير القمص أنطونيوس فكري لسفر التثنية نرى أن النص يتحدث عن الرب فقط وليس عن إيل الذي قسم الأرض بين آلهة متعددة ومنها يهوه. انظر: شرح الكتاب المقدس- العهد القديم في موقع الأنبا تكلا هيمانوت st-takla.org.

(2) Joshua J. Mark, "Yahweh", World History Encyclopedia, worldhistory.org, 22 October 2018.

(3) Ibid.

وبالعودة إلى مفهوم النبوة لدى اليهود، نجد في أسفارهم أنها تُكتسب اكتسابًا وليس اصطفاءً من الله، فزعموا بذلك أن بعض الأنبياء سلكوا طرقًا ملتوية للحصول عليها، كما فعل يعقوب حين خدع أباه إسحاق وانتزع حق خلافته في النبوة من أخيه البكر عيسو بمكيدة دبرها مع أمه، وعندما علم إسحاق بذلك أُسقط في يده ولم يستطع التراجع، وحتى الرب نفسه رضي بهذه الخديعة التي نتج عنها اصطفاء أبناء يعقوب ليكونوا شعبه المختار.

ولا يقتصر الأمر عندهم على إمكانية ممارسة النبي للخداع، بل نسبوا لسليمان عليه السلام -مع أنه أعظم ملوكهم- السحر والشرك وعبادة الأوثان، كما اتهموا هارون عليه السلام بأنه هو الذي صنع العجل الذهبي وأمر القوم بعبادته في غياب موسى، ونسبوا الزنى أيضًا إلى لوط وداود، وقالوا إن يعقوب علِم بزنى ابنه راؤبين بزوجة أبيه وسكت عن فعلته.

التوراة والتلمود

يعتقد المسيحيون واليهود أن "العهد القديم" من الكتاب المقدس هو التوراة، وأنه "عهد الرب" الذي تكرر لسلالة الأنبياء الممتدة من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم إلى موسى والأنبياء من بعده.

ويضم "العهد القديم" الأسفار التي يعتقدون أنها نزلت على موسى وأنبياء بني إسرائيل من بعده، وتعد الأسفار الخمسة الأولى هي الأقدس ومحلّ إجماع جميع الطوائف، وهي سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين (الأحبار) وسفر العدد وسفر التثنية. ويضاف إلى هذه الأسفار كتاب "الأنبياء" الذي يسرد سير أهم الأنبياء الإسرائيليين، ثم تأتي "أسفار الحكمة" التي يغلب عليها الطابع الأدبي وتتضمن قصصًا وملاحم، وعددها اثنا عشر سفراً، وأهمها مزامير داود (الزبور)، وأمثال سليمان، ونشيد الأنشاد، وأسفار أيوب ودانيال وأستير وعزرا.

وكان المسيحيون واليهود يعتقدون طوال قرون أن موسى هو الذي كتب الأسفار الخمسة، وأن بقية الأنبياء كتبوا الأسفار المنسوبة إليهم، وأنها تُرجمت من العبرية في عهد البطالمة إلى اليونانية، وذلك على يد 72 حبرًا من أحبار الإسكندرية، ثم انتشرت في أوروبا وبقية العالم، لكن هذه المزاعم لم تثبت أمام النقد العلمي في عصر النهضة الأوروبية، إذ كتب الفيلسوف الهولندي اليهودي باروخ سبينوزا في كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة" الصادر عام 1670 إنه "واضح كالشمس في الظهيرة أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة الأولى في التوراة، وإنما كتبها شخص عاش بعده بسنوات كثيرة"، ثم توالت الأبحاث النقدية التي رجحت بدرجة كبيرة أن جميع الأسفار كُتبت على يد أشخاص عدة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أي بعد وفاة موسى بقرابة ألف عام، وأنها جُمعت بشكلها الحالي بعد ذلك بكثير (1).

واللافت أن علماء مقارنة الأديان المسلمين سبقوا الأوروبيين إلى هذا النقد، وأثبتوا العديد من التناقضات التاريخية بين الأسفار نفسها، وكان الأرجح لديهم أن التوراة التي أنزلت على موسى بُدِّلت كلها أو أكثرها، وأن ما بقي من كلمات الوحي الإلهي في التوراة الموجودة اليوم نادر جدًا، ومن أهم القائلين بهذا الرأي ابن حزم الأندلسي، وأبو حامد الغزالي، وإمام الحرمين الجويني، وابن تيمية، وابن القيم، والقرطبي.

ووفقًا للقرآن الكريم، تعمد الأحبار تحريف أجزاء من التوراة، فجاءت العقوبة الإلهية بفقد جزء آخر منها: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: 13].

---

(1) ربى الحسني، موسوعة السبيل، مرجع سابق.

وإلى جانب التوراة، يقدس اليهود كتاب "التلمود"، وهو الشريعة الشفوية، ويتألف من قسمين، أولهما المِشناة، وهي مجموعة من الشرائع التي كانت متداولة شفويًا طوال قرون وتُنسب إلى النبي موسى، ولم يبدأ تدوينها إلا بعد السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد واستقرت كتابتها على الوضع الحالي في نهاية القرن الثاني بعد الميلاد.

وبعد الانتهاء من تدوينها انكب الأحبار على شرح المشناة، فسميت الشروح "جمارا"، وهو القسم الثاني من التلمود (1).



أسفار التوراة تُحفظ على هيئة لفائف

أهم العقائد

يؤمن اليهود إيمانًا جازمًا بأن الرب اختارهم شعبًا له ووعدهم بإخضاع شعوب الأرض لهم، وبأن ينتقم لهم، حيث ذُكر "يوم الرب" في سفر عاموس لتحذير الأمم الأخرى من اليوم الذي تنتصر فيه العدالة الإلهية. [عاموس- إصحاح 5: 18-20].

---

(1) المرجع نفسه.

والتحقيق يكشف أن "يوم الرب" هو اليوم الآخر الذي تقوم فيه القيامة وفقًا لمعتقد المسيحيين والمسلمين، لكن النسخة المحرّفة من التوراة أعادت تفسير الآخرة ونعيمها وعذابها بالمصير الدنيوي، فالوعود فيها تقتصر على المتعة الدنيوية من انتصار على الأعداء وكثرة الأولاد ونماء الزرع، أما الوعيد للعصاة فيقتصر على انتصار الأعداء وسبي الذراري وموت الزرع والماشية.

أما التلمود فيقرّ ببعث الأموات، ويصرّح بوجود الجنة، ويعتبرها مأوى الأرواح الزكية التي لا يدخلها إلا اليهود، كما يذكر الجحيم الذي يُعاقب فيه الكفار[1]، ومع ذلك نجد أن فرقة الصدوقيين من اليهود تنكر قيام الأموات، وتعتقد أن عقاب العصاة وإثابة المتقين يحصلان في حياتهم فقط، بينما تؤمن فرقة الفريسيين[2] بأن الصالحين سيبعثون في هذه الأرض عندما يظهر المسيح المنتظر في آخر الزمان وتدين له كل الأمم، فهم ينكرون هذا البعث يوم القيامة[3].

واللافت أن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية تشير بوضوح إلى اعتناق أحبار اليهود الذين ناقشوا النبي محمد ﷺ عقيدة البعث والجزاء، وآمنوا بوجود الجنة والنار، فقد نقل عنهم القرآن: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةًۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 80]، كما سأل عبد الله بن سلام -الذي كان من أحبار اليهود- النبي ﷺ عن ثلاث مسائل ومنها سؤاله عن أول أشراط الساعة وعن أول ما يأكله أهل الجنة، فلما أجابه النبي بما يتوافق مع ما جاء في التوراة أسلم

(1) "اليوم الآخر لدى اليهود"، موسوعة الأديان في موقع الدرر السنيّة، dorar.net.

(2) انقسم بنو إسرائيل في القرن الميلادي الأول إلى طائفتين كبيرتين هما الصدوقيون والفريسيون، إضافة إلى طوائف أخرى صغيرة.

(3) عدنان البرديني، عقائد اليهود من خلال الحوار مع النبي صلى الله عليه و سلم، رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية- غزة، 2010، ص 164.

عبد الله على الفور (1)، وفي حديث آخر جاء اثنان من اليهود إلى النبي وسألاه: "يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا"، فنزلت الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: 187] (2). ومع ذلك، لا نجد في نصوص التوراة المتبقية اليوم ما يشير إلى عقائدهم تلك، ما يؤكد أنهم بدلوها وحرّفوها ليصبح الوعيد مقتصرا على الدنيا، فحتى اعتقاد بعض أحبار الفريسيين بالبعث لقي معارضة شديدة (3).

ويقول الحبر اليهودي الكبير موسى بن ميمون، المتوفى في مطلع القرن الثالث عشر، إنه يؤمن "إيمانًا كاملًا بقيامة الموتى، في الوقت الذي تنبعث فيه بذلك إرادة الخالق- تبارك اسمه وتعالى ذكره- الآن وإلى أبد الآبدين"، لكن هذا التصريح قد يُحمل على البعث في الدنيا وليس في مرحلة لاحقة تسمى الآخرة، وقد يُحمل على تغير في العقيدة لتأثر ابن ميمون بالمسلمين؛ إذ كان طبيبًا للأيوبيين في مصر، ومن المقرر لدى الباحثين أن كتابه «دلالة الحائرين» كان يصدر عن فكرٍ وثقافةٍ إسلامية (4).

ويقسم بعض الباحثين تطور الفكر الأخروي عند اليهود منذ خروجهم من مصر إلى ثلاث مراحل، ففي المرحلة الأولى أغفلوا الحديث عن اليوم الآخر، وفي المرحلة الثانية أثناء وجودهم في فلسطين اقتبسوا من المعتقدات السومرية والبابلية فكرة العالم السفلي (الجحيم)، وفي المرحلة الثالثة التي تلت السبي البابلي تأثروا بديانة الفرس التي تؤمن بالبعث في اليوم الآخر (5).

---

(1) راجع: صحيح البخاري، الحديث رقم 6455.

(2) تفسير الطبري، ج 9، ص 137.

(3) احمد شلبي، مقارنة الأديان- اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1988، ص 94.

(4) انظر مقدمة كتاب "دلالة الحائرين" للدكتور حسين أتاي، منشورات الجمل، 2012.

(5) محمد الخطيب، مقارنة الأديان، دار المسيرة، عمان، ط 1، 2008، ص 171- 174.

ويقول الدكتور إسماعيل الفاروقي إن اليهود كانوا يرون أن الموت هو خاتمة كل شيء، فلما شاهدوا تحطيم مملكتهم وتقتيل رجالهم على يد البابليين واليونانيين والرومانيين والأنطاكيين أخذوا يتقبلون فكرة الآخرة، إذ لم يعد يُعقل عندهم أن الرب لن ينصر شعبه المختار بعد سقوطه (1).

وتعدّ قضية المسيح المنتظر (الماشيَّح أو المسيّا) من أهم معتقدات اليهود، وسُمي بذلك لأنه ممسوح بالزيت دلالة على تكريسه كاهنًا أو ملكًا، وهو رجل سيظهر في آخر الزمان من نسل داود ليعيد مملكتهم في فلسطين ويبني الهيكل، ومنه سيحكم العالم وتدين له كل الشعوب.

كانت آمال اليهود بخروجه تتجدد في كل محنة، بدءًا بالسبي البابلي، وكان بعضهم يظن في كل قائد يهودي بارز أنه هو المسيح، ومن أبرزهم مثلا شبتاي ليفي الذي عاش في كنف الدولة العثمانية في القرن السابع عشر، وادعى اعتناق الإسلام للنجاة من الإعدام، ولحق به أتباعه الذين يُطلق عليهم اسم يهود الدونمة.

تذكر بعض النبوءات أن ظهور المسيح يجب أن يُسبق بتجمّع اليهود من الشتات إلى الأرض المقدسة، وسيطرتهم الاقتصادية على العالم، وهدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل على أنقاضه، وقيام حرب هائلة يهلك فيها ثلثا البشر، وهي التي يطلق عليها المسيحيون المتصهينون معركة "هرمجّدون"، وبعدها سيظهر المسيح ليدين له من بقي على قيد الحياة، ويعمّ العدل والرخاء والصحة الأرض تحت قيادة بني إسرائيل، وثمة خلاف بشأن مدة بقائه، ما بين عشرات وآلاف السنين (2).

---

(1) إسماعيل الفاروقي، الملل المعاصرة في الدين اليهودي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1988، ص 16.

(2) موسوعة السبيل، مرجع سابق.

ويجدر بالذكر أن تيار "اليهودية المحافظة" في إسرائيل اليوم لا يجزم بضرورة التفسير الحرفي لنبوءات ظهور المسيح، أما تيار "اليهودية الإصلاحية" الأقرب إلى العلمانية فيرفض هذه الفكرة ويعتبر أن تأسيس دولة إسرائيل هو ضرورة سياسية لإيواء اليهود من الاضطهاد بعد محرقة "الهولوكوست"، ومن دون اكتراث لأي نبوءات دينية.

وقبل ظهور الصهيونية بصفتها حركة سياسية كان الشائع بين الحاخامات تحريم العودة إلى أرض الميعاد (فلسطين)، فالأصل عندهم هو انتظار المسيح الذي سيظهر بمشيئة الرب، أما من يحاول استعجال النهاية فكان يُعد عاصيًا، لكن الصهيونية تبنّت فكرة "بداية الخلاص" (هتحالا جئولاه) وتمكنت من إقناع قطاع كبير من اليهودية الأرثوذكسية على إباحة الهجرة والاستيطان للإعداد لخروج المسيح [1].

أسطورة العرق اليهودي

قد يحلم أي شعب بالحفاظ على "صفائه" العرقي في انتسابه لشخصية عظيمة ما، لكن هذا الحلم الرومنسي بعيد المنال، بل يكاد يكون مستحيلا مع تطاول الزمن وتباعد الأحفاد عن الأجداد.

والعجيب أن إصرار يهود اليوم على التمسك بمبدأ انغلاق دينهم على القومية الإسرائيلية يسقط عند أول امتحان، فحتى المصادر الدينية تثبت استحالته.

ففي سفر أستير من العهد القديم، نجد سردًا قصصيًا لانتهاء محنة السبي البابلي عندما تزوج ملك فارس أحشورش المرأة اليهودية "أستير"، مما مكّنها هي وعائلتها من التغلغل إلى مراكز صنع القرار والانتقام ممن كانوا يضطهدون اليهود، فاندفع الناس لاعتناق هذا الدين، كما يقول السفر: "وفي كل إقليم

---

(1) سمر الفوالجة، "اليوم الآخر عند اليهود والصهيونية"، مجلة الرشاد alrashad.org، 4 أبريل 2022.

فإقليم، وكل مدينة فمدينة، حيث ورد أمر الملك وحكمه، كان لليهود فرح وسرور ومأدبة ويوم هناء، وصار كثير من شعوب تلك الأرض يهودًا، لأن خوف اليهود وقع عليهم". [أستير- إصحاح 8: 17].

ووفقًا للمؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند، ففي كتابات أشعيا الثاني، وسفر روث، وسفر يونان، وسفر يهوديت الخارجي، نصادف مرارًا دعوات مباشرة وغير مباشرة تسعى إلى اجتذاب الأغيار إلى اليهودية، بل وإقناع العالم قاطبة بقبول شريعة موسى [1].

ومن اللافت أن بداية بعثة النبي موسى عليه الصلاة والسلام -وفقًا للمصادر الإسلامية- كانت بابتعاثه إلى فرعون ودعوته إلى الإيمان بالله، ثم إقناعه برفع الاستعباد عن بني إسرائيل وإطلاق سراحهم للخروج مع موسى، لكن المصادر اليهودية زعمت اقتصار هذه المهمة على إخراج بني إسرائيل وتخصيص هذه الديانة بقومها فقط.

أما المصادر التاريخية فتثبت سعي اليهود في العصور القديمة لدعوة الشعوب الأخرى إلى ديانتهم [2]، وقد نجحوا بالفعل في إقناع شعوب متباينة عنهم عرقيًا، مثل الأحباش السود (يهود الفلاشا)، والصينيين (يهود الكايفنج)، والخزر (الأشكناز)، وحتى بعض العرب والأمازيغ والهنود.

---

(1) شلومو ساند، اختراع الشعب اليهودي، ترجمة سعيد عياش، مكتبة الأهلية، عمان، 2011، ص 202.

(2) أرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم، ترجمة أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991، ص 185.



يهود إثيوبيون أمام حائط البراق في القدس (Joonasl, wikimedia)

ويقول المؤرخ شلومو ساند إن دراسته للوثائق السومرية كشفت أن الكثير من السلالات تتضمن أسماءً عبرية لأشخاص ينتسبون إلى أجداد بأسماء بابلية أو مصرية قديمة، ما يدل على تهوّد الكثير منهم (1).

كما استشهد ساند في كتابه بدراسات مؤرخين آخرين تثبت أن انتشار اليهودية في العالم القديم لا يمكن تفسيره بالنمو السكاني الطبيعي وتوسع الهجرة فقط، وأن اليهودية لم تكن منغلقة بتاتًا، بل كان أتباعها متحمسون للتهويد بدرجة لا تقل عن أتباع المسيحية والإسلام من بعدهم (2).

أما الأنثروبولوجي الإسباني جوان كوماس، الذي شارك في وضع المسوّدة الأولى لوثيقة اليونيسكو بشأن العنصرية، فقد خصص في كتابه "خرافات عن

(1) اختراع الشعب اليهودي، ص 203.

(2) المرجع السابق، ص 205.

الأجناس" الصادر في أواخر الخمسينات فصلًا عن "خرافة الجنس اليهودي"، وتحدّث فيه مطولًا عن إحصاءات تثبت تنوع الصفات الجسدية لليهود في أنحاء العالم، فحتى اليهود الأوروبيون تتنوع صفاتهم العرقية في كل بلد حدة، مما يؤكد "بما لا يدع مجالًا للشكّ أن هناك اختلافات كثيرة في الصفات الجسدية مما يضعف القول بوحدة الجماعات اليهودية"(1).

ويستشهد كوماس أيضًا بمقولة للمؤرخ ريدكليف سالمان، وهي أن "نقاوة السلالة اليهودية ما هي إلا أوهام؛ فأكثر التغيُّرات والاختلافات بين السلالات توجد بين اليهود"(2).

وإذا كان الزواج المختلط فيما بين الأعراق المختلفة أمرًا يستحيل منعه على مرّ القرون، فكيف نتصوّر منعه في العصر الحديث، إذ يقول كوماس إن الإحصاءات في ألمانيا بين سنتي ١٩٢١ و١٩٢٥ تدل على أن من بين كل مئة زيجة يهودية كان ٥٨ منها يتم بين طرفين من اليهود، و٤٢ زيجة بين طرف يهودي وآخر مسيحي(3)، أي أن الكثير ممن وقع عليهم الاضطهاد النازي بصفتهم يهودًا لم يكونوا من بني إسرائيل الخُلّص، بل كانت الدماء الألمانية تجري في عروقهم.

وفي الجانب العربي، كان عالم الجغرافيا المصري جمال حمدان من أهم المنظّرين لتحدّر معظم اليهود الحاليين من أصول غير إسرائيلية، ففي كتابه "اليهود أنثروبولوجيًا" الصادر عام 1967 تحدث مطوّلًا عن تباين الصفات الجسمية لدى اليهود، وخلص إلى أن اليهود ينقسمون من حيث شكل الرأس إلى مجموعتين كبيرتين، هما عراض الرؤوس وطوال الرؤوس، وأن الأولى تمثل ما

---

(1) جوان كوماس، خرافات عن الأجناس، ترجمة محمد رياض، مراجعة محمد عوض محمد: مؤسسة هنداوي، 2016، ص 38.

(2) المرجع السابق، ص 38.

(3) المرجع نفسه ص 39- 40.

بين 80% و90% من يهود العالم، وهم يتحدّرون غالبًا من سلالة الخزر، أما البقية فهم من أصول متوسطية (1).

في المقابل، يشكك باحثون في هذه الاستنتاجات، لا سيما مع ظهور دراسات وراثية (جينية) في السنوات الأخيرة تثبت وجود جينات مشتركة بين الأعراق اليهودية المختلفة، حيث يوظّف الأنثروبولوجيون هذه النتائج لدعم الفكرة الصهيونية باشتراك معظم اليهود بأصولهم الإسرائيلية الشرق أوسطية، لكن الدراسات الجينية لا تدعم هذا الافتراض على وجه الخصوص، فوجود الكروموسومات المشتركة بين اليهود الأشكناز واليهود في الشرق الأوسط يمكن تفسيره بالتزاوج بين هذه الأعراق بعد اعتناق الكثير من الخزر للديانة اليهودية، وليس تحدّر الخزر من أصول إسرائيلية.

وعلى سبيل المثال، يقول الباحث الإسرائيلي أفشالوم زوسمان ديسكين في بحث أكاديمي منشور عام 2010 إن الارتباطات الجينية لليهود دُرست منذ الأيام الأولى لعلم الوراثة، إلا أن أصل اليهود ما يزال غامضًا، ومع أن بعض الدراسات المستندة إلى العلامات الجسدية زعمت أن اليهود لهم أصل مشترك، لكن دراسات أخرى خلصت إلى أن اليهود ينتسبون لأعراق متنوعة للغاية.

ثم يقول إن أصل يهود أوروبا الشرقية، وهم أكبر وأهم فئة من اليهود الأشكناز، لم يتم التحقق منه بعد، وإن الدراسات الوراثية وتحليل العلامات الجسدية تثبت أنهم أقرب إلى الأوروبيين من اليهود الآخرين (2).

وكانت شعوب الخزر قد استوطنت في القرن السابع الميلادي ما بين بحر قزوين والبحر الأسود (أرمينيا وأذربيجان حاليا)، قبل أن تتوسع إمبراطوريتهم

(1) جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيًا، دار الهلال القاهرة، العدد 542، فبراير 1996، ص: 141-146.

(2) Avshalom Zoossmann-Diskin, "The origin of Eastern European Jews revealed by autosomal, sex chromosomal and mtDNA polymorphisms", Biology Direct, Article number: 57 (2010).

لاحقًا لتشمل مناطق واسعة من روسيا وأوكرانيا وشرق أوروبا. وخاض المسلمون معارك كرّ وفرّ مع هذه الأقوام الوثنية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب والدولة الأموية، ثم توقفت غاراتهم في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، وهي الفترة نفسها التي قرر فيها حاكمهم التخلص من الوثنية، فاختار اعتناق اليهودية كي لا يُخضع مملكته للمسلمين العباسيين ولا المسيحيين البيزنطيين، ولحِق به علية القوم والكثير من أبناء شعبه إحقاقًا لمقولة: "الناس على دين ملوكهم"(1).

الصهيونية وحلم الدولة

شهدت اليهودية كما مرّ بنا الكثير من التعديل والتبديل والتحريف منذ نشأتها، كما شهدت انبثاق فِرق وطوائف متعددة واندثار بعضها لعوامل سياسية واجتماعية، ويمكن اعتبار ظهور الحركة الصهيونية في العصر الحديث من نتائج عقيدة المسيح المنتظر بعد صهرها في بوتقة طائفة الفريسيين، ومنحها روح طائفة القنّائين(2).

ترجِّح بعض المصادر أن بذور هذه الحركة وُلدت في القرن السابع عشر على يد البروتستانتية المسيحية المتصهينة التي آمنت بفكرة إعادة اليهود إلى فلسطين لتحقيق الخلاص وعودة المسيح (يسوع)، ثم لاقت الفكرة تأييدًا لدى اليهود الأوروبيين. بينما يُرجح باحثون آخرون أن الفكرة لم تولد في عقول

---

(1) "Khazar", Encyclopædia Britannica, www.britannica.com.

(2) الفريسيون هم الأحبار الذين كانت لهم الكلمة العليا في توجيه المجتمع اليهودي على عهد المسيح عيسى عليه السلام، وكانت لهم منزلة خاصة لدى الحكام الرومان، كما كانوا يميزون أنفسهم عن بقية الشعب اليهودي، أما فرقة القنّائين فكانت تتهم الفريسيين بالخيانة لأنهم رضوا بحكم الرومان الوثنيين، وكانوا ينفذون عمليات اغتيال للرومان ومواليهم من اليهود عبر تشكيل جماعات سرية، كما كانوا متشددين في التمسك بالشريعة اليهودية.

البروتستانت من العدم، بل تسللت إليهم من اليهود المتخفين [1]، حتى أصبحت عقيدة مقدسة لدى الدول البروتستانتية في أوروبا الغربية، ثم أميركا.

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري إنه تطوُّر مفهوم الصهيونية لا يعود إلى العهد القديم أو ما يُسمَّى "التاريخ اليهودي"، فحتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لم يرتبط اليهود بالصهيونية كفكرة أو مشروع سياسي [2].

ومن أشهر اليهود الأوروبيين الذين تبنّوا هذا المشروع الصحفي والأديب النمساوي ثيودور هرتزل الذي عايش عدة أحداث لاضطهاد اليهود، فنشر في عام 1896 كتابًا بعنوان «الدولة اليهودية»، وناقش فيه فكرة إقامة دولة لليهود، إما في الأرجنتين، أو على نحو مفضل في فلسطين، معتبرًا أن هذا هو الحل الوحيد لتخليص الشعب اليهودي من العنصرية الأوروبية التي صارت تسمى "معاداة السامية".



هرتزل على متن سفينة في طريقها إلى فلسطين عام 1898م

(1) مصطلح "اليهود المتخفين" ليس من نتاج نظريات المؤامرة، بل هو حقيقة تاريخية لا خلاف عليها، إذ اعتاد الكثير من اليهود على إظهار اعتناق المسيحية في أوروبا -أو الإسلام في الدولة العثمانية- عندما كانوا يشعرون بالخطر أو يتعرضون للاضطهاد، ويمكن التعرف على هذه الظاهرة بالبحث في الموسوعات اليهودية عن طوائف المارانوس والدونمة والكونفرسوس والتشويتاس.

(2) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، 2010، ط6، ص 198.

سرعان ما حظي الكتاب بترحيب وإشادة على نطاق واسع، فالأوروبيون العلمانيون وجدوا في فكرة الدولة اليهودية وسيلة للتخلص من عبء الأقليات اليهودية ولزرع دولة وظيفية في قلب العالم الإسلامي (الدولة العثمانية آنذاك)، والمسيحية المتصهينة وجدت فيها تعجيلًا لتحقيق عودة المسيح، أما اليهود فانقسموا آنذاك بين مؤيد لها، وبين معارض لكونها تهديدًا للمشاريع الإصلاحية التي كانت تبذل جهودًا كبيرة لدمج اليهود في المجتمعات الأوروبية، كما اعتبرت بعض الطوائف اليهودية أن إقامة الدولة تمرّد على المشيئة الإلهية [1].

بعد سنة فقط من ظهور كتاب هرتزل، ترأس بنفسه المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية، والطريف أن الصهاينة عجزوا عن عقده آنذاك في ميونيخ بسبب معارضة حاخامات المدينة، كما عقدت الجالية اليهودية القوية في مونتريال الكندية مؤتمرًا موازيًا في الوقت نفسه للاعتراض على أي مبادرة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية [2].

وبالرغم من الاعتراضات، سُلطت كل الأضواء على مؤتمر بازل، وقال هرتزل في خطاب الافتتاح إن هدف المؤتمر هو وضع حجر الأساس لوطن قومي لليهود، مؤكدًا أن "المشكلة اليهودية" [3] لا يمكن حلها من خلال سياسات

---

(1) من الطوائف اليهودية المعادية للصهيونية حركة ناطوري كارتا، فهي تقول إن التلمود ينص على أن أي محاولة لاسترداد أرض إسرائيل بالقوة هي مخالفة للإرادة الإلهية، وإن إعادة دولة إسرائيل ينبغي أن تحدث بعد ظهور المسيح وليس تمهيدًا له.

(2) رجاء جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، دار الغد العربي، القاهرة، ط1، 1996، ص 18.

(3) كان هذا المصطلح -أو "المسألة اليهودية"- شائعًا في أوروبا آنذاك، إذ كان اليهود يشكّلون معضلة حقيقية للمجتمع والسياسيين في أنحاء القارة، وكان الرأي الشائع على كل الأصعدة هو ضرورة دمج اليهود في المجتمعات الأوروبية -وهذا يعني علمنتهم ومحو ثقافتهم- أو طردهم إلى قارات أخرى، بينما لم تتردد الحركات الأكثر تطرفًا في التفكير بإبادتهم، وهذا ما نفذته جزئيًا السلطة النازية في ألمانيا. وكان الفيلسوف الألماني اليهودي المعروف كارل ماركس قد ألف كتابًا بعنوان "المسألة اليهودية" في

الإدماج في أوروبا، ولا بالتوطين البطيء إلى مناطق أخرى، بل يجب إطلاق حملة لمشروع استيطاني في فلسطين ترعاه الدول الكبرى ويحظى باعتراف قانوني، وبشكل مشابه لسياسات الاستعمار التي كانت تنتهجها الدول الأوروبية آنذاك في أنحاء العالم.

رحبت الحكومات الأوروبية بهذا المشروع، وعرضت الحركة الصهيونية على السلطان العثماني عبد الحميد الثاني شراء بعض الأراضي الفلسطينية فرفض رفضًا تامًا، كما سعى الإمبراطور الألماني (غليوم الثاني) لتسهيل عمليات الهجرة لدى الدولة العثمانية لكن بدون جدوى، وكانت حملات الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين قد بدأت بالفعل قبل المؤتمر الصهيوني الأول بنحو عشر سنوات، لكن السلطان أصدر قرارًا بمنع اليهود من السكن في فلسطين ومنع اليهود الأجانب من دخول مدينة القدس، وذلك بعدما صارت إقامة الدولة اليهودية هدفًا معلنًا (1).

واصلت الحركة الصهيونية دعمها لتهجير اليهود بأعداد صغيرة، وأسست «الصندوق القومي اليهودي» في عام 1901 لتمويل الهجرة. لكن تباطؤ التنفيذ دفع الصهاينة للتشكيك في إمكانية إقامة الدولة على أرض فلسطين، حتى اقترح هرتزل اختيار أوغندا الأفريقية مكانًا للدولة المنشودة، لكن الروس رفضوا المقترح بشدة.

في الوقت نفسه كان يهود الدونمة ينشطون -بدعم خارجي- في الجمعيات السرية الماسونية للتغلغل إلى السلطة في الدولة العثمانية، وعلى رأس هذه التشكيلات جمعية الاتحاد والترقي. وتزامنت هذه الجهود مع القلاقل التي

= عام 1843، وجدد فيه نقده للرأسمالية معتبرًا أن النظام الشيوعي الذي يدمج كل الطوائف في منظومة علمانية هو الحل.

(1) محمد سهيل طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت 2013، ص 473.

اندلعت في الولايات العربية التابعة للسلطنة على يد حركات وجمعيات القوميين العرب، كما جاءت بعد فترة قصيرة من الهزيمة المؤلمة للعثمانيين في حروبهم مع روسيا وخسارتهم أراضي واسعة في أوروبا.

في منتصف عام 1908، نجحت حركة "تركيا الفتاة" العلمانية في الضغط على السلطان لاسترجاع دستور عام 1876 الذي يقلص صلاحياته. وفي العام التالي، تآمرت بريطانيا مع عملائها "الاتحاديين" لتدبير ما سمي بثورة "31 مارس" وإحداث تمرد في الجيش العثماني، وخلال أقل من شهر انتهى الأمر بعزل السلطان عبد الحميد الثاني، وكان اليهودي قره صو عمانوئيل واحدًا من الأعضاء الأربعة للوفد الذي أبلغه بقرار عزله، وبدأت بذلك استعدادات الأوروبيين للإجهاز على الدولة العثمانية واقتسام إرثها، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى في عام 1914 لتسريع هذه الغاية، فكان من سوء حظ العثمانيين انحيازهم إلى الطرف الخاسر بتحالفهم مع الألمان، بينما كانت بريطانيا تتحالف مع الشريف الحسين وأولاده وتدفعهم لإطلاق "الثورة العربية الكبرى" عام 1916 ضد العثمانيين، وفي الوقت نفسه كان الأمير فيصل بن الشريف الحسين قد اتفق مع الصهيوني حاييم وايزمان على إقامة دولة يهودية في فلسطين، ثم أرسل وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور في أواخر 1917 رسالة إلى اللورد اليهودي ليونيل روتشيلد يؤكد فيها دعم بلاده لتأسيس "وطن قوميّ في فلسطين للشعب اليهوديّ"، وهي الرسالة المشهورة تاريخيًا باسم "وعد بلفور". ولم تضع الحرب أوزارها في عام 1918 إلا بالقضاء على الدولة العثمانية وإنهاء منظومة الحكم الإسلامية (الخلافة)، ثم أقرّ مؤتمر باريس للسلام في العام التالي اتفاقية فيصل-وايزمان.

وقعت الدول العربية بعد الحرب تحت نير الاحتلال الأوروبي المباشر، وكانت فلسطين من نصيب "الانتداب البريطاني"، فتسارعت وتيرة الهجرة اليهودية المكثفة، وتأسست عصابات يهودية متطرفة لترويع الفلسطينيين

وتهجيرهم، وحتى إبادتهم في بعض القرى، بينما كانت الحركات العنصرية "المعادية للسامية" تزداد عنفًا ضد اليهود في أوروبا وتشجعهم على الهجرة، ثم جاءت المحرقة النازية في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية لتهدي الحركة الصهيونية أهم مبرراتها بضرورة إقامة دولة خاصة لليهود لحل "المشكلة اليهودية"، وهذا ما أقرته منظمة الأمم المتحدة بتبني خطة التقسيم عام 1947، لتعلن الحركة الصهيونية في العام التالي رسميًا قيام دولة إسرائيل وبمباركة دولية، فحتى الاتحاد السوفييتي الذي كان يجاهر بمعارضته للصهيونية صوّت في الأمم المتحدة لصالح التقسيم، بل كان من أوائل الدول الكبرى التي اعترفت بالدولة المحتلة في يوم تأسيسها، مع أن الرئيس جوزيف ستالين كان قد سمح في عام 1934 بتأسيس منطقة ذات حكم ذاتي لليهود داخل الاتحاد السوفييتي وعاصمتها مدينة بيروبيجان الواقعة في أقصى شرق البلاد، لكن إقامة دولة يهودية على أرض شعب آخر كان يخدم مصالح كل الدول آنذاك ويمثّل حلًا لما يسمى "المشكلة اليهودية"، مع أنه اختلق مشكلة أخرى ما زالت تشغل المجتمع الدولي حتى اليوم.



التقطت الصورة في 14 مايو 1948 داخل قاعة بمتحف تل أبيب في شارع روتشيلد أثناء إعلان دافيد بن غوريون قيام دولة إسرائيل تحت صورة هرتزل

الدولة المأزق

مع إعلان قيام "دولة إسرائيل"، انطلقت الاحتفالات بين المجتمعات اليهودية والمسيحية في أنحاء العالم، فلم يكن مجرد حلم يداعب خيال فئة مضطهدة تبحث عن الاستقلال، بل جاء في صورة تحقُّق وعد إلهي بعد تأجيل استمر ثلاثة آلاف سنة، وأيضًا عقب مذبحة ارتكبتها الحكومة الألمانية، ليأتي في النهاية مشحونًا بمشاعر جياشة تحقق مصالح جميع الأطراف باستثناء العرب والمسلمين، وكأنه انتصار تاريخي لكل من اليهود الذين أصبح باروناتهم من كبار أثرياء العالم، وكذلك البروتستانت المتصهينون الذين صارت لهم الغلبة في العالم المسيحي بعد انحسار قوة الكنيسة الكاثوليكية، وأيضًا انتصار للعلمانيين الغربيين الذين يرون في تأسيس هذه الدولة حلًا للمشكلة اليهودية وكيانًا وظيفيًا يمكن استثماره لأهداف إستراتيجية في المنطقة.

لكن تأسيس هذا الكيان كان يتطلب في حده الأدنى جمع شتات اليهود من أعراق وخلفيات شديدة التباين، وتحويلهم إلى شعب واحد يخوض معركة مصيرية، لذا قال ديفيد بن غوريون أول رئيس حكومة إسرائيلي: "مع انتهاء المعارك... علينا أن نصهر هذا الشعب الكبير ذو الألوان المختلفة في بوتقة جديدة، لنصنع منه أمة جديدة"، لكن هذه الأحلام لم تتحقق حتى بعد مرور سبعين سنة، فالدولة اليهودية ما زالت تواجه أسئلة وجودية بشأن طبيعتها ومبررات وجودها التوراتية، فضلًا عن تزايد الانقسام بين مكونات شعبها.

ومنذ التأسيس، يتواصل الجدل بشأن شكل الدولة اليهودية ودستورها وتشريعاتها وتوزيع السلطات فيها، فالمتدينون يريدون دولة تطبق الشريعة اليهودية ولا تكترث لشروط الديمقراطية والحداثة، والعلمانيون يتحدثون عن دولة مدنية، ويستذكرون مواقف المؤسسين الأوائل الذين أرادوا إنشاء دولة يهودية ليبرالية، غير علمانية بالمطلق، مع أنهم لم يترددوا في استخدام الأساطير

الدينية كوسيلة لتبرير قيام الدولة حتى لو كان بعضهم لا يؤمن بها جزئيًا أو كليًا (1).

وربما يتمنى قادة هذا الكيان الاستعماري العودة بالزمن إلى الوراء لوضع قواعد صارمة عند تأسيس الدولة، فالفئة المتشددة "الحريديم" تتخذ منذ البداية موقفًا مناهضًا للدولة المدنية، وهي ترفض حتى الآن الانخراط في الجيش، وأبناؤها يحصلون بالفعل على إعفاء من الخدمة الإلزامية (2)، كما يقاطعون مدارس الدولة ومعظم مؤسساتها وإعلامها، ويجاهر المستوطنون المتطرفون منهم بخطاب إبادة العرب وضرورة التعجيل ببناء الهيكل وضرب قرارات الأمم المتحدة بعرض الحائط.



مظاهرة حاشدة للحريديم في 2014 ضد مشروع للتجنيد الإجباري لتلاميذهم

وبعد كل دورة انتخابات لتشكيل الحكومة، تظهر على السطح صفقات التسويات ويتجدد الجدل، إذ تعالت أصوات النقد بعدما اضطر رئيس

(1) في الخمسينات أرسل أوّل رئيس وزراء لإسرائيل دافيد بن غوريون رسالة إلى موشيه شاريت الذي خلفه على المنصب لاحقًا، وقال فيها: "ليس لنا أن نفصل الدين عن الدولة، فهنالك وحدة مصدر بين دولة إسرائيل والشعب اليهودي". انظر: عزمي بشارة، من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية، دار الشروق، القاهرة، 2005، ص 29.

(2) يحصل كل شاب يهودي يلتحق بالمعاهد الدينية على راتب شهري يبلغ حوالي 1140 دولارًا طيلة مدة دراسته التي قد تصل إلى ثلاثة أعوام، وبعدها تسقط عنه الخدمة الإجبارية، لذا يتمكن ثلاثة أرباع الحريديم من التهرب من الجيش. انظر: أسيل جندي، مرجع سابق.

الحكومة بنيامين نتانياهو في أواخر 2022 لإعلان حكومته الجديدة مع شركاء من الأحزاب الدينية واليمينية المتطرفة، لتصبح بذلك الحكومة الأكثر يمينية وتطرفًا في تاريخ الدولة.

وشهد الربع الأول من عام 2023 مظاهرات حاشدة وغير مسبوقة بقيادة المعارضة والتيارات اليسارية والليبرالية، للتنديد بسياسة الحكومة اليمينية، مما أبرز حدة الانقسام في مجتمع الاحتلال، حتى قال الرئيس الأسبق لجهاز الاستخبارات الخارجية (الموساد) تامير باردو إن إسرائيل "فعّلت آلية تدمير الذات، وهي تقترب من نهايتها" (1).



صورة التقطت ليلة 4 مارس 2023 في تل أبيب لمظاهرات نظمها الليبراليون ضد خطة نتنياهو لإصلاحات قضائية قيل إنها تقوّض الديمقراطية وحقوق الإنسان (Amir Terkel, Wikimedia)

وكان الرئيس الإسرائيلي السابق رؤوفين ريفلين قد حذر منذ عام 2015 من خطورة الانقسام المتصاعد، مشيرًا إلى أن المجتمع منقسم بين ما سماه أربع

(1) "يديعوت أحرونوت: رئيس جهاز الموساد السابق: إسرائيل تقترب من نهايتها"، صحيفة رأي اليوم، 7 أغسطس 2023.

"عشائر"، وهي: علمانية، وقومية دينية، ومتشددة، وعربية، وقال إنها "لا تتعايش، وأولادها لا يرتادون المدارس نفسها، وأفرادها حتى لا يقرؤون الصحف ذاتها"، كما حذّر من خطورة تزايد التوتر والخوف والعداء فيما بينها.

وتزخر الصحافة الإسرائيلية في السنوات الأخيرة بمقالات تشكك باستمرار وجود هذه الدولة المصطنعة، ومنها مثلًا مقال للصحفي آري شافيط في صحيفة هآرتس بعنوان "إسرائيل تلفظ أنفاسها الأخيرة"، قال فيه إنه لم يعُد بالإمكان إعادة إصلاح الصهيونية وإنقاذ الديمقراطية وتقسيم البلاد، وما دام الأمر كذلك فإنه لا طعم للعيش في هذه البلاد. وأيضًا مقال للصحفي يارون لندن اعترف فيه بأنه يعدّ نفسه لمحادثة مع حفيده سيقول له فيها إن نسبة بقائهم في هذه الدولة لن تتعدى 50%. أما الصحفي جدعون ليفي فكتب في صحيفة هآرتس في 13 مايو 2022 إن "وجهتنا يجب أن تكون أوروبا، وعليهم أن يستقبلونا كلاجئين. أعتقد أن هذا أفضل من أن نؤكَل أحياءً من العرب"(1).

وكان موقع "ميدل إيست آي" البريطاني قد أجرى في مطلع عام 2020 مقابلة لافتة مع الباحث الإسرائيلي ياكوف شاريت، وهو ابن موشيه شاريت الذي كان من الآباء المؤسسين لإسرائيل وأول وزير خارجية لها وثاني رئيس للوزراء، حيث قال ياكوف بعدما تجاوز عمره التسعين عامًا إنه نادم على المشروع الصهيوني بأكمله، مضيفًا أن إسرائيل "دولة إجرامية" وأن هذا البلد الذي ساهم بتأسيسه عندما كان جنديًا في شبابه لا يمكن أن يستمر بتحويله إلى قلعة ضد الغزاة، وبأن يعيش سكانه بالسيف إلى الأبد(2).

---

(1) زهير أندراوس، الكيان يُناقِش زواله، صحيفة رأي اليوم، 14 أكتوبر 2022.

(2) "اعترافات متأخرة لنجل مؤسس إسرائيل.. الندم على المشروع الصهيوني"، الجزيرة نت، 16 يناير 2020.

انحسار التدين

تتحدث وسائل الإعلام كثيرًا عن ظاهرة ازدياد التطرف اليميني في الكيان المحتل، لكن هذا لا يعني بالضرورة ازدياد نسبة التدين بين اليهود، سواء في داخل الكيان أو خارجه. فظاهرة انحسار التدين بين المسيحيين في الغرب تنتشر بين اليهود أيضًا، وتشير الإحصاءات إلى أن نصف يهود العالم على الأقل يميلون إلى العلمانية وعدم الاكتراث بأصول ديانتهم، مما يضع أحد أهم مبررات وجود "وطنهم القومي" على المحك.

ففي الولايات المتحدة التي تضم أكبر جالية يهودية بعد إسرائيل (1)، كشفت دراسة لمركز "بيو" في عام 2018 أن 45% من اليهود الأميركيين مدرجون في الشريحتين الأقل تدينًا: وهما "مقاوموا الدين": الذين يؤمنون بوجود إله ولكن لديهم وجهات نظر سلبية عن الدين، أو "علمانيون بقوة": الذين يؤمنون بالإله ولا يعرّفون أنفسهم كمتدينين، أما الذين يمارسون الطقوس الدينية فلا تزيد نسبتهم عن 21% (2).

وفي الدولة اليهودية نفسها، والتي يُفترض أنها استقطبت المتدينين من اليهود قبل العلمانيين، كان 54% من اليهود يصفون أنفسهم بأنهم علمانيين في

---

(1) طوال عقود، كانت الإحصاءات تشير إلى أن عدد اليهود في الولايات المتحدة أكبر من عددهم في إسرائيل، وبدءًا من عام 2006 تؤكد الإحصاءات الإسرائيلية أن عدد اليهود داخل إسرائيل أصبح أكبر. ومن اللافت أن بعض الباحثين تنبؤوا آنذاك بأن يصبح عدد اليهود في إسرائيل أغلبية مطلقة خلال 25 عامًا، ولكن الإحصاءات في 2022 لا تنبئ بذلك، فعدد اليهود في إسرائيل يزيد عن عددهم في الولايات المتحدة بنصف مليون فقط. انظر: Report: More Jews in Israel than in any other country, www.jpost.com, 2 May 2006

(2) مقال: حوالي نصف اليهود الأميركيين لا ينتمون إلى ديانة منظّمة، صحيفة تايمز أوف إسرائيل ar.timesofisrael.com، 30 أغسطس 2018.

منتصف الثمانينات، وذلك وفقًا لمجلة نيوزويك، بينما كانت مصادر أخرى ترفع هذه النسبة إلى ما بين 60% و65% (1).

وفي استطلاع لدائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية عام 2018، اعتبر 43.2% من اليهود في إسرائيل أنفسهم من فئة العلمانيين (حِلوني بالعبرية) (2)، وتُعد هذه الفئة معادية للدولة الدينية (الحاخامية).

أما فئة الحريديم المتدينين فبلغت نسبتها في 2018 بحسب الإحصاءات الرسمية 13.6% فقط، وهذه الأقلية هي التي تطالب بدولة دينية يحكمها رجال الدين لتحقيق حلم خروج المسيح. ويدور الجدل بشأنهم من حيث ارتفاع نسبة المواليد فيهم أكثر من أي فئة أخرى، فالتوقعات تشير إلى احتمال ارتفاع نسبتهم عام 2028 إلى أكثر من 20%، ثم إلى حوالي 34.6% في عام 2059 (3). وحتى لو صحّت هذه التوقعات فسيبقى الحريديم في حدود ثلث اليهود بعد حوالي أربعين عامًا، وستبقى "الدولة اليهودية" بذلك ذات أغلبية لا تؤمن بالدولة الدينية.

هناك دراسات أخرى تضيف إلى الحريديم بعض الفئات المتدينة الأقل تشددًا لترتفع نسبتهم إلى ما بين 20% و30%، ومع ذلك تبقى الأغلبية ممن يعرّفون أنفسهم بأنهم إما علمانيين (حِلوني) أو تقليديين (ماسورتيم)، وهذه الفئة الأخيرة لا تنكر إيمانها بالدين ومقدساته إلا أنها تتخفف من الالتزام بقيود الشريعة، وتبدي مواقف متباينة بشأن تصوراتها عن الإله والوحي. ففي استطلاع أجرته مؤسسة غالوب الدولية في عام 2015 في 65 دولة، جاءت

---

(1) غريس هالسل، النبوءة والسياسة: الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية، ترجمة محمد السماك، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس الليبية، ط1: 1989، ص 131.

(2) ICBS 2018 Survey, p. 82.

(3) أسيل جندي، "اليهود الحريديم.. كراهية تاريخية لدولة إسرائيل والعلمانيين عززها كورونا"، موقع الجزيرة نت، 11 مايو 2020.

إسرائيل في المرتبة الثامنة عالميًا في قائمة أكثر الشعوب علمانية، متقدمة على دول مثل ألمانيا وسويسرا، إذ قال 57% ممن شملهم الاستطلاع من يهود إسرائيل إنهم يعتبرون أنفسهم "غير متدينين"، كما قال 8% إنهم "ملحدون"، واعتبر 30% أنفسهم "متدينين" (1).

ومما يؤكد انخفاض نسبة اهتمام الكثير من يهود العالم بالدين، جاء في دراسة نشرها معهد أبحاث السياسة اليهودية JPR في أغسطس 2023 أن نسبة الزواج المختلط بين اليهود وغيرهم حول العالم تبلغ 26%، كما تبلغ هذه النسبة لدى يهود الولايات المتحدة 45%، بينما ترتفع هذه النسبة كثيرًا في بعض الدول الأوروبية لتصل إلى 76% مثلا في بولندا (2).

وبالعودة إلى الكيان المحتل، تتزايد ظاهرة مجاهرة العلمانيين من اليهود بمظاهر الانحلال كل عام، حتى أصبحت العاصمة تل أبيب "عاصمة المثليين في الشرق الأوسط"، بل حازت سمعة عالمية في هذا المجال. ففي استطلاع عالمي أجراه موقع للمثليين في عام 2011، قال 43% من المشاركين إن تل أبيب هي مدينتهم المُفضَّلة لقضاء عُطلة (3).

وإذا اتخذنا الشذوذ الجنسي (المثلية) معيارًا لقياس تدين الحكومة والمجتمع، فمن المهم الإشارة إلى استطلاع للرأي أجري في عام 2017، وجاء فيه أن 79% من عموم الإسرائيليين يدعمون الزواج بين المثليين، كما كشف الاستطلاع أن 84% من ناخبي حزب الليكود اليميني يدعمون هذا الزواج (4)، ما يعني أن الكثير من أنصار هذا الحزب ليسوا متدينين أصلًا، حتى لو اضطر

---

(1) "إسرائيل من بين الدول العشر الأكثر علمانية"، www.globes.co.il، 21 أبريل 2015.

(2) Daniel Staetsky, "Intermarriage of Jews and non-Jews: The global situation and its meaning", jpr.org.ukm, August 2023.

(3) "Tel Aviv Declared World's Best Gay Travel Destination", haaretz.com, 11 Jan 2012.

(4) Toi Staff, "79% of Israelis back gay marriage or civil unions", timesofisrael.com, 9 June 2017.

قائد الحزب نتنياهو للتحالف مع أكثر الأحزاب تطرفًا والتي تقر بأن المثلية محرّمة دينيًا. وعلى الصعيد السياسي، يُسمح للمثليين بالالتحاق بالجيش منذ عام 1993، كما ضم البرلمان (الكنيست) في عام 2020 ستة نواب مثليين من أحزاب عدة، بما فيها حزب الليكود، وشارك رئيس الكنيست ميكي ليفي في إحدى مسيرات المثليين وألقى خطابًا أكد فيه دعم الحكومة لحق المثليين في الزواج وتبني الأطفال.

ومع أن وسائل الإعلام المحلية والعالمية، ومعظمها ذات ميول ليبرالية، تسلط أضواءها على المتشددين اليهود (الحريديم)، محذرة من خطابهم العنصري المقيت واستفزازاهم للشرطة الإسرائيلية، إلا أن استفزاز العلمانيين اليهود للمتدينين لا يحظى بمثل هذا الاهتمام، إذ أصبحت مسيرات "شهر الفخر" التي تنطلق في شهر يونيو من كل عام ويشارك فيها مئات الآلاف فرصةً للصدام مع المتدينين، ومن الأمثلة مسيرةٌ حاشدة جابت شوارع مدينة "متسبي رمون" في جنوب دولة الاحتلال عام 2022 وتعمّد فيها الشواذ استفزاز المتدينين أمام إحدى مدارسهم وتحت حماية الشرطة (1).

شبح الزوال

في 7 أكتوبر 2023، شنت فصائل المقاومة الفلسطينية في غزة عملية غير مسبوقة تحت مسمى "طوفان الأقصى"، تضمّنت إطلاق خمسة آلاف صاروخ نحو عشرات المستوطنات والمدن في كل أرجاء المناطق المحتلة، بالتزامن مع اقتحام بري للبلدات والمستوطنات في غلاف غزة، ما أسفر عن اشتباكات عنيفة مع بعض القطع العسكرية. وانتهى الهجوم المباغت بمقتل أكثر من 1500 إسرائيلي، وأسر نحو 245 شخصًا ونقلهم مباشرة إلى داخل غزة كرهائن.

---

(1) ميرفت عوف، الليبرالية تنتصر على الشريعة اليهودية.. لماذا أصبحت إسرائيل قبلة للمثليين؟، الجزيرة نت، 25 يوليو 2022.

أطلق الاحتلال عقب ذلك عدوانًا واسعًا لاستئصال المقاومة وتدمير غزة وتهجير أهلها، وما يهمّنا في هذا السياق هو الأثر الذي زلزلت به هذه الأحداث المشروع الصهيوني برمته، إذ سرعان ما توالت التصريحات الرسمية والإعلامية من داخل الاحتلال وفي الدول الغربية للتحذير من زوال هذا الكيان، ومنها مثلًا الكاتب الإسرائيلي جدعون ليفي في صحيفة هآرتس أهم مؤشرات الفشل الإسرائيلي أمام الفلسطينيين بقوله: "إنّنا نواجه أصعب شعب في التّاريخ، وعمليّة التدمير الذاتي والمرض السرطاني الإسرائيلي بلغا مراحلهما النهائية، ولا سبيل للعِلاج بالقبب الحديدية ولا بالأسوار، ولا بالقنابل النوويّة".

ويكفي الاستشهاد برؤية المؤرخ الإسرائيلي البروفيسور إيلان بابيه [1] الذي قدّم في يناير 2024 محاضرة جريئة بمدينة حيفا تحت عنوان "بداية نهاية المشروع الصهيوني"، إذ قال إن بداية نهاية هذا المشروع هي مرحلة طويلة وخطيرة، ويجب الاستعداد لها، مشيرًا إلى خمسة مؤشرات لبداية النهاية، وهي:

1- تآكل الرابط الذي كان يجمع بين طرفي المجتمع الإسرائيلي، العلماني والديني، فالأول يريد دولة علمانية دنيوية وقد يتخلى عن بعض الأراضي للفلسطينيين أما الثاني فلا يقبل سوى بالتمدد وإنشاء الدولة الدينية التوراتية من النيل للفرات، ويبدو أن الطرفين على وشك الدخول في حرب أهلية.

2- حصول القضية الفلسطينية على دعم غير مسبوق في العالم، وانهيار صورة دولة الاحتلال حتى أصبحت نموذجًا مماثلًا لدولة الفصل العنصري البائدة في جنوب أفريقيا.

---

(1) هو أستاذ في كلية العلوم الاجتماعية والدراسات الدولية بجامعة إكستر البريطانية University of Exeter، ومدير المركز الأوروبي للدراسات الفلسطينية التابع للجامعة، وأيضًا المدير المشارك لمركز إكستر للدراسات العرقية والسياسية، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "عشر أساطير عن إسرائيل" الصادر عام 2017.

3- تزايد الهوة بين الفقراء والأغنياء وهشاشة الوضع الاقتصادي، لا سيما مع الإنفاق الهائل على القطاع العسكري.

4- عدم قدرة الجيش على حماية المجتمع اليهودي، فالعملية الأخيرة أجبرت 120 ألف يهودي على النزوح إلى الشمال (1)، والحكومة فشلت في مساعدة عائلات القتلى والجرحى.

5- تغيّر مواقف الجيل الجديد من اليهود، وخصوصًا خارج دولة الاحتلال، فهناك أعداد متزايدة من الشباب اليهود الذين انضموا بالفعل إلى حركة التضامن مع الفلسطينيين، إلى جانب تخلي الجيل الجديد من المسيحيين في أميركا عن الأفكار الأصولية التي كانت أهم داعم لإسرائيل (2).

وكان استطلاع للرأي أجراه باحثون من جامعة هارفارد وشركة هاريس بول في منتصف ديسمبر 2023 قد أثار ذعر صناع القرار في الغرب، حيث قال 51% من الشباب الأميركيين، الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و24 عامًا، إنهم يعتقدون أن حل الصراع الفلسطيني الإسرائيلي يتلخص في تفكيك دولة إسرائيل وتسليم الأرض كلها إلى الفلسطينيين، بينما لم يؤيد "حل الدولتين" سوى 32% من الشباب. والعجيب أن استطلاعًا سابقًا أجري مباشرة بعد أحداث السابع من أكتوبر كشف أن 26% فقط من الشباب الأميركيين يؤيدون إنهاء دولة الاحتلال، ما يعني أن هذه النسبة تضاعفت خلال شهرين فقط (3)!

---

(1) هناك مصادر تتحدث عن نزوح نحو نصف مليون يهودي بعد عملية طوفان الأقصى.

(2) ناهد درباس، "المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه: 5 مؤشرات على بداية نهاية المشروع الصهيوني"، العربي الجديد، 14 يناير 2024.

(3) "الدعم يتآكل.. استطلاع: أكثر من نصف الشباب الأميركي يرى حل الصراع بنهاية إسرائيل"، قناة الغد، 17 ديسمبر 2023.

في المقابل، وبينما يصرّح الكثير من المحللين والسياسيين بمخاوفهم من وصول الكيان المحتل إلى نهايته، يسابق المتطرفون الزمن لتحقيق الهدف النهائي بهدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل، وكأن التأجيل لم يعد في صالحهم، فمن أبرز المواقف التي تستحق التوثيق أثناء الحرب الوحشية على غزة، مقال كتبه رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إيهود أولمرت في صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية بتاريخ 23 فبراير 2024 قال فيه إن حكومة نتنياهو هي "عصابة متطرفة" تتخذ من تدمير غزة خطوة فقط نحو المعركة الكبرى، وهي إشعال الضفة الغربية ولبنان، وذلك لتفريغ كل الأراضي الفلسطينية من الفلسطينيين وتفريغ المسجد الأقصى من المسلمين.

ولم يذكر أولمرت بصراحة أن الهدف النهائي هو هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل مع أن السياق يوضّح ذلك، لكنه حذر من أن مشروع هذه العصابة الحاكمة سيؤدي إلى "الكارثة، وهي حرب شاملة" تتجاوز حدود الكيان المحتل (1).

ومن المواقف المفاجئة أيضًا أثناء الحرب تصريح صادم للرئيس الأسبق لجهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك) عامي أيالون، ففي 14 مارس 2024 قال في لقاء ببرنامج "في العمق" (In depth) لقناة ABC الأمريكية إنه لو كان فلسطينيًا يعيش تحت الاحتلال الإسرائيلي فسيُقاتل إسرائيل من أجل تحقيق حريته، وعندما سئل عن الوزراء المتطرفين في الحكومة قال إنه يعتبرهم إرهابيين ومسيّانيّين ولا يمثلون سوى أقلية من المجتمع اليهودي.

وكان أيالون قد صدم المجتمع الإسرائيلي أيضًا في أول مقابلة أجريت معه خلال الحرب، ففي 7 يناير من نفس العام قال لمراسل صحيفة هآرتس الإسرائيلية: "إن من يعتقد أن الفلسطينيين سيستسلمون، لا يعرف الفلسطينيين ولا حماس والحركات الإسلامية المتطرفة في هذا القرن"، معتبرًا

---

(1) "أولمرت: حكومة نتنياهو عصابة وهدفها قيادة المنطقة نحو الكارثة"، الجزيرة نت، 23 فبراير 2024.

أن إسرائيل لن تخرج منتصرة من تلك الحرب حتى لو قتلت قائد حركة حماس، فالانتصار في رأيه يتمثل في الحصول على اعتراف الدول العربية بهذا الكيان المحتل وإقامة سلام دائم معه، لكن المأساة -حسب تعبيره- هي أن الصهاينة يرفضون الاعتراف بانتصارهم الذي حققوه عندما قدمت الجامعة العربية في 2002 مبادرة التطبيع مقابل الاعتراف بدولة فلسطينية، وما زالوا يواصلون القتال، بل حوّلوا الحرب إلى "غاية في حد ذاتها" (1).

(1) "رئيس سابق للشاباك: لن نخرج بصورة للنصر وهذه سيناريوهات إنهاء الحرب"، الجزيرة نت، 8 يناير 2042.

المسيحية المتصهينة.. إحياء الصليبية
وحماية إسرائيل تمهيدًا ليوتوبيا "المسيح"

كثيرًا ما نسمع أسئلة تدور في الثقافة الشعبية بين المسلمين عن سبب التوافق التام بين اليهود والكثير من المسيحيين الغربيين في تحقيق مساعي الصهيونية لاحتلال أرض فلسطين، ومع أن أي مشروع سياسي قد تقف وراءه أسباب إستراتيجية علمانية ومصلحية بحتة إلا أن الاندفاع العاطفي لدى كثير من المسيحيين هو الذي يبدو غامضًا وغير مفهوم، لا سيما أن الشائع لدى عامة الناس هو أن المسيحيين حاقدون على اليهود لأنهم سعوا إلى تسليط الرومان على المسيح عليه السلام حتى "صُلب"، لكن الكثير منهم لم يسمع بتيار "المسيحية المتصهينة" الذي يضم عشرات الملايين من المسيحيين في أميركا وأوروبا، وهو تيار أقوى سياسيًا بكثير من الطوائف المسيحية الأخرى، ويؤمن أتباعها بتحقيق نبوءات الكتاب المقدس من خلال إعادة اليهود إلى "أرض الميعاد" وتأسيس مملكة إسرائيل.

تعود جذور المسيحية المتصهينة إلى بدايات تشكل الدين المسيحي نفسه على يد شاؤول (القديس بولس)، إذ كان من الشائع في المراحل الأولى من المسيحية أن يسوع (عيسى عليه السلام) سيعود قريبًا ليحكم العالم بالعدل ويقضي على غير المؤمنين، وذلك استنادًا إلى القول المنسوب إليه في إنجيل متى: "الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله، السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول" (متى 24: 34).

انقضى الجيل الأول للتلاميذ ولم يعُد يسوع، فبدأ أتباعه المضطهَدون من قبل الرومان الوثنيين بالتطلع إلى خروج المعزّي "الفارقليط" الذي بشّر به يسوع

في إنجيل يوحنا: "ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي" (1) (يوحنا 16: 7)، فظهر في القرن الثاني الميلادي الراهب مونتانوس الذي زعم أنه يتلقى الوحي من الروح القدس، مؤسسًا بذلك فرقة المونتانية (Montanism)، وأخذ يدعو المسيحيين إلى التقشف والصيام والامتناع عن الزواج استعدادًا لنزول يسوع الوشيك، لكن نبوءته فشلت في التحقق أيضًا مما دفع القساوسة للرد والحكم عليه بالهرطقة، وقالوا إن المقصود بالمعزّي هو روح القدس (الأقنوم الثالث من الثالوث الإلهي) الذي نزل على التلاميذ يوم العنصرة ليعزّيهم في فقدهم ليسوع، فليس هناك نبيّ بعده، ولكن يسوع سيعود في يوم الدينونة لمحاسبة الناس.

يضم سفر رؤيا يوحنا -وهو آخر أسفار العهد الجديد وأكثرها تنبؤًا بالمستقبل (2)- نصوصًا تتحدث عن فترة سلام ورخاء تمتد ألف عام، ويكون الشيطان وجنوده مقيّدون فيها، ولا خلاف بين المسيحيين على الإيمان بهذه النصوص في إنجيلهم لكنهم يختلفون في تفسيرها، ففي القرن الثاني الميلادي كان القديس "جاستن الشهيد" من أوائل القساوسة في فلسطين الذين فسّروا هذه النصوص بأنها تعني مجيء المسيح الثاني ليملك على الأرض ألف عام، وقال إن هناك قيامتان، ففي الأولى يُبعث المؤمنون بيسوع من الموت ويعيشون في ظل حكمه ألف سنة، ثم يُفرج عن الشياطين وينتشر الفساد، ويُبعث بقية الناس في القيامة الثانية للحساب.

---

(1) يؤمن المسلمون بأن المعزي هنا هو النبي محمد ﷺ ، وأنها كلمة حُرفت في الإنجيل عن اسم النبي "أحمد". انظر: نظيرة غلاب، "بشارة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في التوراة والإنجيل وإشكاليّة التحريف"، مجلة المنهاج، العدد 58، 20 ديسمبر 2015، ص 117 وما بعدها.

(2) هناك خلاف بين المسيحيين بشأن شخصية يوحنا، فهو ليس الذي ينسب إليه "إنجيل يوحنا"، ويرجّح معظمهم أنه من أنبياء المسيحية وأنه عاش في القرن الميلادي الأول.



لوحة تعود إلى 1505 تصوّر فيها الرسام الهولندي هيرونيموس بوش القديس يوحنا وهو يتلقى الرؤيا

وفي أواخر القرن الثاني أيضًا ظهر الأسقف إيرينيؤس في بلاد الغال (فرنسا اليوم)، وأيد تفسيرات "جاستن الشهيد" مستندًا إلى نصوص تتحدث عن وعد إلهي لإبراهيم بميراث الأرض، وقال بما أن الوعد لم يتحقق لإبراهيم في حياته فسيتحقق لنسله من يعقوب، وتحديدًا للمؤمنين بيسوع بعد قيامتهم من الموت.

في المقابل، يرفض معظم القساوسة هذه التفسيرات، فالكنيستان الأرثوذكسية والكاثوليكية تقولان إن تلك النصوص تتعلق بالزمن الحاضر، وإن يسوع يحكم حاليًا في الملكوت مع القديسين الذين ماتوا وصعدوا إليه [1]، أمّا ما ورد في سفر الرؤيا عن الصراع فهو -بحسب ما استقرّ لديهم حتى اليوم-

(1) قال بابا الإسكندرية الأرثوذكسي شنودة الثالث: "قال المسيح: مملكتي ليست من هذا العالم، وكان يدعو إلى ملكوت روحي وليس إلى ملكوت أرضي. كل الأقوال المتعلقة بالمملكة الأرضية لا علاقة لها بالكتاب المقدس". انظر: فؤاد شعبان، من أجل صهيون، دار الفكر، دمشق، 2003، ص 321.

صراع روحيّ بين الجنة والجحيم وليس صراعًا ماديًا على الأرض، فمملكة يسوع موجودة بالفعل في النظام الكنسي القائم اليوم تحت حكم البابوات والبطاركة، وكل البشرية تعيش الآن في هذه الفترة التي لا تتقيد بألف سنة تحديدًا، وأما الآيات التي تقول: "فَقَبَضَ عَلَى التِّنِّينِ، الْحَيَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّذِي هُوَ إِبْلِيسُ وَالشَّيْطَانُ، وَقَيَّدَهُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَطَرَحَهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ، لِكَيْ لاَ يُضِلَّ الأُمَمَ فِي مَا بَعْدُ، حَتَّى تَتِمَّ الأَلْفُ السَّنَةِ. وَبَعْدَ ذلِكَ، لاَ بُدَّ أَنْ يُحَلَّ زَمَانًا يَسِيرًا" [الإصحاح 20: 2-3] فتُفسّر على أن إبليس مقيَّد بالفعل منذ ظهور يسوع الأول، ولكن إضلاله للناس أقل مما كان عليه قبل يسوع، وعندما يحين موعد القيامة يُبعث الأموات جميعًا ويأتي يسوع وتبدأ الدينونة العامة التي يُحاسِب فيها يسوع كلَّ الناس، فمن آمن به يدخل إلى الملكوت الأبدي ويخلد في الجنة، وليست هناك قيامة أخرى قبلها، فما ورد في الكتاب المقدس عن القيامة الأولى هو القيامة الروحية (الرمزية) التي تكون بالتوبة والمعمودية من موت الخطيئة، وهي خاصة بالمسيحيين (1).

وتؤمن الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية أيضًا بأن يوم الدينونة سيُسبق ببعض العلامات، مثل ازدياد الحروب والمجاعات والزلازل والفساد، وظهور دجالين يدّعون أنهم المسيح، وارتداد الكثير من أتباعه عن دين الكنيسة بسبب كثرة خطاياهم.

ظلّ هذا التفسير الرمزي قائمًا قرونًا طويلة، ولم يُكتب لتفسيرات مونتانوس وإيرينيؤس أن تنتشر إلا على نطاق ضيّق، إلى أن أعيد بعثها في بدايات العصر الحديث مع ظهور الطائفة البروتستنتية المتمردة على الكاثوليكية، وقبل أن نتحدث عن تجدد هذه الفكرة سأستعرض بإيجاز نظرية تنسب ذلك إلى مشروع دبّرته عائلات أوروبية من سلالة بني إسرائيل.

---

(1) شرح الكتاب المقدس- الموسوعة الكنسية لتفسير العهد الجديد: كنيسة مارمرقس بمصر الجديدة، موقع الأنبا تكلا هيمانوت st-takla.org.

نظرية الحق الإلهي

يعتقد اليهود أن الإله (يهوه) خصّ سلالة النبي داود عليه السلام، المتحدر من سبط يهوذا بن يعقوب بالمُلك، كما خصّ حق الكهانة بسلالة هارون من سبط لاوي بن يعقوب.

ووفقًا للنظرية، تفرّقت السلالتان -مع بقية بني إسرائيل- في أرجاء الأرض بعد تدمير الهيكل الثاني على يد الرومان في عام 70م، لكن بعض العائلات من هاتين السلالتين حافظت على نقاء سلالتها المقدسة حتى اليوم بشكل سري، وما زال بعض المتحدرين من داود يؤمنون بأن لهم حق إلهي بالمُلك، وقد كانوا يتربصون على مدى قرون في أوروبا بانتظار فرصة استعادة المُلك [1].

وبحسب هذه النظرية، أظهر بعض أبناء هذه السلالات اعتناق المسيحية وبدأت عائلاتهم بالاندماج في المجتمع، كما تغلغلت في أوساط الأسر النبيلة إلى درجة وصول بعض أبنائها إلى أعلى هرم العائلات الحاكمة، بينما نجح بعضهم الآخر في السيطرة على فريق من بطاركة الفاتيكان، وصولًا إلى البابا نفسه، حتى تمكنوا من تحريض الجماهير وإشعال فتيل الحملات الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، فمع أن الهدف المعلن كان استعادة موطن للمسيح وتأمين طرق الحجّ من الممالك الأوروبية، لكن هذه النظرية ترجّح أن المتسللين من السلالات الإسرائيلية استخدموا الكنيسة الكاثوليكية وجيوشها لتقوم بالنيابة عنهم بمهمة احتلال فلسطين والسيطرة على بيت المقدس، وتحديدًا المسجد الأقصى الذي يريدون هدمه لبناء الهيكل محلّه.

في عام ٢٠٠٠، صدر في بريطانيا كتاب "ريكس ديوس" (Rex Deus) للباحثين الثلاثة تيم والاس ميرفي ومارلين هوبكنز وغراهام سيمانز، وجاء فيه أن الفرنسي هيوغ داباينس Hugues de Payens -الذي أسس تنظيم فرسان

---

(1) بهاء الأمير، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، ص 170 وما بعدها.

الهيكل وكان أول أستاذ أعظم له- كان من سلالة "المُلك الإلهي"، وأن عائلته نجحت في إخفاء أصلها اليهودي وأظهرت اعتناقها للكاثوليكية، حتى تمكن هيوغ من التسلل -مع فريقه- إلى الفاتيكان وإقناع البابا في عام 1119م بتأسيس جماعتهم المسلّحة تحت اسم "الإخوة الفقراء جنود المسيح وهيكل سليمان" (1)، وذلك بهدف حماية الحجّاج المسيحيين، مع منحهم امتيازات استثنائية كان من نتائجها امتلاك ثروات طائلة، ووضع مقرهم عند المسجد الأقصى، وتمكنهم من حفر الأنفاق تحته -والتي ما زالت موجودة حتى اليوم- بحثًا عن آثار الهيكل وبقايا مُلك سليمان، وتحديدًا تابوت العهد والكأس المقدسة (2).



هيوغ داباينس

(1) الاسم الرسمي المعلن للجماعة يثير الشبهة بوجود أصول يهودية، فلم يكن الكاثوليك مهتمين بهيكل سليمان، بل كانوا يظنون أن خرابه على يد الرومان الوثنيين دليل على صدق نبوءة المسيح كما جاء في سفر متى.

(2) هناك نظريات وأساطير عديدة بشأن احتمال عثورهم على هذه الكنوز، حتى تحول بعضها إلى أفلام سينمائية ناجحة، لكن هذا الجانب من القصة ليس مهمًا لبحثنا.

قد تتعرض نظرية تسلل سلالات بني إسرائيل إلى وسط العائلات الأوربية الحاكمة للكثير من النقد، وربما تُصنف ضمن نظريات المؤامرة، لكن الغموض الذي يكتنف أصول بعض العائلات الملكيّة أمر معروف ولا ينكره الكثير من المؤرخين، ووجود ظاهرة "اليهود المتخفّين" هو أمر متفق عليه أيضًا، وما يهمّنا في هذا السياق أن منظمة "فرسان الهيكل" كانت تحقق أهدافًا يهودية منذ بداية تشكيلها، وهذا قبل أن تُحاكَم وتُلاحَق بتهمة الانخراط في عبادة الشيطان وممارسة السحر والانحلال، كما يمكن القول إن الحروب الصليبية قدّمت بالفعل إرهاصات تشكّل الأفكار الصهيونية داخل جسد المسيحية الكاثوليكية، إذ ساهمت بعمق في صياغة الإدراك الغربي لتاريخ بني إسرائيل في فلسطين قبل ظهور المسيح (1).

لم تتخلّ الكنيسة الكاثوليكية في تلك المرحلة عن عدائها المعلن لليهود، واستمرت جهود تحويل جالياتهم إلى المسيحية، إذ كانوا يعيشون آنذاك في تجمعات سكنية معزولة "غيتو"، وكان من الشائع في الثقافة الشعبية أن هذه الطائفة المستضعَفة تعيش عقابًا جماعيًا بسبب تواطؤ أسلافها على "صلب" يسوع.

وبعد سقوط الأندلس التي كانت تؤوي الكثير من اليهود ولجوء فريق منهم إلى دول أوروبية عدة، ازداد الضغط عليهم من قبل الغالبية المسيحية، إذ كانت المجتمعات الأوروبية آنذاك متجانسة ومنغلقة على ذاتها ولا تتقبّل وجود أقليات دينية داخل مدنها، لذا ازدادت ظاهرة اعتناق اليهود الظاهري للمسيحية، وخصوصًا في إسبانيا والبرتغال مع انتهاء الحكم الإسلامي في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، وسميت هذه الطائفة بالمسيحيين الجدد.

وعلى يد هذه الطائفة -التي أظهرت اعتناقها المسيحية للتو- بدأ إحياء التفسيرات الحرفية القديمة لسفر الرؤيا، وانتشرت فكرة المجيء الثاني

---

(1) ربي الحسني، "المسيحية الصهيونية"، موسوعة السبيل al-sabeel.net، 25 يناير 2017.

للمسيح على رأس الألف عام السعيدة (الألفية)، بل نشرت هذه الطائفة اليهودية المتخفّية أيضًا أساطير مفادها أن التحوّل الجماعي لليهود إلى المسيحية هو من علامات قرب عودة المسيح، وأنه لا بد من إعادة ما تبقى من اليهود إلى الأرض المقدسة التي تضم جبل صهيون كي يعيدوا بناء هيكل سليمان، ثم يأتي المسيح ليهديهم أو يقضي عليهم، وهكذا انتشرت بين المسيحيين قناعة بأنه يجب التعاون مع اليهود ومساعدتهم على الهجرة إلى فلسطين، بعدما كانوا أعداء ملعونين (1).

نظرية العصور الثلاثة

في وسط حقبة الحروب الصليبية التي امتدت حوالي مئتي عام، ظهر في إيطاليا عالم اللاهوت والقس يواكيم فيوري (1135- 1202)، الذي ما زال بعض المؤرخين يعتبرونه من أكثر المفكرين الأوروبيين تأثيرًا في العصور الوسطى، إذ طرح نظريته الجديدة "العصور الثلاثة" التي أعادت تشكيل رؤية الكثير من المسيحيين للتاريخ.



يواكيم فيوري

---

(1) المرجع السابق.

رأى يواكيم أن التاريخ ينقسم مثل الثالوث إلى ثلاثة عصور أساسية: أولها عصر الآب، الموافق للعهد القديم (التوراة)، وهو يتميز بطاعة البشرية لقواعد الله. ثم بدأ عصر الابن بمجيء المسيح، ويمثله العهد الجديد (الإنجيل)، وفيه أصبح الإنسان ابنًا للإله. وتنبأ يواكيم بأن ينتهي هذا العصر في فترة قريبة ليبدأ عصر الروح القدس، وهو عالم طوباوي مثالي (يوتوبيا) ينطلق من الإنجيل ولكن يتجاوز حرفيته، وسيُستبدل فيه التنظيم الكنسي الكهنوتي بانتهاء الحاجة إليه.

يرى باحثون أن هذا التقسيم التاريخي للعالم اقتُبس من أصل يهودي جاء في التلمود البابلي، فهناك عصر سبق نزول التوراة، ثم عصر الخضوع للشريعة بعد نزول التوراة، وأخيرًا عصر خروج المسيح المنتظر (الماشيّح)، وربما أعاد يواكيم تكييف هذا المخطط ليتوافق مع المسيحية [1].

والعجيب أن طرح يواكيم كان جريئًا إلى درجة تصريحه في أحد النقاشات باعتقاده أن "عدو المسيح" (الدجال) كان معاصرًا له وأنه سيظهر قريبًا ويجلس على كرسي القديس بطرس محلّ بابا الفاتيكان، وعندما سئل: ولكن النبوءة تقول إن الدجال سيولد في بابل، قال إن روما تمثّل بابل [2]، وكأن العصر الجديد الذي كان يبشّر به كان معاديًا للكنيسة نفسها بذريعة أنه سيكون عصرًا روحانيًا باطنيًا يتخلى فيه الناس عن التمسك الحرفي بالإنجيل. لذا اعتُبرت نظرياته هرطقة، وأدينت أفكاره بينما ظل هو يُعامل باحترام بقية حياته، لا سيما أنه كان رئيسًا لدير كبير، وكان الملوك يطلبون نصائحه ومنهم ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد الذي التقى به قبل مغادرته للحملة الصليبية الثالثة، ويقال إن يواكيم تنبأ لريتشارد بأنه هو الذي سيهزم صلاح الدين

---

(1) Lloyd Kramer, Sarah Maza, A Companion to Western Historical Thought, Wiley, 2006, p. 83.

(2) Brett Edward Whalen, Dominion of God: Christendom and Apocalypse in the Middle Ages, Harvard University Press, 2009, p. 123.

الأيوبي -الذي قد يكون نفسه "عدو المسيح"- ويستعيد منه القدس، لكن ريتشارد عاد إلى أوروبا ومات فيها من دون تحقق هذه النبوءة (1).

توفي يواكيم في بداية القرن الثالث عشر، وحاولت الكنيسة الكاثوليكية التصدي لأفكاره وإدانتها، لكنها تركت أثرًا كبيرًا لدى بعض الطوائف والكنائس الأوروبية، مثل طائفة الأماليركيين المعتنقين لفكرة وحدة الوجود، وكنيسة أخوة الروح الحرة التي عدّتها الفاتيكان جماعة مهرطقة، وكذلك الرهبنة الفرنسيسكانية -التي تعترف بها الفاتيكان- حيث بالغ بعض أعضائها باعتقادهم أن يواكيم نبيّ يوحى إليه، كما يُعتقد أن الأديب دانتي أليغيري تأثر بأفكار يواكيم في ملحمته المعروفة "الكوميديا الإلهية"، وكان معجبًا به إلى درجة ذكره في الجنة ضمن قصته.

طريق القدس يبدأ من أميركا

بعدما حقق الكاثوليك مكاسب جيدة وأسّسوا بعض الممالك الصليبية في المشرق، وعلى رأسها مملكة القدس، استعاد المسلمون الأرض المقدسة (فلسطين) واندحرت جميع الجيوش الصليبية في أواخر القرن الثالث عشر، كما عاد فرسان الهيكل إلى أوروبا وقضى عليهم ملك فرنسا فيليب الرابع بالتعاون مع البابا، ولكن الحلم بالعودة إلى الأرض المقدسة لم يهدأ، وظل هناك من يحرّض على إطلاق حملات صليبية جديدة.

في عام 1453 نجحت القوة الصاعدة للعثمانيين في اختراق حصون القسطنطينية، أكبر وأغنى مدينة في أوروبا ومعقل المسيحية الأرثوذكسية، وكان هذا الحدث نذير شؤم للكاثوليكية في روما (الفاتيكان)، إذ كان مقدمة لحقبة من المعارك التي تتخذ فيها الممالك الأوروبية موقع الدفاع بدل الهجوم.

ومع ذلك، كانت وضع المسلمين في الطرف الغربي من القارة أسوأ، فسقطت

---

(1) من أجل صهيون، مرجع سابق، ص 421.

الأندلس بيد الملِكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا في مطلع عام 1492، وبُعث لدى البعض حلم العودة إلى بيت المقدس من جديد.

في هذه الفترة كان البحار الإيطالي كريستوفر كولومبس قد اعتنق كل ما ذكرناه من أساطير المجيء الثاني للمسيح، وأصبح مستعدًا لبذل حياته من أجل تمهيد الطريق لنزول مملكة يسوع المسيح من السماء إلى الأرض.



لوحة "عذراء البحارة" رُسمت في مذبح "قصر إشبيلية" الذي كان للأندلسيين المسلمين وتُصوّر العذراء وهي تحمي بحارة أسبانيا ومنهم كولومبوس في أقصى اليسار بعباءة ذهبية

كان كولومبوس مؤمنًا بأنه مكلَّف بمهمة مقدسة، وأن محاولة اكتشاف الأراضي الجديدة غرب المحيط -وهي القارة الأميركية- ستفتح الباب "لهداية" الأمم الأخرى إلى المسيحية (1)، وستجمع الذهب والثروات من تلك البلاد لتمويل حرب صليبية أخيرة يقودها العرش الإسباني (فرديناند وإيزابيلا) -الذي استعاد الأندلس للتو واكتسب شعبية هائلة بين المسيحيين- واستعادة أرض صهيون من المسلمين (2).

ويقول مؤرخون إن كولومبوس لم يكن مؤمنًا تقيًا فحسب بل متطرفًا في حماسه الديني وهوسه بالتفسير الحرفي لنصوص النبوءات، حتى كتب عنه ابنه فرديناند: "كان متشددًا متطرفًا في حماسه الديني، لدرجة تجعلك تظنه منتميًا لحركة أو مذهب ديني متطرف" (3).

وبحماسه الشديد، نجح كولومبوس في إقناع ملك إسبانيا وملكتها بتمويل مشروعه، وتمكّن بالفعل من الإبحار و"اكتشاف" العالم الجديد في عام 1492، وأقام مع شقيقيه في جزر الكاريبي مستعمرة سميت "هيسبانيولا"، حيث استعبدوا فيها السكان وارتكبوا مجازر هائلة، إضافة إلى فظائع الاغتصاب والتعذيب، أملًا في تسخير السكان الأصليين لمهمة اكتشاف الذهب وتمويل الحملة الصليبية الجديدة، لكن التاريخ يذكر أن الملكة إيزابيلا استاءت من تصرفاته وأمرت باعتقاله، ومع أنه تمكن من تبرئة نفسه والعودة

---

(1) المرجع السابق، ص 26.

(2) دوّن كولومبوس أفكاره هذه في كتاب أسماه "النبوءات" (Prophecies)، وكان آخر ما كتبه بعد رحلته الثالثة إلى "العالم الجديد"، وظل يضيف عليه وينقحه إلى ما قبل وفاته بسنة. انظر:
V.I.J. Flint, "Christopher Columbus", Encyclopædia Britannica, 5 Sep 2010

(3) من أجل صهيون، مرجع سابق، ص 31.

إلى سواحل أميركا الجنوبية في رحلة رابعة إلا أنه عاد خالي الوفاض من غير أن يحقق حلمه (1).

الإصلاح الديني والبروتستانتية

في خضم تلك الأحداث والتطورات، كانت الكنيسة الكاثوليكية قد نجحت في اجتياز الكثير من التحديات بقبضتها الحديدية، لاسيما مع رؤيتها لشقيقتها الأرثوذكسية وهي تخسر معقلها وتصبح تحت رحمة العثمانيين المسلمين (2)، لكن الخطر كان يداهم عشر البابا من الداخل، فمحاولات التجديد وطرح الأسئلة العقدية الصعبة كانت عملية مستمرة منذ نشوء المسيحية، وكان البابوات معتادون على إصدار أحكام الهرطقة على كل من يخالف تفسيرات كنيستهم الخاصة للكتاب المقدس، باعتبار أن البابا هو الوحيد المُلهَم من الروح القدس، وهو في الوقت نفسه الحاكم الروحي للإمبراطورية الرومانية المقدسة، لكن الاحتفاظ بالسلطة بهذه الطريقة كان لا بد أن يهتز.

في عام 1457، أسس اللاهوتي التشيكي يان هوس كنيسته المورافية، وبدأ بطرح الأسئلة الصعبة، فأعدمته الكنيسة حرقاً، مما شجع أتباعه على التمرد وشن معارك عدة ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة، لكنهم كانوا أضعف عسكريًا وخسروا الحرب في النهاية.

---

(1) سمية نصر، "الجانب المظلم لكريستوفر كولومبوس وعالمه الجديد"، بي بي سي عربي، 17 أكتوبر 2022.

(2) عندما فتح العثمانيون القسطنطينية لم يقتلوا ولم ينهبوا، بل اشترى السلطان محمد الفاتح مقر الكنيسة الأرثوذكسية كاتدرائية آياصوفيا بالمال، وحوّلها إلى مسجد، لتصبح رمزًا لتحوّل المدينة إلى عاصمة للخلافة الإسلامية، وفي الوقت نفسه منح البطاركة الأمان وسمح لهم بنقل مقرهم إلى كنيسة القديس جرجس (جورجيوس) في شمال غرب المدينة، وما زال حتى الآن مقرًا للبطريركية القسطنطينية، مع أن الكثير من البطاركة فضّلوا الانتقال إلى اليونان.

ألهمت هذه الحركة القس الألماني مارتن لوثر وشجعته على التمرد، فنشر في عام 1517 رسالة تضم خمسًا وتسعين قضيةً إشكالية، مبديًا فيها اعتراضه على فكرة «السلطة التعليمية» التي تمنح البابا لوحده حق تفسير الكتاب المقدس، إضافة إلى قضايا أخرى، فنال بدوره حكمًا بالإدانة والهرطقة، لكنه نجا من الإعدام، وتأسست على يديه حركة الإصلاح الديني التي انبثقت منها الكنيسة البروتستنتية.



مارتن لوثر

ومن أهم الأفكار التي تبنّاها لوثر هي التفسير الحرفي لسفر الرؤيا وإيمانه بالمجيء الثاني للمسيح، أما موقفه من اليهود فكان مثيرًا للجدل، إذ أبدى في بداية مسيرته تعاطفًا غير مسبوق داخل الكاثوليكية معهم، وغيّر نظرة المسيحيين لليهود معتبرًا أن "المسيح ولد يهودياً" وأن المسيحيين واليهود ينحدرون من أصل واحد، لكنه ألّف في آخر حياته كتابًا بعنوان "عن اليهود وأكاذيبهم" ودعا فيه إلى إخراج اليهود من ألمانيا، ومع أن هذا الموقف اعتُبر

"معاديًا للسامية" إلا أن بعض الباحثين يرون أنه كان يطالب فقط بإخراج اليهود إلى فلسطين لتحقيق شرط مجيء المسيح، وأن إعلانه العداء لليهود في آخر حياته كان تقية لامتصاص غضب المسيحيين من آرائه الصادمة، لا سيما أنه كان قد تساءل في كتابه: "من الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى أرضهم في فلسطين؟ لا أحد، إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون إليه في رحلتهم، لا لشيء إلا لنتخلص منهم"(1).

قدّم لوثر أيضًا ترجمة للكتاب المقدس باللغة الألمانيّة بدلاً من اللاتينيّة التي كانت اللغة الوحيدة المسموح بها، فسمح للناس للمرة الأولى بفهم كتابهم المقدس وطرح الأسئلة بشأن تفسيراته، كما فتح الباب أمام تسرب المزيد من الأفكار اليهودية إلى الثقافة المسيحية، وأعطت حركة الإصلاح الديني للغة العبرية أهمية كبرى، حتى أُدرجت في المنهج الدراسي اللاهوتي باعتبارها وسيلة لفهم "كلمة الله" بشكل صحيح.

ساهم الإصلاح الديني أيضًا في إعادة الاعتبار للعهد القديم من الكتاب المقدس، حتى أصبح المرجع الأعلى للاعتقاد البروتستنتي ومصدر المسيحية النقية، وجعله جزءًا من عبادات الكنائس ومرجعًا يُعتد به لتاريخ الأراضي المقدسة والأنبياء، ومصدرًا لنبوءات آخر الزمان.

كان لوثر حاقدًا على الكاثوليكية والإسلام بالدرجة نفسها تقريبًا، فعندما حاصر السلطان العثماني سليمان القانوني فيينا بجيش ضخم، طالب لوثر في كتابه "شرح الأطروحات الخمس والتسعين" الصادر عام 1518 بعدم مقاومة المسلمين، مما تسبب باتهامه بالانهزامية، لكنه كان يرى أن جيوش المسلمين الغزاة كانوا يمثلون عقوبة أرسلها الرب ضد الكنيسة الكاثوليكية التي تمثل

(1) ربى الحسني، موسوعة السبيل، مرجع سابق.

"عدو المسيح" (الدجال) (1). وعندما قرأ لوثر ترجمة لاتينية لمعاني القرآن الكريم في عام 1542 بدأ بكتابة عدة مقالات في نقد الإسلام الذي سماه "المحمّدية"، إذ كان لا يراه سوى دين "شيطاني" يتبعه الترك العثمانيون، وظلّ يدعو لتركهم يحاربون ضد الكاثوليكية.



لوحة رسمها لوكاس كراناخ الأكبر -صديق مارتن لوثر- تمثل "عدو المسيح" في صورة البابا وهو يبيع صكوك الغفران

وبالتوازي مع حركة لوثر في ألمانيا، كان هناك إصلاحيون آخرون يطرحون أفكارًا مماثلة في أنحاء أوروبا، ومنهم القس الفرنسي جون كالفن الذي انطلقت أفكاره من جنيف. وفي إنجلترا تمرد الملك هنري الثامن على كنيسة روما لأن البابا رفض إبطال زواجه، فقرر فصل كنيسة إنجلترا عن الكنيسة الكاثوليكية

(1) Andrew Cunningham, Ole Peter Grell, The Four Horsemen of the Apocalypse: Religion, War, Famine and Death in Reformation Europe, Cambridge University Press, 2000, p. 239.

والسلطة البابوية، ومع أنه ظل معتنقًا للكاثوليكية إلا أن الانفصال عن روما مهّد لاحقًا لانتشار الإصلاحيين.

انتشر في هذه الأجواء مذهب البيوريتانية (التطهرية) في إنجلترا، وهو مذهب متشدد تأثر بمبادئ كالفن البروتستنتية، وكان مؤسسوه يبالغون في إجلال العهد القديم من الكتاب المقدس، حتى طالبوا الحكومة باتخاذه دستورًا للقانون الإنجليزي، كما ساهموا في نشر فكرة "الشعب المختار" المقتبسة من "التوراة" في الثقافة الإنجليزية.

ونتيجةً للحروب الدامية التي شهدتها إنجلترا، قررت الملكة إليزابيت الأولى حلّ الأزمة بتبني المذهب الأنغليكاني، وسميت كنيسة إنجلترا الرسمية بالكنيسة الأنغليكانية التي تتخذ من كانتربري مقرًا لها، وهي بروتستنتية في مبادئها وأقرب إلى الكاثوليكية في مظاهرها، فأثار هذا الإجراء غضب التطهريين، وعرّضهم للمزيد من الاضطهاد، وفي عام 1630 قرروا أخيرًا الهجرة إلى مستعمرة "نيوإنغلند" (إنجلترا الجديدة) الواقعة اليوم في ولاية ماساتشوستس الأميركية.

حمل المهاجرون أموالهم إلى "العالم الجديد"، وتحول بعضهم إلى توراتيّين وعدّوا أنفسهم شعب الله المختار الذي اضطر للهجرة كي يتمم مهمة بني إسرائيل، ونظروا إلى دولتهم في "نيوإنغلند" على أنها أرض الميعاد، وفيها تقوم أورشليم الجديدة [1].

وفي الوقت نفسه أيضًا كانت جماعة بروتستانتية أخرى تدعى "الصاحبيون" أو الكويكرز Quakers قد نشأت في إنجلترا، وكان مؤسسها جورج فوكس يطالب أتباعه بتلقي التوجهات الإلهية من تجارب الكشف الباطني الذاتية، بدون وسطاء أو شعائر، ووضع إطارًا لتجربته أيضًا من خلال مجيء

(1) من أجل صهيون، مرجع سابق، ص 75 وما بعدها.

المسيح الثاني الداخلي، وعندما تعرضت الجماعة للاضطهاد هاجرت بدورها إلى أميركا.

كانت هذه الطوائف المهاجرة هي أساس تشكيل تيار "الأصولية المسيحية" لاحقًا في أميركا، وهي تضيف إلى تمسكها بالتفسير الحرفي للكتاب المقدس أفكارًا تدمج المسيحية باليهودية في قالب صهيوني، وكان مؤسسوها الأوائل مقتنعين بأن العناية الإلهية اختارتهم لهاجروا من فساد العالم القديم ويؤسسوا مملكة الله على الأرض في العالم الجديد، وكأنهم في علاقة تعاهدية مع الرب كما كان يؤمن بنو إسرائيل، وعليهم بعد ذلك أن يقوموا بمهمة تنوير بقية الأمم وإخراجها من عالم الجهل والظلام من خلال التبشير.

ولفهم الصورة بشكل أشمل، كان التطهريون والكويكرز من بين الجماعات المهاجرة الأولى ولكنهم ليسوا الوحيدين، فقد هاجرت أيضًا جماعات أخرى بروتستانتية وكاثوليكية، وكانت كل جماعة تؤسس كنائسها في المستعمرات التي تبنيها، والتي كانت بدورها نواة لتشكل المدن الكبرى لاحقًا.

أما أوروبا فظلّت تغلي بالحركات المتمردة على روما، حيث انتشرت البروتستانتية من ألمانيا وسويسرا إلى معظم دول أوربا الوسطى والغربية بعد جولات من الصراع مع الكاثوليكية، وتبنّاها الملوك الذين أرادوا التخلص من تسلط البابا، حتى صارت هي المذهب الرسمي لمعظم الدول.

وخلال نحو قرن فقط من الإصلاح الديني في أوروبا وأميركا، كانت بعض الأفكار المسيحية قد انقلبت لدى طوائف واسعة من التفسير المجازي للكتاب المقدس إلى التفسير الحرفي، ومن الاعتقاد بلعنة اليهود ومعاقبتهم بالطرد من فلسطين إلى السعي لإعادتهم إليها. ومع أن المسيحية المتصهينة تتمسك بأصول العقيدة المسيحية المتعلقة بألوهية المسيح والتثليث والصلب والفداء، لكنها تميزت بتقديم العهد القديم على العهد الجديد، وبالإيمان بعقيدة الألفية التي

تنص على حكم المسيح للعالم مدة ألف عام. لذا قال بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس إغناطيوس الرابع هزيم في عام 1985: "إن المسيحية الشرقية لا تزال مكبوتة إلى حد ما... أما المسيحية الأميركية والغربية فتعرضت لجهود التهويد، إذ أنها تعود إلى العهد القديم دون الإنجيل ودون المسيح" (1).

ويجدر بالذكر أن البروتستانتية تشظّت إلى مئات الكنائس والطوائف الصغيرة التي يصعب إحصاؤها، فمن داخل كل طائفة تنشق أو تتفرع عنها كانت تخرج طوائف أخرى تنفصل وتستقل بذاتها وتبدأ بإخراج تفسيرها الخاص للكتاب المقدس، بل كانت بعض الطوائف تقدم تصورات جديدة تمامًا وتعتبر أنها تقدم النموذج الصحيح الوحيد للمسيحية، مثل شهود يهوه الذين عادوا إلى التفسير الأصلي لحكم المسيح في الملكوت بدون المجيء الثاني ولكنهم اعتبروا أن البشرية تعيش الآن في "الأيام الأخيرة" وأنها على وشك مواجهة الدمار الكبير، وكذلك مؤسس طائفة المورمون جوزيف سميث الذي ادعى النبوة وكان مهووسًا بفكرة المجيء الثاني وبعودة اليهود إلى فلسطين، وكلا الطائفتين ظهرتا في القرن التاسع عشر.

ويمكن القول إن الطائفة البروتستانتية استقرت لاحقًا -وخصوصًا في أميركا- على الانقسام إلى تيارين كبيرين، هما التيار الأصولي المحافظ (Fundamentalism) والتيار الليبرالي الحداثي "البروتستانتية الرئيسية" (Mainline Protestant)، ويتميز الأول منهما بصفة جوهرية وهي التأكيد على حرفية الكتاب المقدس، وتنشأ عن هذا المبدأ بالضرورة الأفكار الصهيونية التي نركز عليها في هذا الفصل.

---

(1) المرجع السابق، ص 319.

خطّة الرب للدهر

بعدما كان سفر الرؤيا ونصوص أخرى من أسفار متفرقة في العهدين القديم والجديد تُعد مجرد نصوص رمزية مفعمة بالمعاني الروحية، أصبحت هذه النبوءات هي مصدر إلهام المسيحية المتصهينة، التي أقامت على رؤاها المستقبلية دولًا وسياسات ما زالت مستمرة حتى اليوم، وسنوجز فيما يلي تصوّر هذه الطائفة لخطة الرب للدهر، علمًا بأن أتباع هذه الطائفة يختلفون فيما بينهم في بعض التفاصيل (1).

تؤمن المسيحية المتصهينة عمومًا بأن الرب وضع خطته للدهر على أساس علاقته الخاصة بشعبه المختار "بني إسرائيل"، فأبناؤه البشر ليسوا متساوين، بل هناك يهود في طرف، وبقية البشر في طرف آخر.

ويقسّم بعض مفسّري الكتاب المقدس خطة الدهر إلى سبعة عصور، لكل منها عنوان وهدف وواجبات، ويترتب على الإخفاق في تحقيق الهدف عقاب إلهي. وبما أن بني إسرائيل هم أهم شعب في الدهر كله فكل ما سبق وجودهم كان مقدمات، ثم بدأ عصر إسرائيل في العصر الرابع الذي أعطى فيه الرب عهده لإبراهيم، وبما أن بني إسرائيل لم ينفذوا واجباتهم باستيطان بلاد كنعان (فلسطين وبقية بلاد الشام) فقد كانت العقوبة بتعرضهم للعبودية في مصر.

في العصر الخامس أنزل الرب شريعته (الناموس) على موسى عليه السلام، وفي نهايته وُلد المسيح عيسى عليه السلام -وهو الذي لا يؤمن اليهود بنبوته بينما تؤمن المسيحية المتصهينة بألوهيته- وبما أن شعب إسرائيل رفض ناموس موسى ورفض الإيمان بيسوع المسيح فقد عوقب بالشتات في أنحاء العالم.

بدأ بعد ذلك العصر السادس بصلب المسيح، وهو عصر الكنيسة، وكان على شعب إسرائيل أن يؤمن بالمسيح لكنه سعى لصلبه ورفض الارتقاء إلى

---

(1) معظم هذه التفاصيل مقتبسة من المرجع سابق، ص 321 وما بعدها.

الروح القدس، ولم تأت العقوبة بعد لأننا ما زلنا نعيش اليوم -حسب رأيهم- في العصر السادس، لكن هذا العصر شهد عودة شعب إسرائيل للتجمع وإعادة تأسيس دولة إسرائيل الحالية، ومع اقتراب العصر من نهايته وظهور علامات آخر الزمان بتكاثر الحروب والزلازل والفساد سينزل يسوع المسيح إلى الغيوم ويبعث من آمنوا به من قبورهم فيصعدون إليه في السماء الدنيا، كما سيرتقي إليه من الأحياء كل من يؤمن به أيضًا، ويحدث هذا "الارتقاء" بشكل لحظي بحيث يختفي الأطفال ثم الكبار فجأة من هذه الأرض ويصعدون إلى الغيوم.

وهكذا سيبقى على الأرض "الكفار" فقط، ثم تبدأ "المحنة" بتسلط المصائب والأمراض والكوارث على الأرض، وهذه هي عقوبة العصر السادس، وسيخرج فيها "عدو المسيح" (Antichrist)، الذي يماثل المسيح الدجال لدى المسلمين، وهو بحسب المسيحية المتصهينة طاغية يقود جيوش الشر ويتحالف مع الشيطان، وهو المقصود بالوحش الذي ورد ذكره في العهد الجديد "ثم وقفت على رمل البحر. فرأيت وحشًا طالعًا من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه اسم تجديف. والوحش الذي رأيته كان شبه نمر وقوائمه كقوائم دب وفمه كفم أسد، وأعطاه التنين قدرته وعرشه وسلطانًا عظيمًا" [الرؤيا- إصحاح 13: 1- 2]، ويقول المفسّرون إن التنين هو الشيطان (إبليس) الذي سيعطي "عدو المسيح" هذه القوة والسلطة العالمية، وإنه سيظهر في منطقة العرب، وسيدنّس الهيكل ببناء تمثال له فيه، فينتشر الظلم والبؤس في العالم، كما سيعاد بناء مدينة بابل المرتبطة في تاريخ اليهود بمأساة تدمير الهيكل.

وكانت المذاهب المسيحية التقليدية قبل ظهور البروتستنتية تفسر النص السابق من سفر الرؤيا بتفسيرات رمزية عدة، وكانت تعتقد أيضًا بخروج "عدو المسيح" أو الدجال في آخر الزمان، ولكن بدون الاعتقاد بالمجيء الثاني للمسيح.

كما رأى بعض المفسرين أن النص السابق يتحدث عن "الثالوث النجس"، وهو مكوّن من التنين ووحش البحر ووحش الأرض، ويرمز إلى الشيطان المتحالف مع ملك طاغية وزعيم ديني كافر (1)، واختلفوا في تفسير رمزية الوحش، فقال البعض إنه الإمبراطورية الرومانية التي اضطهدت المسيحية في بدء نشأتها، وبعضهم قالوا إنه النازية أو أي سلطة تجديفية ضد المسيحية، حتى إن بعض الأرثوذكس اعتبروا أنه يمثل بابا الفاتيكان لأنه كافر عندهم (2).

وقبل أن نتابع السرد التاريخي، سنشير إلى بعض التفاصيل التي حددها في أواخر ستينات القرن العشرين الواعظ الأميركي ليون بيتس للمحنة وما قبلها، وما زالت حتى اليوم متداولة بين ناشطي المسيحية المتصهينة، إذ كان يرى أن انتصار دولة إسرائيل على العرب في حرب عام 1967 كان مقدمة مهمة، وأنه سيظهر في وقت قريب زعيم سياسي عالمي يبدو أنه المخلّص من كل الحروب، وسيتمكن من عقد اتفاقية سلام في الشرق الأوسط ويصبح رئيسًا في القدس، فيحكم خلال مدة السلام المؤقت التي تستمر ثلاث سنوات ونصف، ويعاد فيها بناء الهيكل، وبنهاية هذه المدة القصيرة سيظهر للناس أنه هو نفسه "عدو المسيح"، ويتسع ملكه ليصبح زعيمَ العالم المتربع على عرش الهيكل لمدة ثلاث سنوات ونصف أخرى (3). وفي تفسير آخر للنبوءات، يظهر زعيم سياسي للمسلمين ويعقد الصلح مع إسرائيل لمدة سبع سنوات، ويسيطر على القدس بحكم الاتفاق، ثم يظهر أنه هو "عدو المسيح" الذي يتمكن من حكم العالم كله لأن القدس والهيكل تحت سلطته، وفي هذه المحنة تندلع الحرب العالمية الثالثة بين روسيا وإسرائيل، ويشيع الفساد والفوضى ويُفقد حكم القانون (4).

---

(1) تفسير الكتاب المقدس للقمص أنطونيوس فكري، موقع الأقباط اليوم coptstoday.com.

(2) تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي للأنبا موسى أسقف الشباب، موقع مركز الكلمة المسيحي alkalema.net.

(3) من أجل صهيون، مرجع سابق، ص 329.

(4) المرجع السابق، ص 341.

وبنهاية تلك المدة نكون قد اقتربنا أكثر من نهاية العصر السادس، فسينزل المسيح مع المؤمنين به إلى الأرض، وهذا هو "المجيء الثاني للمسيح" الذي تُجمع عليه كل كنائس المسيحية المتصهينة مع أن هذه الفكرة لم تكن موجودة قبل حركة الإصلاح الديني إلا في نطاق ضيق كما أسلفنا، لكنها اقتُبست من عقيدة انتظار اليهود للمسيّا أو الماشيَّح المنتظر، إذ كانت التوراة قد وعدتهم بخروج المسيح، وعندما خرج عيسى بن مريم عليه السلام وأمرهم بالعودة إلى التوحيد ونبذ الأفكار الوثنية والتحريفات التي أدخلوها في دينهم رفضوه وقالوا إنه دجال، وإن المسيح (الماشيَّح) لم يخرج بعد، وأضافوا إلى قصته أنه عندما سيخرج فسيحكمون العالم تحت إمرته. وعندما تشبّعت حركة الإصلاح الديني المسيحية بالأفكار الصهيونية فسّروا النصوص بعودة المسيح نفسه، وأصبحوا ينتظرون المسيح كما ينتظر اليهود الماشيّح.

وبحسب المسيحية المتصهينة، فإن المجيء الثاني للمسيح يجب أن يُسبَق بتجمُّع اليهود في فلسطين وتأسيس دولة خاصة بهم، وانتزاع القدس من المسلمين، و"إعادة" بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، ثم سيطرة "عدو المسيح" على القدس ونقل عاصمته إلى هناك.

وبنزول المسيح يكون شعب إسرائيل قد آمن به وعاد إلى رشده وحقق الهدف المطلوب منه، وهنا تبدأ المعركة الكبرى "هرمجّدون" (1)، وهي معركة هائلة يعتقدون أنها ستحدث في منطقة مجيدو (جنوب شرق حيفا اليوم) التي ستحشد فيها أمم الأرض -ومنهم المسلمون- 400 مليون جندي -أو مئتي مليون حسب بعض التفسيرات- خلف قيادة "عدو المسيح" والشيطان "لوسيفر"، في مقابل اليهود والمسيحيين خلف قيادة المسيح وهو الرب نفسه حسب زعمهم، وستنتهي المعركة بمقتل "عدو المسيح"، أما الشيطان فسيُرمى إلى "الهاوية"

---

(1) الاسم مكون من كلمتين بالعبرية ويعني جبل مجدّو، إشارة إلى سهل صغير في شمال فلسطين.

ويُقيّد هناك، ويقول بعض المفسّرين المعاصرين إن النصوص التي تحدثت عن إغراق الملايين من جنود "عدو المسيح" في بحيرة الكبريت والنار وذوبان أجسادهم تشير إلى استخدام السلاح النووي (1).



سهل مجيدو في الأرض المحتلة يحتوي على بعض الآثار الرومانية

وبنهاية المعركة، سيبقى على الأرض المؤمنون بالمسيح، وهنا يبدأ العصر السابع الذي سيمتد ألف سنة، كلها سعادة ورخاء وهناء، يقيم فيها المسيح مملكة الألفية ويحكم الأرض كلها بالعدل، وبنهاية المدة يرتفع المسيح مع مملكته إلى السماء.

ومع انتهاء المدة أيضًا يُطلق سراح الشيطان من الهاوية، فيخرج مع جنوده لتعود دورة الضلال والإفساد، ويستدعي جيوش يأجوج ومأجوج من زوايا الأرض لمحاصرة مدينة القدس، وفي النهاية يُرسل الرب عليهم النار لتحرقهم

(1) نجد في بعض التفسيرات أن ثلثي اليهود سيُقتلون أيضًا في المعركة وينجو الثلث مع المسيح بعد إيمانهم به. انظر: غريس هالسل، النبوءة والسياسة: الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية، ترجمة محمد السماك، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط1، 1989، ص 45.

ويرميهم في بحيرة النار الأبدية، ويعيد الرب خلق السماوات والأرض بعد دمارها، ويعيش المؤمنون في جنة المسيح إلى الأبد.

ومن الملاحظ أثناء دراسة ومقارنة التنبؤات -والتي سنستعرض أمثلة معاصرة لها لاحقًا- أنها لا تخلو من بعض التناقض، فمحاولة ترتيب أو فهم تفاصيل الأحداث نفسها -وليس تنزيلها على الواقع- تبدو مهمة شاقة، فالبعض يتحدث فقط عن معركة هرمجدون التي ستُحشد فيها الجيوش الجرارة، بينما يتحدث آخرون عن معركة عالمية تحشد فيها تلك الجيوش قبل معركة هرمجدون، والبعض يتحدث أيضًا عن انتصار دولة إسرائيل المعاصرة ضد جيوش العرب والمسلمين مع أن سيطرة "عدو المسيح" على الهيكل تقتضي خسارة إسرائيل للمعركة، أما لقب "عدو المسيح" فأُطلق عدة مرات على بابوات الفاتيكان، وفي مرات أخرى يعتقدون أنه سيكون مسلمًا، سواء كان شخصية معروفة بعينها مثل صلاح الدين الأيوبي أو شخصية مستقبلية لم تظهر بعد!

التأثير في السياسة البريطانية

كان لتيار المسيحية المتصهينة في أوروبا دور كبير في صياغة المشروع الصهيوني، حتى قبل أن يطرحه اليهود، وخصوصًا في بريطانيا التي كانت أقوى دولة في العالم.

في ثلاثينات القرن التاسع عشر انتشرت أفكار القس جون نيلسون داربي في إنجلترا وإيرلندا، وكان هو الأب الروحي "للمنهج التدبيري" الذي يتركز اهتمامه في تقسيم الدهر إلى عصور تنتهي بالمجيء الثاني للمسيح، ونجح من خلال جولاته في الدول الأوروبية في تأسيس العديد من المجالس والمحافل الأخوية التي لعبت دورًا مهمًا لاحقًا في بث الأفكار الصهيونية.

وفي عام 1841، كان القنصل البريطاني لدى ولاية سوريا العثمانية تشارلز هنري تشرشل -وهو من عائلة تشرشل النبيلة التي ظهر منها لاحقًا رئيس الوزراء

ونستون تشرشل- هو أول من اقترح خطة سياسية لإنشاء دولة يهودية في فلسطين، حيث كتب رسالة إلى رئيس مجلس نواب اليهود البريطانيين موسى مونتيفيوري، وهذا مطلعها: "لا أستطيع أن أخفي عنك رغبتي الشديدة في رؤية قومك يسعى مرة أخرى إلى استئناف وجوده كشعب. أنا أعتقد أن الهدف قابل للتحقيق بدقة، ولكن هناك أمران ضروريان لا غنى عنهما، أولاً ينبغي على اليهود أنفسهم أن يتحملوا عب ترويج هذا الأمر على الصعيد العالمي وبالإجماع، وثانيًا أن تساعدهم القوى الأوروبية"(1).

ويمكن الاطلاع على بقية الرسالة وما تلاها من مراسلات في الأرشيف المتوفر على شبكة الإنترنت، فهي تنضح بالخلفية الدينية المسيحية لدى الضابط البريطاني الذي كان يُعرف باللقب التركي "تشرشل باي"، إذ ختم رسالته السابقة بالتأكيد على أن دافعه لعرض مقترحه على اليهود هو "مجرد رغبة متحمسة في رفاه ورخاء شعب ندين له جميعًا بامتلاك تلك الحقائق المباركة التي توجّه عقولنا، بإيمان لا يخطئ للتمتع بعالم آخر وأفضل".



تشارلز هنري تشرشل

(1) Lucien Wolf, Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question with texts of protocols, treaty stipulations and other public acts and official documents, Jewish Historical Society of England, 1919, p. 119.

في عام 1845، اقترح المسؤول في وزارة المستعمرات في لندن إدوارد بتفورد إقامة دولة يهودية في فلسطين تحت حماية بلاده، على أن تُرفع الوصاية عنها بمجرد أن يصبح اليهود قادرين على الاعتناء بأنفسهم، موضحًا أن دولة كهذه ستضع بريطانيا في مركز القيادة بالشرق الأوسط، بيث تراقب عملية التوسع والسيطرة على أعدائها والتصدي لهم عند الحاجة (1).

لاحقًا، تمكّن زعيم حزب المحافظين بنيامين دسرائيلي Benjamin Disraeli من الوصول إلى رئاسة الحكومة في المملكة المتحدة مرتين، كانت الأخيرة منهما ما بين 1874 و1880، وهو كما يظهر من اسم عائلته ذو أصل يهودي، حيث تخلى والده المؤرخ إيزاك دزرائيلي عن اليهودية بسبب الخلاف مع جماعته السفاردية بشأن الضرائب فاعتنق المسيحية، أو ربما تظاهر باعتناقها، فنشأ بنيامين على المسيحية المتصهينة وظلت أصوله اليهودية ظاهرة بوضوح، إذ نشر قبل وصوله للحكم رواية باسم "تانكرد أو الصليبية الجديدة" وأبرز فيها إمكانية الدمج بين مشروع اليهود في الهجرة إلى فلسطين وبين مصالح الإمبراطورية البريطانية في سيطرتها على تلك المنطقة، ولطالما تضمنت كتاباته وتصريحاته الإشارة إلى أهمية إنشاء مملكة إسرائيل وتشوقه الدائم لأورشليم.

وبعد رسالة تشارلز هنري تشرشل بأكثر من خمسين عامًا، ظهر كتاب "الدولة اليهودية" للصحفي اليهودي النمساوي ثيودور هرتزل في عام 1895، وعندها كانت الأجواء الأوروبية مهيّأة تمامًا لتلقّف هذه الفكرة بحماس شديد، وتلاقت جهود المسيحيين مع اليهود لتحقيق الهدف الصهيوني بتشجيع نقل اليهود من أنحاء العالم طواعية إلى فلسطين.

وعندما وصل زعيم حزب الأحرار البريطاني ديفيد لويد جورج إلى رئاسة الحكومة في نهاية 1916، وذلك في خضم الحرب العالمية الأولى، كشف بوضوح

---

(1) النبوءة والسياسة، مرجع سابق، ص 139.

عن ميوله الصهيونية التي اكتسبها من تربيته المعمدانية، فأطلق في عام 1917 -عبر وزير خارجيته آرثر بلفور- الوعد المشهور بدعم بريطانيا لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

وفي صيف عام 1936، تشكلت في ظل الانتداب البريطاني "لجنة بيل" للتحقيق في أسباب الثورة الفلسطينية الكبرى والإضراب الكبير الذي أضر بالاقتصاد وتسبب بسقوط قتلى، فكشف جورج -الذي كان خارج رئاسة الحكومة آنذاك- في شهادته عن ميوله الصهيونية الدينية (1).

أما رئيس وزراء بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ونستون تشرشل فنشأ على الأفكار المسيحية الصهيونية منذ صغره في كنف والده اللورد راندولف تشرشل، فهو من عائلة سياسية وأرستقراطية مرموقة، وعندما استلم منصب وزير الدولة لشؤون المستعمرات في عام 1921 أنشأ دائرة الشرق الأوسط، إذ كان وزير الخارجية آنذاك جورج كورزون متحفظًا على وعد سلفه بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود، بينما كان تشرشل متحمسًا للمشروع بشدة، فتولى بنفسه التمهيد للانتداب البريطاني على فلسطين.

لا نُغفل الأهداف السياسية والإستراتيجية للدعم البريطاني للصهيونية، إذ كان لويد جورج مثلًا يستقطب اليهود ليدعموا بلاده أثناء الحرب العالمية الأولى، وعلى رأسهم حاييم وايزمان الذي كان مواطنًا بريطانيًا قبل أن يصبح أول رئيس لدولة إسرائيل، كما كانت بريطانيا وبقية الدول الأوروبية تسعى جاهدة لإيجاد حل لما كان يسمى "المشكلة اليهودية" -التي سبق التعرض لها في فصل "اليهودية" من هذا الكتاب- لكن هذا لا يعني استبعاد البعد الديني الذي كان جليًا في تحمّس هؤلاء السياسيين للمشروع الصهيوني.

---

(1) أحمد مصطفى جابر، "صهيوني مسيحي معاد للسامية وصديق لهتلر: شهادة لويد جورج المريبة أمام لجنة بيل"، بوابة الهدف الإخبارية hadfnews.ps، 09 يوليو 2020.

تشير الصحفية الأميركية الراحلة غريس هالسل في كتابها "النبوءة والسياسة" إلى الدور البريطاني الذي ذكرناه أعلاه في التمهيد لإنشاء إسرائيل، ثم تقول إن يهود أوروبا لم يُظهروا سوى القليل جدًا من الرغبة لترك أوطانهم والهجرة إلى فلسطين. ولمدة 150 عامًا كان المسيحيون البروتستنت -وخصوصًا في بريطانيا ثم في أميركا- هم المدافعين الوحيدين عن الصهيونية، إذ عملوا منفردين وبإصرار على حث اليهود للهجرة والعيش هناك منفصلين عن بقية الأمم من غير اليهود (الأغيار)، ولم يكن اليهود يدعمون هذا المشروع طوال قرن ونصف (1).

لذا وقف سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة في فبراير 1985 بنيامين نتنياهو -الذي صار لاحقًا أطول رئيس وزراء حكمًا في تاريخ إسرائيل- أمام جمع من المسيحيين المتصهينين وقال: "لقد كان هناك شوق قديم في تقاليدنا اليهودية للعودة إلى أرض إسرائيل، وهذا الحلم الذي يراودنا منذ ألفي سنة تفجر من خلال المسيحيين الصهيونيين" (2).

صهيون في "العالم الجديد"

كان للتطهريين وغيرهم من الطوائف المتشددة دور في تأسيس المستعمرات الأولى في الولايات المتحدة كما أسلفنا، إذ ما زالت المدن والبلدات القديمة في الولايات المتحدة تحمل حتى اليوم أسماء توراتية أطلقها المهاجرون الأوائل، مثل كنعان وسيناء والقدس والناصرة والخليل وبيت لحم، بل نجد بعض هذه الأسماء مكررة في مدن أميركية عدة اليوم.

توالت الكثير من الأحداث على القارة الجديدة قبل أن يبدأ تشكيل حكومة الولايات المتحدة التي نعرفها حاليًا، إذ كانت القارة الواسعة تشمل طوائف

---

(1) النبوءة والسياسة، ص 139.

(2) المرجع السابق، ص 140.

وعرقيات وخلفيات سياسية لمهاجرين من شتى أنحاء أوروبا، لذا شدد "الآباء المؤسسون" عند وضع الدستور في عام 1787 على علمانية الدولة، بمعنى أن الحكومة الفدرالية (الاتحادية) يجب أن تكون حكومة زمنية أرضية يحكمها رجال مدنيون لا رجال دين، مع التأكيد على عدم التمييز بين المواطنين على أساس عقائدهم، وأنه ليس من الوارد إجراء اختبار ديني لأي شخص يرغب في شغل أي وظيفة حكومية. كما نص أول تعديل أدخل على الدستور على أن الكونغرس لن يقوم بأي حال من الأحوال بتشريع قانون قائم على أساس ديني.

ومع كل ما سبق، لم يكن "الآباء المؤسسون" متجرّدون من خلفياتهم الدينية والأيديولوجية، فعلى سبيل المثال، كانت اللجنة الأولى المكلفة باختيار شعار الدولة تضم كلًا من بنجامين فرانكلين وتوماس جيفرسون وجون آدامز، وهم أيضًا كانوا ثلاثة من المؤلفين الخمسة الأساسيين لإعلان الاستقلال، الذي كُتب عام 1776 قبل وضع الدستور، وقد كَلّفت هذه اللجنة بعض الرسامين لتقديم الاقتراحات، فكان أول مقترح اختاره فرانكلين -الذي صار رئيسًا للدولة لاحقًا- هو ختم تظهر على وجهه الأمامي صورة رمزية لفرعون وهو يطارد بني إسرائيل أثناء اجتيازهم للبحر بينما يضيء الرب طريقهم متجسدًا في صورة عمود من النور في السحاب [1]، واعتبر بعض المؤرخين أن الشعار كان يحمل في دلالته الفكرة الراسخة لدى المؤسسين بأن أميركا هي أرض إسرائيل الثانية، حتى لو كان ذلك



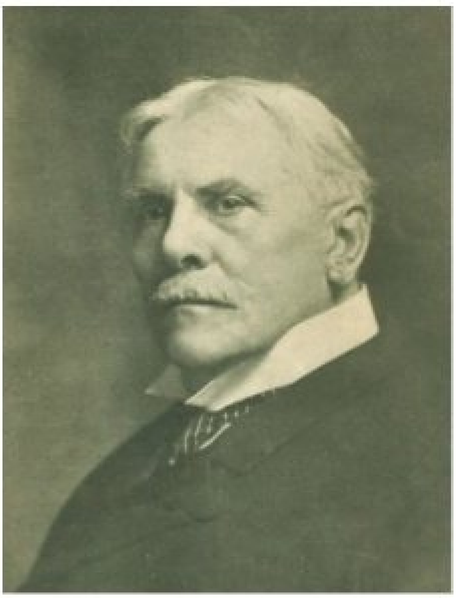
مجرد دلالة رمزيّة لدى العلمانيين الذين قد لا يؤمنون بالأديان والغيبيات

(1) John D. MacArthur, "First Great Seal Committee", greatseal.com.

لكنهم يبجّلون التراث "الأسطوري" الملحمي لما يحمله من معانٍ نضالية وسياسية (1).

في أواخر القرن التاسع عشر، ظهرت ملامح تيار "المسيحية الأصولية" (Fundamentalism) بوضوح بين الكنائس البروتستانتية، وهو الذي يصرّ على الحقيقة الحرفية للكتاب المقدس ورفض أي تأويلات مجازية حتى لو كان ذلك ضروريًا للتوفيق بين النصوص والعلم الحديث، وانفصل أتباع هذا التيار عن الكنائس الأصلية مع حفاظهم على انتماءاتهم المذهبية.

وفي عام 1909، انتشر على نطاق واسع «الكتاب المقدس المرجعي» للقس الأميركي سايروس سكوفيلد، الذي كتب الحواشي والهوامش على الكتاب المقدس مقتبسًا أفكار الإنجليزي جون نيلسون داربي، مما ساهم بنشر عقيدة الألفية والمنهج التدبيري وفكرة العصور السبعة في الثقافة العامة، وأصبحت هذه الأفكار من أهم ما يميز الأصوليين المسيحيين (2).



سايروس سكوفيلد

(1) فرانكلين كان ماسونيًا، وكذلك كان 15 عضوًا على الأقل من بين 56 موقعًا على إعلان الاستقلال، وهناك من يقول إن عدد الماسون من بينهم كان 21. انظر:

Richard B. Spence, "Emergence of Freemasonry in America and the Secret Masonic Agenda", 27 June 2020, wondriumdaily.com.

(2) Sarah Richardson, "C.I. Scofield: True Believer: A reformed sinner's annotated Bible kicked off Protestant fundamentalism", historynet.com, 21 March 2019.

الانفصال والتوسع

شهدت فترة العشرينات من القرن العشرين اكتمال حالة التمايز بين الأصوليين والحداثيين في الولايات المتحدة، وظهر في هذه المرحلة مصطلح "البروتستانتية الرئيسية" (Mainline Protestant) الذي صار يطلق على الحداثيين، باعتبار أن الأصوليين هم الذين انشقوا عن كنائسهم وتركوا قيادتها، وأسسوا بأنفسهم كنائس ومؤسسات ثقافية وإعلامية مستقلة ضخمة كان لها دور كبير في تشكيل الثقافة العامة وحتى المواقف السياسية (1)، وهو ما سيأتي بيانه لاحقًا.

بعد الحرب العالمية الثانية، رفض جيل جديد من المحافظين الموقف الانفصالي للأصولية وبدأوا يطلقون على أنفسهم اسم الإيفانجيليين "Evangelicals"، ويمكن القول إن الإيفانجيلية "Evangelicalism" (2) تتميز بأربع صفات مهمة (3)، نوجزها فيما يلي:

1- "العصمة الكتابية" وهي الاعتقاد بأن الكتاب المقدس خالٍ من الخطأ في كل تعاليمه، بينما تؤمن الطوائف الأخرى بالعصمة بطريقة أخرى وهي الاعتقاد بأن ما يقوله الكتاب المقدس فيما يتعلق بأمور الإيمان والممارسة المسيحية مفيد وصحيح تمامًا، وهذا يسمح بالتأويل أو حتى رفض بعض القصص التاريخية المتناقضة مع التاريخ والعلم الحديث، لذا يعدّ رفض نظرية التطور

---

(1) George M. Marsden, "Understanding Fundamentalism and Evangelicalism", Eerdmans, 1990, p. 3- 4.

(2) تترجم هذه الكلمة غالبًا إلى العربية باسم "الإنجيلية"، وهذا خطأ شائع يوحي بأن الطائفة تتبع الإنجيل وكأنه حكر عليها، لكن الذين أطلقوا هذا المسمى كانوا يقصدون النسبة إلى رواة الإنجيل وليس الكتاب نفسه، والأصح أن تدعى بالعربية "إيفانجيلية".

(3) John Green, "Evangelicals v. Mainline Protestants", pbs.org, 29 April 2004.

الدارويني والدراسات النقدية للكتاب المقدس الصفة الأكثر شيوعًا وتمييزًا للإيفانجيليين في أميركا[1].

2- الاعتقاد بأن الطريق الوحيد للخلاص هو من خلال الإيمان بيسوع المسيح وبفكرة الفداء والكفارة والصلب، بينما يؤمن الحداثيون البروتستانت وحتى من بعض الطوائف المسيحية الأخرى باحتمال الوصول للخلاص بطرق أخرى.

3- اهتمامها بتجارب "التحول" أو ما يسمى بالولادة الثانية، وهي اللحظة التي يعيد فيها الشخص المسيحي اكتشاف دينه والالتزام به والتوبة من الخطيئة.

4- الاهتمام بالنشاط التبشيري، واعتباره أمرًا ضروريًا.

ومع أن هذه المزايا توجد أيضًا لدى التيار الأصولي العام، لكن الإيفانجيليين يعترضون على الطبيعة الانفصالية للأصوليين، ويشددون على ضرورة الانخراط في النشاط الاجتماعي والقضايا العامة، لذا كان لهم دور منذ بداية تشكل تيارهم في الحشد لصالح التصويت لقضايا اجتماعية مثل قوانين منع الإجهاض، ثم صار لهم الدور السياسي الأبرز مقارنة ببقية الأصوليين.

ويمكن القول إن الإيفانجيليين ينتمون إلى كل الكنائس البروتستانتية تقريبًا، مثل الكويكرز، والمعمدانية، والميثودية، والكاريزماتية، والخمسينية، وكنيسة مورافيا، والمشيخية (Presbyterianism)، والحركة التقوية (Pietism) اللوثرية، وحركة الصحوة الكبرى (Great Awakening)، وغيرها. ومع ذلك فإن التيار الإيفانجيلي لا يشمل كل الكنائس المنتمية للطوائف السابقة بل يمكن أن توجد مثلًا كنيسة مشيخية إيفانجيلية، وكنيسة مشيخية أخرى أصولية فقط، وكنيسة ثالثة مشيخية أيضًا ولكنها محسوبة على التيار الحداثي، وهذا

---

(1) J. Gordon Melton, "Evangelical church", Encyclopædia Britannica.

التنوع والتشتت يعود إلى طبيعة البروتستانتية نفسها التي ترفض القوالب الجاهزة والكهنوتية الهرمية، مما يمنح زعماء الكنائس حرية الاختيار بين طيف واسع من الانتماءات والأيديولوجيات، فحتى الإيفانجيلية -التي خرجت من رحم الأصولية- انبثقت عنها لاحقًا مذاهب أخرى بتسميات متعددة، مثل الإيفانجيلية المنفتحة والتقدمية واليسارية والمحافظة، وأيضًا "ما بعد الإيفانجيلية" (1).

وعندما يتعلق الأمر بالأفكار الصهيونية، فمن الطبيعي أن نجدها منتشرة لدى كل الإيفانجيليين والأصوليين تقريبًا، لأنها نتيجة للتفسير الحرفي للكتاب المقدس وما ينشأ عنه من العقيدة "التدبيرية" التي تؤمن بتقسيم الدهر إلى عصور تنتهي بالمجيء الثاني للمسيح وبقية النبوءات. لذا فإن حديثنا عن المسيحية المتصهينة يُقصد به الإيفانجيليون والأصوليون، مهما تنوّعت تسمياتهم وتفريعاتهم.

ويجدر بالذكر أيضًا أن مصطلح "الأصولية" اكتسب دلالة تحقيرية بحلول نهاية القرن العشرين، فصار يعني التعصب الديني أو التطرف، مع أن نشأة المصطلح في بداية القرن كانت مجرّدة وموضوعية، لذا أصبح الكثير من أتباع هذا التيار يرفضون تعريف أنفسهم على أنهم أصوليين حتى لو بقيت أفكارهم مطابقة لأفكار أسلافهم الذين تبنّوا هذا المصطلح.

الإمبراطورية الجديدة

تعرّض تاريخ المشهد السياسي الأميركي للكثير من التذبذب، فحتى تصنيف الحزبين الكبيرين الجمهوري والديمقراطي تبدّل في مرحلة ما بين المحافظة والليبرالية، لكن تدخل التيار الأصولي في السياسة الخارجية برز بوضوح أكثر بعد الحرب العالمية الثانية التي أعلن عن انتهائها في سبتمبر 1945.

---

(1) George M. Marsden, p. 75.

كانت الحرب سببًا مباشرًا لانتقال الولايات المتحدة من دولة معزولة إلى إمبراطورية عالمية، إذ وجدت نفسها تلقائيًا قائدة المحور الغربي ووريثة الإمبراطوريات الأوروبية المُدمَّرة، والقوة الصاعدة الأولى بموازاة القطب السوفييتي.

وفي هذه المرحلة الصعبة التي تشهد ولادة عالم جديد، انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين في مايو 1948 وأعلن عن قيام دولة "إسرائيل" رسميًا، لتتولى الولايات المتحدة مهمة حماية "الدولة اليهودية" الوليدة، وتدبير الاعتراف الشرعي بها من منظمة الأمم المتحدة التي اتخذت من نيويورك مقرًا لها. وبما أن الطائفة المسيحية المتصهينة أكثر قوة ونفوذًا في أميركا من أي دولة أوروبية فقد كان التعاطف الشعبي مع "إسرائيل" طاغيًا.

تسبب إعلان قيام دولة اليهود بإطلاق موجة هائلة من الكتب والمحاضرات والخطب في أميركا للتنبؤ بالمراحل المتبقية لاستكمال خطة الدهر، وعندما استولى الجيش الإسرائيلي على القدس تحديدًا في حرب عام 1967 كان الوعاظ الإيفانجيليون قد بلغوا درجة اليقين بأنهم يشهدون بأعينهم تحقق النبوءات، حتى كان بعضهم يحدد تواريخ معينة لاحتمال حدوثها، ومنهم مثلا الواعظ الأميركي هال ليندسي Hal Lindsey (من مواليد 1929) الذي نشر في عام 1970 كتابه الذي كان الأكثر مبيعًا في الولايات المتحدة "آخر أعظم كرة أرضية" (The Late Great Planet Earth)، وتنبأ فيه بظهور اتحاد عالمي شرير من عشر دول (الاتحاد الأوروبي) ، ثم سيشن الاتحاد السوفييتي الذي يمثل يأجوج ومأجوج حربًا على إسرائيل، ليدخل العالم كله في حرب نووية عالمية ثالثة، وفي عام 1988 تحديدًا سينزل يسوع .

شهدت الولايات المتحدة في الخمسينات والستينات انتشارًا سريعًا لأفكار الحداثة وما بعد الحداثة والعدمية، وخصوصًا في ما سمي "الثقافة المضادة"

(Counter-culture)، وصار الصراع بين الأصوليين والمحافظين من جهة والحداثيين والعلمانيين في الجهة المقابلة أكثر حدة، وخصوصًا في القضايا الاجتماعية مثل المثلية الجنسية وحقوق المرأة والإجهاض وتشريع تناول المخدرات. كانت شركات الإعلام وهوليود والصحف الكبرى خاضعة بالكامل تقريبًا للحداثيين والعلمانيين، فازدادت بذلك عزلة الأصوليين، وتمرّد منهم الإيفانجيليون -كما أسلفنا- الذين فضّلوا النضال على الصمت، وأسسوا الكنائس اليمينية الكبرى التي صارت تحشد أنصارها في الشوارع وتشكّل جماعات للضغط السياسي (لوبيّات)، كما نجحت في تأسيس شبكات إعلامية ضخمة كي تنافس احتكار العلمانيين والحداثيين للقطاعين الإعلامي والترفيهي، وأثمرت هذه الجهود بالفعل عندما بدأت قوة هذا التيار المحافظ بالظهور في عقد السبعينات.

قبل تلك الفترة، لم يكن من الشائع بين المرشحين للرئاسة الأميركية إظهار تدينهم المبالغ فيه، لكن جيمي كارتر كان استثناءً، فقبل اختياره في عام 1976 ليكون مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة كان يدرّس الدين في الكنائس ويقدّم المواعظ، وحتى بعد انتخابه وفوزه بالمنصب ظل يحرص على عادته اليومية بتخصيص وقت للصلاة وتلاوة الكتاب المقدس [1]. ويعدّ فوزه في الانتخابات -مع أنه كان مغمورًا قبل الترشح- دليلًا على القوة الانتخابية الصاعدة للمحافظين.

وعندما ترشح رونالد ريغان عن الحزب الجمهوري في عام 1980 ضد كارتر، كان ريغان حريصًا على إبراز تديّنه وإيمانه بخطة الرب وبدور الإيمان في معركة التصدي للشيوعيّة، إذ قال في إحدى اللقاءات التلفزيونية وبكل صراحة: "قد نكون الجيل الذي سيشهد معركة هرمجدون" [2]، فنال بذلك رضا الجماعات

(1) "سيرة ذاتية: جيمي كارتر"، موسوعة مقاتل من الصحراء moqatel.com.

(2) النبوءة والسياسة، مرجع سابق، ص 66.

الإيفانجيلية، لا سيما بعدما انفضّت هذه الجماعات عن كارتر لأنه لم يمنح قادتها مناصب سياسية مهمة أثناء ولايته الأولى، كما أنه خيّب أملها في تعامله مع قضايا الإجهاض، وتعديل الحقوق المتساوية والإعفاءات الضريبية للمدارس الدينية (1)، فانهالت عليه القوى الإيفانجيلية بالنقد منتقدة موقفه تجاه إسرائيل (2)، وتمكنت بالفعل من إثارة الرأي العام ضدّه حتى رجحت كفة ريغان وفاز بالرئاسة، وكان هذا مؤشرًا واضحًا على قوة المنظمات الإيفانجيلية (3).

أعلن ريغان منذ بداية حكمه أن "الإرهاب مشكلة عالمية"، وقال: "الإرهابيون يقودون حربًا ليس على أميركا وحدها، وإنما على الحضارة البشرية. إنهم لا يحترمون قيم الحياة ولا قيم الديمقراطية" (4). وكان يشير بذلك إلى المقاومة الفلسطينية وإلى العمليات التي تضمنت خطف طائرات واحتجاز رهائن من أجل لفت أنظار العالم إلى القضية.

انتعشت في حكم ريغان حمى النبوءات الصهيونية، ففي التاسع من يونيو 1982، أي بعد ثلاثة أيام من بدء اجتياح الإسرائيليين لجنوب لبنان، ظهر

---

(1) Steven M. Gillon, Reagan tied Republicans to White Christians and now the party is trapped, washingtonpost.com, 22 March 2021.

(2) كان كارتر مهندسًا لأول معاهدة سلام بين العرب وإسرائيل، حيث نجح في دعوة الرئيس المصري أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن إلى منتجع كامب ديفيد، وأسفرت تلك المفاوضات في 1979 عن اتفاقية السلام والتطبيع بين مصر ودولة الاحتلال. لكن المسيحية المتصهينة توافق الجماعات الدينية اليهودية المتطرفة في رفض أي اتفاق سلام مع العرب يعطيهم الحق في قطعة من أرض "شعب إسرائيل".

(3) محمد عبد المحسن مصطفى عبد الرحمن، "المعتقد الديني وتشكيل السياسة الخارجيّة الأميركيّة: جيمي كارتر نموذجًا"، رسالة بوست resalapost.com، 7 فبراير 2022.

(4) بيرجيت أدولف، "سياسة مكافحة الإرهاب الأميركية:غياب في الرؤية وجهل بطبيعة الإسلام"، dw.com، 11 أكتوبر 2006.

الواعظ الإيفانجيلي الأميركي الشهير بات روبرتسون على التلفزيون ليذكّر بنبوءاته التي كان قد طرحها قبل أشهر، وقال: "أؤكد لكم أنه مع نهاية هذا العام ستقوم القيامة على الأرض، وستكون في الاتحاد السوفييتي أساسًا. هم الذين سيخوضون المغامرات العسكرية وسوف يُضربون" (1)، في إشارة إلى معركة هرمجدون واستخدام السلاح النووي، كما اقتبس من الكتاب المقدس أسماء الأمم التي ستقف مع الروس الذين يمثلون يأجوج ومأجوج وقال إنها كل من أرمينيا وليبيا وإثيوبيا واليمن وإيران.

وفي نفس السياق، نشر الواعظ ذائع الصيت جيري فالويل في عام 1983 كتابًا بعنوان "الحرب النووية والمجيء الثاني للمسيح"، وأكد فيه أن السوفييت سيشنّون حربًا على إسرائيل، وستفنى في المعركة خمسة أسداس الجنود السوفييت وحلفاؤهم، وهذا قبل معركة هرمجدون (2).

أما هال ليندسي فألف في هذه المرحلة عدة كتب تدعم طرحه السابق في كتاب "آخر أعظم كرة أرضية"، ومنها كتاب بعنوان "مكافحة الإيمان" الصادر عام 1986، الذي كُتب على غلافه: "الآن، وبينما نتجه نحو آخر الزمان، يتطلب العثور على السلام الداخلي والاستقرار بُعدًا جديدًا للإيمان يتجاوز التفكير الإيجابي والاعتراف الإيجابي"، حيث قدّم ليندسي لأتباعه النصائح الأخيرة للاستعداد النفسي للمجيء الوشيك للمسيح.

ظل ريغان رئيسًا لولايتين متتاليتين ما بين مطلع عام 1981 ونهاية عام 1988، وكانت رؤيته السياسية مشحونة بعقيدة الألفية، حيث نشرت الصحف الكبرى في عام 1984 تغطية لمؤتمر صحفي عقده معهد الأبحاث المسيحي عن إيمان رئيسهم بمعركة هرمجدون، وكان الجدل في المعهد قائمًا بشأن ما إذا كان

---

(1) النبوءة والسياسة، مرجع سابق، ص 35.

(2) المرجع السابق، ص 57.

الرئيس الأميركي سيضغط على الزر النووي في أي أزمة مقبلة لأنه يشعر بأنه يساعد الرب في مخططه المقرر مسبقًا لنهاية العالم (1).

وفي عام 1985، كشف الرئيس السابق لمجلس الشيوخ في كاليفورنيا جيمس ميلز أنه عندما كان ريغان حاكمًا للولاية في بداية السبعينات أخبره عن إيمانه بنبوءة قيام الحرب مع الاتحاد السوفييتي الذي يمثل يأجوج ومأجوج، كما قال ريغان له إن انضمام ليبيا إلى المعسكر الاشتراكي آنذاك يعني أنها عضو في هذا التحالف. وبعدما صار ريغان رئيسًا صارت ليبيا هي عدوه الأول، لأنها -بحسب شهادة جيمس- من أعداء إسرائيل والرب (2).

أهم الشخصيات والمؤسسات

يعدّ عقدا السبعينات والثمانينات العصر الذهبي للمسيحية المتصهينة، ففيه وصل هذا التيار إلى أهم المناصب في حكم كارتر وريغان، وفيه نشطت أيضًا المنظمات التبشيرية التي أشعلت هستيريا الألفية في أميركا، حتى أصبحت الكنائس والمؤسسات الإعلامية والتعليمية التابعة لها إمبراطوريات ضخمة تصعب منافستها، كما شكّلت جماعات ضغط (لوبيّات) ذات نفوذ سياسي كبير.

من أهم زعماء المسيحية المتصهينة في تلك الفترة القس جيري فالويل، الذي كان راعيًا لكنيسة توماس رود المعمدانية في مدينة لينشبرغ بولاية فرجينيا، ففي بداية السبعينات، شارك فالويل في تأسيس جامعة ليبرتي (الحرية) لتخريج الكوادر الدينية، وسرعان ما أثبتت جدارتها لتصبح من أكبر الجامعات المسيحية الإيفانجيلية في العالم، ومن أكبر الجامعات الخاصة غير الربحية في الولايات المتحدة.

---

(1) النبوءة والسياسة، مرجع سابق، ص 59.

(2) المرجع السابق، ص 22- 23.

ومع احتدام الجدل بشأن القضايا الاجتماعية والأخلاقية في أميركا، أسس فالويل عام 1979 منظمة "الأغلبية الأخلاقية" (Moral Majority) بهدف تعبئة جمهور المحافظين كي ينشطوا سياسيًا في القضايا التي تهمهم [1]، ونجحت المنظمة بالفعل في بث القيم العائلية والأخلاق في المجتمع الأميركي من خلال منابرها الإعلامية، والأهم من ذلك أنها أصبحت فور تأسيسها قوة سياسية لا يستهان بها، إذ نجحت في لعب دور رئيسي في نجاح رونالد ريغان بانتخابات الرئاسية عام 1980، حتى إن المحافظين أنفسهم شعروا بالصدمة آنذاك عندما رأوا حجم نفوذهم [2].

في مطلع عام 1986، اشترى فالويل شبكة تلفزيونية دينية كانت على وشك الإفلاس وحوّلها إلى قناة ليبرتي (الحرية). وكانت إمبراطوريته الإعلامية تبث قبل ذلك بسنوات برنامجًا إذاعيًا يوميًا لمدة ساعة باسم "ساعة الإنجيل" على ستمئة محطة في أنحاء العالم، كما كانت تُصدر أيضًا مجلة "صوت المسيحية".

بعد شراء القناة بأسبوع، أقام فالويل حفل غداء في واشنطن على شرف جورج بوش الأب، الذي كان آنذاك نائب الرئيس ريغان، وقال فالويل للمدعوين إن بوش سيكون أفضل رئيس في الانتخابات المقبلة. وبالفعل خاض بوش الانتخابات مرشحًا عن الحزب الجمهوري ونجح فيها، وكان دعم اليمين الديني المحافظ له واضحًا [3].

من أقوال فالويل التي تستحق التوثيق: "أشعر أن مصير دولة إسرائيل هو بلا شك المسألة الدولية الأكثر أهمية التي تواجه العالم اليوم. أعتقد أن شعب

---

(1) Robert Wuthnow, The Restructuring of American Religion, Princeton University Press, Princeton, 1988, p. 205.

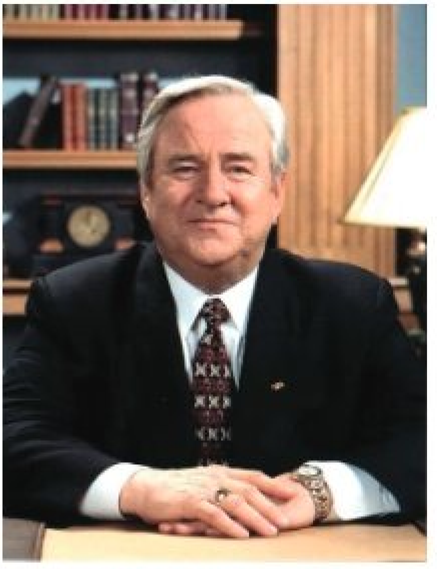
(2) Peter Applebome, "Jerry Falwell: Moral Majority Founder Dies at 73", nytimes.com, 16 May 2007.

(3) النبوءة والسياسة، ص 32.

إسرائيل ليس لديه حق لاهوتي فحسب، بل أيضًا حق تاريخي وقانوني في الأرض. أنا شخصيًا صهيوني، وقد اكتسبت هذا المنظور من خلال إيماني بأسفار العهد القديم المقدسة. لقد زرت أيضًا إسرائيل عدة مرات، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أنه ما لم تحافظ الولايات المتحدة على إخلاصها الثابت لدولة إسرائيل، فإن بقاء تلك الأمة سيكون على المحك" (1).

كما أعرب فالويل في لقاء صحفي في عام 1983 عن أمنيته بأن يحتل الإسرائيليون أجزاء من العراق وسورية وتركيا والسعودية ومصر والسودان، وكل لبنان والأردن والكويت، فهذه كلها تمثل أرض إسرائيل في عقيدته الدينية، وقال "لقد بارك الله أميركا لأننا تعاونا مع الرب في حماية إسرائيل العزيزة عليه" (2).

توفي جيري فالويل في 2007 عن 73 سنة، وخلفه ابنه الذي يحمل نفس اسمه، وما زال يعمل بنشاط ولكنه لا يتمتع بقدرات والده الكاريزمية.



صورة التقطت في 2007 لجيري فالويل في مكتبه (Liberty University)

(1) Merrill Simon, Jerry Falwell and the Jews, Jonathan David Publishers, New York, 1984, p. 62.

(2) النبوءة والسياسة، ص 144.

من جانب آخر، كان القس والمبشر بيلي غراهام من أبرز القادة الإيفانجيليين تأثيرًا في العالم، إذ تجاوزت شهرته حدود الولايات المتحدة لنجاحه في تقديم خطاب أكثر اعتدالًا من زملائه.

اعتاد غراهام منذ عام 1947 على تنظيم حملات تبشيريه عالمية تحت مسمى "الحملات الصليبية" (Billy Graham's Crusades)، ونظرًا لنشاطه الكبير فقد وصل عدد حملاته -حتى تقاعده في 2005- إلى 417 حملة في 185 دولة، وكان يستأجر دائمًا مساحات ضخمة مثل الملاعب الرياضية والصالات والحدائق وحتى الشوارع ليقدم مواعظه ومحاضراته التبشيرية، ففي عام 1973 احتشد حوالي مئة ألف شخص في مدينة ديربان بجنوب أفريقيا لحضور "حملته الصليبية" (1). وبعد هجمات 11 سبتمبر 2001 غيّر غراهام اسم حملاته إلى "مهمات" (missions) كي لا تأخذ دلالة هجومية ضد المسلمين.

كان غراهام يحرص على تجنب القضايا المثيرة للجدل وعلى اعتزال السياسة، مما أكسبه شعبية استثنائية لدى جميع البروتستانت، وربما كان هو القيادي الإيفانجيلي الوحيد المقبول لدى "البروتستانتية الرئيسية"، بل حظي أيضًا باحترام الكنائس الكاثوليكية الأميركية وبنى علاقات ودية مع بعض قادتها (2).

ونظرًا لشعبيته الكبيرة، استطاع غراهام أن يتقرب من معظم الرؤساء الأميركيين الذين عاصرهم، فعندما كان أحدهم يحتاج إلى الصلاة فلن يجد أحدًا أفضل من غراهام ليتصل به، لذا قضى الكثير من الوقت بصحبة الرئيس دوايت آيزنهاور في البيت الأبيض، كما كان يعتبر صديقًا شخصيا

---

(1) "Billy Graham crusades", billygraham.org.

(2) Jon M. Sweeney, "How Billy Graham shaped American Catholicism", americamagazine.org, 21 February 2018.

للرئيس ليندون جونسون، وعشيّة انطلاق القوات الأميركية في حرب الخليج قضى غراهام تلك الليلة مع عائلة الرئيس بوش الأب.

وفي أوائل سبعينات القرن العشرين، كان غراهام مدعوًا إلى طاولة جمعته بالرئيس ريتشارد نيكسون ورئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير، حيث عرض نيكسون عليه منصب السفير لدى إسرائيل، فاعتذر غراهام قائلاً: "الشرق الأوسط سوف ينفجر إذا ذهبت إلى هناك"(1).

اعتذر غراهام أيضًا عن الانضمام لمنظمة "الأغلبية الأخلاقية"، وكان يصرح باختلافه مع فالويل بدون اصطدام، كما اتخذ موقفًا معاديًا للعنصرية في الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا وبشكل غير مألوف لدى التيار الإيفانجيلي، ولم ينشغل بقضايا النبوءات كما يفعل زملاؤه بل كان يركّز معظم جهوده على التبشير فقط، حتى قيل إنه بشّر بالإنجيل شخصيًا لمليارات الناس وأكثر مما فعله أي شخص آخر في تاريخ المسيحية، وظل يحظى باحترام أنصاره حتى وفاته عام 2018 عن 99 عامًا.



بيلي غراهام يقدم إحدى "حملاته الصليبية" في دويسبورغ الألمانية في عام 1954
(Deutsches Bundesarchiv)

(1) Nancy Gibbs and Richard N. Ostling, "God's Billy Pulpit", time.com, 15 November 1993.

من أهم الشخصيات الإيفانجيلية أيضًا بات روبرتسون الذي أسس في عام 1960 وكالة البث المسيحية (CBN) بإمكانات محدودة، لكنها تحولت في الثمانينات إلى إمبراطورية عالمية تُشاهَد برامجها في 180 دولة و بأكثر من 70 لغة، وكان برنامج "نادي السبعمئة" (1) (The 700 Club) هو المنبر الأهم الذي يطل منه على متابعيه، وهو برنامج يُبث في كل أيام الأسبوع، ويعلّق على أهم الأحداث السياسية والاجتماعية من وجهة نظر مسيحية وصهيونية.

كان روبرتسون يقول إنه ينتظر اللحظة التي ستتولى فيها شبكته نقل وقائع نزول المسيح في القدس، كما صرح بأن ولاءه لإسرائيل يأتي قبل ولائه لأميركا نفسها، ولم تمنعه هذه التصريحات الصادمة من محاولة الترشح لانتخابات الرئاسة الأميركية خلفًا لريغان عام 1988، لكن الحزب الجمهوري لم يقبل به.

قال الكاتب نوم فيكر في مقال بصحيفة نيويورك تايمز في أكتوبر 1985، تعليقًا على إعلان روبرتسون نيته الترشح للرئاسة، إن هناك 24 مليون شخص يتابعون برامجه في أميركا، وهذا العدد يفوق عدد قراء صحف ومجلات التايم ونيوزويك ونيويورك تايمز ولوس أنجلوس تايمز وواشنطن بوست مجتمعة (2).

بعد فشل روبرتسون بالترشح للرئاسة، شكّل أنصاره "التحالف المسيحي" (Christian Coalition of America) ليكون إطارًا منظمًا للتعبئة السياسية، وسرعان ما أصبح من أهم جماعات الضغط (لوبي) اليمينية المهمة في واشنطن.

---

(1) سمي بهذا الاسم لأن المحطة عانت من صعوبات مالية في عام 1962، فقال روبرتسون لمشاهدي البرنامج إنه يحتاج إلى تشكيل نادٍ من 700 عضو يساهم كل منهم بمبلغ 10 دولارات شهريًا (ما يعادل 97 دولارًا في عام 2023)، وتم ذلك بالفعل، واعتاد روبرتسون إقامة حفل سنوي لتكريم هذا النادي، لاسيما بعدما أصبحت إمبراطوريته تدير أصولًا هائلة وتتلقى دعمًا من كبار الأثرياء.

(2) المرجع السابق، ص 30.

توفي روبرتسون في 8 يونيو 2023 بعمر 93 سنة، وكان قد تقاعد قبل سنتين من "نادي السبعمئة" في الذكرى الستين لأول بث تلفزيوني له.



روبرتسون يلتقي الرئيس بوش الأب في المكتب البيضاوي عام 1991 (David Valdez)

أما القس جيمي سواغارت فيدير من باتون روج بولاية لويزيانا إمبراطورية تدعى "وزارات جيمي سواغارت" (Jimmy Swaggart Ministries) بمرافق تمتد على مساحة مئة فدان، ومن أهم مؤسساتها قناة "سن لايف" التلفزيونية (SBN) ومجلة "الإيفانجيلي" (The Evangelist)، ومؤسسة "مركز عبادة الأسرة" (Family Worship Center)، و"كلّية جيمي سواغارت للكتاب المقدس" (1)، وأيضًا مدرسة وروضة للأطفال.

سبق أن عرف الجمهور المسلم سواغارت من خلال المناظرة المشهورة التي جمعته في نوفمبر 1986 مع الشيخ أحمد ديدات بعنوان "هل الكتاب المقدس كلام الله؟"، إذ كان سواغارت آنذاك في قمة شهرته.

في السنة نفسها، اتهم سواغارت زميله مارفن غورمان بإقامة علاقات جنسية محرّمة، فتسبّب في عزله من منظمة "جمعيات الرب" (Assemblies of God). وبدافع الانتقام، تمكن غورمان في عام 1988 من التجسس على

(1) www.jsm.org/jimmy-swaggart.

سواغارت وتصويره متورطًا في علاقات محرّمة أيضًا في أحد الفنادق، وكانت فضيحة مدوّية طُرد فيها سواغارت أيضًا من "جمعيات الرب"، ومع أنه اعتذر لجمهوره وذرف الدموع وهو يعترف في إحدى صلواته على التلفزيون قائلًا "لقد أذنبت" لكن شعبيته انخفضت كثيرًا، لا سيما بعدما أوقف شرطي سيارة سواغارت فوجده برفقة بائعة هوى في أكتوبر 1991، لكن سواغارت نفى التهمة عن نفسه مع الاكتفاء باعتزال القيادة في "مركز عبادة الأسرة" (1).

أما منظمة "جمعيات الرب" -المذكورة قبل قليل- فتعود جذور تأسيسها إلى عام 1911، لكنها لم تظهر بهذا الاسم إلا في 1988، وهي نظام زمالة دولية، ومن قادتها الإيفانجيلي بول كراوتش الذي أسس في عام 1973 "شبكة الثالوث للبث" (Trinity Broadcasting Network) المعروفة اختصارًا باسم TBN، وهي تتضمن عدة قنوات تلفزيونية تناسب كل الأعمار، وتتفرع عنها شركات إنتاج وأستديوهات ومدينة ترفيهية محافظة في فلوريدا، وكان هال ليندسي من أبرز الوجوه الإعلامية على شاشات الشبكة (2).

وكي نفهم أثر هذه الشبكات الإعلامية على المجتمع الأميركي آنذاك، فقد جاء في دراسة أجرتها مؤسسة "نلسن" في عام 1985 أن 40% من مشاهدي التلفزيون في أميركا يستمعون بانتظام إلى الوعاظ الإيفانجيليين، الذين يقولون إنه لا يمكن فعل شيء لمنع الحرب النووية.

كما أجرت مؤسسة "باتكيلو فيتش" في 1984 استطلاعًا للرأي جاء فيه أن 39% من الأميركيين يؤمنون بأنه عندما يتحدث الكتاب المقدس عن تدمير

---

(1) Peter H. King, "Swaggart Rejects Terms of Penance Is Defrocked", latimes.com, 9 April 1988.

(2) "Trinity Broadcasting Network", en.wikipedia.org.

الأرض بالنار فهذا يعني أن البشر هم الذين سيدمّرون الأرض كلها بالسلاح النووي في معركة هرمجدون [1].

سرّ التحالف

خصصت غريس هالسل فصلًا في كتابها للتساؤل عن سبب تحالف اليهود مع اليمين المسيحي، مع أن غالبية اليهود الأميركيين ليبراليون، ومعظم الأصوليين في أميركا كانوا تاريخيًا عنصريين ضد الجميع، فهم مقتنعون بأنهم بصفتهم بروتستانت أنجلوساكسون بيض البشرة فإنهم يتفوقون على السود والهنود والكاثوليك والصينيين واليابانيين والمسلمين واليهود، كما كان من الشائع في فترات سابقة من تاريخ أميركا إعلان عدائهم لليهود ورغبتهم في طردهم من أميركا المسيحية [2]. ومع ذلك، تساءلت هالسل: "طالما أن جيري فولويل وجيمي سواغارت وبات روبرتسون ومعظم الإيفانجيليين التلفزيونيين يعتقدون أن كل يهودي سوف يُقتل أو يتحول إلى المسيحية -أي في آخر الزمان- فلماذا يتطلع اليهود إلى التعاون معهم؟ ولماذا يتخلى اليهود عن معتقدات فكرية وإنسانية يلتزمون بها بعمق لإقامة تحالف مع الأصوليين اليمينيين؟" [3].

واصلت هالسل بحثها الدؤوب لتلخّص الأجوبة، ونقلت عن أحد قيادات المجلس الوطني للكنائس -الذي يمثل البروتسانتية الرئيسية- قوله إن الأميركيين كانوا ينظرون إلى إسرائيل قبل عام 1967 على أنها دويلة صغيرة تتعرض باستمرار لهجمات من العرب المتفوقين عليها، ولكن عندما اندلعت حرب 1967، وهي التي كان العرب يعتقدون قبلها أنهم سيطردون اليهود من فلسطين نهائيًا، وصل الحماس لدى الإيفانجيليين إلى أقصاه وهم يرون الجيش

---

(1) النبوءة والسياسة، ص 29.

(2) (2) النبوءة والسياسة، ص 147-148.

(3) المرجع السابق، ص 150.

الإسرائيلي يجتاح سيناء والضفة الغربية والقدس وقطاع غزة والجولان. هنا أصبح اليهود أبطالًا أسطوريين يحققون الوعد الإلهي بالفعل، وتحركت مشاعر الكثير من البروتستانت لتأييد هؤلاء اليهود عندما رأوا فيهم التجسيد الفعلي للنبوءات. وفي المقابل، كانت البروتسانتية الرئيسية تتخذ مواقف متعاطفة مع قضايا العالم الثالث مما أعطى اليهود انطباعًا بأن هؤلاء أقرب إلى الفلسطينيين منهم، وهكذا حدث فراغ في دعم الرأي العام لإسرائيل وبدأ الإيفانجيليون بملئه وسط ترحيب اليهود(1).

أضافت المؤلفة أن الصهاينة اليهود في أميركا اكتشفوا أن تعميق علاقاتهم مع المسيحيين اليمينيين بدل المسيحيين الليبراليين سيمنحهم دعمًا أكبر بكثير، فمع أن أتباع الكنائس الليبرالية (البروتسانتية الرئيسية) أضخم من عدد أتباع الإيفانجيليين، ولكن الحماس الشعبي لدى الطرف الثاني في دعم أي قضية هو أكبر وأكثر نفعًا، فوجود إسرائيل يعد من أهم أولويات الفرد الأصولي المحافظ، وهو مستعد للقتال من أجلها، لكنها ليست قضية وجودية لدى أفراد الطرف الآخر(2). لذا فإن قادة الإيفانجيليين مستعدون للضغط على حكومتهم وبذل كل الجهود من أجل دعم إسرائيل عسكريًا ودبلوماسيًا.

ونقلت هالسل عن اليهودي الأميركي والعضو في منظمة "بناي بريث" اليهودية ناثان بيرلمتر قوله: "نحن نحتاج إلى كل الأصدقاء لدعم إسرائيل، فإذا جاء المسيح فسوف نفكر في خياراتنا في ذلك اليوم. أما في الوقت الحاضر، دعونا نصلي للرب ونرسل الذخيرة"(3).

---

(1) المرجع نفسه، ص 150-152.

(2) المرجع نفسه، ص 157.

(3) المرجع نفسه، ص 159.

هدوء ما قبل العاصفة

بحلول نهاية حكم رونالد ريغان كانت منظمات الإيفانجيليين قد دخلت مرحلة الانحدار، فمع أن بوش الأب نجح في تولي الرئاسة خلفًا لريغان إلا أن الأجواء السياسية والاجتماعية في العالم عمومًا كانت تتجه للتغيير.

بدأ عقد التسعينات بحدث مزلزل غير متوقع وهو الانهيار السريع للاتحاد السوفييتي، ومع أن سقوط صنم الشيوعية الإلحادية كان من المفترض أن يمثل انتصارًا دينيًا إلا أنه في الوقت نفسه كان حدثًا محرجًا للمسيحية المتصهينة التي ظلت تبشّر عدة عقود بنبوءة هجوم السوفييت الملاحدة مع حلفائهم المسلمين على "دولة إسرائيل".

لم يتوقف التيار المتصهين عن إصدار المزيد من التنبؤات طوال عقد التسعينات، بل كان يطوّر تفسيراته باستمرار لتواكب الأحداث، فقد جاءت حرب الخليج بعد سقوط الشيوعية لتنقذ المتنبئين من الإحراج وتقدم لهم فرصة ذهبية للمزيد من المبشّرات بقرب ظهور المسيح.

وبما أن الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين كان قد أصبح -بعد غزوه للكويت وخسارته في معركة "عاصفة الصحراء"- عدوًا بارزًا لأميركا وإسرائيل، فقد صبّ عليه المتنبؤون الصهاينة جام غضبهم، ولم يوفّروا فرصة لشيطنته باعتباره الملك الذي سيعيد بناء بابل تمهيدًا لخروج "عدو المسيح".

وعلى سبيل المثال، أخرج المؤلف الأصولي جوزيف تشامبرز في عام 1996 كتابًا بعنوان "قصرٌ من أجل عدو المسيح: حملة صدام حسين لإعادة بناء بابل ومكانتها في نبوءات الكتاب المقدس"، وحاول أن يربط فيه بين الأحداث السياسية آنذاك ونبوءات الكتاب المقدس [1].

---

(1) من أجل صهيون، ص 349.

ولا ننسى في هذا السياق أن هال ليندسي كان قد تنبأ في كتابه "آخر أعظم كرة أرضية" بأن المسيح سيظهر في عام 1988، وظلّ كتابه -الصادر في مطلع السبعينات- من الأكثر مبيعًا في الولايات المتحدة عدة سنوات، لكن المهلة انقضت ولم تتحقق النبوءة، ومع ذلك واصل ليندسي إصدار الكتب والظهور على الشاشات، فنشر في عقد التسعينات وحده ثلاثة كتب (1)، وكان يعيد في كل كتاب جديد صياغة تفسيراته الخاصة للنبوءات التي يزعم أنها وشيكة الحدوث.

خسر بوش الأب الانتخابات ولم يتمكن من الحكم لولاية أخرى، وتولى الديمقراطي ذو الميول الليبرالية بيل كلينتون السلطة في مطلع عام 1993. كانت الأجواء تتجه للتململ من نفوذ اليمين المحافظ، فحتى الحزب الجمهوري أصبح منقسمًا بشأن مخاوف البعض من سيطرة المؤسسات الدينية والمبشرين الإيفانجيليين على مواقع صنع القرار من خلال الحزب.

على سبيل المثال، صرّح السيناتور باري غولدووتر أكثر من مرة عن غضبه من نفوذ المتدينين في حكم ريغان، علمًا بأن بداية ظهور ريغان في الوسط السياسي كانت في خطبة ألقاها لدعم غولدووتر أثناء ترشح الأخير للرئاسة في منتصف الستينات، ولكنه لم ينجح في مواجهة الديمقراطي ليندون جونسون. وفي مقابلة أجرتها صحيفة واشنطن بوست عام 1994 قال غولدووتر: "عندما تقول 'اليمين الراديكالي' اليوم، أفكر في مشاريع كسب المال هذه التي يقوم بها زملاء مثل بات روبرتسون وآخرون الذين يحاولون الاستيلاء على الحزب الجمهوري وجعله منظمة دينية. إذا حدث ذلك، فقل وداعًا للسياسة" (2). وفي مقابلة أخرى قال: "تذكروا كلامي، عندما يسيطر هؤلاء المبشّرون على الحزب،

---

(1) المرجع السابق، ص 351.

(2) Lloyd Grove, "Barry Goldwater's Left Turn", The Washington Post, 28 July 1994.

وهم بالتأكيد يحاولون القيام بذلك، ستكون مشكلة رهيبة. بصراحة، هؤلاء الناس يخيفونني. فالسياسة والحكم يتطلبان التسوية. لكن هؤلاء المسيحيين يعتقدون أنهم يتصرفون باسم الله، لذلك لا يمكنهم ولن يقبلوا التسوية" [1].

كان عقد التسعينات حافلًا بالجدل والانقسامات الأكثر حدة في الشارع الأميركي، فالأجيال الشابة تعيش ثورة المعلومات والاتصالات ووعود التكنولوجيا الحالمة بمستقبل "ما بعد الإنسانية" [2] حيث لا حاجة للإنسان بالأديان، كما تتردد على مسامعها أنباء "نهاية التاريخ" [3] مع سقوط المعسكر الشيوعي ونشوء "نظام عالمي جديد" [4] في صورة عالم مُعولم تقوده أميركا. فبدأت ملامح الانحلال الأخلاقي لدى الشباب بالظهور، واستعيدت "الثقافة المضادة" من الستينات في صورة أكثر حداثة.

وفي المقابل، حشد اليمين الإيفانجيلي المتصهين كل أسلحته الجدالية ليثبت أن عصر الألفية على وشك البدء، مؤكداً أن العواصف السياسية آنذاك لم تكن سوى مؤشرات على قرب النهاية، وأن بداية الألفية الثالثة ستكون نقطة الصفر.

ظهرت عشرات الكتب التنبؤية في المكتبات الأميركية خلال التسعينات، ونذكر منها مثلًا: "البتراء في التاريخ والنبوءات" للمؤلف نوح هاتشينغر في عام

---

(1) "Quote for the Day", theatlantic.com, 24 Nov 2006.

(2) "ما بعد الإنسانية" حركة فكرية تؤمن بإمكانية تطوير تقنيات تدمج الدماغ البشري بالذكاء الاصطناعي والاستفادة من تكنولوجيات أخرى ستمكن الإنسان من مقاومة الشيخوخة، ومن ثم إطالة عمر البشر إلى آلاف السنين وربما الوصول إلى الخلود. تنطلق هذه الفلسفة من خلفية مادية لا تقيم اعتبارًا لوجود الروح والخالق.

(3) هذا اسم نظرية فرانسيس فوكوياما الذي اعتبر سقوط الشيوعية مؤشرًا على وصول التاريخ البشري إلى نهايته.

(4) أعلن بوش الأب بعد سقوط الشيوعية أن "النظام العالمي الجديد" (New World Order) قد بدأ.

1991، "آخر العمالقة: رفع الستار عن الإسلام ونهاية الزمان" للمؤلف جورج أوتيس في العام نفسه، "الرب يتدخل في الشرق الأوسط" للمؤلف ماريون كريمرز في 1992، "إنذار الرب الأخير لأميركا" للمؤلف جون ماكتيرنان عام 1996، "لغز بابل صدّام" للكاتب آرنو فروسي في 1998، "كوكب الأرض: الفصل الأخير" للقس هال ليندسي -الذي ذكرناه سابقًا- في 1998، وكتاب "هيكل الأيام الأخيرة القادم" للكاتب راندال برايس في 1999، (1) وغيرها الكثير.

انتهى عقد التسعينات، وفي ليلة واحدة بدأ عام جديد وقرن جديد وألفية جديدة، ولم يحدث شيء يُذكر، لم تقم أي حرب ولم يظهر المسيح، وتكررت نفس مظاهر الإحراج التي تورط فيها المتنبئون في مطلع عام 1000 الميلادي، ولم يجد بعض المتنبئين الجدد مخرجًا أفضل من إعلان أن توقعاتهم احتمالية، وأن موافقة بداية الألفية السعيدة مع رقمٍ ألفي هي إما نظرية غير مؤكدة، أو أن الأمر لا يتطلب سوى انتظار بداية ألفية أخرى.

هجمات 11 سبتمبر وعودة الحلم

في مطلع عام 2001، استلم جورج بوش الابن السلطة. وعاد الجمهوريون إلى البيت الأبيض مجددًا، وأعيدت دورة حكم اليمين المتصهين التي مثّلها ريغان من جديد. وبعد بضعة أشهر فقط من بدء ولاية بوش الابن وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، عندما شن تنظيم القاعدة هجومه على برجي التجارة العالمي ومبنى البنتاغون، وسقط نحو ثلاثة آلاف قتيل من المدنيين في أهم المدن الأميركية، في أكبر هجوم تتعرض له "قائدة العالم الحرّ" على أرضها منذ الحرب العالمية الثانية (2).

---

(1) من أجل صهيون، مرجع سابق، ص 348 وما بعدها.

(2) منذ وقوع الهجمات ظهرت شكوك قوية تطعن في الرواية الرسمية للهجمات، ومع أن بعضها يبدو سخيفًا مثل الكثير من نظريات المؤامرة، إلا أن هناك أسئلة كبيرة لا يمكن للرواية =

تحوّلت أنظار المسيحية المتصهينة بعد هذه الهجمات تلقائيًا إلى العدو الجديد الذي أخذ مكان الشيوعية السوفييتية الملحدة وهو "الإرهاب الإسلامي"، وتصوّر البعض بالفعل أن المسلمين أعلنوا الحرب وحشدوا جيوشهم لمعركة هرمجدون الكبرى، حتى قال الواعظ ديفيد ويلكرسون في خطبة بين رعاياه في نيويورك بعد أربعة أيام من الهجمات: "أكاد أسمع أصوات فرسان معركة مجيدو الأربعة"(1).

وفي 20 سبتمبر 2001، ألقى بوش الابن خطابًا في الكونغرس، وسط حماس هائل من كافة أطياف الشعب الذي شعر بالخوف والإهانة، ودعا إلى شنّ "حرب عالمية على الإرهاب"، وقال "حربنا على الإرهاب تبدأ بالقاعدة، لكنها لا تتوقف هناك، ولن تنتهي حتى يتم إيجاد كل الجماعات الإرهابية ذات الوصول العالمي ووقفها وهزيمتها".

وبعد أسابيع قليلة، أشعل بوش الابن موجة من الجدل عندما قال للصحفيين "هذه الحملة الصليبية... هذه الحرب على الإرهاب ستستغرق فترة من الوقت"، ثم أصدر البيت الأبيض بيانًا في وقت لاحق جاء فيه أن الرئيس يشعر بالأسف لاستخدامه هذا التعبير. لكن رئيس حملة بوش الابن الانتخابية مارك راسيكوت أعاد استخدام المصطلح بعد ثلاث سنوات -أثناء الاستعداد لانتخابات تجديد الولاية- فأشاد في مارس 2004 بالرئيس بوش "لقيادته حملة صليبية عالمية ضد الإرهاب"، ثم تكرر الاعتذار مرة أخرى عندما أعلنت الحمة أنها كانت "كلمة غير مناسبة"(2).

= الرسمية أن تجيب عليها، مما يرجح عندي أن هناك جهات كانت تعلم بالهجوم قبل وقوعه على الأقل.

(1) من أجل صهيون، مرجع سابق، ص 343.

(2) "لجنة بوش الانتخابية تصف حملته على الإرهاب بالصليبية"، الجزيرة نت، 19 مارس 2004.

انطلق سيل من التفسيرات لمحاولة ربط هجمات سبتمبر بأحداث آخر الزمان، ونشطت تجارة النبوءات في العقد الأول من الألفية بأكثر مما كانت عليه في الثمانينات، لا سيما بعدما أتاحت شبكة الإنترنت لأي شخص أن يؤسس موقعًا ويطرح فيه كتبًا وتسجيلات صوتية ومرئية بأقل التكاليف، كما انتشرت آنذاك ظاهرة إغراق البريد الإلكتروني بالرسائل الدعائية التي كانت من أهم وسائل نشر الشائعات ونظريات المؤامرة، وذلك قبل ظهور مواقع التواصل الاجتماعي.

وقد جمع مؤلف كتاب "من أجل صهيون" (1) أمثلة كثيرة من المواقع الإلكترونية التي انتشرت كالنار في الهشيم آنذاك بين المحافظين الأميركيين، والتي تحث متابعيها على الاستعداد للأحداث الكبرى التي باتت قريبة للغاية، ومنها مثلا اندلاع حرب عالمية وشيكة تصبح فيها دمشق ركامًا (2)، ثم بناء الهيكل قبل انتهاء عام 2007 (3)، أو تقدم الصين لغزو الشرق الأوسط بجيش قوامه 200 مليون جندي بالتوازي مع تربع "عدو المسيح" على عرش الاتحاد الأوروبي قبل أن يذهب إلى القدس ويحكم العالم، بينما رأى البعض أن "عدو المسيح" سيصل إلى الحكم من خلال تزعمه لمنظمة الأمم المتحدة.

امتلأت أيضًا رفوف المكتبات في أميركا بالكتب والمجلات التي تحلل الأحداث وتربطها بخطة الدهر، وكان الحديث دائمًا ينصبّ على تمايز صفوف الصراع، حيث أصبحت أميركا وإسرائيل في صف واحد، مقابل "عدو المسيح" الذي يصطف وراءه كل من المسلمين وروسيا والاتحاد الأوروبي وبقية الأمم.

---

(1) من أجل صهيون، ص 364 وما بعدها.

(2) هذه النبوءة اقتُبست من مقولة جاءت في سفر إشعياء، وهي: "انظروا فإن دمشق لن تبقى مدينة بعد الآن، بل ستصبح كومة من ركام" [إشعياء- 1 :17].

(3) جاء هذا في موقع يسمى "Apocalypse Soon" (أي القيامة قريبًا) أسسه شاب يدعى بول روبرتسون. انظر: من أجل صهيون، ص 369.

ومن أهم الكتب التي صدرت في تلك الفترة لصياغة النبوءات الجديدة وتحليل الأحداث المستجدة، نذكر مثلًا كتابين أصدرهما هال ليندسي في عامي 2002 و2003، هما "الكراهية الأبدية: جذور الجهاد" و"الإيمان بالساعة الأخيرة للأرض"[1].

كما ألّف راندال برايس في 2001 كتابًا جديدًا بعنوان "الحرب غير المقدسة: أميركا وإسرائيل والإسلام المتطرف"، وحاول أن يشرح فيه لقرائه سبب انتقال الحرب إلى أميركا ضمن خطة الرب للدهر، وناقش في الكتاب أسئلة من قبيل: أيهما أقوى: المطالبات اليهودية أم العربية بالمدينة؟ لماذا يرغب الفصيلان في خوض حرب على جبل الهيكل؟ هل سيحل السلام في القدس يومًا ما؟ وكانت جميع أجوبته تصاغ بناء على تنزيله للنبوءات على الواقع.

وفي كتاب "الحرب الأخيرة: إخفاق عملية السلام والمعركة القادمة من أجل القدس" الصادر في 2001 اعتبر الكاتبان ديفيد آلن لويس وجيم فليتشر أن عملية "الأرض مقابل السلام" بُنيت على أساس باطل، فلا يمكن أن يكون هناك سلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين طالما ظل العرب ينكرون حق إسرائيل في الوجود، ولا بد من حرب ملحمية تقضي على كل أعداء المسيح وعندها سيحل السلام تحت حكم المسيح (الرب) في أورشليم، أما كتاب "الحرب ضد الإرهاب: كشف الستار عن النبوءات المقدسة" الذي نشره غرانت جيفري في 2002 فقد بيعت منه ملايين النسخ، وهو يحاول إقناع قرائه بأن كراهية "المسلمين الإرهابيين" -الذين شنوا هجمات سبتمبر- لأميركا نابعة أصلًا من كراهية المسلمين كلهم لإسرائيل، وأن الحرب التي شنها الرئيس المسيحي المتدين بوش الابن هي تحقيق لنبوءة وردت في سفر إرميا من العهد القديم، وهي مقدمة لملحمة هرمجدون.

---

(1) hallindsey.com.

في المقابل، ظهرت كتب كثيرة على يد صحفيين وباحثين أميركيين وأوروبيين، وأيضًا في العالم العربي، تكشف خطورة المشروع الصهيوني الذي تتبناه إدارة بوش الابن، ولا سيما في غزو العراق الذي بُرر بسعي نظام صدام حسين لامتلاك أسلحة دمار شامل ثم تبيّن أنها مجرد ادعاءات كاذبة (1).

أما الشبكات التلفزيونية الإيفانجيلية فكانت تملأ ساعات البث على مدار اليوم بخطب ومحاضرات وبرامج حوارية لكبار المبشّرين، ومنهم بات روبرتسون الذي في برنامجه الشهير "نادي السبعمئة" أن يشيطن صدام حسين ويضخّم خطره، باعتباره ممثلًا لقوى الشر المعادية للمسيح التي تحاول تقويض "دولة الله في الأرض" التي ستقام لمدة ألف عام بعد عودة المسيح، وقد سهّلت خُطب روبرتسون مهمة غزو العراق مع حرصه الدائم على إظهار خرائط العراق باسمها الإنجيلي "بلاد الرافدين" وأرض "بابل" (2).

شارك جيري فالويل في مباركة الحرب الأميركية من خلال برامجه، وقال: "إننا عندما نشن الحرب في العراق سنقوم بذلك لإعادة المسيح إلى الأرض، لكي تقوم الحرب الأخيرة التي ستخلص العالم من جميع الكافرين".

وعندما انتقدت بعض الطوائف المسيحية إقحام الدين في هذه الحرب، كتب فالويل مقالًا بعنوان "الرب مؤيد للحرب"، وقال فيه إن الكتاب المقدس لم يلتزم الصمت، و"إنه في الوقت الذي يعتبر فيه رافضو الحرب أن المسيح مثال للسلام غير المتناهي، يتجاهلون الرواية بكاملها التي وردت في الآية التاسعة عشرة من سفر رؤيا يوحنا، ويحمل فيها المسيح سيفًا حادًا يصعق الأمم ويحكمهم" (3).

---

(1) انظر: غوردون كوريرا، غزو العراق: كيف تداعت مزاعم امتلاك صدام حسين أسلحة دمار شامل؟، بي بي سي عربي، 14 مارس 2023.

(2) عادل الدقاقي، المسوغات الدينية للسياسة الأميركية إزاء الشرق الأوسط، الجزيرة نت، 26 ديسمبر 2006.

(3) المرجع السابق.

أما القس ريتشارد لاند فكان آنذاك ضيفًا دائمًا على قنوات أخرى غير مسيحية مثل MSNBC وCNN، إلى جانب ظهوره الدوري على البرامج والإذاعات الدينية، وكان له دور كبير في تبرير غزو العراق قبل بدئه، حيث أصدر في 3 أكتوبر 2002 بيانًا وقّع عليه خمسة قادة إيفانجيليين وجاء فيه أن هذه الحرب مشروعة لأنها تتوفر على الشروط المنصوص عليها في نظرية الحرب العادلة، التي وُضعت من قبل اللاهوتيين المسيحيين في أواخر القرن الرابع الميلادي [1].

وبعد كل هذا الحشد الإعلامي، لم يجد زعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس النواب الأميركي توم ديلي أي مشكلة في تبريره للحرب ضد العراق بأنها "البشير الذي يسبق عودة المسيح إلى الأرض ويفسح المجال لحدوثها" [2].

كانت ميول بوش الابن الصهيونية أكثر وضوحًا من ريغان، إذ صرح بوش الابن أكثر من مرة بامتنانه ليسوع المسيح الذي أنقذه، فقال أثناء الحملة الانتخابية للفوز بترشيح الحزب الجمهوري لخوض انتخابات الرئاسة في عام 2000 إن المسيح هو أفضل فيلسوف سياسي لديه لأنه أنقذه "من طريق الضلال ودلّه على الصراط المستقيم"، في إشارة إلى مفهوم "الولادة من جديد" الذي يُعد من خصائص الطائفة الإيفانجيلية، فقد كان في شبابه غير ملتزم دينيًا، وعندما التقى بالقس الشهير بيلي غراهام في سن الأربعين بدأ بالاهتمام بالكتاب المقدس، وبعد جولة من القراءة والبحث اقتنع بكل أدبيات المسيحية المتصهينة ونبوءاتها، حتى قال بصراحة إنه تولى منصب الرئاسة لأقوى دولة في العالم "لأن الله اختاره لتولي ذلك المنصب". وعندما أطلق بالفعل حربه في أفغانستان قال في خطبة ألقاها بإحدى الكنائس عام 2002، وهو يرتدي الزي

---

(1) Stephen R. Rock, "Faith and Foreign Policy: The Views and Influence of U.S. Christians and Christian Organizations", Continuum, 2011, p. 110.

(2) عادل الدقاقي، مرجع سابق.

العسكري: "إننا جيش الله، في بيت الله، وقد أقيمت مملكة الله لمثل هذه الأوقات التي نعيشها" (1).

"التغيير" ومزيد من الانقسام

كانت الحرب على أفغانستان والعراق من أسوأ الكوارث الإنسانية التي شهدها العالم في القرن الجديد، ومع أن المجتمع الدولي كان داعمًا لواشنطن في استهداف تنظيم القاعدة في أفغانستان لكنه لم يؤيد غزو العراق، وعندما توالت الخسائر البشرية والاقتصادية على الولايات المتحدة نفسها من هذه الحرب طويلة الأمد خسر الإيفانجيليون الكثير من شعبيتهم، لا سيما مع تجدد فشل نبوءاتهم التي لم يظهر صدق أيٍّ منها (2).



بوش الابن يحطّ بطائرة عسكرية على متن حاملة طائرات أميركية في 1 مايو 2003 قبيل إلقاء الخطاب المشهور " أُنجزت المهمة" في إشارة لإسقاط النظام العراقي (White House)

---

(1) المرجع السابق.

(2) سبقت الإشارة في فصل "حركة العصر الجديد" إلى ظاهرة التنافر المعرفي والآليات النفسية التي يلجأ لها البعض بعد فشل النبوءات التي يؤمنون بها.

في 2008، انقضت الولاية الثانية للرئيس بوش الابن مع تراجع كبير لشعبيته، وقال في خطاب الوداع في 15 يناير 2009 إنه لا ينكر وجود "قدر ضئيل من الجدل" بشأن القرارات "الصعبة" التي اتخذها، والتي ظل يصرّ على أنها أبقت الولايات المتحدة في أمان، معتبرًا أن الإرهاب ما زال "التهديد الأكثر خطورة" لشعبه (1).

فاز باراك أوباما بالانتخابات بعد رفعه شعار "التغيير" (Change)، واعتُبر فوزه رسالة من الليبراليين والأجيال الشابة بنفورهم من هوس اليمين المحافظ بالحروب ذات الدوافع الدينية الصهيونية.

أشارت الاستطلاعات إلى بدء انحدار مستويات التدين والإيمان في المجتمع الأميركي في تلك الفترة (2)، حتى أعلن أوباما في 2012 تأييده لزواج الشواذ جنسيًا (المثليين) (3)، وذلك بعدما كشفت الاستطلاعات أن نصف الأميركيين يقبلون تشريعه قانونيًا، ثم صدر القانون بتشريعه بالفعل في صيف 2015، الأمر الذي اعتبره أوباما "انتصارًا لأميركا، وانتصارًا للحب" (4)، بينما يعتبره اليمين المحافظ نقطة تحول تاريخية في مسار نزع الهوية الدينية الخاصة عن أميركا،

---

(1) "في خطاب الوداع.. بوش يدافع عن قراراته الصعبة ويعترف ببعض الإخفاقات"، موقع دويتشه فيله dw.com، 16 يناير 2009.

(2) كان جيري فالويل قد أعلن في 1989 حلّ منظمة "الأغلبية الأخلاقية"، أي بعد انتهاء حكم ريغان، حيث تراجعت التبرعات للمنظمة بشكل كبير آنذاك وبدأت مرحلة الانحدار، لكن فالويل أعاد في 2004 إحياء المنظمة تحت اسم "تحالف الأغلبية الأخلاقية"، بهدف مواصلة "الثورة الإيفانجهلية" لمساعدة السياسيين المحافظين على الفوز بالانتخابات، ولم تحقق المحاولة أهدافها كما كانت في الثمانينات، ثم انتهت فعليًا بموت فالويل في 2007.

(3) "الرئيس الأميركي أوباما يعلن تأييده لزواج المثليين"، بي بي سي عربي، 10 مايو 2012.

(4) "المحكمة العليا تقر زواج المثليين بجميع ولايات أميركا.. وأوباما يهنئ بانتصار الحب"، سي إن إن بالعربية، 26 يونيو 2015.

وهي التي تشكلت على يد المهاجرين الأوائل عندما نظروا إلى بلادهم الناشئة على أنها صهيون الجديدة.

ومنذ ترشح أوباما لمجلس الشيوخ في 2004 ببشرته السمراء واسم والده الكيني "حسين"، أي قبل أربع سنوات من خوض انتخابات الرئاسة، أشعل اليمين المتطرف جدلًا واسعًا بشأن أصول أوباما، وانتشرت نظريات المؤامرة التي تتهمه بأنه "عدو المسيح" الذي يخفي إسلامه، وعندما صار رئيسًا بالفعل انتشرت هذه الشائعات كالنار في الهشيم، حتى ذكرت استطلاعات الرأي أن نسبة المقتنعين بأنه مسلم متخفٍّ تتفاوت بين 10% و20% من مجمل الأميركيين، بينما ترتفع بين أنصار الحزب الجمهوري إلى 30% (1).

بنهاية الولاية الثانية لأوباما، كانت كل استطلاعات الرأي تقريبًا تتنبأ بفوز مرشحة الحزب الديمقراطي هيلاري كلينتون، لكن العالم كله فوجئ بفوز الجمهوري دونالد ترامب، والذي كان أكثر الرؤساء إثارة للجدل والانقسام في تاريخ البلاد.

كان فشل استطلاعات الرأي أول صدمة للمحللين، وفسّره البعض بنظرية "دوامة الصمت"، وتوقّعوا أن أتباع اليمين المحافظ وجدوا صعوبة في إظهار تأييدهم لترامب شخصيًا مع انتشار الصورة الذهنية العنصرية عنه بمعاداة الأقليات والأديان والنساء وغيرها، وخوفًا من مخالفة الأغلبية أو التيار العام ذي الصوت العالي، كما أشار بعض المحللين إلى ما يعرف بتأثير "برادلي"، حيث يميل الناخبون الأميركيون إلى الكذب في استطلاعات الرأي خوفًا من اتهامهم بالعنصرية والأصولية، كما حدث سابقًا عندما خسر المرشح الأميركي الأسود توم برادلي أمام منافسه الأبيض الجمهوري جورج دوكمجيان بعد تقدمه في استطلاعات الرأي (2).

(1) "Barack Obama religion conspiracy theories", en.wikipedia.org.

(2) "سامر رضوان أبو رمان، لماذا أخطأت استطلاعات الرأي بانتخابات أميركا؟"، الجزيرة نت، 15 أكتوبر 2016.

أثبت فوز ترامب حيوية اليمين المحافظ وقدرته على التحدي من جديد، وأثناء ولايته كان اليمين اليهودي المتطرف في إسرائيل ينتعش أيضًا تحت حكم بنيامين نتنياهو.

وبعد سنتين من تولي السلطة، أعلن ترامب "أنه آن الأوان للاعتراف رسميًا بالقدس عاصمة لإسرائيل" (1)، وأمر ببدء التحضيرات لنقل سفارة الولايات المتحدة في إسرائيل من تل أبيب إليها، وفي اليوم الموالي، قال نتنياهو: "هناك لحظات كبيرة في تاريخ الصهيونية: وعد بلفور، وإقامة الدولة، وتحرير القدس، وخطاب ترامب يوم أمس" (2).

وفي 15 مايو 2018، حرصت إيفانكا ابنة الرئيس ترامب على تصدّر حفل افتتاح السفارة، برفقة زوجها اليهودي جاريد كوشنر، بصفتهما مستشارين للبيت الأبيض. واعتبر التيار المسيحي المتصهين هذا الحدث من المبشّرات باتخاذ القدس عاصمة للدولة اليهودية والتعجيل ببناء الهيكل.

وبالعودة إلى كتاب غريس هالسل الذي نشرته في أواخر الثمانينات، تقول: عندما ضم مناحيم بيغن القدس العربية إلى إسرائيل بطريقة غير شرعية في عام 1980 استهجن كل قادة العالم هذا التصرف، فلم تعترف أي دولة بحق إسرائيل المطلق في السيطرة على مدينة الديانات الثلاثة، وإذا بادرت الولايات المتحدة بنقل سفارتها إلى القدس فستكون الدولة الكبرى الوحيدة التي تعطي الشرعية لهذا الفعل (3). وبعد أقل من ثلاثة عقود، لم يتردد ترامب في القيام بهذه الخطوة غير عابئ بأي قانون أو عُرف، وقد وجد فيه نتنياهو القائد الأميركي المثالي الذي ينبغي الاستفادة منه إلى أقصى درجة.

---

(1) "ترامب يعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل ويأمر بنقل السفارة الأميركية من تل أبيب إليها"، france24.com، 6 ديسمبر 2017.

(2) علي بوتوا، "لماذا وعد ترمب أخطر من وعد بلفور؟"، مدونات الجزيرة، 10 ديسمبر 2017.

(3) النبوءة والسياسة، ص 198.

حاول ترامب طرح خطة للسلام باسم "صفقة القرن"، أملًا بوضع حل نهائي للصراع الإسرائيلي- الفلسطيني، وتأجّل طرحها مرات عدة ثم انقضت ولاية ترامب قبل التمكن من طرحها، لكن بعض بنودها تسرّبت للإعلام، ومن أهمها حل القضية الفلسطينية بإقامة دولة فلسطينية بدون جيش في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتنازل مصر عن بعض الأراضي في سيناء لإنشاء مطار ومنطقة صناعية وتجارية وزراعية بدون أن يقيم فيها الفلسطينيون [1].

نجح ترامب في عقد المزيد من صفقات التطبيع في عهده مع دول عربية، وسط ترحيب من اليهود والمسيحيين المتصهينين بالاتفاقيات التي تضمن المكاسب الاقتصادية "للدولة اليهودية"، لكن صفقة القرن لم تحقق أي نجاح لرفض الإسرائيليين أنفسهم حل الدولتين ومنح الفلسطينيين أي حق بأي جزء من أرضهم، أما المسيحيون المتصهينون فهم أكثر تعنتًا من اليهود في هذا الأمر، ويرفضون رفضًا تامًا تنازل اليهود عن أي شبر من الأرض، لأن ذلك يعني تأخير موعد قدوم المسيح، كما أنهم يحلمون باليوم الذي يهاجم فيه المسلمون وروسيا دولة إسرائيل كي تندلع معركة هرمجدون ويظهر المسيح، أما اتفاقيات السلام -إن تمّت- فهي في رأيهم ليست سوى أفعال خاطئة تؤخر خطة الرب.

قدّم ترامب نموذجًا مختلفًا للرئيس اليميني المحافظ مقارنةً بريغان وبوش الابن، فمع أنه كان ممثلًا لليمين المتطرف أكثر من أي رئيس أميركي سابق إلا أنه لم يكن متدينًا في سلوكه الشخصي، ولم يبدِ الكثير من الاهتمام بمشروع الإيفانجيليين ونبوءاتهم، بل بدا لبعض المحللين أنه يستخدمهم كورقة انتخابية كما كانوا هم أيضًا يستغلون شعبيته وكاريزميّته لتحقيق أكبر قدر من المكاسب السياسية والاجتماعية في ظل حكمه.

---

(1) "صحيفة إسرائيلية تنشر بنودًا مسربة من صفقة القرن"، موقع روسيا اليوم arabic.rt.com، 7 مايو 2019.

ومع أن ترامب حاول أن يقدم لإسرائيل أكثر من أي رئيس أميركي آخر إلا أنه لم ينجح في الانتخابات لولاية ثانية، إذ حشد خصومه الديمقراطيون أنصارهم بكل قوة مع تصاعد خطاب اليمين التطرف في ولايته الأولى، كما انقلب ضده بعض الجمهوريين، لكن المسيحية المتصهينة وجدت فيه القائد الكاريزمي الصلب الذي يمكن الاعتماد عليه في المعارك الداخلية ضد اليسار الذي يميل أيضًا نحو التطرف، وفي المعارك الخارجية أيضًا، سواء لأسباب وطنية عرقية برفعه شعار "لنجعل أميركا عظيمة مرة أخرى"، أو لأسباب دينية تدفع باتجاه تعجيل عودة المسيح.

تولى جو بايدن الرئاسة في مطلع عام 2021، مدعومًا بقوة من اليسار الليبرالي الذي يزداد شراسة في فرض أجنداته الاجتماعية، مثل "حقوق المثليين" و"حق الإجهاض" وغيرها. وبما أنه الرئيس الكاثوليكي الثاني في تاريخ أميركا كله -بعد جون كينيدي- لكن بايدن كان حريصًا على إظهار ولائه للصهيونية، مع أن هذا الولاء ارتبط تاريخيًا وعقديًا بالبروتستانتية كما أسلفنا، ففي مستهل زيارته لدولة الاحتلال في صيف 2022، قال بايدن في خطاب ألقاه لدى وصوله إلى مطار اللد: "أنا صهيوني. ولا يتعين على المرء أن يكون يهوديًا لكي يكون صهيونيًا".

وأضاف "يجب أن تظل إسرائيل دولة يهودية ديمقراطية مستقلة"، كما أشار إلى حرص إدارته على الدفع باتجاه تحقيق حل الدولتين [1]، وهو وعد يطلقه كل رئيس أميركي في سياق الدبلوماسية، فمع أن ترامب تحدث عن سعيه أيضًا لتحقيق هذا الهدف لكن مسؤولا كبيرًا في إدارته كان قد صرح في 2017 بأن حل الدولتين إذا كان لا يجلب السلام فليس هدفًا

(1) "بايدن: أنا صهيوني.. وإسرائيل دولة يهودية مستقلة"، موقع عربي21، 14 يوليو 2022.

يراد تحقيقه، وأن السلام هو الهدف سواء أتى عن طريق حل الدولتين أو أي حل آخر (1).

مستقبل صعب

قد يكون التنبؤ بالمستقبل صعبًا، فكل المرشحين والفائزين بالرئاسة الأميركية يتسابقون على إثبات ولائهم للصهيونية، بالرغم من اختلافهم الشديد في قضايا أخرى، خصوصًا بعد ظهور الانقسام الشديد في عهد ترامب، لكن بعض التحليلات تشير إلى أن اللوبي الصهيوني الأقوى في أميركا وهو "لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية" المعروفة باسم "أيباك" (AIPAC) أبدى ميلًا لدعم التيار اليميني المحافظ في الحزب الجمهوري قبيل الانتخابات التشريعية (النصفية) في أواخر 2022، حيث ذكرت صحيفة "واشنطن بوست" أن "أيباك" موّلت 109 نائبًا من أصل 147 نائب جمهوري في الكونغرس، رفضوا جميعهم المصادقة على انتخاب جو بايدن عندما نجح في انتخابات الرئاسة، وهؤلاء يتبنّون الأجندات المحافظة مثل التصدي لأي حظر على مبيعات الأسلحة الفردية، وحظر الإجهاض، ويتخذون مواقف عنصرية من السود والأقليات (2).

وتعليقًا على هذا الموقف، كتب الصحفي اليهودي الفرنسي سيلفان سيبيل مقالًا يحذّر منظمة "أيباك" من أن اليهود الأميركيين سيديرون ظهورهم لإدارتها عاجلًا وليس آجلًا، مستشهدًا بدراسة أجراها مركز بيو للدراسات في مايو 2022 أظهرت تصاعدًا متزايدًا لعداء الشباب الأميركي تجاه السياسة الإسرائيلية،

---

(1) "مسؤول أميركي: واشنطن تخلت عن حل الدولتين كأساس للسلام في الشرق الأوسط"، موقع فرانس24، 15 فبراير 2017.

(2) سيلفان سيبيل، "اللوبي الصهيوني يساند أنصار ترامب في الانتخابات النصفية الأميركية"، مجلة أوريان ٢١ orientxxi.info، 28 يونيو 2022.

وخصوصًا في صفوف الشباب الديمقراطيين، ومشيرًا أيضًا إلى تزايد شعبية حملات مقاطعة إسرائيل بين الشباب [(1)].

ويبدو أن سيبليل محقّ في مخاوفه، فمعظم اليهود في أميركا لا يكترثون للدين ولا للنبوءات التوراتية، إذ كشفت دراسة لمركز "بيو" في عام 2018 أن 45% من اليهود الأميركيين مدرجون في الشريحتين الأقل تدينًا: وهما "مقاوموا الدين": الذين يؤمنون بوجود إله ولكن لديهم وجهات نظر سلبية عن الدين، أو "علمانيون بقوة": الذين يؤمنون بالإله ولا يعرّفون أنفسهم كمتدينين، أما الذين يمارسون الطقوس الدينية فلا تزيد نسبتهم عن 21% [(2)].

وعلى سبيل المثال، كان بوش الابن يتبنى مشروع المسيحية المتصهينة كما أسلفنا، ومع ذلك لم يكن هو المفضل لدى الناخبين اليهود الأميركيين، ففي الانتخابات الرئاسية عام 2000 كانت نسبة مؤيديه من الإيفانجيليين 68% مقابل 19% فقط من اليهود، وفي الانتخابات التالية عام 2004 التي فاز بها أيضًا أيده 78% من الإيفانجيليين مقابل 25% من اليهود [(3)]، أي أن أكثر من ثلاثة أرباع اليهود في الفترتين كانوا يؤيدون مرشح الحزب الديمقراطي ومشروعه الليبرالي.

وفي دولة إسرائيل نفسها، تبلغ نسبة اليهود الحريديم المتدينين إلى إجمالي السكان 13.6% فقط، بحسب الإحصاءات الرسمية في 2018 [(4)]، وهذه الأقلية هي التي تطالب بدولة دينية يحكمها رجال الدين لتحقيق حلم خروج المسيح (الماشيّح).

---

(1) المرجع السابق.

(2) "حوالي نصف اليهود الأميركيين لا ينتمون إلى ديانة منظّمة"، صحيفة تايمز أوف إسرائيل ar.timesofisrael.com، 30 أغسطس 2018.

(3) "Religion and the Presidential Vote", pewresearch.org, 6 December 2004.

(4) ICBS 2018 Survey, p. 82.

وإذا كان اليهود عمومًا -وشبابهم خصوصًا- أكثر ميلًا إلى الأفكار اليسارية الليبرالية، فمن غير المستغرَب أن اليمين الإيفانجيلي المهووس بنبوءات آخر الزمان لم يعد يحظى بالشعبية التي بناها في عصره الذهبي خلال السبعينات والثمانينات بين جمهوره المسيحي.

تشير الإحصاءات إلى أن أتباع "البروتستانتية الرئيسية" (Mainline Protestant) كانوا يشكّلون أكثر من نصف سكان الولايات المتحدة حتى أوائل الستينات، وكانوا يمثلون مع الروم الكاثوليك والمعمدانيين الجنوبيين ما يزيد عن 80% من الأميركيين [1]، ما يعني أن الأصوليين كانوا قلة آنذاك، لكن هذه النسب تغيّرت بسبب انخفاض معدلات الولادة لدى البروتستانت الرئيسيين (الحداثيين)، ولأن هذه العائلات لم تعد تربي أطفالها تربية كنسيّة كما في السابق، أما الأصوليون -بما فيهم الإيفانجيليون- فكانوا أكثر إنجابًا للأطفال وأكثر حرصًا على نقل عقائدهم وثقافتهم للأجيال الشابة، حتى ظهرت قوتهم بوضوح في الثمانينات مع وصول وزنهم الديمغرافي إلى حوالي ربع السكان في الولايات المتحدة، لكن هذا الصعود لم يستمر طويلًا.

وفي يوليو 2021، صدرت دراسة مهمة للمعهد العام لأبحاث الأديان (PRRI) في الولايات المتحدة، وجاء فيه أن نسبة الذين يُعرّفون أنفسهم كمسيحيين إيفانجيليين انخفضت من 23% من إجمالي السكان في عام 2006 إلى 14% فقط في عام 2020، وهو انخفاض كبير للغاية خلال فترة قصيرة، أما نسبة البروتستانت الرئيسيين فارتفعت قليلًا من 13% إلى 16.4% من السكان خلال

---

(1) Tara Isabella Burton, "Why this shrinking religious group might be among America's last swing voters", vox.com, 5 Nov 2018.

الفترة نفسها [1]. وعندما نقارن هذه الإحصاءات بما كان عليه وضع المسيحية في أميركا فالوضع يبدو كارثيًا على كل الأصعدة، إذ أصبح الملحدون واللادينيون يمثلون نصف المجتمع، بينما يتوزع بقية أتباع الكنائس المتصارعة على النصف الآخر، مع أن نسبة الملحدين لم تكن تذكر في الستينات.

من ناحية أخرى، ارتبطت البروتستانتية الإيفانجيلية تاريخيًا بالأغلبية البيضاء للولايات المتحدة، لكن البلاد أصبحت أكثر تنوعًا الآن، فوفقًا لبيانات مكتب الإحصاء الأميركي في عام 1980، كان البيض يشكلون ما يقرب من 80% من السكان، أما اليوم فيقترب هذا الرقم من 60% فقط، ومن المحتمل أن ينخفض أكثر في المستقبل القريب، فمنذ عام 2010 شكلت الأقليات العرقية والإثنية كل النمو السكاني في البلاد تقريبًا [2]، وهذا يزيد من حنق اليمين المتطرف، سواء كان متدينًا إيفانجيليًا أو قوميًا عنصريًا، فبعضهم صار يؤمن بنظرية المؤامرة "الاستبدال العظيم" التي تتهم النخب الليبرالية المتحكّمة بأنها تسعى لتحويل البيض إلى أقلية مستضعفة في البلاد.

في عام 2016، أصدر المؤسس والرئيس التنفيذي للمعهد العام لأبحاث الأديان روبرت جونز كتابًا بعنوان "نهاية أميركا المسيحية البيضاء" (The End of White Christian America)، وتتبع فيه تلاشي الملامح العرقية والدينية للثقافة التي شكلت وجه أميركا الحضاري منذ نحو ثلاثة قرون، حيث لم تعد هناك لغة مشتركة للمجتمع عندما كان متجانسًا كما في الماضي [3].

---

(1) Bill McKibben, "The Unlikely Rebound of Mainline Protestantism", newyorker.com, 16 July 2021.

(2) Steven M. Gillon, washingtonpost.com.

(3) Tara Isabella Burton, "The age of white Christian America is ending. Here's how it got there", vox.com, 18 Jul 2017.

يقول جونز إن "البروتستانتية الرئيسية" -التي كانت تشكل ثقافة أميركا وتمثل غالبية سكانها- خسرت شعبيتها أمام صعود كل من العلمانيين والإيفانجيليين، حيث اصطدم الطرفان في الحروب الثقافية خلال الثمانينات والتسعينات، مما أفسح الطريق لبعض التحولات الدائمة في الثقافة الأميركية. إذ أصبح معظم الأميركيين المسيحيين الآن يدعمون زواج المثليين، ويتزايد هذا الدعم أيضًا تدريجيًا بين الإيفانجيليين الشباب أنفسهم، وهو تغير غير مسبوق في تاريخ المسيحية كلها (1).

وكي نفهم نتائج مشاريع العلمنة الهائلة التي اخترقت كنائس "البروتستانتية الرئيسية"، فقد أصبحت كل الكنائس التابعة لهذا التيار تقريبًا تؤمن بالمساواة بين الجنسين وتقبل ترسيم النساء في صفوف الكهنة، كما انضمت كل من الكنيسة الأسقفية (TEC) والكنيسة المشيخية الأميركية (PCUSA) والجمعية العالمية التوحيدية (UUA) وكنيسة المسيح المتحدة (UCC) إلى "التحالف الديني من أجل اختيار الإنجاب" (RCRC)، وهو تحالف تأسس في 1973 على يد مسيحيين وعلمانيين لتأييد الإجهاض، بينما تقدم الكنيسة الميثودية المتحدة (UMC) والكنيسة الإيفانجيلية اللوثرية في أميركا (ELCA) دعمًا مشروطًا للإجهاض. أما الكنائس التي أصبحت تقبل بزواج المثليين أو حتى تباركه فتشمل كلًا من جمعية الأصدقاء (Quaker) وكنيسة "ELCA" وكنيسة "UUA" وكنيسة "UCC" إضافة إلى كنائس كبرى في كندا. ومع أن الكنائس المعمدانية الأميركية لا تبارك زواج المثليين لكنها تسمح لهم باتخاذ هذا القرار، بينما قطعت كنيسة "UMC" شوطًا أكبر وقبلت في 2016 بانتخاب امرأة مثلية في منصب أسقف (2)، كما تقبل معظم الكنائس المذكورة بتنصيب قساوسة متحولين جنسيًا، ما يعني

---

(1) Ibid.

(2) Kathy L. Gilbert, "Western Jurisdiction elects openly gay United Methodist bishop", umc.org, 15 July 2016.

أن الأجندات الليبرالية العلمانية كسبت المعركة في النهاية، بينما لم يبق من "البروتستانتية الرئيسية" سوى محاولة الإبقاء على إيمان أتباعها بوجود الرب ودوره في الخلاص.

وكي ننظر من زاوية أعلى للتغير السريع في المجتمع الأميركي بشكل عام، ففي عام 2004 أقر الرئيس جورج بوش الابن تعديلاً دستوريًا يشدد على أن الزواج لا يكون إلا بين رجل وامرأة، إذ كان 60% من الأميركيين يساندونه ويعارضون زواج المثليين، في مقابل 31% من مؤيدي هذا الزواج. وبعد 15 سنة فقط، أي بحلول عام 2019، انقلبت هذه الأرقام، حيث أيد 61% زواج المثليين وعارضه 31% فقط (1).

اندمجت أميركا في قوانين العولمة التي كان يُفترض أن تكون سلاحًا بيد القوة العظمى لفرض ثقافتها على العالم، لكن ثقافتها هي نفسها أصبحت مهددة بالتلاشي، وبسرعة قياسية تثير غضب المحافظين وحنقهم. فمعظم شعارات الخصوصية الثقافية التي شكّلت العقلية الأميركية للإيفانجيليين البيض انهزمت أمام قيم التعددية لليسار الليبرالي، ومعظم الصروح الكنسية والإمبراطوريات الإعلامية والثقافية التي بنيت على يد الآباء المسيحيين بكل طوائفهم لم تعد تمثل في نظر معظم أبناء الجيل الجديد سوى تراث عفى عليه الزمن، أما قصص آخر الزمان التي ألهبت حماس ملايين الشباب قبل عقود قليلة فقط فلم تعد اليوم قادرة على منافسة قصص الأبطال الخارقين في السينما وألعاب الفيديو.

(1) Steven M. Gillon, washingtonpost.com.

أميركا اللادينية.. جدل الهوية ومخاوف الانقسام مع انحسار التدين

يبدي الصحفيون والباحثون الاجتماعيون اهتمامًا لافتًا بالتحول السريع في المجتمع الأميركي، فتراجع اهتمام الشباب بالتدين والمسيحية يثير مخاوف البعض من تغيّر وجه البلاد، وقد يفاقم أزمة الانقسام السياسي.

ومع أن هذه الظاهرة باتت شائعة في شتى أنحاء العالم -خصوصًا في الغرب- فإنها تبدو أكثر حدة في بلاد لطالما تغلغل الدين في هويتها منذ بدء تشكّل الأمة.

شهد الغرب في القرن العشرين هزّات كبرى كادت تعصف بالكثير من الثوابت والقيم الأخلاقية، ولا سيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية التي تركت أسئلة مؤلمة عن جدوى الحضارة ومعنى الحياة.

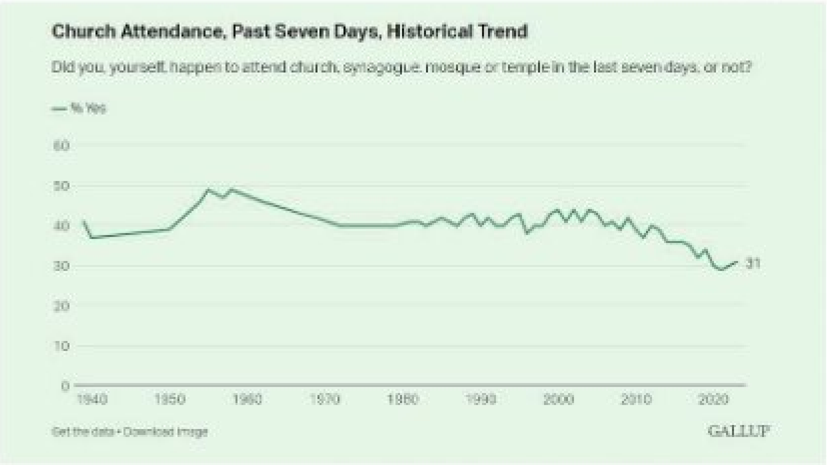
وبينما كان الناجون من الإبادة في أوروبا منشغلين بإعادة الإعمار كان آلاف الشباب في أميركا يرفعون راية التمرد ويشكلون جماعات "الهيبيز" الرافضة للدين والحضارة.

ومع ذلك، سرعان ما استعادت أميركا هويّتها الدينية، إذ لم يتقبل المجتمع حركات التمرد العدمية، كما لعبت الكثير من مؤسسات السلطة والإعلام دورًا في الحد من انتشارها، فيما أخذت الكنائس البروتستانتية زمام المبادرة.

فبالتوازي مع "الثورة الجنسية"، التي بلغت أوجّها في ستينات القرن العشرين، كان تحالف الكنائس الإنجيلية البروتستانتية يؤسس حركة كبرى تحت مسمى "الأغلبية الأخلاقية" بقيادة القس جيري فالويل، والتي نجحت في

إحياء قيم الأسرة من جديد، وأصبحت رقمًا صعبًا في كل الحملات الانتخابية للرؤساء وأعضاء الكونغرس (1).

وكانت مؤسسة غالوب قد نشرت في يونيو 2023 دراسة مفصلة لمقارنة إقبال الأميركيين على المعابد -بما يشمل الكنائس والمساجد والكُنس اليهودية ومعابد الأديان الأخرى- منذ الأربعينات، وأوضحت الدراسة بالرسم البياني أن عقد الخمسينات كان الفترة الأكثر إقبالًا على المعابد، ثم انخفض الإقبال في الستينات والخمسينات، ليعود إلى التحسن المتذبذب في الثمانينات والتسعينات، ثم يتجه المنحنى منذ منتصف العقد الأول من الألفية الجديدة نحو الهبوط (2).



وفي تقرير لمجلة أتلانتيك، يقول الأستاذ بجامعة كاليفورنيا سانتا باربرا جوزيف بلانكهولم إن عقد الخمسينات كان الأكثر تدينًا على الإطلاق في أميركا، حيث أصبح شعار "بالله نؤمن" آنذاك شعارًا وطنيًا رسميًا، كما أضيفت عبارة

(1) "Moral Majority: American organization", Encyclopædia Britannica.

(2) Jeffrey M. Jones, "U.S. Church Attendance Still Lower Than Pre-Pandemic", news.gallup.com, 26 June 2023.

"الله شاهدي" إلى قسم الولاء. ولطالما استمر تشكيل هذه الهويّة الدينية على يد رؤساء مثل هاري ترومان ودوايت آيزنهاور، حيث كانوا يروّجون للهوية المسيحية في داخل أميركا وخارجها لمواجهة المدّ الشيوعي الملحد، ما يعني أن المسيحية كانت إحدى أدوات الحرب الباردة (1).

لكن هذا الواقع تغيّر كثيرًا في السنوات الأخيرة، فبعدما كان أنصار منظمة "الأغلبية الأخلاقية" (2) يجوبون الشوارع في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي، وهم يرفعون لافتات تندد بالجنس خارج إطار الزواج أصبحت مسيرات المثليين والمتحولين الحاشدة هي التي تملأ شوارع أميركا اليوم، من دون أن تثير الاستنكار الذي كان معهودًا في الجيل السابق.

ومن مظاهر هذا التغيير وقوف إدارة الرئيس الأميركي جو بايدن بقوة وراء التغييرات الاجتماعية التي تتحدى الثوابت المسيحية، مثل التغريدة التي نشرها بايدن في مارس/آذار 2022 وجاء فيها أن "المتحولين جنسيًا خُلقوا على صورة الرب"، وأعقبها إصداره في ديسمبر 2022 قانون "احترام الزواج" الذي يفرض على المجتمع احترام زواج المثليين وليس الاكتفاء بتقنينه.

هذه المواقف ما كان ليجرؤ عليها أي رئيس أميركي قبل عشرين عامًا، بل لم يكن بايدن نفسه مؤيدًا لها عندما كان عضوًا في الكونغرس في التسعينات، ولو حدثت آنذاك كانت ستثير موجة من الاحتجاج والرفض الشعبي، لكن المجتمع نفسه تغيّر الآن.

---

(1) Sigal Samuel, "Atheists Are Sometimes More Religious Than Christians", www.theatlantic.com, 31 May 2018.

(2) سبق الحديث عن خلفية هذه المنظمة ونشاطها في فصل "المسيحية المتصهينة" من هذا الكتاب.

تفكك وانقسام

في أواخر أكتوبر/تشرين الأول 2021، أصدرت مبادرة "مجتمعات الإيمان اليوم" (FACT) وجامعة هارتفورد لأبحاث الدين في الولايات المتحدة تقريرًا بعنوان "20 عامًا من التغيير الجماعي"، وهو أكبر مسح أجري في الولايات المتحدة للجماعات الدينية (1).

سعى الباحثون في هذه الدراسة إلى تعقب الاتجاهات في المشهد الديني الأميركي منذ عام 2000، وشملت دراستهم أكثر من 15 ألف جماعة دينية تنتمي لنحو 80 طائفة.

ومن أهم نتائج الدراسة توقع الباحثون أن 30% من الجماعات الدينية في الولايات المتحدة لن تبقى على قيد الحياة في السنوات العشرين القادمة.

وفي مطلع 2023، نشرت مجلة أتلانتيك مقالًا مشتركًا لويندي كيدج البروفيسورة في علم الاجتماع بجامعة برانديز، وإيلان بابشوك نائب رئيس المركز اليهودي القومي للتعلم والقيادة، وأقرَّا في بدايته بما جاء في دراسة هارتفورد، وأن جولة بالسيارة في أي مدينة كبرى بالولايات المتحدة تكفي لاكتشاف تزايد عدد الكنائس المعروضة للبيع بسبب غياب المصلين حتى صارت تباع أكثر من المنازل (2).

ويستشهد الكاتبان المتدينان أيضًا بكتاب روبرت دي بوتنام وديفيد إي كامبل الصادر عام 2010 بعنوان "النعمة الأميركية.. كيف يفرقنا الدين ويوحدنا؟"، إذ جاء فيه أن المجتمع الأميركي فقد الكثير من أواصره الاجتماعية بتخليه عن دور العبادة، ففي الأجيال السابقة كانت العائلة تعثر على أصدقاء

---

(1) FACT 2020 Survey Results, www.faithcommunitiestoday.org.

(2) Wendy Cadge and Elan Babchuck, "American Religion Is Not Dead Yet", theatlantic.com, 16 January 2023.

جدد فور انتقالها إلى منزل جديد من خلال حلقات التعارف في أقرب دار للعبادة، وإذا أصيب شخص بمرض ما سرعان ما يتكاتف زملاؤه المتدينون لرعايته والدعاء له، لكن هذه العادات أصبحت نادرة اليوم.

وبالإضافة إلى الأواصر الاجتماعية التي يبنيها الانتماء الديني يعطي الدين معنى للحياة ويجيب عن الأسئلة الوجودية، ويحفز أتباعه على المشاركة في بناء مجتمع أكثر عدلًا ولطفًا وحبًا، كما يقول الكاتبان.

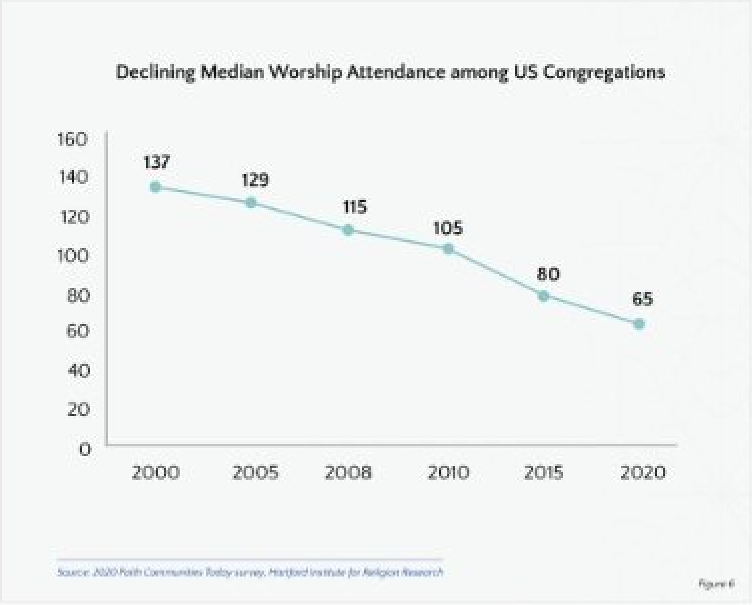
ويحث الكاتبان في مقالهما -الذي يحمل عنوان "الدين الأميركي لم يمت بعد"- على استعادة هذا الدور للدين في مجتمع أصبح "أكثر فردانية، وأكثر انقسامًا، وأقل أملًا، وأقل ثقة مما كان عليه في العقود السابقة"، وذلك بغض النظر عن الدور الأهم للإيمان وهو الفلاح في الآخرة.

وقبل سنتين ونصف كتبت ويندي كيدج مقالًا آخر عن "صعود القساوسة" (1)، وكانت آنذاك متفائلة للغاية مع ازدياد نشاط رجال الدين في ذروة اجتياح فيروس كورونا، إذ لعب الدين حينها دوره التقليدي في بث الأمل واستعادة معنى الحياة، لكن هذا النشاط سرعان ما انحسر مع انحسار الوباء، وانقلب التفاؤل إلى نقيضه كما يبدو من مقال الكاتبة.

من جهة أخرى، نشرت شبكة NPR الإعلامية الأميركية تقريرًا في مايو 2023 عن أزمة الكنائس في البلاد، واستشهدت أيضًا بالمسح الإحصائي الذي أعدته جامعة هارتفورد، والذي جاء في أحد بنوده أن معدّل حضور الصلوات في الكنائس انخفض من 137 شخصًا في عام 2000 إلى 65 شخصًا فقط في عام 2020، أي إلى أقل من النصف خلال عقدين. وعلّق أستاذ العلوم السياسية بجامعة إلينوي الشرقية ريان بيرج على هذا "التحول الزلزالي" في المشهد الديني

(1) Wendy Cadge, "The Rise of the Chaplains", theatlantic.com, 17 May 2020.

بأنه نتيجة للارتفاع الحاد لعدد الشباب الأميركيين الذين باتوا يصنفون أنفسهم في خانة "لا شيء" (nones) عندما يُسألون عن دينهم.



وكان بيرج قد ألّف كتابًا بعنوان "فئة اللا شيء: من أين أتوا؟ من هم؟ وإلى أين يذهبون؟"، وقال في التقرير إن نسبة فئة "اللا شيء" بين جيل ما يسمى بطفرة المواليد -وهم الذين وُلدوا ما بين نهاية الحرب العالمية الثانية ومنتصف الستينات- كانت تبلغ نحو 20% من أبناء جيلهم، أما فئة "اللا شيء" من أبناء جيل زد (Gen Z) -وهم مواليد ما بعد منتصف التسعينات- فتصل نسبتها إلى 45%، أي أن حوالي نصف الشباب في أميركا اليوم لا دينيون، ما يدفع بيرج للاعتقاد بأن حوالي ثلث التجمعات المسيحية في البلاد البالغ عددها 350 ألفًا "على شفا الانقراض"(1).

(1) Scott Neuman, "The faithful see both crisis and opportunity as churches close across the country", npr.org, 17 May 2023.

ويحذر التقرير من الآثار الاجتماعية الكارثية التي ستعقب هذا التحول بعيدًا عن الدين، فيقول مراسل خدمة أخبار الدين بوب سميتانا إنه يشعر بالقلق مع التبخر المفاجئ للخدمات المجتمعية التي كانت الكنائس تقدمها ذات يوم، مثل بنوك الطعام، ومساعدة المراهقين المضطربين، وعلاج الإدمان، وغيرها من البرامج، لا سيما أن الولايات المتحدة لم تشكّل أنظمة قوية لشبكات الأمان الاجتماعي كما فعلت معظم الدول الأوروبية، بل كانت تترك الكثير من هذه المهام للكنائس والمؤسسات الدينية.

ويستعرض التقرير أيضًا قصصًا لعرض كنائس تاريخية للبيع، وخصوصًا في المدن الكبرى، وكيف يتحول المزيد منها إلى عقارات سكنية وتجارية، بينما تبقى الكنائس في المدن الصغيرة والأرياف فارغة من المصلين ولا تغري أحدًا بشرائها.



صورة تعود إلى 2015 ويظهر فيها ضباط أميركيون ينقلون تبرعات غذائية لإحدى الكنائس الكاثوليكية في هاواي (Adam Korolev, wikimedia)

اليأس والانتحار

في منتصف 2020، أظهرت دراسة صادرة عن جامعة هارفارد الأميركية أن الأشخاص الذين يحضرون الشعائر الدينية في المعابد مرة واحدة على الأقل أسبوعيًا هم أقل عرضة للتعرض لما يسمى "وفيات اليأس" بنسبة 68% من غيرهم. ويُقصد بذلك الوفيات المرتبطة بالانتحار والجرعة الزائدة من المخدرات والتسمم الكحولي (1).

وفي مطلع عام 2023، تداولت وسائل الإعلام الأميركية تفاصيل دراسة جديدة تؤكد النتيجة نفسها، وهي صادرة عن عن المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية التابع لجامعة كامبردج في ماساشوستس، وجاء فيها أن تدهور التدين في المجتمع ليس سيئًا فحسب، بل هو "مميت" حرفيًا، فانعدام الشعور بالمعنى كان سببًا رئيسًا لتزايد نسبة الوفيات الناجمة عن إدمان الخمور والمخدرات والانتحار، وهذا ناتج -بحسب الدراسة- عن تراجع الممارسة الدينية (2).

وقال القائمون على الدراسة إن المواظبة على حضور الصلوات في الكنيسة تمنح صاحبها شعورًا بالانتماء، ومنذ تفكيك هذا التقليد الاجتماعي على نطاق واسع في الثقافة الأميركية لم تظهر أي مؤسسة أخرى تقدّم بديلًا حقيقيًا.

وتعليقًا على الدراسة، نشر موقع ميركاتور الأسترالي مقالًا للكاتب مايكل كوك بعنوان "أعد إلي ذلك الدين القديم.. هل حمى الدين الأميركيين من اليأس؟" (3)،

---

(1) "Regularly attending religious services associated with lower risk of deaths of despair", hsph.harvard.edu, 6 May 2020.

(2) Leonardo Blair, "Decline in church attendance drove deaths of despair among middle-aged white population: study", christianpost.com, 19 January 2023.

(3) Michael Cook, "'Gimme that old time religion': did it protect Americans from deaths of despair?", mercatornet.com, 18 January 2023.

وقال فيه إن جيل الألفية هو أول جيل في تاريخ الولايات المتحدة الذي سيكون المسيحيون فيه أقلية، ففي عام 2070 سيكون أقل من ثلث الأميركيين فقط مسيحيين، وفقًا لدراسة أجراها "مركز بيو للدراسات" (Pew Research Center).

وطالب الكاتب المنظّرين العلمانيين بالتريّث قبل التصفيق لانحسار المظاهر الدينية في الفضاء العام بالولايات المتحدة، مشددًا على أن حضور دور العبادة يحمي الضعفاء من العواقب المدمرة للعزلة الاجتماعية والاغتراب وغياب المعنى، وحتى الموت.

وبعد شهر من نشر المقال السابق، نشرت مجلة إيكونوميست أيضًا تقريرًا يستند إلى دراسات أخرى، تؤكد أن مشاركة المرضى النفسيين بالأنشطة الدينية تقلل من نسب الوفيات بدافع اليأس، سواء بالانتحار أو بالإفراط في تعاطي المخدرات (1).

هوية المجتمع

لا يمكن اعتبار التحذيرات السابقة ضربًا من المبالغة، فالتبدّل الحاصل في بنية المجتمع الأميركي يقلق بعض المراقبين من أطياف وتوجهات مختلفة.

ومع أن الولايات المتحدة أقيمت منذ نشأتها على أساس دستوري علماني فإن الحضور الديني للعقيدة البروتستانتية كان متجذرًا في الهوية الأميركية طوال تاريخها، فبالتوازي مع انحسار التدين في معظم أنحاء أوروبا خلال القرن العشرين ظلت نسبة التزام الأميركيين بزيارة الكنيسة تدور حول 70% طوال القرن، لكن الانهيار بدأ تقريبا في مطلع الألفية الجديدة، وأخذ في التسارع

(1) "Places with high religious participation have fewer deaths of despair", economist.com, 27 February 2023.

خلال عقدين، لتهبط مؤخرًا نسبة المؤمنين إلى أقل من 50% للمرة الأولى في تاريخ البلاد.

وفي أغسطس 2020، أكدت دراسة نشرت في مجلة "فورين أفيرز" (Foreign Affairs) الحجم والسرعة الهائلين لهذا التغيير، وقالت إن الولايات المتحدة كانت بين عامي 1981 و2007 واحدة من أكثر دول العالم تدينًا، ثم سرعان ما صُنفت فجأة إحدى أكثر الدول ابتعادًا عن الدين (1).

وأشارت الدراسة نفسها -بحسب الباحث رونالد إنغلهارت- إلى أن التدين كان ينحسر خلال تلك الفترة في الدول التسعة والأربعين التي اختارها من أنحاء العالم لتحليل التغيرات في مجتمعاتها، لكن الانهيار المفاجئ بهذه السرعة العجيبة في جزء أصيل من مكونات هوية أقوى دولة في العالم هو أمر يستحق التوقف.

فعلى سبيل المثال، كانت العلمانية جزءًا أصيلًا من الهوية الفرنسية منذ نجاح الثورة في القرن الثامن عشر، وظل تراجع التدين في أوساط المجتمع الفرنسي يتزايد منذ ذلك الحين كما هو الحال في بقية الدول الغربية، لذا لا يبدو مستغربًا أن يفضل أكثر من 80% من الفرنسيين حظر العروض الدينية في الأماكن العامة، وفقا لدراسة نشرها معهد بروكينغز في فبراير/شباط 2020، لكن الشرائح العلمانية في الولايات المتحدة لطالما كانت تعتز بخلفيتها البروتستانتية باعتبارها مكونًا مهمًا لهويتها الوطنية.

الهوية الأميركية ارتبطت ثقافيًا باستعلاء البروتستانتية البيضاء، ولم تتخلص البلاد من ظاهرة الرق إلا بحرب أهلية طاحنة بين المؤيدين والمعارضين، كما ظل التمييز العنصري ضد السود راسخًا في القوانين حتى

---

(1) Ronald F. Inglehart, "Giving Up on God: The Global Decline of Religion", foreignaffairs.com, 11 August 2020.

ستينات القرن العشرين، وما زالت آثاره تلقي بظلالها على الحياة العامة حتى اليوم لكنه انتقل على الأقل من ساحة المفاخرة إلى خانة التجريم، أما تخلي الأجيال الشابة اليوم طواعية عن انتمائها الديني فيطرح أسئلة صعبة عما تبقى من هوية الأميركيين.

يقول الباحث الأميركي شادي حميد في مقال نشره بمجلة أتلانتيك في أبريل/نيسان 2021 إن أتباع أيديولوجيا اليقظة الذين يمثلون أقصى اليسار الليبرالي أعادوا تشكيل المفاهيم الدينية والطقوس المسيحية ووظفوها لتطبيق أيديولوجيتهم اللادينية، فالعلمانية أصبحت تتمتع بنفس القداسة والحماس، والمتعصبون لها يرفعون درجة التحدي إلى حد الصدام (1).

وفي المقابل، لا يبدو أتباع الجمهوريين من المحافظين واليمينيين متمسكين بهويتهم الدينية كما كان أجدادهم من قبل، فبالرغم من أن الرئيس السابق دونالد ترامب استقطب في خطابه الجمهور المتدين بصفته جمهوريًا محافظًا بطبيعة الحال فإن أغلبية أنصاره من اليمين المتطرف كانوا يرفعون رايات قومية وعرقية ووطنية أكثر من كونها مسيحية.

ومع تزايد الانقسام بين الجناحين لم يعد الدين المسيحي عنصرًا جامعًا للشتات الأميركي كما كان من قبل، وفي غياب صحوة دينية جديدة -كما يقول الباحث حميد- قد لا يتبقى أمام الأميركيين سوى السقوط في فخ الحرب الأهلية من جديد كما سقط الأوروبيون في أهوال حربين عالميتين، قبل أن يلوذوا بخطة إعادة التوحيد وتشكيل الاتحاد الأوروبي، وقد كُتبت عشرات المقالات والتحليلات في الصحف الأميركية عن مخاطر اندلاع حرب أهلية بالفعل أثناء حكم ترامب، ولا سيما في الأيام الأخيرة من حكمه عندما هاجم أنصاره مبنى الكونغرس بذريعة تزوير الانتخابات الرئاسية.

---

(1) Shadi Hamid, "America Without God", theatlantic.com, April 2021.

وفي سياق الرد، يطرح العلمانيون دائمًا معايير الإنسانوية لتقديم بديل أخلاقي عن الدين، وإذا كان تطبيق هذا البديل ناجحًا جزئيًا في حالة السلم والرخاء، فالمؤشرات تشكك في نجاحه عند الأزمات والحروب.

ففي مقال نشره موقع "حكمة الجماهير" (Wisdom Of Crowds) في سبتمبر/ أيلول 2020، يشكك الكاتب الأميركي مرتضى حسين [1] في جدوى الرؤى الإلحادية لإعادة ترويض الإنسان، فمع أن هذه الأحلام كانت تراود العديد من الملحدين النبلاء في الماضي فإن هناك احتمالات لواقع أكثر شؤمًا.

ويتساءل الكاتب: ما الذي يمنع اليسار اللاديني من اضطهاد خصومهم بنفس أدوات المتطرفين الدينيين، لا سيما أن اللادينية خالية أصلًا من الضوابط الدينية، كالرحمة والاعتراف بالضعف البشري؟

وفي مقال آخر للكاتبة هيلين لويس بمجلة أتلانتيك [2]، تقول إن الأميركيين أصبحوا يستخدمون نفس أدوات التعصب الديني في انقساماتهم السياسية، فالناشطون اليساريون الليبراليون يرفعون شعارات علمانية مؤدلجة ويحاكِمون الأخرين إليها كما يفعل المتدينون بالضبط.

وتضيف الكاتبة أن أيديولوجيا "العدالة الاجتماعية" التي يتمسك بها اليسار الليبرالي أصبحت دينًا قائمًا بذاته، فشعار الدفاع عن الأقليات - وخصوصًا ما يسمى بمجتمع الميم الذي يشم الشواذ والمتحولين جنسيًا- صار مفهومًا أكثر قداسة من كل ما جاءت به الأديان.

وفي الخلاصة، تحذّر الكاتبة -مستشهدةً بأقوال بعض رجال الدين- من

(1) Murtaza Hussain, "How the Death of Faith Will Hurt the Left", wisdomofcrowds.live, 15 September 2020.

(2) Helen Lewis, "How Social Justice Became a New Religion?", theatlantic.com, 18 August 2022.

صراع طائفي جديد في أميركا، ليس بين أتباع المذاهب الدينية المتصارعة كما كان في الماضي، بل بين أنصار "القبائل السياسية" الذين يزدادون تطرفًا في تعصبهم الأيديولوجي، حتى بعد انتقالهم إلى أقصى درجات العلمانية.

انحسار المسيحية.. أسئلة مصيرية
عن البدائل والهوية ومستقبل الحضارة الغربية

حفلت الصحف ومواقع التواصل والمنتديات الغربية في الأسابيع الأخيرة من عام 2022 بنقاش حاد عن أسباب وتداعيات انحسار الدين المسيحي في آخر معاقله، وذلك بعدما كشف إحصاء بريطاني للمرة الأولى عن هبوط نسبة معتنقيه في إنجلترا وويلز إلى أقل من نصف السكان، وهو أمر تكرر مؤخرًا في الولايات المتحدة، التي تعد من أكثر الدول الغربية محافظة، مما يسلط الضوء على التحولات العميقة في الثقافة الغربية والتي يرى بعض المنظّرين أنها ليست سوى مؤشر على اندثار "الحضارة المسيحية".

وكما أشرنا في فصل سابق، نشر مكتب الإحصاءات الوطني البريطاني في أواخر نوفمبر/تشرين الثاني 2022 نتيجة التعداد السكاني الذي يجريه كل عشر سنوات، وجاء فيه أن نسبة مَن يصفون أنفسهم بأنهم مسيحيون في إنجلترا وويلز لا تتجاوز 46.2%، مقارنة بنسبة 59.3% التي سجلت في التعداد السكاني السابق في عام 2011، وهو انخفاض كبير في غضون عقد واحد فقط [1].

وبعد إعلان هذه الأرقام، أقر رئيس الأساقفة يورك ستيفن كوتريل بالتحول الكبير الذي طرأ على بلاده، وقال إن بريطانيا "تركت وراءها حقبة كان يُعرف فيها كثير من الناس بشكل تلقائي تقريبًا على أنهم مسيحيون"، معتبرا أن هذا لا يشكل مفاجأة له لكنه يطرح تحديًا كبيرًا، وفقا لما نقلته شبكة "بي بي سي" (BBC) [2].

---

(1) "تراجع غير مسبوق في أعداد المسيحيين في إنجلترا وويلز"، موقع بي بي سي عربي، 29 نوفمبر 2022.

(2) المرجع السابق.

وفي سبتمبر/أيلول 2022، كشف استطلاع واسع أجراه "مركز بيو للدراسات" (Pew Research Center) عن تخلي أعداد كبيرة من الأميركيين عن المسيحية في الأجيال الشابة، فحتى العام 2019 قُدّر أن 31% من الذين نشؤوا على المسيحية تخلّوا عنها بين سن 15 و29 عاما، في حين تخلى عنها قرابة 7% ممن تجاوزوا سن الثلاثين (1).

ولبيان حجم التحولات، تشير الدراسة التي نشرها مركز بيو إلى أن حوالي 90% من البالغين في الولايات المتحدة كانوا يعدّون أنفسهم مسيحيين أوائل التسعينات من القرن الماضي.

وكان المركز نفسه قد نشر دراسة عام 2019 أشار فيها إلى أن التديّن في الولايات المتحدة في تراجع حاد، كما أشار استطلاع للرأي أجري في عام 2017 إلى أن متوسط تقدير الأميركيين لأهمية الرب في حياتهم انخفض خلال عشر سنوات فقط من 8.2 نقاط على مقياس من 10 نقاط إلى 4.6 نقاط.

وفي عام 2020، أجرت المنظمة المسيحية غير الربحية "ليغونير مينيستريز" (Ligonier Ministries) استطلاعًا للرأي جاء فيه أن 52% من البالغين الأميركيين يقولون إنهم يعتقدون أن "يسوع" المسيح ليس إلهًا، بل كان معلمًا عظيمًا فقط، وهو اعتقاد يتعارض مع أهم أركان المسيحية (2).

كما أجرت مؤسسة غالوب استطلاعًا بين الأميركيين في منتصف 2023، وقالت فيه إنه بالرغم من عودة الاهتمام بالدين خلال فترة وباء كورونا، أي ما بين 2020 و2022، لكن مستويات الحضور للكنائس سرعان ما عادت

---

(1) "Modeling the Future of Religion in America", pewresearch.org, 13 September 2022.

(2) "52 Percent of Americans Say Jesus Isn't God but Was a Great Teacher", newsweek.com, 30 Aug 2020.

للانخفاض بعد انتهاء الجائحة، إذ انخفضت هذه المستويات بنحو 10 نقاط مئوية عما كانت عليه في عام 2012 (1).

وفي كندا، تبدو نسب التحولات متقاربة أيضًا، إذ انخفضت نسبة المسيحيين في البلاد من حوالي 77% عام 2001، إلى 67% في عام 2011، ثم إلى 53% فقط في 2021، في حين ارتفعت نسبة الذين لا يؤمنون بأي دين من 16.5% إلى 23.9% ووصولًا إلى 34.6% في الأعوام الثلاثة على التوالي.

وفي أواخر يوليو/تموز 2018، نشرت صحيفة "نيويورك تايمز" (The New York Times) تقريرًا مطولًا عن تحول الكنائس التاريخية في كندا إلى مسارح ونوادٍ رياضية، وذكرت أن نسبة المسيحيين الذين كانوا يحرصون على حضور الصلاة كل أحد في الكنائس من سكان مقاطعة كيبيك في عقد الخمسينات من القرن الماضي كانت تبلغ 95%، أما اليوم فلا تكاد هذه النسبة تزيد عن 5% فقط، مما يعني أنه حتى في حال إقرار نصف السكان بأنهم ما زالوا مسيحيين فإن معظمهم قد تخلى عن الالتزام بشعائر هذا الدين (2).

وبالرغم مما تكشفه الإحصاءات عن تراجع المسيحية، فإن مصادر بحثية وتبشيرية عدة تتفاءل بتزايد الإقبال على الكنائس في مناطق أخرى، ففي عدد صادر بنهاية 2022 من مجلة "المسيحية اليوم" (Christianity Today) رصد تقرير بعنوان "هل تعيش أوروبا مرحلة ما بعد المسيحية أم ما قبل النهوض؟" جهود المبشرين في إسبانيا والبرتغال، وأكد على تزايد وتيرة افتتاح الكنائس في فرنسا وبريطانيا (3).

---

(1) Ibid, U.S. Church Attendance Still Lower Than Pre-Pandemic.

(2) Dan Bilefsky, "Where Churches Have Become Temples of Cheese, Fitness and Eroticism", nytimes.com, 30 July 2018

(3) Sarah Breuel, "Is Europe Post-Christian or Pre-Revival?", christianitytoday.com, 6 December 2022.

سلّط التقرير الضوء أيضًا على فعاليات ومؤتمرات وإرساليات تبشيرية عدة في أنحاء أوروبا، ولا سيما في أوروبا الشرقية، ووصولًا إلى أفريقيا والصين، ولكنه لم يقدّم نظرة شاملة للمقارنة بين أعداد الكنائس الجديدة وبين تلك التي تغلق أبوابها وتتحول إلى مرافق أخرى، فجميع الاستطلاعات تؤكد أن نسبة معتنقي المسيحية أو المتمسّكين بشعائرها تتراجع باستمرار في العقود الثلاثة الأخيرة، وبنسبة أكثر حدة في العقد الأخير، وهذه حقائق لا يمكن دحضها بالاكتفاء بتسليط الضوء على الفعاليات التبشيرية التي ما زالت قائمة.

البديل الإنسانوي

في أواخر أغسطس/آب 2021، انتخبت منظمة "جامعة هارفارد للقساوسة" الملحد من أصل يهودي غريغ إبستين رئيسًا للقساوسة في المجتمع الديني بأهم جامعة في العالم، بحيث يتولى إبستين التنسيق بين عشرات القساوسة العاملين في الجامعة، مما أثار جدلًا في وسائل الإعلام عن التحولات الطارئة على المسيحية في الولايات المتحدة، بحيث أصبحت تراثًا ثقافيًا أكثر من كونها دينًا (1).

واللافت أن رئيس القساوسة الجديد ليس ملحدًا فحسب، بل هو ناشط في ما يسمى بالحركة الإنسانوية، والتي تطرح بديلًا للدين يجعل من الإنسان إلهًا مستقلًا بذاته، وقد طرح إبستين أفكاره في كتاب بعنوان "الخير من دون إله"، وذلك قبل أن يُختار لذاك المنصب!

ويحرص المزيد من الملاحدة واللادينيين أيضًا على تقديم أنفسهم في صورة "الإنسانيين"، فبعدما عجزت حركة "الإلحاد الجديد" -التي صعدت في الغرب ببداية القرن الحالي- عن تقديم بديل مادي متماسك للأديان، يحاول

(1) "Humanist Chaplain Greg Epstein Elected President of University Chaplains' Organization", thecrimson.com, 2 September 2021.

الخارجون من المسيحية التمسك بموقف وسط بين الروحانية والمادية، بحيث لا يتخلّون جملة واحدة عن المنظومة الأخلاقية التي نشؤوا عليها في ظل الدين، لكن هذه المنظومة تحصر مفهوم "الخير" في عدم إيذاء الآخرين، وتبقى أسيرة العقلية الفردانية الليبرالية التي ترى أن من حق الفرد الاستمتاع بالجنس على الطريقة التي يحبها، وأن من حق المرأة إجهاض الجنين الذي تحمله، ففي غياب التشريع الديني تنقلب الأخلاق إلى نقيضها في هذه المسائل.

وفي منتصف 2018، نشر مركز بيو نتائج استطلاع للرأي شمل 15 دولة في أوروبا الغربية [1]، وكشف أن نحو 55% من مواطنيها يعتبرون أنفسهم مسيحيين غير ممارسين (أي لا يحضرون إلى الكنائس)، في مقابل 18% فقط من المسيحيين الممارسين، أما البقية فملحدون ولادينيون. وبحسب الدراسة، فإن نصف المسيحيين غير الممارسين يؤمنون بوجود قوة روحية عليا (أي لديهم تصوّر خاص للإله)، كما يؤمن ربع آخر من هذه الفئة بالإله المذكور في الإنجيل حتى لو كانوا لا يصلّون له في الكنيسة. بل يؤمن 28% من اللادينيين أنفسهم بوجود القوة العليا.

وبالمجمل، تبلغ نسبة إجمالي من يؤمنون بإله الإنجيل أو قوة روحية عليا 65%، ما يعني أن الملحدين المنكرين لوجود أي إله أو غيبيات بالمطلق يشكّلون ثلث سكان أوروبا الغربية تقريبًا.

واستنتج الباحثون أن غالبية الأوروبيين ما زالوا متدينين بشكل ما، فحتى مع تخلي معظمهم عن المسيحية، أو عن شعائرها على الأقل، وحتى لو لم يترك الإنجيل أي أثر في حياتهم، فما زالت لديهم قناعة بوجود بُعد روحي للعالم [2].

ومع أن هذا الاستنتاج صحيح، لكن التخلي عن الالتزام بأي شعائر أو

(1) "Being Christian in Western Europe", pewresearch.org, 29 May 2018.

(2) المرجع السابق.

تشريع ديني قد يكون أكثر أهمية من ناحية أثر التدين على الواقع. فبحسب الدراسة نفسها، يتضح أن المسيحيين غير الممارسين يتفقون مع الملحدين واللادينيين في كل آرائهم الاجتماعية تقريبًا، وعلى رأسها قضايا الإجهاض وزواج المثليين.

ولمزيد من التوضيح، نشرت مجلة "إيكونوميست" في 2018 تقريرًا عن "كنائس الملحدين" التي يزداد انتشارها في أميركا (1)، وهي تقدّم بديلًا متكاملًا لكنائس المسيحيين، بحيث يجد فيها الأعضاء كل ما يحتاجون إليه من دعم نفسي وشعور بالانتماء وحفلات موسيقى عائلية، ولكن بدون أداء للصلوات واستماع للمواعظ. والأهم هنا ما جاء في التقرير عن زيارة قام بها مراسلو المجلة لإحدى كنائس الملحدين في مدينة سياتل، حيث شهدت الجلسة مناقشة قضايا اجتماعية أخلاقية، مثل الموقف من إطلاق صفة "نازي" على شخص ما، وهل ينبغي دفع تعويضات للأميركيين السود عما تعرض له أجدادهم من عبودية؟ فالنقاش الذي يرمي إلى اتخاذ مواقف اجتماعية، قد تتحول لاحقًا إلى مطالب لسنّ القوانين، تُناقش بعيدًا عن أي نص ديني.

وتعود بداية ظاهرة "كنائس الملحدين" إلى مطلع عام 2013، عندما أطلق ممثلان كوميديان بريطانيان فكرة "جمعية الأحد" (Sunday Assembly)، فحجزوا قاعة للاجتماعات في إيسلينغتون شمال لندن ونظّموا هذا الحدث الذي أريد منه تقديم بديل عن الدين، وكانت البداية بحضور ثلاثمئة شخص، ثم بدأ العدد بالتزايد في الجلسات التي تُنظم كل أسبوعين مع التغطيات الإعلامية.

---

(1) H.G. and Erasmus, "The elusive phenomenon of churches without God", economist.com, 16 May 2018.

ومن بين التغطيات، نشرت مجلة شبكة "بي بي سي" تقريرًا بعد شهر من إطلاق الجمعية متسائلة عما إذا كانت هذه بداية لظهور طائفة جديدة، واستعرض التقرير طقوس "قدّاس الأحد" التي لا نرى فيها سوى محاولة لتقديم بديل عن الدين، مما يكرّس بالفعل حقيقة أن الإلحاد ليس إلا حالة تمرّد غير أصيلة، فالقدّاس يتضمن أغاني بدل الترانيم، وقراءة من رواية أدبية بدل الكتاب المقدس، ومحاضرة يقدمها أستاذ جامعي ملحد عن فيزياء الجسيمات بدل موعظة عن الخلق، ثم يُطلب من الحضور إحناء رؤوسهم لمدة دقيقتين للتأمل في "معجزة الحياة" وكأنه اعتراف بوجود الإعجاز مع الإصرار على جحود موجده. ثم يختم رئيس "الكنيسة" الجلسة بخطبة عن كيفية تأثير وفاة والدته على رحلته الروحية وتصميمه على تحقيق أقصى استفادة من كل ثانية، وذلك بعدما قرر أن الحياة قصيرة للغاية وأنه لن يحصل شيء بعد انتهائها (1).

وبعد عشر سنوات على تأسيس "جمعية الأحد"، نجد في موقعها الإلكتروني عرضًا لأنشطتها الدولية بعدما اتخذت لنفسها مسمى "حركة" (movement)، وهي تفاخر بانضمام أكثر من مئة جماعة لها في مدن غربية، وتركّز دائمًا على رفع شعارات الاستمتاع بالحياة وتعزيز أواصر التعاون بين الأعضاء.

وتعليقًا على دراسة مركز بيو السابقة، نشرت مجلة أتلانتيك تقريرًا جريئًا بعنوان "الملاحدة أكثر تدينًا أحيانًا من المسيحيين"، وهو يكرّر نفس المفاهيم المجتزأة للتدين، ويشير إلى "كنائس الملحدين"، فطالما كان معظم أفراد المجتمع يؤمنون بوجود الروح فهم إذن متديّنون بالمنظور الإنساني الجديد، ويستشهد التقرير على ذلك بأمثلة صادمة، ومنها تقديم كنيسة في سان فرانسيسكو حفلًا بعنوان "قدّاس بيونسيه"، حاول فيه مقدّموه تقديم حفل

(1) Brian Wheeler, "What happens at an atheist church?", bbc.com, 4 February 2013.

غنائي باستخدام اسم أيقونة الغناء الفاضح "بيونسيه" من أجل جذب مئات الشباب إلى الكنيسة، والذي كان معظمهم من العلمانيين والشواذ جنسيًا، ثم تكتمل الصورة بتعليق أحد القساوسة قائلًا إن "بيونسيه أكثر تدينًا من كثير من القساوسة والكهنة في كنيستنا حاليًا" (1)!

وإلى جانب "كنائس الملحدين"، يزداد أيضًا في السنوات الأخيرة انتشار "معابد الشيطان" في أميركا وكندا ودول غربية أخرى، كما يزداد النشاط العلني لأتباعها، فهي لا تكتفي باتخاذ موقف محايد أو غير مبالٍ بالدين مثل غالبية الملحدين واللادينيين، بل تأخذ على عاتقها مهمة محاربة الكنيسة ومحو آثارها من هوية الدولة والمجتمع.

وهناك عدة طوائف تنتسب للشيطان في الغرب، وبعضها أقرب إلى جمعيات حركة العصر الجديد بطقوسها الغنوصية وممارساتها السحرية، لكن أكثرها شيوعًا وانتشارًا تلك التي تعلن أنها إلحادية علمانية، وأن الشيطان الذي تقدسه لا تؤمن بوجوده بل تتخذه رمزًا لمحاربة الدين، وقد يكون هذا مجرد خطاب علني لجمعيات سرية باطنية تُخفي عبادتها الحقيقية للشيطان. ومن أبرز هذه الجماعات "كنيسة الشيطان" التي أسسها أنطون ليفي عام 1966 في سان فرانسيسكو بكاليفورنيا، ثم ظهرت من بعدها جماعة أكثر قوة ونشاطًا تحت مسمى " معبد الشيطان" (The Satanic Temple)، والتي تأسست في مطلع عام 2013 بالولايات المتحدة، وقالت في بيان تأسيسها إنها تهدف إلى "تشجيع التعاطف بين الناس، ورفض السلطة الطاغية، ودعم العدالة، واعتماد الضمير لتحقيق الغايات النبيلة".

---

(1) Sigal Samuel, "Atheists Are Sometimes More Religious Than Christians", theatlantic.com, 31 May 2018.



منزل قديم في بلدة "سالم" قرب بوسطن الأميركية حُول إلى مقر طائفة "معبد الشيطان" ويضم معرضًا لأعمال فنية (Crisco 1492, wikimedia)

ومنذ تأسيسها، تسعى هذه الطائفة بشكل حثيث لأخذ موقعها بين الأديان المعترف بها، حتى حصلت في أبريل 2019 على حالة الإعفاء الضريبي بعد الاعتراف الرسمي بها على أنها "كنيسة"، وفي شهر أغسطس من السنة نفسها حظيت الطائفة بشهرة عالمية عندما عُرض الفيلم الوثائقي "المجد للشيطان" (Hail Satan) الذي قدّم الطائفة في صورة جماعة تناضل لصالح المجتمع، و"لوقف انتهاكات الكنيسة المسيحية للحياة الأميركية عبر نفوذها السياسي المتزايد" (1).

(1) كيف غيوغيغان، "حكاية معبد الشيطان الذي يواجه طغيان المسيحية المتزايد في أميركا"، موقع بي بي سي عربي، 23 أغسطس 2019.

وفي أبريل 2023، نظمت هذه الطائفة أكبر مؤتمر لها داخل فندق بمدينة بوسطن الأميركية، وجاء في التغطيات الإعلامية للحدث أن الطائفة باتت تستقطب أساسًا المثليين جنسيًا والملحدين ومؤيدي الأجندات الليبرالية مثل ما يسمى بحق الإجهاض، وقد ارتفع عدد المنتسبين لها من 10 آلاف عضو فقط في عام 2019، إلى أكثر من 700 ألف (1).

وتحاول الطائفة تقليد الكنائس المسيحية بتقديم الخدمات الاجتماعية نفسها، وكأنها تقدم نفسها بديلًا عنها، مثل حملات التبرع بالدم ودعم المشردين وتنظيف الشواطئ العامة، وإقامة أندية شيطانية بعد المدرسة للأطفال لتعليمهم أن الأخلاق يمكن اكتسابها بدون انتماء ديني.

نهاية المسيحية أم الحضارة الغربية؟

في عام 2021، أصدرت الكاتبة الفرنسية شانتال ديلسول كتابًا حظي باهتمام في الأوساط الثقافية، وجاء بعنوان "نهاية العالم المسيحي"، إذ حاولت الكاتبة إثبات أننا نشهد أفول الحضارة المسيحية التي بدأ تشكلها في أوروبا على يد الرومان في أواخر القرن الرابع الميلادي، وأن البابا يوحنا الثالث والعشرين -المتوفى عام 1963- كان قد مهّد للنهاية بقبوله مبدأ التعددية الدينية والانفتاح على الشيوعية (2).

وتشدد الكاتبة على أن المسيحية التي شكّلت الثقافة الغربية على مدى 16 قرنًا، تلاشت بنهاية القرن العشرين، ولم تعد هي المرجعية المعتمدة للقوانين والأعراف والأخلاق بعد حلول الليبرالية والفردانية والعلمانية محلها، وتبرهن

---

(1) ريبكا سيلز، "عبدة الشيطان: ماذا تعرف عن معتقداتهم وطقوسهم؟"، موقع بي بي سي عربي، 20 مايو 2023.

(2) عمران عبد الله، "نهاية العالم المسيحي في الألفية الجديدة.. هل يعود الغرب وثنيا من جديد؟"، الجزيرة نت، 24 يوليو 2022.

على ذلك بالتحوّلات الكبيرة في الأنظمة والقوانين التي جعلت من الإجهاض وزواج المثليين أمورًا مشروعة في معظم الدول المسيحية.

وبما أن الحضارة المسيحية التي شكّلت وجه أوروبا كانت قد اندمجت بروافد من الحضارات الوثنية السابقة عليها، لذا تبدي ديلسول تفاؤلها بأن اندثار المسيحية لصالح العلمانية لن يؤدي إلى انهيار الحضارة الغربية نفسها كما يحذّر المحافظون، بل تتمسك بالرؤية العلمانية التي تعتبر "الإنسانية" بديلًا لا يتخلى عن القيم والأخلاق المسيحية، لكنه يربطها بالأعراف فقط وليس بالدين [1].

وكأي منظّر علماني، ترى ديلسول أن هذا النهج "الإنسانوي" سيقدم بديلًا حضاريًا قابلًا للاستمرار والارتقاء، إلا أنها لا تخوض في الأسئلة الصعبة التي تتعلق بمنشأ القيم ومسوّغاتها عندما يُنزع عنها الأصل الميتافيزيقي، فأنسنة العالم وتأليه الإنسان لا يقدّمان أي أجوبة على الأسئلة الوجودية، ولا يضفيان معنى على الحياة، ولا يسوّغان للإنسان إيثاره للتمسك بأهداب الفضيلة من غير وعد بثواب أخروي يكافئ التضحية.

وإذا كان ما تقوله ديلسول عن "نهاية العالم المسيحي" صحيحًا، فينبغي أن يُعاد النظر في بعض تعريفات المفكر الراحل صامويل هنتنغتون، فعندما وضع نظرية "صراع الحضارات" في التسعينات كان يرى أن الحضارة الغربية هي "العالم المسيحي" بقيمه العلمانية، ومع أن العديد من الباحثين انتقدوا هذا التعريف انطلاقًا من نصّ الدساتير الأميركية والأوروبية على الفصل بين الدين والدولة إلا أنه كان محقًا في اعتبارها حضارة علمانية لادينية تستبطن تراثها المسيحي، لكن هذا التراث يوشك أن يصبح منسيًا اليوم، تمامًا كما اندثر

(1) كريستوفر كالدويل، "الغرب والمشاعر الدينية المتغيرة"، مقال نشرته صحيفة الشرق الأوسط مترجمًا عن نيويورك تايمز، 3 يناير 2022.

التراث الوثني من قبل عندما تشرّبت أوروبا المسيحية وتشكّلت بها ثقافتها.

وبما أن هنتنغتون كان قد وضع "العالم الإسلامي" نصب عينيه أثناء تنظيره للصراعات الثقافية، التي رأى أنها ستكون محور التدافع البشري في العقود المقبلة، فيجدر بنا التنبيه إلى أن انحسار المسيحية لصالح العلمانية في الغرب يحدث بالتوازي مع صعود نسبيّ للإسلام، وهو ما سنخصص له فصلًا مستقلًا من هذا الكتاب.

الأرثوذكسية.. كنيسة ارتبطت بالسياسة من قسطنطين إلى بوتين

احتفل معظم المسيحيين حول العالم في نهاية عام 2022 بعيد الميلاد، بينما انتظر رعايا الأرثوذكسية حلول الأعياد بعدهم بنحو أسبوعين، لكن الحرب التي فرقت الأشقاء من هذه الطائفة دفعت الأوكرانيين لتخطي تقاليدهم العريقة وتعجيل الاحتفال مع الطوائف الأخرى كي يخالفوا أشقاءهم الروس، ما يسلط الضوء مجددًا على الترابط العضوي بين الدين والسياسة.

ومنذ قرون، درجت العادة على احتفال الكاثوليك والبروتستانت بعيد الميلاد في 25 ديسمبر/كانون الأول من كل عام، وذلك لاعتمادها على التقويم الغريغوري، لكن الكنائس الأرثوذكسية تؤجل هذا الاحتفال إلى 7 يناير/كانون الثاني بناء على التقويم اليولياني القديم.

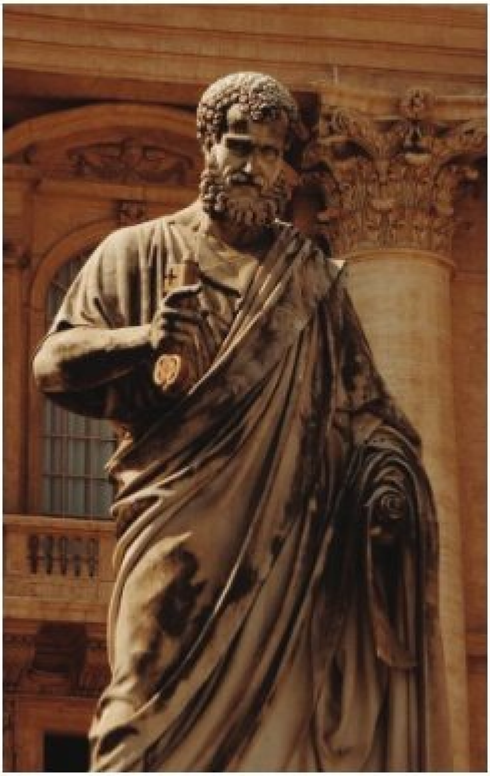
ومع أن الدساتير تنصّ على أن كلًا من روسيا وأوكرانيا دول علمانية، فإن الوقائع تكشف بجلاء عن الدور السياسي الذي تلعبه الكنائس الأرثوذكسية فيهما على صعيد التحشيد الشعبي وتعزيز الهوية، فلطالما تمتعت الكنيسة الأرثوذكسية بهذه المنزلة الأثيرة لدى القياصرة والملوك، وما زال بطاركتها يحرصون على توظيف قوّتهم الناعمة في ساحات الصراع.

لمحة تاريخية

نشأت المسيحية في ظل الاضطهاد الروماني، وظل أتباعها الأوائل ينتهجون العمل السري نحو ثلاثة قرون، إلى أن تولى الإمبراطور قسطنطين الأول السلطة، وقرر الاعتراف بالمسيحية دينًا من أديان الإمبراطورية عام 312، ثم

اعتمدها دينًا للدولة التي كانت تتنافس مع الإمبراطورية الفارسية على صدارة قوى العالم آنذاك.

أسس الإمبراطور "الكنيسة القسطنطينية" في روما فوق المدفن الذي يعتقد أنه للقديس بطرس، أحد تلامذة المسيح عليه السلام، وهي الكنيسة التي تعد اليوم مقر الفاتيكان، ثم نقل الإمبراطور عاصمته إلى قرية للصيادين في آسيا الصغرى تدعى بيزنطة، وتحظى بموقع إستراتيجي لإشرافها على مضيق تتلامس فيه أوروبا وآسيا، واشتق لها أيضًا اسمًا من اسمه (القسطنطينية)، وهي مدينة إسطنبول اليوم (1).



تمثال القديس بطرس في الفاتيكان

(1) Robert Lee Wolff, Romania: The Latin Empire of Constantinople, Speculum, 1948, p. 5- 12.

في عام 325، انعقد المجمّع المسكوني في نيقية (شمالي تركيا اليوم) للبتّ في أركان العقيدة والقضايا التنظيمية والشعائرية للديانة الجديدة، وتوالت المجامع برعاية الإمبراطور لتحقيق التوافق بين كبار الكهنة، لكن مجمّع خلقيدونية الذي انعقد عام 451 أسفر عن خلاف جوهري في تعريف طبيعة المسيح، وبدأ بذلك ظهور الأرثوذكسية المشرقية، ثم انقسمت المسيحية نتيجة الانقسام السياسي إلى الكنيسة الرومية البيزنطية الشرقية في القسطنطينية، والكنيسة الرومانية اللاتينية الغربية في روما (1).

وفي عام 1054، تطور الخلاف إلى ما سمي "الانشقاق العظيم" بين الكنيستين، وكان من أهم بنوده قضية انبثاق الروح القدس، وشعائر القربان المقدّس "الأفخارستيا"، وأحقّية امتلاك بابا روما سلطة بابوية عالمية، وتبعيّة بطريرك القسطنطينية لروما. وكان للخلافات السياسية والثقافية بين الإغريق والرومان دور كبير في حدوث هذا الشقاق.

وهكذا نشأ المذهب الأرثوذكسي التابع للكنيسة الرومية البيزنطية، في مقابل الكاثوليكية التابعة للكرمي الرسولي في روما. وظلّت الأرثوذكسية -التي تعني باللغة اليونانية الطريق القويم- منذ نشأتها موالية للسلطة في الدول المشرقية التي تخضع لها، كما كانت الكاثوليكية في الغرب الأوروبي تتمتع بسلطة كبرى من حيث امتلاك البابا للسلطتين الدينية والدنيوية معا.

لم تستطع الأرثوذكسية منذ نشأتها منافسة الكاثوليكية في القوة والانتشار، إذ تشير التقديرات اليوم إلى أن عدد أتباع الكاثوليكية يناهز 1.2 مليار نسمة، ما يجعل هذا المذهب وحده أكثر الأديان انتشارًا في العالم، ثم يأتي عدد أتباع البروتستانتية بتعداد يبلغ تقريبا 800 مليون، أما أتباع الأرثوذكسية فقد لا يتجاوز عددهم في العالم كله 300 مليون. علمًا بأن

---

(1) "Council of Chalcedon", Encyclopædia Britannica.

البروتستانتية كانت قد انشقت عن الكاثوليكية في بداية عصر النهضة، ما يعني أن الفارق العددي بين أتباع الكاثوليكية والأرثوذكسية كان أكبر بكثير.

تبادل الطرفان اتهامات الكفر والهرطقة حتى قبل الانشقاق، وعندما أطلق بابا روما الحملات الصليبية وقعت مذابح وحروب طاحنة بينهما، حتى استولى اللاتين مؤقتًا على القسطنطينية ونهبوها في الحملة الصليبية الرابعة عام 1204، لكن الضربة الكبرى للكنيسة الشرقية كانت باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام 1453 وتحويلها إلى عاصمة الدولة الإسلامية "إسلامبول" أي مدينة الإسلام.

لم يقضِ العثمانيون على الكنيسة وأتباعها، لكن السلطان محمد الفاتح حوّل مقرها "كاتدرائية آياصوفيا" -حسب العرف المتبع في فتوحات العثمانيين وبعد شرائه بالمال- إلى مسجد (1)، فنقل البطريرك المسكوني متّى الثاني مقره إلى دير القديس جرجس في شمال غرب المدينة، والذي ما زال حتى الآن مقر البطريركية القسطنطينية، كما انتقل الكثير من رجال الكنيسة إلى اليونان آنذاك.



دير القديس جرجس في إسطنبول (Klearchos Kapoutsis, wikimedia)

(1) "حكاية 15 قرنًا.. ما قصة آيا صوفيا وشراء السلطان محمد الفاتح له؟"، موقع الجزيرة مباشر، 11 يوليو 2020.

الحلم الروسي

في عام 988، اعتنق فلاديمير أمير كييف (عاصمة أوكرانيا اليوم) المسيحية على المذهب الأرثوذكسي، ومع انتشار الأرثوذكسية في بلاد الروس والبلقان انتقلت الأسقفية من كييف إلى موسكو في سنة 1448 (1).

وبانهيار الدولة البيزنطية، بدأت أحلام الروس بوراثة هذا المجد قبل اندثاره، ثم وجد أمير موسكو -المعروف باسم إيفان الرهيب- في الكنيسة الأرثوذكسية فرصة ذهبية لمنح دولته الناشئة الشرعية الدينية، ومع تتويجه ليصبح أول قياصرة روسيا في عام 1547 استخدم إيفان الأرثوذكسية لتسويغ سلطته المطلقة.

كان القيصر يتمسك بالحق الإلهي للحاكم على اعتبار أنه ممثل الرب على الأرض، ما يمنحه حق معاقبة كل خصومه بوحشية، إذ توثق الروايات التاريخية انتقامه من ضحاياه بإغراقهم وإحراقهم أحياء، وكذلك تعذيبهم بالماء المغلي أو المتجمد، مقتبسا هذه الصور من عقاب أعداء الرب في الجحيم.

ومع أنه كان يعدّ نفسه من أتباع المسيحية المخلصين، فقد كان إيفان الرهيب مستعدا لتغيير شرائع ديانته بما يوافق هواه، إذ لم يكترث لموقف الكنيسة من التعدد وكانت له سبع زوجات، كما كان يتدخل في شؤون الكنيسة ويعزل أساقفتها وكهنتها ويعدمهم أو يعذبهم لتحقيق مصالحه (2).

وفي عام 1589، نال رئيس الكنيسة الروسية لقب بطريرك واضعًا نفسه بمرتبة بطاركة القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم، أملا في منح موسكو لقب روما الثالثة بعد سقوط القسطنطينية، وهو أمر لم يحظ بموافقة الكنائس الأرثوذكسية نفسها فضلا عن الكاثوليكية.

---

(1) "Vladimir I", Encyclopædia Britannica.

(2) "Ivan IV, tsar of Russia", Encyclopædia Britannica.

وبعد نحو قرن ونصف القرن، غيّر بطرس الأول وجه روسيا، فمع تحولها إلى إمبراطورية مترامية الأطراف بدأت القيم الأوروبية بالتغلغل فيها، وقرر الإمبراطور إلغاء البطريركية جاعلا الكنيسة من مؤسسات الدولة التي يدير شؤونها مجلس للأساقفة.



بطرس الأول الذي يلقب ببطرس الكبير

وبقيام الثورة البلشفية عام 1917 انهارت سلطة هذه الكنيسة، وعانت من اضطهاد السلطات الشيوعية الملحدة في العهد السوفياتي. وعندما سقطت الشيوعية بعد سبعة عقود كانت الكنائس من كل الطوائف حول العالم قد

فقدت كل سلطاتها، فعلى غرار الدول الأوروبية؛ نصّ الدستور الجديد على أن الاتحاد الروسي دولة علمانية ولا يجوز اعتماد أيّ ديانة دينًا لها (1).

عودة الحلم

لم تستطع الأرثوذكسية توحيد صفوفها في منظومة هرمية كما هو حال الكاثوليكية الخاضعة لسلطة بابا الفاتيكان، إذ يتوزع الرعايا الأرثوذكس اليوم على تسع بطريركيات كبرى، ومنها بطريركية موسكو التي يُقدّر عدد أتباعها بنحو 165 مليون شخص، إلى جانب 6 كنائس أرثوذكسية كبيرة تتبع النظام الأسقفي.

ومع أن الحلم الروسي بتحويل موسكو إلى روما ثالثة لم يكتمل، فإن الكنيسة الروسية ما زالت تحظى بنفوذ لافت على كنائس أرثوذكسية أخرى لا تتبع لها رسميًا.

فعلى سبيل المثال، استقلّت الكنيسة الصربية عن بطريركية القسطنطينية منذ عام 1879، وصارت بطريركية بلغراد وسائر صربيا في عام 1920 مستقلة تماما وبنفس مرتبة بطريركيات موسكو والقسطنطينية وغيرهما، لكن معظم الصرب ما زالوا يحتفظون بولائهم لروسيا روحيا، حتى أعلن وزير الداخلية الصربي ألكسندر فولين في صيف 2022 أن بلاده هي "الدولة الوحيدة في أوروبا التي لم تفرض عقوبات على روسيا" بسبب الحرب التي بدأتها ضد أوكرانيا في فبراير/شباط الماضي (2).

ومع أن الدستور ينص على علمانية الدولة الروسية، فقد أعاد الرئيس فلاديمير بوتين -الذي صعد إلى السلطة من سلّم المخابرات عام 2000- تشكيل

(1) نص الدستور الروسي متاح على الموقع: www.constitution.ru

(2) "صربيا: نحن فقط في أوروبا لم نفرض عقوبات على روسيا"، موقع وكالة الأناضول www.aa.com.tr، 23 أغسطس 2022.

هويّة البلاد عبر استعادة مجدها القيصري بخلفيته الدينية، وفي عام 2009 نجح البطريرك الجديد كيريل في إقناع الرئيس بردّ ممتلكات الكنيسة التي صادرتها الحكومة الشيوعية، لتصبح بذلك أغنى مؤسسة في البلاد، ويبدأ نفوذها في الظهور على كل الأصعدة (1).



البطريرك كيريل بملابسه الرسمية (المصدر: الرئاسة الروسية)

صرّح كيريل في عام 2011 بأن بوتين "معجزة" أرسلتها العناية الإلهية لإنقاذ روسيا، بينما يعتبر بوتين الكنيسة أحد أهم عناصر القوة الناعمة لطموحه الإمبراطوري. ويرصد المحللون ملامح كثيرة للمصالح المتبادلة بين الطرفين في اكتساب النفوذ المحلي والعالمي (2).

---

(1) محمد مصطفى، "الله معك يا معجزة: كيف أخضع بوتين الكنيسة الروسية لسيطرته؟"، موقع إضاءات www.ida2at.com، 19 أبريل 2022.

(2) المرجع السابق.

ومع تزايد حدة التوتر بين روسيا والغرب، تصعد إلى السطح تحليلات المفكر الأميركي صامويل هنتنغتون الذي طرح في عام 1993 نظرية "صراع الحضارات"، واعتبر فيها أن الحضارة الغربية القائمة على القيم العلمانية، بخلفيتها الكاثوليكية والبروتستانتية، في صدام مع حضارات أخرى، ومنها الحضارة الأرثوذكسية.

وعلى نفس هذا المنوال، ينسج المنظّر الروسي البارز ألكسندر دوغين -المقرّب من بوتين شخصيًا- خيوط نظريته، فبالتزامن مع عقد القمة الخامسة عشرة لمجموعة دول البريكس في 22 أغسطس 2023 بمدينة جوهانسبرغ (1)، كتب دوغين مقالًا يبشّر فيه بولادة عالم جديد متعدد الأقطاب، لا يستأثر فيه الغرب لوحده بالسلطة، ومؤكدًا صحة تصنيف هنتنغتون للحضارات المتصارعة، مع تركيز دوغين على سيادة روسيا للفضاء الأوراسي بأكمله (2).

واليوم، تحرص روسيا على تصدّر هذه الكتلة الحضارية بتزعّمها للكنيسة الأرثوذكسية، معتبرة أن بطريركية القسطنطينية -التي ما زال مقرها في إسطنبول- لا تستحق تولّي القيادة منذ سقوطها في يد العثمانيين، ولا سيما

---

(1) اتفقت الدول الخمسة المؤسسة للبريكس، وهي البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا، على توسيع المجموعة لتضم دولًا إضافية، وهو قرار سبقه الكثير من الجدل بين الدول الخمسة نفسها، ومن المتوقع أن يتطلب نقاشات إضافية قبل أن يحقق هدفه، وبمجرد إعلان نية توسيع المجموعة اعتبر دوغين أن جميع الحضارات العالمية الستة صارت ممثلة فيها، وأنها باتت قادرة على التعاون في مواجهة الحضارة الغربية المتصدرة، لكن هذا التعاون مقيد بصعوبات كبيرة، وأهمها الخلاف السياسي والتوتر العسكري المستمر بين الصين والهند، والتنافس الاقتصادي الذي لا يمكن إغفاله فيما بين الصين والهند وروسيا، وكذلك صعوبة استغناء هذه الدول عن الدولار لأنها على رأس دول العالم التي تحتفظ باحتياطات كبيرة منه.

(2) ألكسندر دوغين، "سبع حضارات ستحكم النظام العالمي الجديد"، موقع الخنادق alkhanadeq.com، 1 سبتمبر 2023.

بعد انضمام الجمهورية التركية العلمانية إلى المعسكر الغربي وحلف شمال الأطلسي (ناتو).

ومن هذا المنطلق، ينظر الكثير من الأرثوذكس إلى موسكو اليوم على أنها قادرة على إنقاذ الأعراق البيضاء من التفسخ الأخلاقي والانحطاط القيمي الذي تحمل لواءه الأجندة الليبرالية الغربية، فبالتوازي مع صدور التشريعات الجندريّة في الدول الغربية، تحظر روسيا منذ عام 2013 أي دعاية للمثلية الجنسية، ولسدّ الثغرات في هذا القانون اعتمد مجلس الدوما (البرلمان) الروسي بالإجماع في نوفمبر 2022 مشروع قانون مفصلًا يحظر الدعاية للمثليين ومزدوجي الميل الجنسي والتأثير على الهوية الجنسية للأطفال وتغيير نوع الجنس (1).

وبينما يحرص الزعماء الأميركيون والأوروبيون على التصريح في كل مناسبة عن حمايتهم لقيم الحرية والديمقراطية، مع دمجهم للأيديولوجيا الجندرية في هذه المنظومة، يصرح المسؤولون الروس في المقابل بحمايتهم لقيم الأسرة، مع دمجها أيضا بالمنظومة الأرثوذكسية، ومن ذلك تصريح وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف عندما قال في أواخر أغسطس/آب 2021 إن "الكنيسة الأرثوذكسية الروسية تحمل قيمها إلى الخارج، وتدافع عن القيم الأخلاقية التربوية التقليدية التي تتعرض لهجمات قوية جدا من جانب النخبة النيوليبرالية في عدد من الدول الغربية".

وفي عام 2017، أظهر استطلاع للرأي أن 80% من الصّرب يرون أن وجود روسيا القوية أمر ضروري لمواجهة النفوذ الغربي، كما تنتشر هذه المشاعر أيضا في دول أخرى مثل أرمينيا، وجزئيا في بعض مناطق اليونان وإستونيا

(1) فهيم الصوراني، "أعلنت حربا على المثليين.. قوانين روسية جديدة تجرّم الدعاية للشذوذ الجنسي"، الجزيرة نت، 24 نوفمبر 2022.

ولاتفيا والجبل الأسود، وفي شرق أوكرانيا، وتسمى هذه الظاهرة بالروسوفيليا، أي "حُبّ روسيا"، وغالبا ما تنتشر في أوساط الأرثوذكس والقوميين الذين يعتبرون روسيا بمثابة الوطن الأم (1).

وفي سوريا، البلد الذي يعتنق معظم أهله الإسلام، تحظى بطريركية أنطاكيّة -ومقرها دمشق- باستقلال تام منذ نشأتها، فهي من أقدم كنائس العالم، لكنها تتعاطف كثيرا مع بطريركية موسكو، في مقابل تحالف بطريركية القدس (المنافسة لها على الزعامة الأرثوذكسية في المنطقة) مع بطريركية القسطنطينية.

ونظرًا لتبعيّة النظام السوري السياسية لروسيا، تنتشر مشاعر الولاء والروسوفيليا بين الأرثوذكس السريان، وهو ما سهّل على بوتين أيضا تسويغ إرسال قواته إلى سوريا بذريعة حماية المسيحيين من تنظيم الدولة الإسلامية، وكأنه يستعيد ذريعة الحماية التي قدّمها القيصر في القرن التاسع عشر للسلطان العثماني، والتي أدى رفضُها من قبل السلطان إلى اندلاع حرب القرم.

ومنذ بداية التدخّل الروسي العسكري المباشر في سوريا عام 2015، حرص البطريرك كيريل على مباركة هذه الحملة الدموية. وعندما زار بوتين دمشق في مطلع 2020، تعمّد اصطحاب رئيس النظام بشار الأسد معه لزيارة الكنيسة ومشاركته في إضاءة شموع يوم عيد الميلاد الأرثوذكسي (2).

---

(1) أحمد مولانا: "البعد القيمي والديني في الصراع الروسي الغربي.. كيف يستغل الكرملين الكنيسة الأرثوذكسية؟"، موقع عربي بوست arabicpost.net، 18 مارس 2022.

(2) صبحي حديدي، "بوتين في دمشق: شتان بين شمعة الكنيسة وخطّ الغاز"، صحيفة القدس العربي، 9 يناير 2020.



طائرة سوخوي روسية تلقي قنبلة بوزن 560 كجم فوق إحدى مناطق شمال سوريا عام 2015 (Mil.ru)

حرب الأشقاء

كانت الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية قد انتقلت من كييف إلى موسكو في القرن الرابع عشر كما أسلفنا، وظلت الكنيسة الأوكرانية تابعة لموسكو منذ عام 1686. ومع انهيار الشيوعية في مطلع التسعينات، عادت الكنائس لاستعادة حريتها في دول الاتحاد السوفياتي السابق، وحظيت الكنيسة الأوكرانية باستقلال تام في إدارة شؤونها مع الحفاظ على التبعية الرسمية لموسكو، ثم أُعلن في عام 1992 عن تأسيس بطريركية كييف المستقلة، والتي اعتبرتها موسكو منشقّة عنها، بينما واصلت الكنيسة الأوكرانية التابعة رسميا لبطريركية موسكو أعمالها في البلاد.

في عام 2014، قرر بوتين انتزاع شبه جزيرة القرم من أوكرانيا عسكريًا وضمّها إلى روسيا، فهي منطقة تحظى بأهمية تاريخية لدى الكنيسة الأرثوذكسية، ولقيت هذه الخطوة مباركة البطريركية الروسية، كما أبدى الكثير من سكان القرم ولاءهم أيضًا لروسيا ولكنيستها بعد اقتطاع أرضهم من أوكرانيا، بينما أصبحت الكنيسة الأوكرانية التابعة لبطريركية موسكو في

موقف حرج للغاية، فهي ملزمة بالولاء لبطريركية تبارك الحرب على البلاد.

أما بطريركية كييف فحظيت بالمزيد من الشعبية، وواصلت عملها من دون أي اعتراف دولي، إلى أن قررت بطريركية القسطنطينية في أكتوبر/تشرين الأول 2018 الاعتراف بها بصفتها كنيسةً مستقلة، وهي خطوة أدت إلى انشقاق تاريخي بين كنيستي القسطنطينية وموسكو. وكان الرئيس الأوكراني السابق بيترو بوروشينكو المدعوم أميركيًا قد أعلن آنذاك أن الأمن القومي الأوكراني لن يتحقق إلا بالاستقلال الديني عن روسيا [1].

وتقدّر الإحصاءات أن نسبة أتباع بطريركية كييف تصل إلى 44% من المسيحيين الأرثوذكس في البلاد، وهي نسبة تزيد بثلاثة أضعاف عن أتباع الكنيسة الأوكرانية التابعة لبطريركية موسكو.

وفي فبراير/شباط 2022، أعلن بوتين الحرب مرة أخرى، وبدأ بانتزاع مناطق واسعة من شرق أوكرانيا، ولا سيما تلك التي تنتشر فيها مشاعر الولاء "الروسوفيليا"، ولعبت الكنائس مجددًا دورًا كبيرًا في إدارة المعركة، فازداد الشرخ اتساعًا بين أتباع الطائفة الواحدة.

حاولت الكنيسة الأوكرانية التابعة لموسكو النأي بنفسها، وأصدرت بيانًا يصف الحملة العسكرية الروسية بأنها "كارثة"، وناشدت بوتين بوقف حرب "الأشقاء" فورًا [2]، لكن هذا الموقف لم يكن كافيًا لرفع الحرج، فاضطرت هذه الكنيسة بعد ثلاثة أشهر لإعلان انفصالها عن بطريركية موسكو، لتصبح كنيسة مستقلة تمامًا.

---

(1) Luke Bacigalupo, "The Orthodox schism: religion as a political instrument", globalriskinsights.com, 2 November 2018.

(2) "في عيد الفصح.. حرب بوتين تقسم العالم المسيحي الأرثوذكسي"، موقع قناة الحرة www.alhurra.com، 25 أبريل 2022.

ومع استمرار الحرب، تتواصل الجهود لتوحيد قطبي الكنائس الأرثوذكسية الأوكرانية من دون إحراز تقدم كبير، إذ ينظر الكثيرون بعين الريبة للكنيسة التي انفصلت عن موسكو، حيث داهمت أجهزة الأمن الأوكرانية في نوفمبر 2022 الدّير الرئيسي في كييف وعددًا من الكنائس التابعة لها، وقالت إنها صادرت أموالًا و"أعمالًا أدبية مؤيدة لروسيا" (1)، ما دفع الرئيس الأوكراني فولوديمير زيلينسكي للإعلان في مطلع ديسمبر 2022 عن مشروع قانون يحظر عمل أي منظمة دينية تابعة لروسيا، في مؤشر بالغ الدلالة للدور السياسي الذي تلعبه الأرثوذكسية الروسية حتى في الأراضي التي يتبع أهلها الطائفة نفسها.

كما أصدر القضاء الأوكراني في مطلع أبريل 2023 حكمًا بالإقامة الجبرية المطران الأوكراني المتروبوليت بافلو بعد اتهامات له بتمجيد القوات الروسية، وهو قرار لقي العديد من تصريحات التنديد في روسيا.

وفي يوليو 2023، وقع زيلينسكي على مشروع قانون يهدف إلى "التخلي عن التراث الروسي المتمثل في فرض احتفالات عيد الميلاد"، لينتقل بذلك عيد الميلاد رسميًا من 7 يناير إلى 25 ديسمبر في كل عام.

ضريبة السياسة

يحظى بوتين بشعبية لا تخفى حول العالم، حتى بين المسيحيين من طوائف أخرى غير الأرثوذكسية، إذ أبرز التقارب بينه وبين الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب مدى إعجاب تيار أقصى اليمين في الغرب بسياسة بوتين في مواجهة الأجندات اليسارية الليبرالية، كما يصرح العديد من المحافظين بتأييدهم له، مثل الإعلامي الأميركي تاكر كارلسون الذي أثنى مرارًا على سياسات بوتين، والمبشر الأميركي البروتستانتي فرانكلين غراهام الذي امتدح قرار بوتين

(1) "روسيا وأوكرانيا: الأمن الأوكراني يداهم أديرة دينية بحثا عن جواسيس روس"، موقع بي بي سي عربي، 22 نوفمبر 2022.

بحظر "الدعاية للعلاقات الجنسية غير التقليدية"، كما سافر إلى روسيا مرات عدة خلال السنوات السبع الماضية وحظي بلقاءات مع بوتين وكيريل.

وفي مارس 2023، نشر الإعلام الروسي مقابلة مع الكاهن الأميركي الأرثوذكسي يوسف جليسون، الذي هاجر في عام 2017 مع أطفاله إلى روسيا، وقال "بالفعل يريد آلاف الأشخاص في الولايات المتحدة وأستراليا وكندا وبريطانيا، الانتقال إلى روسيا رغم وجود صعوبات بيروقراطية في هذا المجال. إنهم يعلمون أن الرب موجود هنا في روسيا، وأن الإيمان الحقيقي هنا. لقد انتقلت بنفسي إلى روسيا لأن المحكمة العليا الأميركية سمحت بزواج المثليين. أدركت أن أميركا ضد الرب وضد المسيحية. وأردت أنا وعائلتي العيش في بلد توجّه نحو الرب" (1).

وفي فرنسا، لا تخفي زعيمة اليمين المتطرف مارين لوبان تقاربها مع روسيا، كما أشارت تقارير إعلامية إلى مشاركة متطوعين ومرتزقة يمينيّين فرنسيّين في المعارك إلى جانب الروس على الجبهات في أوكرانيا (2)، وصرّح عدة سياسيين يمينيين بتأييدهم لضم شبه جزيرة القرم إلى روسيا.

مع ذلك، لم تنجح جهود بوتين في اكتساب قلوب الكثير من الأرثوذكس أنفسهم، فالشقاق الذي أحدثته سياساته بين كنائس هذه الطائفة يبدو أعمق من الشقاق القديم بين الأرثوذكس والكاثوليك، فمع أن الأرثوذكسية هي ديانة الأغلبية في البلقان، لكن كلا من أوكرانيا وبلغاريا وصربيا والجبل الأسود واليونان وقبرص وجورجيا تزداد ابتعادا عن موسكو واقترابا من الغرب العلماني بخلفيته البروتستانتية والكاثوليكية.

---

(1) "كاهن أميركي: الرب والإيمان في روسيا وانتقلت إليها بعد أن سمحت أميركا بزواج المثليين"، موقع روسيا اليوم arabic.rt.com، 15 مارس 2023.

(2) "روسيا تحقق في معطيات بشأن وجود مرتزقة فرنسيين في صفوف القوات الأوكرانية"، موقع روسيا اليوم، 15 أبريل 2022.

وكي ندرك عمق الهوّة بين أتباع الطائفة الواحدة، تجدر الإشارة إلى تصريحات زعيم بطريركية كييف متروبوليت أبيفانيوس، الذي أصدر بيانا بعد فترة وجيزة من بدء الحرب قال فيه إن "روح المسيح الدجال تعمل في زعيم روسيا، وعلامات ذلك: الكبرياء، والإخلاص للشر، والقسوة، والتدين الباطل. وقد كان هتلر بهذه الصفات خلال الحرب العالمية الثانية، وهذا ما أصبح عليه بوتين اليوم"(1).

أما زعيم بطريركية القسطنطينية البطريرك المسكوني بارثولوميوس فلم يتردد في انتقاد الحرب الروسية في أوكرانيا، وقال في لقاء تلفزيوني إن العالم كله ضد روسيا، محذرا من أن تؤدي سياسات بوتين إلى "حرب باردة جديدة"(2).

وفي أفريقيا، لا تبدو الصورة مختلفة كثيرًا، فمع تزايد جهود الكنيسة الروسية في السنوات الأخيرة لإنشاء أبرشيات جديدة في القارة السمراء، اعتبرت بطريركية الإسكندرية هذا التمدد اقتحامًا لمنطقتها، وجاء ردُّها بالانحياز لاعتراف بطريركية القسطنطينية باستقلال بطريركية كييف(3).

وبعد ثلاث سنوات، وقبيل إعلان موسكو الحرب الأخيرة في أوكرانيا، أعلنت الكنيسة الروسية عن إنشاء إكسرخسية بطريركية (وحدة إدارية للكنيسة تقع خارج أراضيها الرئيسية) لها في أفريقيا، مما زاد من عمق الخلاف بين كنيستي موسكو والإسكندرية.

---

(1) "في عيد الفصح.. حرب بوتين تقسم العالم المسيحي الأرثوذكسي"، مرجع سابق.

(2) "كيف قسمت الحرب الروسية في أوكرانيا العالم المسيحي الأرثوذكسي؟"، موقع الرابطة الدولية للخبراء والمحللين السياسيين apa-inter.com نقلا عن واشنطن بوست.

(3) J. Eugene Clay, "Why church conflict in Ukraine reflects historic Russian-Ukrainian tensions", theconversation.com, 7 Feb 2022.

وفي ظل هذا التشابك المعقد للمصالح السياسية المتغيرة، قد لا يبدو الطريق معبّدًا أمام الطموح الإمبراطوري لبوتين بعباءة الدين، فحتى لو نجح في دخول التاريخ بصفته "فلاديمير الثاني"، أسوة بفلاديمير الأول الذي وضع أسس الأرثوذكسية قبل نحو ألف عام، فإن الشروخ التي تزداد اتساعًا بين كنائس هذه الطائفة تؤكد استحالة استعادة أمجاد إيفان الرهيب، القيصر الذي استبدّ بالكنيسة وحده.

التشيع.. طائفة إسلامية
اتخذت من الحاكمية السياسية عقيدة وشريعة

تتفاوت الإحصاءات العالمية والمحلية بشأن تقدير عدد الشيعة ونسبتهم إلى عامة المسلمين، ففي تقديرات مركز بيو للأبحاث لعام 2009 هناك ما بين 154 مليون و200 مليون شيعي في العالم، وتبلغ نسبة هذا العدد إلى إجمالي المسلمين 10-13%، ويتركز ما بين 68% و80% من الشيعة في أربع دول فقط هي إيران وباكستان والهند والعراق (1). هه

أما في الجانب الشيعي، فتتعدد الإحصاءات والتقديرات، وهي تميل غالبًا إلى التشكيك في الأرقام الصادرة عن جهات دولية أو حكومات الدول غير الشيعية، ونذكر مثلا دائرة المعارف الحسينية التي تقول إن عدد الشيعة في مطلع الألفية يقترب من 350 مليونًا، بما يوازي ربع عدد المسلمين (2).

وسواء كانت نسبة الشيعة هي الربع أو العُشر، فلا يمكن إغفال القوة السياسية والاقتصادية لهذه الطائفة، ولا يمكن تجاوز عمقها التاريخي وأدوارها الثقافية وموقعها على الساحة العالمية، فقوّة هذه الطائفة قد تبدو أكبر من وزنها الديمغرافي.

أصل التشيع وتطوره

التشيع هو التأييد والمناصرة، ويقال في العربية إن جماعة ما هي شيعة فلان أي أتباعه وأنصاره. ويُقصد بالشيعة في التاريخ الإسلامي الطائفة التي تتبع

---

(1) "Mapping the Global Muslim Population", pewresearch.org, 7 Oct 2009.

(2) "كم يبلغ عدد شيعة آل البيت في العالم؟"، موقع مركز الإشعاع الإسلامي، islam4u.com.

علي بن أبي طالب ابن عم النبي محمد ﷺ ، وتوالي آل بيت النبي. ومع أن مصطلح آل البيت قد يشمل زوجات النبي وأعمامه وسلالاتهم لكن الشيعة يقصدون تحديدًا سلالة النبي نفسه من ابنته فاطمة، وهي زوجة علي.

لم تظهر فكرة التشيع في حياة النبي ﷺ ويعتقد المسلمون السنّة أن علي بن أبي طالب بايع الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه ورضي بخلافتهم، وكان محبًا لهم، وهو أمر ينكره الشيعة لاعتقادهم بأن الولاية أمر عقدي لا يخضع للمشورة أصلًا، وأن النبي عهد بالخلافة إلى علي لكن الصحابة تآمروا من بعده على حرمان علي منها.

يقول الأزهري القمّي، وهو أحد مؤسسي هذه الطائفة في القرن الثالث الهجري، إن الشيعة كانوا معروفين في زمان النبي ويقولون بإمامته، ومنهم الصحابة المقداد بن الأسود وسلمان الفارسي وأبو ذر وعمار بن ياسر. وهم أول من سمّوا باسم التشيع من هذه الأمة [1]، ويأتي الردّ من علماء السنّة بأن عمار بن ياسر كان عاملًا للخليفة الثاني عمر بن الخطاب في الكوفة، كما كان سلمان الفارسي عاملًا له في المدائن، فكيف يُعقل أن يكونوا متمردين على خلافته؟

ويقول الإمام الشيعي محمد حسين آل كاشف الغطاء "إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة، يعني أن بذرة التشيع وضعت في بذرة الإسلام جنبًا إلى جنب، وسواء بسواء، ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والري حتى نمت وازدهرت في حياته، ثم أثمرت بعد وفاته"[2]، وهذا الزعم يتكرر كثيرًا لدى علماء الشيعة، بل يذهب بعضهم إلى

---

(1) سعد بن عبد الله الأشعري القمّي، المقالات و الفِرق، تعليقات: محمد جواد مشكور، مركز انتشارات علمي، طهران، الطبعة الثانية 1360هـ، ص 15.

(2) محمد حسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، تحقيق محمد جعفر شمس الدين، دار الأضواء، بيروت، 1993، ص 43.

القول إن مذهبهم يعود في جذوره إلى أبي البشر آدم نفسه، وإنه ما من نبي إلا عُرض عليه الإيمان بولاية علي بن أبي طالب.

ومع ذلك، يقول كاشف الغطاء في نفس الكتاب الذي استشهدنا به أعلاه: "لم يكن للشيعة والتشيع يومئذ (أي في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما) مجال للظهور، لأن الإسلام كان يجري على مناهجه القويمة" (1).

والأرجح أن إرهاصات التشيع بدأت في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك على يد عبد الله بن سبأ وجماعته، وهو يهودي من اليمن أظهر إسلامه بالمدينة المنورة في عهد عثمان، ثم خرج على الفور إلى العراق لينشر أفكار الغلوّ بعلي بن أبي طالب وتقديسه بين عوامّ الناس، فطرده عبد الله بن عامر، فتوجه إلى الشام وحرّض الفقراء فيها على الثورة ضد الأغنياء، فأخرجه معاوية الذي كان واليًا على الشام، ليتوجه إلى مصر ويبدأ بتوسيع خطته من هناك.

وتشبه قصة ابن سبأ قصة اليهودي شاؤول (بولس) الذي سعى بكل جدّ لتحريف دين التوحيد الذي جاء به عيسى عليه السلام ونشر أفكار الغلوّ في تقديس هذا النبي بعد سنوات قليلة من وفاته. إذ زعم أن عيسى لم يكن مجرّد نبي بل هو الإله الذي حلّ في جسد بشر ونزل إلى الأرض ليكفّر عن خطايا الإنسان بصلب نفسه، وهكذا كان ابن سبأ يسعى لتكرار التجربة نفسها بعد وفاة النبي محمد ﷺ فبدأ بفكرة "الرجعة" قائلا إنه يعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع (أي في آخر الزمان) ولا يصدق أن محمدًا يرجع، ثم أرفقها بفكرة "الوصية" وهي أن يكون لكل نبي وصيًا، وأن علي بن أبي طالب هو ابن عم النبي ووالد سلالته وأولى الناس بخلافته. ومع أن هذه علي بن أبي طالب تصدّى بنفسه لهذه الفتنة التي تبجّله، لكن أنصارها تكاثروا بسرعة في البصرة

---

(1) المرجع السابق، ص 48.

والكوفة، ويُعتقد أنهم هم الذين دبروا مكيدة قتل الخليفة عثمان، وكانت لهم يد في الفتن اللاحقة مثل معركة الجمل وإفشال المفاوضات بين علي وطلحة والزبير ونشر فكرة تأليه علي (1).

انشقت الأمة بعد مقتل عثمان، ومع أن الغالبية بايعوا عليّ على الخلافة لكن معاوية بن أبي سفيان -الذي كان واليًا على الشام- لم يبايع، فاندلعت المعارك بين الطرفين، ومع أن الحسن بن علي تنازل عن بيعة من بايعوه بعد أبيه لمعاوية، لكن الشرخ تعمّق كثيرًا مع بدء توارث الأمويين للسلطة ومواجهتهم للحسين بن علي -الذي خرج على سلطتهم بالسلاح- حتى قُتل على يد بعض جنودهم، كما لاحق الأمويون كل من قدروا عليه من آل البيت لمنعه من منافستهم على المُلك.

ما زالت الروايات التاريخية لما جرى في تلك الأحداث المؤلمة محل خلاف شديد بين السنة والشيعة إلى اليوم، فالمصادر التي يُعتمد عليها لدى كل طرف تُنتقد من الطرف الآخر، والكثير من هذه المصادر هي ذاتها التي يُستند إليها في الروايات الدينية أيضًا، ما يجعل الأساس العقدي والفقهي مطعونًا فيه من وجهة نظر كل طرف، وبما أن هذا الكتاب ليس مخصصًا للنقاش الديني فسنتجاوز النقد مع عدم إخفاء انحيازنا للمصادر السنّية واعتماد حججها في الموثوقية والمصداقية.

---

(1) يشكك الكثيرون في ما ينسب إلى طائفة السبئية من فتن، ومنهم باحثون في طرف السنة، أما الشيعة فيطعنون في وجود ابن سبأ باعتباره أسطورة. وأنا أميل إلى التصديق بوجوده وبالكثير مما يُنسب إليه، وليس في ذلك تضخيم لنظرية المؤامرة ولا تقليل من شأن الصحابة كما يزعم البعض، إذ يقول الدكتور علي الصلابي "أجمع القدماء على وجوده بلا استثناء" [سيرة عثمان بن عفان، دار ابن كثير، ص 316].

ومن الأبحاث المختصرة التي يمكن العودة إليها في هذا الموضوع بحث للدكتور سامي عطا حسن بعنوان "عبد الله بن سبأ اليهودي اليماني بين الحقيقة والخيال".

أصول التشيع

بيّنا سابقًا أن التشيع ظهر نتيجةً لأحداث تاريخية دمويّة، ما يعني بالضرورة ارتباط الطائفة المنبثقة عن هذه الفكرة بكل ما تستدعيه تلك الأحداث من شقاق وعنف وكراهية واتهامات لأطراف أخرى، فالتشيع لم يقم مثلًا على فكرة الوصية لعليّ بالخلافة فقط، ولا بالولاية الدينية له ولسلالته كما سيأتي، بل هو مرتبط أيضًا بالمعارك التي خاضها علي مع صحابة آخرين، ثم ما تعرضت له سلالته -بدءًا بابنه الحسين- من اضطهاد وقتل، ما يجعل التراث الفقهي والعقدي -وبالتبعية السياسي- لهذه الطائفة مشحونًا بالتوجس ونظريات المؤامرة، حتى أصبحت هذه الصفات جزءًا أصيلًا وعضويًا من كيان الطائفة ووجودها ومقوّمات استمرارها، مع العلم بأن الطرف الآخر الذي توجّه له هذه الطائفة كل أصابع الاتهام وتنظر له بعين الريبة والتحفّز هو "الإسلام السنّي"، الذي كما ذكرنا لا يقل حجمه عن ثلاثة أرباع الأمة الإسلامية بحسب أكثر تقديرات الشيعة تفاؤلًا.

وهذا يعني أننا حتى لو أخذنا بجهود بعض الشيعة في الإصلاح والتقارب مع السنة، ولا سيما تلك التي لا تكفّر السنّة ولا تجاهر بتكفير كبار الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعائشة زوجة الرسول، فسيبقى التشيع في أبسط معانيه قائمًا على فكرة اتهام أفضل البشر عند السنّة بعد الأنبياء -أبو بكر وعمر- بالتآمر والخبث ونقض وصية النبي ﷺ، ومن ثم يصبح كل السنّة على مرّ التاريخ متّبعين ومعظّمين للمتآمرين الذين أنكروا الولاية والوصية لآل البيت.

ويجدر بالذكر أن التشيع لعليّ في بداية الأمر لم يكن أكثر من وجهة نظر في مسألة سياسية بشأن الخلافة. فغالبية الصحابة والتابعين رأوا أن علياً أحق بالخلاقة من معاوية، وجمهور أهل السنّة حتى اليوم يفضّلون

عليّ بن أبي طالب على كل الصحابة باستثناء الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، ويفضّلون ولديه سبطي النبي ﷺ على كل خلفاء بني أمية، لكن الخلاف اتسع بإضافة أصول عقدية وفقهية لدى علماء الشيعة، مما تراكم مع تعاقب الأجيال حتى انبثقت عنه طوائف باطنية (غنوصية) مارقة من الإسلام كالإسماعيلية وما تفرع عنها من نصيرية ودرزية.

وسنخص بالحديث الطائفة الشيعية الأم، المسماة بالإمامية الاثني عشرية، ونوجز فيما يلي أهم الأصول التي يخالفون فيها عامة المسلمين:

1- الإمامة: هي من أركان الإسلام لدى الشيعة، مع أنها ليست أصلًا معترفًا به لدى المسلمين السنة، وتقتضي الإيمان بأن النبي لم يفارق الأمة قبل تعيين الإمام الذي سيخلفه، وهو علي بن أبي طالب، ثم يعيّن كل إمام من يخلفه بالعين لا بالوصف ولا بالانتخاب، وكل الأئمة الاثنا عشر من ذرية عليّ. ويعتقد الشيعة أن النبي أُمر بتبليغ جزء من الوحي وكتم جزءٍ آخر مما يختص به الأوصياء والأئمة من بعده[1].

2- العصمة: الأئمة معصومون من الذنوب كالأنبياء، فلا يقع منهم خطأ ولا سهو، بل بالغ "الإمام الخميني" وجعل مرتبة الإمام فوق الأنبياء والملائكة، فقال "فإن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضرورريا مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملَك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم (ص) والأئمة (ع) كانوا قبل هذا العالم أنوارًا فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله" [2]. أما الأحاديث التي يشير لها الخميني في هذا النص فهي مكذوبة عند أهل السنة.

---

(1) محمد نعيم ساعي، القانون في عقائد الفرق والمذاهب الإسلامية، دار السلام، القاهرة، ط3، 2014، ص 340.

(2) روح الله الخميني، الحكومة الإسلامية، بدون ناشر، 1389هـ، ص 52.

3- انتظار المهدي: يشترك الشيعة مع السنة بالاعتقاد بخروج إمام عادل في آخر الزمان، لكن الشيعة يؤمنون بأنه الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن المهدي، ويعتقدون أنه اختفى في سرداب بمدينة سُرَّ منْ رأى (سامراء) في العراق بمنتصف القرن الثالث الهجري وما زال حيًا فيه حتى اليوم، وسيخرج في آخر الزمان ويحكم العالم باسم الشيعة وينتقم من أعدائهم.

4- التقية: يقصد بها إخفاء التشيع وإظهار نقيضه عند الضرورة، ومع أنها أسلوب للمناورة والمداراة نشأ في ظل الاضطهاد السياسي إلا أنها أصبحت من أصول الدين عند الشيعة، حيث تنسب مصادرهم إلى الإمام جعفر الصادق قوله "إن تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له"، ويفسرون هذا بقولهم إن تسعة أعشار الدين تكون فيه التقية لأنهم يخالفون فيه المذاهب الأخرى، ومع أن في هذا مبالغة إلا أنه إقرار بأن ما يوافقون به أهل السنة يعادل 10% من أصول الدين.

وبالإضافة إلى ما سبق، يفترق الشيعة عن غيرهم من المسلمين في قضايا إشكالية جوهرية أخرى، كتكفير معظم الصحابة والطعن في زوجات الرسول وخصوصًا عائشة بنت أبي بكر، التي يتهمونها بالفاحشة مع أن القرآن الكريم برّأها في سورة النور، وكذلك قضية الاعتقاد بتحريف القرآن الكريم [1].

---

(1) تعد مسألة تحريف القرآن محل جدل وخلاف كبير، فمع أن بعض الكتب تصرح بذلك لكن الكثير من شيوخ الشيعة المعاصرين يجتهدون في نفي ما فيها واتهام المستشرقين بتزويرها، ومن ذلك مثلا دفاع الشيخ محمد الحسيني الشيرازي (توفي عام 2001) عن الكتاب المشهور "فصْل الخِطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب" المنسوب للإمام النوري الطبرسي، إذ يقول الشيرازي إن الكتاب كان اسمه في الأصل "فصل الخطاب في عدم تحريف الكتاب" وإنما زيّده ونقّصه بعض أيادي المستعمرين في غفلة من المسلمين، مستشهدا بالآيات التي تؤكد امتناع تحريف القرآن مثل: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون". انظر: كتاب "حول السنّة المطهّرة" من موسوعة "الفقه"، مؤسسة المجتبى، كربلاء، ط3، 2015، ج 111، ص 165-166.

ومع أن التشكيك في صحة القرآن الكريم واكتماله ليس أمرًا مجمعًا عليه لدى جمهور علماء الشيعة، في عصرنا الحالي على الأقل، لكن الخلاف ينبع من التشكيك في مصادر التلقي، فالشيعة كما أسلفنا يطعنون في معظم الصحابة، ويتبع ذلك نبذهم لمعظم الآثار والأحاديث التي نُقلت عنهم واعتماد ما يُنسب إلى الصحابة المقبولين (المنتجَبين) وآل البيت فقط، بينما يرى علماء السنّة أن الروايات المتداولة لدى الشيعة لا تتمتع بأدنى شروط الضبط والصحة، ولا يمكن التسليم بنسبتها إلى آل البيت.

ومن هنا يفترق الشيعة عن بقية المسلمين في إقامة بنيان مذاهبهم الفقهية والأصولية والعقدية على أساس غير معترف به، وينتج عن ذلك التفاوت الكبير في عدد لا يحصى من المسائل الفقهية والعقدية، وقد يتعلق بعضها بشروط أهم العبادات كالصلاة والحج، وأيضًا بصحة عقود الزواج وما يتبعها من آثار اجتماعية خطيرة كاعتقادهم بإباحة نكاح المتعة.

ويجدر بالذكر أن التشيع المذهبي لا يقتصر على ربط العقيدة بالكيان السياسي من خلال فكرة الوصاية والإمامة، أو حتى "ولاية الفقيه" كما سيأتي لاحقًا، بل طوّر أيضًا ربط المجتمع بمؤسسة دينية، لكنها ليست ذات تدرّج هرميّ "كهنوتي" كما قد يبدو للناظر إليها من الخارج، فمكانة المرجع أو الشيخ تعظم أو تصغر بحسب عدد أتباعه وإنجازاته العلمية. ومع أن هناك تراتبية علمية في المدارس إلا أنها لا تُنال بالانتخاب ولا التعيين، بل بالعُرف وكثرة الأتباع، باستثناء قلة قليلة ممن ينالون لقب المرجع الأعلى أو المرجع الذي يتحقق فيه الإجماع، وقد يضفي الأتباع على أحد شيوخهم صفة المرجعية حتى لو لم ينلها من المرجع الأعلى، فلا يتحقق الإجماع على كونه مرجعًا لكنه يظل كذلك لدى أتباعه، لذا قد ينال أحد الشيوخ لقب المرجع على صعيد دولة أو مدينة فقط، أو ربما يكون مؤهَلا لينافس كبار المراجع لكنه لا يشتهر ولا يكثر

عدد أتباعه. ولا تحتاج المرجعية أن تتبع حكومة أو مؤسسة رسمية كي تؤكد شرعيتها، لذا يصعب القول إن التشيع يتمتع بهرمية دينية كالمسيحية مثلا، لكن حوزاته تتمتع مع ذلك بنفوذ كبير على أتباعها قد يفوق أو يوازي على الأقل نفوذ بابا الفاتيكان على رعاياه الكاثوليك، لا سيما أن الشيعة مُلزمون بدفع ضريبة "الخُمس" إلى الإمام الغائب، وهذا يعني عمليًا دفع 20% من دخلهم السنوي إلى من ينوب عن الإمام وهو المرجع، بحيث يصرف نصفها على المحتاجين والنصف الآخر على مصالح المرجعية.

تشكلت نواة المرجعيات بالمدارس الدينية في القرن الرابع الهجري، ثم تحولت مع مرور الزمن إلى تجمّعات ضخمة من المدارس والجامعات والمراقد (الأضرحة) والحسينيات، واصطُلح في العصر الحديث على تسمية هذه الكيانات المركزية باسم الحوزة.

يتخرّج من هذه المدارس آلاف المشايخ سنويًا، وتدار من خلالها عمليات التدريس والإفتاء والرعاية الدينية للرعايا في كل العالم، وتُسمى كل منها باسم المدينة أو المنطقة التي تحتضنها، ومن أهم المناطق التي ظهرت فيها المدارس الكبرى خلال التاريخ الشيعي الكوفة وبغداد والنجف والحلّة في العراق، وقُمّ وأصفهان وطهران في إيران، وجبل عامل في لبنان.

وشهد التاريخ اندثار أو تراجع قوة بعض هذه المدارس، وكذلك تزايد قوة بعضها الآخر حتى ابتلعت حوزات أخرى، فصارت الضعيفة منها تتبع الأقوى، ويمكن القول إن أشهر مرجعيتين اليوم هما حوزة النجف العراقية وقمّ الإيرانية، ومع أن مرجعية النجف ضعفت خلال حكم صدام حسين إلا أنها سرعان ما استعادت قوتها، وما زال قادتها يحاولون إثبات أصالة خطهم الديني والنأي بأتباعهم عن المرجعية الإيرانية.

وقبل الحديث عن الجانب السياسي، سنستعرض بإيجاز المرجعيات الشيعية الكبرى، ففي العراق تعد المرجعية الرئيسة هي حوزة النجف، والشيخ

علي السيستاني هو المرجع الأعلى لها، وإلى جانبه ثلاثة شيوخ آخرين يتمتعون بلقب المرجع وهم بشير حسين النجفي وإسحاق الفياض ومحمد سعيد الطباطبائي الحكيم، ومع أن الأخير توفي في 2021 لكن لم يُتفق على خليفة له بعد. ولعل أول المشكلات في هذه الحوزة أن الحكيم المتوفى كان هو العراقي الوحيد بين الأربعة، فالسيستاني من أصول إيرانية، والفياض ذو أصول أفغانية، والنجفي ذو أصول باكستانية.

وفي النجف مرجعيات أخرى أقل تأثيرًا، ومنهم محمود الصرخي وقاسم الطائي ومحمد اليعقوبي وعدي الأعسم، وهؤلاء لا إجماع على مرجعيتهم، بيد أن لهم أتباعًا كثر حول العالم.

وفي العراق أيضًا مكاتب وشيوخ ينتمون لحوزة قم الإيرانية، مثل محمد تقي المدرسي وصادق الحسيني الشيرازي. وفي المقابل يعيش في قم المرجع العراقي كاظم الحائري الذي يتبعه التيار الصدري في العراق.

وفي إيران، هناك مرجعية طهران التي يتصدرها علي خامنئي الذي يجمع في يده السلطتين الروحية والسياسية، فهو حائز على لقب آية الله، إلى جانب كونه المرشد الأعلى للثورة الذي يعد عمليًا القائد الفعلي للدولة ولا ينازعه أحد على سلطته بانتخاب ولا غيره، وهناك من يشكك في مكانته العلمية وصعوبة مقارنته بسلفه روح الله الخميني، إذ كان خامنئي يشغل منصب رئيس الجمهورية ما بين عامي 1981 و1989 ثم رُقي فجأةً إلى منصب آية الله العظمى بعد وفاة آية الله العظمى محمد علي الأراكي الذي كان يتبوّأ أعلى منصب ديني في إيران في عام 1994 (1). وبموازاة طهران تأتي حوزة قم، وعلى رأسها المرجعان

---

(1) مهنّد الحاج علي، "تحليل مقتضب من باحثي كارنيغي حول الأحداث المتعلقة بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا"، موقع مركز مالكوم كير-كارنيغي للشرق الأوسط. carnegie-mec.org، 31 أغسطس 2022.

الكبيران وحيد الخراساني وصادق الشيرازي، وفيها مراجع آخرون مثل ناصر الشيرازي وجعفر السبحاني وحسين الهمداني وعبد الله الجوادي الآملي.



خامنئي يقدم درسًا في الفقه لمجموعة طلاب في 2018 (khamenei.ir)

التاريخ السياسي

خرج التشيع كما أسلفنا من رحم الخلافات السياسية في عصر الصحابة، لكنه تطور لاحقًا ليتفرع عنه الشقاق الأهم في الموقف من عدالة الصحابة وموثوقيتهم، على اعتبار أنهم الجيل الذي نقل إلينا مصادر التشريع (القرآن والسنة)، فنتج عن ذلك ابتعاد الشيعة الكبير في مسائل جوهرية لا يمكن التساهل فيها، ويضاف إلى ذلك اعتقاد الشيعة أن الحاكمية مسألة عقدية ضرورية، فلا تصح عندهم خلافة أحد من حكام الدول الراشدة والأموية والعباسية إلا علي بن أبي طالب ومن بعده ابنه الحسن فقط، لذا كانوا يجتهدون في إسقاط هذه الحكومات والسعي لمبايعة الأئمة الذين يعتقدون أنهم حازوا حق الولاية بأمر إلهي لا رجعة عنه.

ومع أن محاولات التمرد والتسلل إلى الحكم نجحت في مناطق عدة عبر التاريخ الإسلامي، إلا أنها لم تفلح في أي منها لإعادة الحكم إلى أحد الأئمة، بل كانوا جميعًا مُطاردين حتى اختفى آخرهم محمد بن الحسن العسكري في العصر العباسي.

ومن الدول التي نجح الشيعة في استلام سدة الحكم فيها، نذكر دولتي الأدارسة في المغرب والعلويين في الديلم وطبرستان، فالأولى استمرت في الحكم حوالي 130 سنة، والثانية أقل من 100 سنة، وتزامن سقوطهما في السنوات الأولى من القرن الرابع الهجري، وأيضا دولة الحمدانيين التي حكمت الشام والعراق وعظُم شأنها طوال القرن الرابع، وتزامن نشوؤها مع نجاح الإسماعيليين -وهم طائفة منشقة عن الشيعة- في الهرب من الشام إلى تونس وتأسيس دولة العبيديين التي سرعان ما امتد نفوذها لتصبح الدولة الفاطمية القوية، بعاصمتها القاهرة في مصر، والتي لم تسقط إلا على يد صلاح الدين الأيوبي إبان استعداده لتوحيد المسلمين ضد الصليبيين في القرن السادس، ولا ننسى أيضا دولة البويهيين التي قامت في ظل الدولة العباسيّة وسيطرت على خلفائها خلال القرنين الرابع والخامس.

وبالرغم من هذه النجاحات الجزئية، لم يصل الأئمة إلى الحكم كما أسلفنا، كما لم يخرج الإمام الأخير (المهدي) من مخبئه، ما أدى إلى نشوء أزمة فقهية وعقدية طويلة لدى الشيعة، ربما كانت من أهم أسباب تراجع ثقلهم الديني وحاضنتهم الشعبية منذ سقوط الدولة الفاطمية، إلى أن ظهر الفقيه الشيعي محمد بن جمال الدين الجزيني العاملي (من جبل عامل في لبنان) في القرن الرابع عشر الميلادي وحاول وضع حل لمعضلة غياب الأئمة بابتكار نظرية "ولاية الفقيه العامة"، التي تعني قيام أحد الفقهاء المجتهدين الكبار بمهمة النيابة عن الإمام الغائب (المهدي) في قيادة الأمة وإقامة حكم الله، وتزامن ذلك مع صعود عائلة تركمانية صوفية تدعي الانتساب لآل البيت في شمال إيران، على رأسها

صفي الدين أردبيلي الذي اشتهر بأنه شيخ سني شافعي صوفي، على مذهب حال غالبية السكان، فالتفّ حوله الناس مع ذيوع أخبار كراماته.

وفي عام 1501م، صعد حفيده إسماعيل إلى الحكم، معتمدًا على شعبية العائلة الدينية، وأعلن اعتماد المذهب الشيعي بوصية مباشرة من الإمام الغائب. وطُبقت بذلك نظرية ولاية الفقيه مع تأسيس الدولة الصفوية.

يقول المفكر الإيراني الشيعي المعاصر علي شريعتي إن الدولة الصفوية قامت على مزيج من القومية الفارسية والمذهب الشيعي، حيث تولدت آنذاك تيارات تدعو لإحياء التراث الوطني والاعتزاز بالهوية الإيرانية، وتفضيل العجم على العرب، وإشاعة اليأس من الإسلام، وفصل الإيرانيين عن تيار النهضة الإسلامية المندفع، وتمجيد الأكاسرة الساسانيين (1).

خاضت الدولة الصفوية حروبًا طويلة مع الدولة العثمانية السنّية، وكانت الحرب بينهما سجالا، وانتهت سلاسة الصفويين بصعود سلالة الأفشاريين عام 1736م، ومع أن الشاه نادر حاول في بداية تأسيس دولته اعتماد مذهب يوفق بين الشيعة والسنّة إلا أنه فشل في ذلك وكان مصيره الاغتيال، وظل التشيع متسيّدًا إيران في السلالات الملكية المتعاقبة، حتى وصول رضا بهلوي إلى الحكم عام 1925، والذي بدأ في عهده تكريس الحكم العلماني، ثم تولى من بعده ابنه محمد رضا بهلوي هذه المهمة بإصرار أكبر، حتى صار من أكثر حكام المنطقة ولاءً للغرب، وعندما أقيمت دولة الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين كان نظامه هو الثاني في العالم الإسلامي -بعد تركيا العلمانية- الذي يعترف بها ويسارع إلى التحالف معها.

في عام 1971م، أقام الملك الإيراني (الشاه باللغة الفارسية) احتفالًا أسطوريًا باذخًا بمناسبة مرور 2500 سنة على تأسيس الإمبراطورية الفارسية الأخمينية على يد الملك كورش، ودعا للاحتفال كبار زعماء العالم، كما

(1) علي شريعتي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي، ترجمه حيدر مجيد، دار الأمير للثقافة والفنون، ط1، 2002، ص 119.

استعرض فيه جيشه وحاشيته في مراسم قيل إنها ترمي إلى تنصيب نفسه إمبراطورًا، ما أثار حفيظة علماء الشيعة وأطلق شرارة الغضب الشعبي. وتوالت الاضطرابات بعد ذلك في إيران لتصل في النهاية إلى ثورة شعبية، بقيادة العالم الديني روح الله الخميني.

كان الخميني مرجعًا دينيًا شيعيًا تعلّم في مدينتي قم الإيرانية، والنجف الأشرف العراقية، وصعد نجمه عندما اعتقله الشاه الإيراني عام 1963، ثم نُفي إلى تركيا، وتجوّل في العراق وأقام مجددًا في النجف، حيث ألقى هناك سلسلة محاضرات جُمعت لاحقًا في كتاب "الحكومة الإسلامية"، الذي يعدّه الشيعة دستورًا لإعادة إحياء نظرية "ولاية الفقيه"، ثم انتقل إلى فرنسا، وظل يحشد أنصاره من المنفى بخطبه النارية حتى قامت الثورة عام 1979، حيث هرب الشاه تحت ضغط الاحتجاجات الحاشدة، واستقبلت الحشود الخميني استقبال الفاتحين عندما وصل طهران على متن طائرة فرنسية، وسرعان ما بدأ تشكيل الجمهورية الإسلامية الإيرانية على أساس نظريته، وتولى منصب المرشد الأعلى



الخميني ينزل من الطائرة في مطار مهرآباد (طهران) في فبراير 1979 قادمًا من فرنسا

للثورة الإسلامية، ليصبح بذلك الوليّ الفقيه الذي يقود الدولة بمنصب ديني، ومن تحته رئيس للجمهورية وبرلمان منتخَب.

كان تأسيس هذه الدولة الدينية الشيعية على أنقاض نظام حليف لإسرائيل والغرب بداية لأزمة سياسية كبيرة، أهم ملامحها احتجاز الثوار لموظفي السفارة الأميركية كرهائن، وما زال النظام الإيراني حتى اليوم خصمًا للغرب.

ومع ذلك، هناك من يشكك في الرواية الرسمية لثورة الخميني، ومنهم الصحفي الاستقصائي الأميركي روبرت دريفوس Robert Dreyfuss مؤلف كتاب "رهينة بقبضة الخميني" (Hostage to Khomeini) الصادر عام 1981 (1)، الذي يرى أن الخميني لم يكن سوى أداة بيد الغربيين لإحداث انقلاب على حليفهم الشاه في صورة ثورة شعبية.

ويقول في كتابه إن مشروع زعزعة استقرار حكم الشاه تمتد جذوره لقرن من الزمن، حيث عملت المخابرات البريطانية على زرع بذورها عبر رجال الدين الشيعة والجمعيات السرية لتهيئة الأجواء وشحن الشعب بالتمرد، ثم جاء تقرير لمنظمة العفو الدولية في نوفمبر ١٩٧٦ ليكون "الطلقة الأولى" التي أشعلت نيران الثورة بعد ثلاثة سنوات، فبدأ بذلك تسليط الضوء داخليًا وخارجيًا على انتهاكات حقوق الإنسان في نظام الشاه (2).

---

(1) كان دريفوس مدير شؤون الشرق الأوسط لدى مجلة EIR الأميركية المعنية بشؤون المخابرات، وهي تابعة لحركة لاروش ذات الميول الماركسية، والتي أسسها الناشط ليندون لاروش الذي حاول مرارًا الترشح للرئاسة عن الحزب الديمقراطي ولم ينجح، وحوكم بالسجن خمسة عشر عامًا بتهم الاحتيال، وكان يُتهم أيضًا بالانتقال من اليسار إلى أقصى اليمين واعتناق العديد من نظريات المؤامرة، لذا لا نستبعد أن يكون دريفوس متأثرًا بالعقلية التآمرية، ففي كتبه ومقالاته الكثير من المبالغات والافتراضات غير المقنعة، فضلا عن المعلومات المضللة.

(2) روبرت درايفوس، رهينة بقبضة الخميني، نسخة مترجمة بدون مترجم عن الأصل المنشور في دار نيو بنجامين فرانكلين هاوس كومباني إنك، نيويورك، 1980، ص 34- 39.

ويسرد المؤلف تفاصيل الاستنفار الذي قامت به منظمات المجتمع المدني الغربية لحشد الرأي العام ضد الشاه ونظامه، إلى جانب دعم منظمة فدائيي الإسلام (فدائيان إسلام) التي كانت قد انتقلت إلى العمل السري تحت قيادة آية الله خلخالي وآية الله الخميني، والتي كانت تدير نحو 200 ألف من الملالي المنتشرين في أنحاء إيران لتنفيذ خطة الانقلاب عبر التهييج الشعبي الديني (1).

ويذكر دريفوس أن الرئيس الأميركي جيمي كارتر كان في يناير ١٩٧٨ يحتضن الشاه ويمتدح إيران بأنها "جزيرة الاستقرار" في الشرق الأوسط المضطرب، بينما كان معاونوه قد بدؤوا بتدبير مؤامرة إسقاطه (2)، ويضيف أن الرجل الثاني في جهاز السافاك "منظمة المخابرات والأمن القومي" حسين فردوست كان هو المسؤول عن تدبير الانقلاب لصالح الخميني بإشارة من الغرب، لذا كافأه الخميني بعد إسقاط الشاه بحلّ جهاز السافاك وتأسيس جهاز "السافاما" بقيادة فردوست نفسه (3).

ويرى دريفوس أن استحداث الحكم الإسلامي الشيعي في إيران من قبل الغرب كان بحجة التصدي للتمدد الشيوعي بالمنطقة، مستشهدًا بتصريح رئيس مجلس الأمن القومي الأميركي زبيغنيو بريجينسكي -الذي كان القوة المحركة في إدارة كارتر- عندما قال لصحيفة نيويورك تايمز إنه يجب على واشنطن أن ترحب بانبعاث قوى الإسلام في الشرق الأوسط لأنها تعارض عقائديًا تلك القوى الكامنة في المنطقة الموالية للاتحاد السوفيتي (4).

---

(1) المرجع السابق، ص 40.

(2) المرجع نفسه، ص 24.

(3) المرجع نفسه، ص 45. وانظر أيضا: د. سالم حميد، "درس من التاريخ.. للمخدوعين بثورات الجحيم العربي..الخميني نموذجًا"، موقع مركز المزماة للدراسات والبحوث almezmaah.com، بدون تاريخ.

(4) رهينة بقبضة الخميني، ص 25.

وعلى المستوى الشعبي، تنتشر كثيرًا بين المسلمين العرب السنّة في المنطقة اتهامات مماثلة للنظام الإيراني بالعمالة للغرب، وأعتقد أن في هذه الإطلاقات مبالغة شعبوية تندرج تحت نظريات المؤامرة، والكثير مما قاله دريفوس في كتابه ليس سوى أساطير تؤكد جهله بعقائد المسلمين وتعقيدات الأنظمة السياسية في المنطقة، لكن هذا لا يعني استبعاد الفكرة تمامًا، فقد ثبت تاريخيًا دعم المخابرات الأميركية للجهاديين العرب السنّة في أفغانستان لوقف التمدد الشيوعي، ولا نستبعد أيضًا دعم هذه المخابرات لقيام نظام شيعي ديني ثوري يواجه بدوره المد الشيوعي آنذاك، ويُستخدم في الوقت نفسه لإلجام أي طموح سنّي توسّعي، ويشغل المسلمين بمعارك طائفية كما حدث بالفعل مع اندلاع الحرب ضد العراق في العام التالي لتأسيس نظام الخميني، والتي استمرت حتى صيف 1988، واستنزفت المليارات من ثروات بلاد الخليج وإيران والعراق وأهلكت أكثر من مليون جندي من الطرفين وأكثر من مئة ألف مدني.

❁ تصدير الثورة

أقام الخميني نظام الدولة الشيعية الجديدة كما ذكرنا على أساس "ولاية الفقيه"، معتبرًا أنها وظيفة عملية ومنصب اعتباري جعله الله في حالة غياب النبي والائمة للفقهاء، وكان الخميني قد تلقاها من الشيخ محمد النراقي، الذي عاش في القرن التاسع عشر الميلادي واشتهر بأنه أول من طورها وأعاد صياغتها في كتابه "عوائد الأيام" (1)، ويرى محققون أنه تقدّم على النراقي آخرون في الإشارة إليها كالمحقق الكركي في القرن السادس عشر الميلادي، وأيضًا المجلسي والميرداماد والبهائي والآخوند والنائيني.

(1) محمد خالد مصلح، "ولاية الفقيه بين الفقهية والكلامية"، مجلة Tsaqafah، العدد 7، أكتوبر 2011، ص 412.

وبحسب النظرية الخمينية، يحق للمرجع أن يتدخل في جميع أمور المجتمع سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو تربوية، وينبغي على القواعد الشعبية أن تطيع أوامره التي تتخذ صفة التشريع الإلهي.

وفي المقابل، يرفض تيار شيعي آخر ولاية الفقيه، وله أتباع في إيران والدول العربية، وعلى رأسه حوزة النجف في العراق ومرجعها الأعلى علي السيستاني الذي سنتحدث عنه بالتفصيل لاحقًا، فهذا التيار لا يجيز للمرجع أن يتدخل في الأمور السياسية والاجتماعية إلا بتقديم التوصيات غير الملزمة.

ويلخص النائب والشيخ العراقي إياد جمال الدين الخلاف بين التيارين بقوله إن النظرية الخمينية في إيران تنص على أن "للفقيه ولاية على الفقه ذاته، ويستطيع أن يغيّر نصوص الشريعة وينسفها ويكتب مكانها شرعًا جديدًا"، أما النظرية السيستانية في العراق فتنص على أن "الفقيه مفسّر للفقه ومحلل للموقف الشرعي"(1).

وينتمي للتيار الثاني شيوخ كبار في لبنان، مثل المرجع السيد علي الأمين، إذ قال في أحد الحوارات: "ولاية الفقيه ليست معتقداً دينيّاً أو مذهبيّاً للشيعة، ولذلك لم يقل بها الكثير من علمائهم في الماضي والحاضر. إن ولاية الفقيه هي نظرية سياسية في السلطة والحكم، وقد عارضها ويعارضها الكثير من الشيعة داخل إيران وخارجها، وهي ليست ولاية عابرة للشعوب والأوطان"(2).

وفي لقاء تلفزيوني على قناة "العربية-الحدث"، قال أيضًا: "لا نرى أن ولاية الفقيه عابرة للحدود.. ولاية الفقيه يجب أن تبقى محدودة في إيران".

---

(1) "مبدأ ولاية الفقيه بين المفاهيم الشيعية والتجربة الخمينية"، حوار على موقع قنطرة، 2014/7/12.

(2) "المرجع الشيعي السيد علي الأمين لـ«الأهرام العربي»: ولاية الفقيه نظرية سياسية وليست دينية– نرفض سب الصحابة وأمهات المؤمنين"، حوار أجرته صحيفة الأهرام العربي ونُشر على موقع السيد علي الأمين، 3 أكتوبر 2015.

وأكد أن "النهج الإيراني تم رفضه منذ بداية ثمانينات القرن الماضي"، معتبرًا أن "الرؤية الإيرانية نجحت في لبنان نتيجة ضعف الدولة"، ومشددًا على رفض ارتباط الشيعة في لبنان "بالرؤية الإيرانية"، كما اعتبر أن "حزب الله لا يمثل المذهب الشيعي"(1).

لكن التيار الخميني حظي بانتشار أكبر في الأوساط الشيعية بين العرب والفرس معًا، حيث نجح في تحويل الفكرة إلى واقع وإنشاء دولة قوية وغنية بالنفط على أساس "ولاية الفقيه"، مما أتاح له التنظير أيضًا لتصدير الفكرة وعولمتها.

ففي كتاب "تصدير الثورة كما يراه الإمام الخميني"(2)، نجد مئات المقتطفات من خطب ورسائل الخميني التي يعتبر فيها أن تصدير الثورة سيكون بمثابة رسالة لدحر الطغيان وإسقاط عروش الجبابرة والانتصار للمظلومين، مع التركيز على أن رسالة الثورة هي رسالة الإسلام العالمية وتجنب الإشارة للبعد المذهبي الشيعي.

وفي إحدى رسائل الخميني المؤرشفة بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٨٦، يقول إن رسالته الأخيرة لأتباعه هي أن يعملوا على "إعداد الأرضيّة لظهور منقذ البشرية وخاتم الأوصياء ومفخرة الأولياء"(3).

وقد ساهم مفكرون شيعة آخرون في التنظير لتصدير الثورة، مثل رئيس جمعية الفيزياء والرياضيات في إيران محمد جواد لاريجاني الذي طرح فكرة اعتبار إيران "أم القرى"، مستعيرًا هذا المصطلح من مكة نفسها كعاصمة للمسلمين، وكأن إيران أصبحت مركزًا للعالم الإسلامي في هذا العصر(4).

---

(1) "علي الأمين: ولاية الفقيه يجب أن تبقى محدودة بإيران"، موقع قناة العربية alarabiya.net، 26 أبريل 2015.

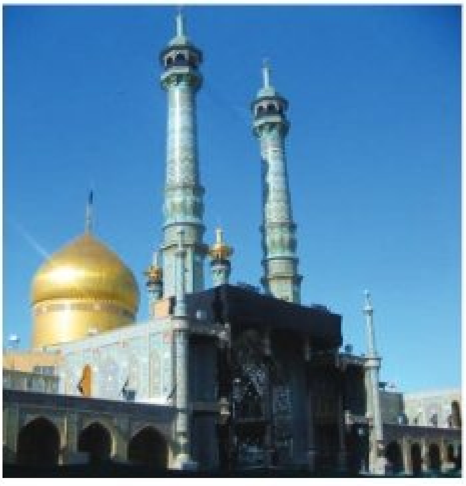
(2) منشور على موقع مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني arabic.irib.ir، بدون تاريخ.

(3) المرجع السابق، ص 20.

(4) محجوب الزويري، "حدود الدور الإقليمي الإيراني: الطموحات والمخاطر"، مركز الجزيرة للدراسات، 16 أبريل 2013.

وكان نجاح الخميني في إسقاط نظام متحالف مع الغرب وإسرائيل قد أثار بالفعل مشاعر الكثير من الإسلاميين السنة، وعلى رأسهم جماعة الإخوان المسلمين، حيث يذكر موقع "ويكيبيديا الإخوان المسلمون" أن الجماعة قابلت ثورة الخميني "بحماس كبير وتأييد على نطاق واسع"، حيث احتلت صورة الخميني غلاف مجلة الإخوان الرئيسية "الدعوة" في آذار 1979، كما وجّهت الجماعة دعوة لقيادات الحركة الإسلامية في كل من تركيا وباكستان والهند وإندونيسيا وأفغانستان وماليزيا والفلبين، بالإضافة إلى تنظيمات الإخوان المحلية في العالم العربي، لتشكيل وفد يقوم بزيارة إيران ويهئ الخميني بالثورة، وهي زيارة حدثت بالفعل في يونيو من العام نفسه (1).

لكن هذا الافتتان بالشعارات الإسلامية المرفوعة في طهران تبدد لاحقًا، فعلى سبيل المثال قال القيادي الإخواني السابق عبد المنعم أبو الفتوح في مذكراته: "لكن حماسنا للثورة بدأ يخفت تدريجيًا، خاصة بعدما بدرت منها روح طائفية في بعض المواقف، والتي استغلت للتشهير بها وتقديمها على أنها دولة صفوية جديدة تكنّ العداء لأهل السنة، ثم جاءت الحرب بينها وبين العراق لتزيد من فتور مشاعر التضامن معها" (2).



مرقد فاطمة بنت موسى الكاظم من أهم معالم مدينة قم

---

(1) "الإخوان المسلمون والشيعة (الجزء السادس)"، موقع الموسوعة التاريخية الرسمية لجماعة الإخوان المسلمين ikhwanwiki.com.

(2) "عبد المنعم أبو الفتوح: شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية في مصر (7)"، الموقع السابق.

مرحلة الصدام

بالرغم من تودد الإسلاميين السنة إلى الخميني عقب نجاح ثورته، كان الأخير على وشك الاشتباك مع أكبر جيرانه من العرب السنة في العراق، تزامنًا مع تخطيطه للتمدد في دول الخليج، ولا سيما السعودية التي تحتضن الحرمين وقبلة المسلمين.

كان التوتر بين إيران والعراق قائمًا أثناء حكم الشاه، وبعد تولي الخميني الحكم بنحو ثلاثة أشهر استولى صدام حسين على السلطة في بغداد وزاد من حدة التهديدات، وسرعان ما انتقلت التصريحات إلى مناوشات على الحدود ثم إلى حرب طاحنة، فدعمت دول الخليج العربية السنية نظام صدام باعتباره خط الدفاع الأول ضد تمدد ثورة الخميني، واتخذ صدام للحرب اسمًا ذا بعد طائفي عرقي وهو "قادسية صدام"، في إشارة لمعركة القادسية بين العرب المسلمين والفرس المجوس عام 636م.

وفي فيلم وثائقي بثه تلفزيون "بي بي سي" في سبتمبر 2010 ضمن سلسلة وثائقيات "ماذا حدث؟"، اتهم أول رئيس لإيران بعد الثورة الإسلامية أبو الحسن بني صدر الحزب الجمهوري الأميركي -وبعض قادته خاصة نيلسون روكفلر وهنري كسينجر- بالتخطيط لأزمة احتجاز الرهائن الأميركيين في طهران (موظفي السفارة)، وقال "جاء بعد ذلك مباشرة فرض العقوبات الاقتصادية ثم الهجوم العراقي على إيران بالترتيب الذي قلته".

كما أكد في الفيلم نفسه غاري سيك مساعد مستشار الأمن القومي الأميركي (بريجنسكي) لشؤون الخليج في إدراة جيمي كارتر أن نظام الخميني أرسل مبعوثًا إلى ألمانيا لبحث إنهاء أزمة الرهائن في 12 سبتمبر 1980، لكن الهجوم الذي شنه صدام بعد عشرة أيام "أنهى كليًا المباحثات التي كانت جارية

حيث اعتقد الإيرانيون أن الأميركيين هم المحرضون على هذه الحرب بسبب أزمة الرهائن" (1).

في الوقت نفسه، كان الخميني يحاول اختراق السعودية عبر بوابة الشرق حيث يتركز الوجود الشيعي في البلاد، فبدأ بدعم حركات الاحتجاج في مدينة القطيف عام 1981 ضد الحكومة السعودية.

وبحسب الرواية السعودية، أنشأ النظام الإيراني منظمة شيعية سرية داخل إيران لنشر فكر الثورة في دول الخليج، وعهد إلى الشيخ الشيعي حسن الصفّار بزعامتها الروحية، وأُطلق عليها اسم "منظمة الثورة الإسلامية لتحرير الجزيرة العربية"، لتصبح لاحقًا "منظمة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية"، وفي عام 1987 تشكل جناح عسكري للمنظمة تحت اسم "حزب الله الحجاز"، ويُعتقد أن هذا الجناح انفصل عن المنظمة ليصبح تابعًا مباشرة للحرس الثوري الإيراني (2).

ويشير مؤرخو تلك المرحلة إلى أن أغلبية السعوديين الشيعة الذين كانوا في قم آنذاك يؤيدون المدرسة الشيرازية التي ترى أن الحكومة الإسلامية الشيعية تدار من قبل تجمع من الفقهاء وليس الولي الفقيه الواحد، لكن الحرس الثوري أجبر العديد منهم على الالتحاق بالفكر الخميني، بينما اضطر آخرون للجوء إلى دمشق ودول أخرى (3).

---

(1) "ماذا حدث؟: أسرار الحرب العراقية الإيرانية بلسان شهودها"، bbc.com، 22 سبتمبر2010.

(2) خالد المشوح، "حزب الله الخليج.. تاريخ من المؤامرات باسم المقدّس والطائفة"، مجلة المجلة، 15 نوفمبر 2011.

(3) "حزب الله الحجاز السعودي"، موقع بوابة الحركات الإسلامية islamist-movements.com، 12 مايو 2014.

وفي موسم الحج بأواخر يوليو 1987، بدأ الصدام الفعلي عندما قادت مجموعة من الحرس الثوري الإيراني وحزب الله الحجاز المئات من الحجاج الإيرانيين والشيعة السعوديين للتظاهر في مكة المكرمة ودعوة المسلمين لمؤازرة ثورة الخميني، ما أسفر عن صدام دموي مع السلطات السعودية، ذهب ضحيته 402 قتيلا و649 جريحًا، أكثر من نصفهم من الإيرانيين (1).

وتجددت مظاهرات الحج في العام التالي وأسفرت عن سقوط ضحايا، كما تتهم السلطات السعودية "حزب الله الحجاز" بالمسؤولية عن أعمال "إرهابية" عدة، من أهمها تفجير شركة صدف البتروكيماوية في مدينة الجبيل عام 1988، وتفجير مبنى للحرس الوطني في الرياض عام 1995، وتفجير أبراج الخبر عام 1996 والذي أسفر عن مقتل 19 أميركيًا بمدينة الخبر (2).

ويرى الباحث السعودي خالد المشوح أن "انكشاف مخططات إيران" دفع العديد من الناشطين الشيعة في الخليج للتراجع عن موالاتهم لنظام ولاية الفقيه، كما اضطروا للوقوف إلى جانب سلطات بلادهم أثناء حرب الخليج الثانية جراء اختلاط الكثير من الأوراق في المنطقة. وفي عام 1993 تم الاتفاق بين الحركة الإصلاحية الشيعية والحكومة السعودية على إنهاء النشاط السياسي في الخارج وقطع العلاقات مع طهران (3).

لكن هذه المصالحة لم تضع حدًا للتوتر بين السعودية وإيران، كما لا يزال الشيعة في السعودية والخليج متهمون بإثارة القلاقل وموالاة طهران، ولا سيما بعد اندلاع الربيع العربي وانطلاق موجة احتجاجات البحرين عام 2011.

---

(1) Emmanuel Sivan and Menachem Friedman, Religious Radicalism and Politics in the Middle East, SUNY Press, 1990, p. 190.

(2) "حزب الله الحجاز السعودي"، مرجع سابق.

(3) خالد المشوح، مرجع سابق.

الصراع في لبنان

يتعقد المشهد الطائفي في لبنان أكثر من أي بلد آخر في المنطقة، وقد كانت الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990) من أبرز الشواهد على الاحتقان الطائفي هناك، وسنركز بحثنا هنا على الصراع المتعلق بالشيعة ونتجنب ما له علاقة بالمسيحيين الموارنة.

يمكن القول إن ظهور حركة أمل كان بداية للاصطفاف الطائفي الشيعي في لبنان، وكان تأسيسها قد سبق الثورة الإسلامية في إيران بنحو خمس سنوات، إذ تشكلت على يد الشيخ الشيعي موسى الصدر عام 1974 تحت مسمى حركة المحرومين، وكان هدفها المعلن في بيانها التأسيسي "محاربة الحرمان وإرساء العدالة الاجتماعية"، إلى جانب مقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

اختفى الصدر خلال زيارته إلى ليبيا عام 1978، وعندما وصل الخميني إلى السلطة في إيران تفاءلت قيادات الحركة بأن يدعمهم بالضغط على نظام القذافي للكشف عن مصير الصدر، لكن طهران لم تحرك ساكنا، إذ يُعتقد أنها لم ترغب بإفساد علاقتها مع طرابلس، ما دفع وفدًا من الحركة إلى تسجيل اعتراضه خلال زيارته إلى طهران [1].

ويقول الشيخ الشيعي اللبناني السيد علي الأمين لصحيفة الشرق الأوسط إن حركة أمل كانت عربية شيعية، وإن الخلافات بدأت تظهر بينها وبين نظام الخميني عندما ظهرت ملامح المشروع الإيراني لتصدير أفكار الثورة الإيرانية إلى لبنان، فأدركت إيران أن أمل لن تكون أداة مناسبة في مشروعها [2].

ويقول المفكر اللبناني الشيعي هاني فحص إن غياب الصدر أدى إلى تزايد نفوذ تيار داخل حركة أمل يدعو للتوجه صوب الارتباط بثورة الخميني، تزامنًا

---

(1) منال لطفي، "ولادة حزب الله.. على أنقاض أمل"، صحيفة الشرق الأوسط، العدد 10763، 17 مايو 2008.

(2) المرجع السابق.

مع نشاط إيران لاحتضان الحوزات الدينية في لبنان بعد تضاؤل أهمية الحوزات في مدينة النجف الخاضعة لسلطة صدام حسين، وقاد هذا التيار كلٌّ من الشيخين صبحي الطفيلي وعباس الموسوي، مما فتح الباب أمام تأسيس حركة جديدة أكثر ارتباطًا بطهران تحت مسمى "حزب الله" (1).

انتُخب الشيخ صبحي الطفيلي عام 1989 لمنصب أول أمين عام لحزب الله، وبدأ تصعيد عمليات المقاومة المسلحة ضد الوجود الإسرائيلي في الجنوب اللبناني، وتقديم الدعم للانتفاضة الفلسطينية، وفي عام 1991 تولى عباس الموسوي قيادة الحزب عبر انتخابات مباشرة، وعندما أعلن الطفيلي العصيان المدني ضد الحكومة اللبنانية عام 1997 احتجاجًا على تردي أوضاع الشيعة قرر الحزب فصله، حتى وقعت اشتباكات مسلحة داخل الحزب نفسه في مطلع عام 1998، ووقف فيها الجيش إلى جانب مسلحي الحزب ضد أنصار الطفيلي.

اكتسب الحزب الشيعي شرعيته منذ تأسيسه في منطقة ذات أغلبية سنية بكونه ممثلًا للمقاومة ضد إسرائيل، فاشتبكت مليشياته مع القوات الإسرائيلية مرات عدة، ومنها عمليات التصدي لهجمة "تصفية الحساب" عام 1993، ولعدوان "عناقيد الغضب" عام 1996، وتنفيذه عملية "أنصارية" عام 1997 التي أسقطت 17 إسرائيليًا بين قتيل وجريح. واستمر صعود شهرة الحزب كحركة مقاومة إقليمية مرورًا بانسحاب الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان عام 2000، ووصولًا إلى حرب تموز عام 2006 التي دُمرت فيها البنية التحتية في الضاحية الجنوبية لبيروت، معقل الحزب الرئيس (2).

---

(1) المرجع نفسه.

(2) نادية سعد الدين، الحركات الدينية السياسية ومستقبل الصراع العربي-الإسرائيلي، مركز الجزيرة للدراسات في الدوحة، الدار العربية للعلوم في بيروت، ط1، 2012، ص 367- 381.

ونال حزب الله جراء هذه الاشتباكات وعمليات تحرير الأسرى شعبية كبيرة في الوسط السنّي بالمنطقة كلها، لكنها سرعان ما تبددت بعد تورط الحزب في قمع الثورة السورية منذ شهورها الأولى عام 2011، ولعل مؤسس الحزب نفسه هو أبرز الشهود على تحولات أهداف الحزب من المقاومة إلى الصراعات الطائفية مع المحيط السني.

وكان الطفيلي قد عانى من التهميش بعد فصله، وبدأ بإعلان مواقف تبتعد تدريجيًا عن الخط الشيعي في المنطقة، فقال إن دور الحزب تحول في السنوات الأخيرة من المقاومة إلى حرس حدود لإسرائيل، وانتقد بشدة اجتياح حزب الله للعاصمة بيروت في السابع من مايو 2008، كما عارض تدخل حزب الله في الحرب السورية إلى جانب قوات النظام السوري، ورأى فيه تهديدًا للشيعة وخطأ سيدمر الأمة، بل أيّد الثورة السورية نفسها بالرغم من التدخل الإيراني المباشر لقمعها(1).

وعندما هاجم الأمين العام للحزب حسن نصر الله السعودية وعملية "عاصفة الحزم" ضد الحوثيين الشيعة في اليمن في مارس 2015 انتقده الطفيلي بشدة، كما وجّه انتقاده للحوثيين، وشمل في نقده النظام السوري الذي اتهمه بتأسيس تنظيم الدولة الإسلامية، مشيرًا إلى أن الحكومة العراقية فيما مضى اتهمت النظام السوري بالوقوف خلف تدريب وتجهيز الانتحاريين الذين كانوا يفجرون المساجد والأسواق في بغداد وغيرها، وقال "هؤلاء أنفسهم حوّلهم النظام السوري إلى داعش (تنظيم الدولة)"(2).

(1) "صبحي الطفيلي"، موسوعة الجزيرة، موقع الجزيرة نت aljazeera.net، 27 أكتوبر 2014.

(2) "مؤسس حزب الله ينتقد مهاجمة نصر الله السعودية"، الجزيرة نت، 29 مارس 2015.

الصراع في العراق

يختلف الشيعة والسنّة في العراق على نسبة ما يمثله كل مذهب من مجموع السكان، فالشائع لدى الشيعة أن نسبتهم إلى مجموع السكان بكل مذاهبهم ومرجعياتهم تزيد على 60%، ويزعم البعض أنها تمثل 85% من سكان العراق [1]، لكن أكاديميين شيعة يشككون في هذه الأرقام ويرون أن النسبة لا تزيد عن 45% [2]، بينما يرى عميد جامعة النهرين العراقية سابقا مازن الرمضاني أن أول من أطلق المزاعم بكون الشيعة يمثلون الأغلبية في العراق هو الكاتب اليهودي حنا بطاطو، حيث تشير العديد من الدراسات المستندة إلى إحصاءات رسمية إلى أن السنة يزيدون عن نصف سكان العراق بقليل [3].



يتدفق ملايين الشيعة كل عام من إيران إلى مدينتي النجف وكربلاء في العراق لإحياء شعائر "حج الأربعين" التي تمثل الحداد على وفاة الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(1) "الشيعة في العراق اليوم"، موقع الإمام الشيرازي alshirazi.com.

(2) ومنهم محمد جواد علي رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة بغداد. انظر: سؤدد فؤاد الآلوسي، الغزو الأميركي للعراق: حقائق وأرقام، دار المعتز، 2012، ص 239.

(3) المرجع السابق.

وتشير الكثير من الدراسات والتقارير الصحفية إلى أن العراق كان بعيدًا عن الاحتقان الطائفي بين الشيعة والسنة في العقود الماضية (1). وفي ظل الحكم الشمولي لحزب البعث، لم تسمح السلطات للطائفية بالظهور، بل فرضت الأفكار القومية العلمانية بحكم القوة، إلى درجة اضطرار الكثير من الشيعة للاصطفاف وراء السلطة في الحرب ضد نظام الخميني (2).

لكن التعايش الطائفي -الذي تمثل في الكثير من حالات الزواج بين الشيعة والسنة- سرعان ما تبدد أثناء الاحتلال الأميركي للعراق بدءًا من عام 2003، فبعد استهداف مرقدي الإمامين العسكري والهادي عام 2006 في سامراء ببغداد (3)، شهد العراق أعمال عنف طائفي غير مسبوقة (4)، وامتلأت وسائل إعلام الشيعة بالحديث عن "مظلوميّتهم" التاريخية والمطالبة بحقوقهم بصفتهم "أكثرية" (5).

---

(1) على سبيل المثال، لا نجد في كتاب الأكاديمي علي الوردي "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" أثرًا للطائفية، وقد درس في كتابه هذا المجتمع العراقي ما بين الثلاثينات ومنتصف الستينيات من القرن العشرين، أي ما بعد الاستقلال عن بريطانيا.

(2) Helen Chapin Metz, Iraq: A Country Study, Federal Research Division, Library of Congress, Washington D.C, 1988.

(3) يتهم الشيعة تنظيم القاعدة بتفجير الضريحين، بينما يعتقد باحثون سنة أن الأمريكيين والإيرانيين تآمروا لتنفيذ هذا الهجوم تمهيدًا لعمليات تطهير طائفي ضد السنة في بغداد، وهو ما حدث بالفعل. انظر: عبد الهادي علي، الاستيلاء على مساجد السنة من خطوات مسلسل الشيعة في التغيير الديمغرافي في العراق، سلسلة الراصد الإلكترونية alrased.net، العدد 110، يوليو 2012.

(4) علاء يوسف، "التغيير الديمغرافي.. آلية طائفية لتمزيق العراق"، موقع الجزيرة نت، 11 سبتمبر 2014.

(5) من الأمثلة على ذلك تصريح عبد العزيز الحكيم نائب رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق بقوله "سنسعى أولا إلى إقامة نظام سياسي وطني. ولكن الشعب العراقي سيطالب في النهاية

وتبعت هذا العنف موجة تغييرات في تركيبة العراق السكانية قد تظل آثارها على مدى قرون، ومن ملامحها حثُّ سكان المحافظات الجنوبية من الشيعة على الانتقال للمناطق السنّية في الوسط والغرب والشمال، وخصوصًا بغداد، كما استغل الشيعة مراكزهم الدينية في وسط المواقع السنية لنشر التشيع في محيطهم (1).

وقبل أن نستعرض المواقف السياسية لشيعة العراق، لا بد من التوقف عند الخلافات الفكرية أولًا. فكما ذكرنا سابقًا يحتضن العراق مرجعية النجف التي يتبعها ملايين الشيعة حول العالم، وعلى رأسها السيستاني، وإلى جانبه كل من محمد إسحاق الفياض وبشير النجفي، وهؤلاء الثلاثة من أصول غير عراقية، لذا فهم يتمتعون بقيمة دينية أكثر السياسية، ونادرًا ما يتدخلون في السياسة. والأهم من ذلك أن مرجعية السيستاني لا تؤمن أصلًا بنظرية ولاية الفقيه التي أقيم عليها النظام الإيراني، بل تؤمن فقط بالولاية الحسبية للفقيه، أي أن له ولاية في الأمور الحسبية وقبض الحقوق الشرعية والتصرف فيها مثل الأوقاف وأموال اليتامى والقاصرين، أما الولاية العامة فلا تكون إلا للإمام حتى لو كان غائبًا.



صورة تعود إلى 2009 للمرجع الأعلى علي السيستاني

= بجمهورية إسلامية"، وأضاف "إن إرادة الشيعة في إقامة جمهورية إسلامية ستنتصر، لأنهم يمثلون أغلبية تساوي 60% من السكان". انظر: غلين كيسلر ودانا بريست، واشنطن فوجئت بقوة تنظيم الشيعة في العراق وتخشى من قيام حكومة أصولية على النمط الإيراني، صحيفة الشرق الأوسط، العدد 8913، 24 أبريل 2003.

(1) عبد الهادي علي، "المخطط الإيراني لتقسيم المحافظات السنية العراقية"، سلسلة الراصد الإلكترونية، العدد 107، أبريل 2012.

ومع ذلك، تضم حوزة النجف مرجعيات أخرى بآراء مختلفة ولو كانوا أقل تأثيرًا، مثل قاسم الطائي ومحمد اليعقوبي، اللذان يعتقدان بولاية الفقيه، ويتبع بذلك روحيًا للخامنئي في إيران، ومحمود الصرخي الذي يؤمن نظريًا بولاية الفقيه ولكنه لا يتبع خامنئي بل يتبع مدرسة الصدرَيْن التجديدية التي أسسها محمد باقر الصدر الذي أعدمه صدام حسين عام 1980، ومحمد صادق الصدر الذي اغتيل عام 1999، لذا نجد للصرخي مواقف رافضة للسيستاني مع أنه تابع لحوزته (1).

ونجد أيضًا في حوزة النجف خلافًا علميًا بين رواة الحديث، فهناك فريق يعتمد على رجالات الشيخ الحلي، الذي عاش في القرن الثامن الهجري، بينما يعتمد فريق آخر على رجالات الشيخ الطوسي من القرن الخامس، ويتبع هذا الخلاف خلاف فقهي في تفاصيل كثيرة.

وبالعودة إلى المدرسة الصدرية، نجد أن في داخلها أيضًا خلاف بين المؤسسَين، فمحمد باقر الصدر كان يرى أن الفقيه الذي يستحق الولاية هو الأعلم بأصول الفقه، بينما كان محمد صادق الصدر يرى أن الفقيه لن يصبح وليًا إلا بسلوك طريق باطني شاق، أي بطريقة صوفية. وبذلك فإن المدرسة الصدرية تخالف حوزة قم التي ترى أن الولي الفقيه هو الأعلم بكل من الأصول العقلية المنطقية وقواعد الفقه المستفادة من تراث الأئمة، لذا لا يتبع التيار الصدري حوزتي النجف وقم، بل يتبع المرجع كاظم الحائري، وهو شيخ عراقي تعلم في النجف وانتقل إلى قم وما زال يعيش فيها، ومع أنه محسوب بذلك على حوزة قم إلا إنه يمثل مرجعية مستقلة نسبيًا (2).

---

(1) فراس الناصر، "ما طبيعة الصراع بين المرجعيات الشيعية في العراق وأسباب خلافها مع مرجعية قم الإيرانية؟"، الجزيرة نت، 21 أبريل 2022.

(2) المرجع السابق.

وعلى الصعيد السياسي، تنقسم الطائفة الشيعية في العراق بين قطبين متنافسين، الأول هو التيار الصدري بقيادة مقتدى الصدر، والثاني هو تحالف "الإطار التنسيقي"، الذي يضم أحزابًا وفصائل مقربة من إيران، وأهم ممثليها قائد مليشيا الحشد الشعبي هادي العامري ورئيس الوزراء السابق نوري المالكي.

وبالعودة إلى تاريخ صعود التيار الصدري، فقد زاد نفوذ زعيمه مقتدى الصدر في 9 أبريل 2003 عندما دعا إلى مقاومة الاحتلال الأميركي، وانتقد ضمنيًا حياد حوزة النجف أمام الاحتلال، ثم شكّل في شهر يونيو مليشيات "جيش المهدي".

كما ندد الصدر بمجلس الحكم الانتقالي الذي عينته واشنطن آنذاك لأنه "غير شرعي"، وهدّد بإعلان الثورة على الأميركيين عندما صرح الحاكم الأميركي بول بريمر برفض الإسلام كمصدر رئيس للتشريع في العراق، فاندلعت مواجهات بين أنصار الصدر والأميركيين، وأعلن الصدر أنه يضع نفسه تحت تصرف حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحزب الله اللبناني ليكون "ذراعهم الضاربة في العراق". لكن الحماس الذي أعقب هذه المواقف تبدد لاحقًا، إذ تدخّل السيستاني وقدّم مبادرة سلام انتهت باتفاق لوقف إطلاق النار بين جيش المهدي والأميركيين، وتحول الصدر إلى المهادنة والانضمام للعملية السياسية، ومع أن القوات الأميركية زادت أعدادها في 2007 إلا أن الصدر أمر أتباعه المسلحين بوقف جميع أنشطتهم، إذ يتهم السنّة "جيش المهدي" بتحويل سلاحه في تلك الفترة من مقاومة الاحتلال إلى ارتكاب أبشع الجرائم الطائفية ضد السنّة، مما دفع رئيس الوزراء آنذاك نوري المالكي للتوجيه بشن هجوم كبير لسحق "جيش المهدي" في مدينة البصرة في مارس 2008، بعدما اتهمه بتشكيل فرق اغتيال لخطف وقتل شخصيات سنية، مع أن المالكي نفسه -وهو قائد حزب الدعوة الشيعي- مُتهم أيضًا بالتورط في الجرائم الطائفية، وانتهى

الأمر بإعلان الصدر حلّ "جيش المهدي"، ولم تأت هذه الخطوة إلا بعد اكتمال التغيير الديمغرافي لصالح الشيعة في مناطق عدة، وأهمها بغداد.

كانت مواقف الصدر تتسم بالتناقض منذ بداية صعوده، إذ انتقل من محاربة الأميركيين إلى دعم حلفائهم، ومن تأييد حكومة نوري المالكي آنذاك إلى معاداته [1]، ومع أنه أعلن حلّ تنظيمه المسلح في 2008 إلا أنه أعلن لاحقًا في يونيو 2014 تأسيس "سرايا السلام" لحماية المراقد والمقدسات الشيعية إبان توسع نفوذ تنظيم الدولة الإسلامية [2]، ومع أنه انتقل بعد إعلان للتهدئة في 2003 إلى قم الإيرانية كي يتفرغ للدراسة على يد مرجعه الحائري، فقد ظل محسوبًا على خصوم إيران، وبعدما كان الوجه الأبرز للجرائم الطائفية ضد السنّة بادر في 2009 بزيارة أنقرة للقاء الرئيس التركي عبد الله غول ورئيس الوزراء رجب طيب أردوغان آنذاك، ثم قام في 2017 بزيارة أخرى مفاجئة إلى كل من السعودية والإمارات للقاء ولي العهد في البلدين.



مقتدى الصدر يحضر اجتماعا في طهران في 2019 ما بين المرشد الأعلى علي خامنئي و قائد فيلق القدس قاسم سليماني (khamenei.ir)

(1) "التيار الصدري.. تاريخ من المواقف المتناقضة"، الجزيرة نت، 4 مارس 2015.

(2) طه العاني، "التيار الصدري في العراق من النشأة إلى صدارة الانتخابات"، الجزيرة نت، 16 أكتوبر 2021.

ربما تكون رغبة مقتدى الصدر في التفرّد وعدم التبعية لإيران هي مفتاح فهم مواقفه التي جعلته الرقم الأصعب في الساحة العراقية، ففي فبراير 2016 قاد أنصاره في مسيرة مليونية لاحتلال ساحة التحرير ببغداد احتجاجًا على "الفساد"، واقتحم أنصارُه البرلمان في استعراض صارخ للقوة، وبعد عامين نجح ائتلاف "سائرون" بزعامة الصدر في الفوز بأكبر عدد من مقاعد البرلمان، ووصلت قيادات تياره إلى مناصب عليا في وزارتي الداخلية والدفاع.

وكانت تحليلات المراقبين آنذاك ترى أن صعود الصدر السياسي ما كان ليحدث بهذا التسارع لو لا الفراغ الذي تركه السيستاني بميله إلى الحياد، فمع أن الصدر لم يكمل دراسته الدينية، ولا يبدو أنه مؤهل لبلوغ درجة "الاجتهاد" كي ينال لقب "آية الله" مثل والده الراحل محمد باقر الصدر، لكن إصرار مراجع حوزة النجف على العزلة سمح لمقتدى بالتحدي ومحاولة اكتساح الشارع الشيعي كله، وحتى السنّي أيضًا، فهو يتقن الظهور في صورة القائد الوطني المحارب للفساد الداخلي وللاحتلال الخارجي معًا، ويتجرأ على التصدي للنفوذ الإيراني.

في المقابل، كان السيستاني قد لزم الصمت عندما سقطت بغداد في أيدي الاحتلال عام 2003، ولم تصدر عنه فتوى تتيح المقاومة، بينما كان أنصار الصدر يخوضون معارك ضارية ضد أقوى جيش في العالم وتحتل أخبارهم صدارة الصحف العالمية.

من جانب آخر، كان الشارع العراقي يزداد غضبًا كل عام مع تراكم مشكلات الفساد والبطالة والطائفية (1)، ثم جاء الانتشار المفاجئ لتنظيم الدولة الإسلامية حتى كاد يبتلع نصف مساحة العراق (2)، قبل أن تعلن الحكومة

---

(1) في عام 2019، احتل العراق التصنيف 162 من بين 180 دولة في مؤشر الفساد العالمي. انظر: تقرير منظمة الشفافية الدولية-2019.

(2) سيظل لغز هذا الانتشار العجيب من أسوأ فضائح الفساد السياسي في العصر الحديث، إذ سيطرت مليشيات تنظيم الدولة بسلاحها البسيط على مخازن قيل إنها كانت تحتوي على ربع أسلحة =

تشكيل فصائل "الحشد الشعبي" ذات الأيديولوجية الشيعية المتطرفة لمقاومة التنظيم، وتغرق البلاد في دوامة طائفية قد تمتد آثارها الاجتماعية المدمرة لعقود مقبلة، فضلا عما سببته هذه الحرب من دمار هائل في محافظات الأنبار ونينوى وكركوك [1]، مع تحميل الحكومة مسؤولية السماح لتنظيم الدولة بالتوسع، وأدى كل هذا الاحتقان إلى اندلاع "مظاهرات تشرين العراقية" في بداية أكتوبر 2019، والتي اتسع مداها ليتحول إلى أزمة سياسية كبيرة، شملت حملات واسعة من الإضراب والعصيان المدني وأعمال الشغب، ما دفع السيستاني للتدخل ومطالبة رئيس الحكومة (الشيعي) عادل عبد المهدي بالاستقالة، والذي كاني يشغل أيضًا منصبي وزير الدفاع والداخلية بالوكالة، وهو أحد قادة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية الذي أسسه محمد باقر الحكيم في إيران للمحاربة إلى جانب الجيش الإيراني ضد العراق في عهد صدام حسين. وفي

= الجيش العراقي كله، بينما اكتفى الجيش بالانسحاب، وهو الحدث الذي سمح تلقائيًا بتحول التنظيم إلى دولة حقيقية تثير رعب العالم من "الإرهاب السني"، ثم يندفع المجتمع الدولي إلى تشكيل أحد أكبر التحالفات العسكرية منذ الحرب العالمية الثانية لمقاتلة هذا الوحش، وبمشاركة جيوش عربية، وهو الأمر الذي أدى فعليًا إلى إنهاء الثورة السورية والسماح للنظام السوري بالبقاء في الحكم بعدما صُرفت الأنظار عن مطالب السوريين إلى هدف دولي واحد وهو القضاء على تنظيم الدولة. وكان البرلمان العراقي قد شكّل في عام 2014 لجنة نيابية للتحقيق في أحداث الموصل، وجرت بالفعل مناقشات في البرلمان مع قادة في الجيش والشرطة ومسؤولين من الموصل وبغداد، ولكن لم تتحقق المحاسبة أو أي مظهر من مظاهر المحاكمة، مع أن اللجنة توصلت بالفعل -كما تسرّب- إلى وجود مؤامرة كبيرة لإتاح الفرصة لتنظيم الدولة بالتغوّل قبل القضاء عليه. انظر: زيد سالم، تسع سنوات على سقوط الموصل، صحيفة العربي الجديد، 10 يونيو 2023.

(1) تقدر خسائر هذه الحرب وفقًا لوزارة التخطيط العراقية بأكثر من 88 مليار دولار، مع أن معظم الشعب يعاني من تدهور الوضع الاقتصادي وغياب الحاجات الأساسية، أما الخسائر البشرية المؤسفة فتقدر بنحو ربع مليون قتيل وجريح، وعشرات آلاف المختطفين والمغيبين، ويكفي أن نعرف أن مدينة الموصل وحدها شهدت تدمير أكثر من 56 ألف منزل، وتسجيل أسماء 11 ألف مفقود. انظر: المرجع السابق.

29 نوفمبر 2019 استقال عبد المهدي بالفعل [1]، لكن المواجهات استمرت حتى أسفرت عن سقوط ألف قتيل على الأقل من المتظاهرين.

استمرت الاضطرابات عشرة أشهر حتى يوليو 2021، وشهدت تدخلًا لكل المليشيات والأطراف الشيعية، حتى أصبحت بغداد ومناطق عدة ساحات حرب حقيقية، وكان أكثر الأيام دموية هو السابع والعشرين من نوفمبر 2019 عندما تجرأ المحتجون الغاضبون من التدخل الإيراني في بلادهم على إحراق القنصلية الإيرانية في مدينة النجف، إذ يعدّ هذا اليوم من أكثر الأيام إحراجًا للنظام الإيراني الذي سرعان ما ألقى باللائمة على «مُندسين وعملاء للخارج»، بينما ظهر للعالم أن الكثير من شباب الشيعة غاضبون من المرجعيات الكبرى، ومن تناحرها وتدخلاتها السياسية.

وقبل استعادة الشوارع هدوءها، ظهر أول تصريح من شخصية محسوبة على حوزة النجف يندد علنًا بالتدخل الإيراني، فقال الشيخ حميد الياسري أحد ممثلي السيستاني في لقاء علني "أن يأتينا الصوت والتوجيه والإرشاد من خلف الحدود، فهذه ليست عقيدة الإمام الحسين، فنحن نرفض هذه الانتماءات والولاءات ونعلن بأعلى أصواتنا بلا خوف وبلا تردد أن من يوالي غير الوطن فهو خائن" [2]، وكان يقصد بذلك ميليشيات الحشد الشعبي الموالية لإيران.

---

(1) جون ديفيسون، "رئيس وزراء العراق يعلن استقالته بعد دعوة من السيستاني لكن العنف استعر"، وكالة رويترز ara.reuters.com، 29 نوفمبر 2019.

(2) "مقرب من السيستاني يهاجم إيران ويتهم ميليشيات الحشد بـ'الخيانة'"، موقع ميدل إيست أونلاين middle-east-online، 15 أغسطس 2021.

وكان مقتدى الصدر قد شارك بدوره في تلك الأحداث وأعاد تسمية مليشياته باسم «القبعات الزرقاء»، ودفعها للساحات بحجة حماية المتظاهرين السلميين، كما أعاد رفع شعارات محاسبة الفاسدين والمتورطين في العنف (1). وفي أكتوبر 2021، فاز التيار الصدري مجددًا بالعدد الأكبر من مقاعد البرلمان، لكن العدد لم يكن كافيًا ليشكل الحكومة، وفي يونيو 2022 اقتحم أنصاره البرلمان مجددًا لإعلان رفضهم لتشكيلة الحكومة، وأعلن مقتدى الاعتصام المفتوح في مبنى البرلمان حتى تُشكل الحكومة التي ترضيه.

وفي 28 أغسطس 2022، أعلن المرجع كاظم الحائري من قُم اعتزاله للمرجعية، موجّهًا نقدًا ضمنيًا إلى مقتدى الصدر، وداعيًا أتباعه إلى طاعة خامنئي، ليضع بذلك الصدر في مواجهة خامنئي نفسه، وبذلك رُفع غطاء المرجعية الدينية عن التيار الصدري، إذ لا يتمتع مقتدى بالأهلية العلمية ولا بد له من اتباع مرجع بلغ رتبة الاجتهاد. ويُعتقد أن مرجعية الحائري كانت رمزية فقط لدى مقتدى بناء على وصية والده محمد الصدر له باتباع رفيق دربه الحائري، لكن مقتدى كان قد شق لنفسه طريقًا خاصًا عندما شكّل جيش المهدي ودخل معترك السياسة، بل حدثت قطيعة بينه وبين مرجعه عندما اصطدم مقتدى بحكومة المالكي في (2)2008، فلم يجد الحائري بدًّا في النهاية من إعلان الاعتزال كي يتخلص من ارتباطه بمقتدى، مع أنها المرة الأولى التي يعلن فيها شيخ تخليه عن المرجعية حتى لو تعذر بالمرض.

وإزاء هذا الموقف المحرج، أصدر مقتدى في اليوم التالي إعلانه باعتزال الحياة السياسية نهائيًا وإنهاء الاعتصام في البرلمان، وألمح في رسالة اعتزاله إلى

---

(1) "Iraq's Sadr threatens to withdraw supporters from Tahrir after teenager lynched", middleeasteye.net, 12 December 2019.

(2) سناء الخوري، م"ن هو المرجع الشيعي كاظم الحائري؟ وما علاقته بمقتدى الصدر؟"، بي بي سي عربي، 30 أغسطس 2022.

أن إيران تقف ربما خلف اعتزال الحائري وانتقاده له، وقال أيضًا إن "النجف الأشرف هي المقرّ الأكبر للمرجعية"، وكأنه يلمح إلى أن شيعة العراق ليسوا مضطرين للرضوخ لسلطة خامنئي (1).

لم يفاجئ هذا الإعلان المراقبين لمعرفتهم بشخصية مقتدى وتاريخه، بل اعتبروه مجرد مناورة أخرى قبل أن يعود لإستراتيجية حافة الهاوية التي ينتهجها واحتجاجات الشوارع، لتكون له "اليد الطولى على خصومه" (2)، إذ سبق له أن أطلق عدة تهديدات بالاعتزال، بل أعلن أيضًا الاعتزال بالفعل في أحداث سابقة، ومنها مثلا إعلان الانسحاب من العمل السياسي وحل التيار في فبراير 2014، ثم إعلانه في أبريل 2016 تجميد كتلة "الأحرار" التابعة لتياره في البرلمان (3).

وقد عاد أنصاره بالفعل للاحتجاج في صيف 2023، ولكن ليس على الحكومة هذه المرة، فبعدما تجرأ لاجئ عراقي ملحد في ستوكهولم على إحراق نسخة من المصحف تحت حماية الشرطة، نزل أنصار الصدر إلى شوارع بغداد وهاجموا مبنى السفارة السويدية وأحرقوا جزءًا منها، وتجددت المظاهرات بعدها وسط تنديد من الصدر بصمت العالم الإسلامي على حادثة قام بها لاجئ، بينما تحدث مراقبون عن استعراض الصدر لقوته تمهيدًا لعودته إلى الساحة ومنافسة خصومه من الشيعة أيضًا (4).

في الخلاصة، وبعد عشرين عامًا على سقوط نظام صدام حسين، يبدو أن الأزمات السياسية المتلاحقة في العراق كشفت عمق الشروخ في جسد الطائفة

---

(1) تحليل مقتضب من باحثي كارنيغي حول الأحداث المتعلقة بالشرق الأوسط وشمال أفريقيا، مرجع سابق.

(2) Mohamad Bazzi, "The Revenge of Muqtada al-Sadr", foreignaffairs.com, 13 September 2022.

(3) "مقتدى الصدر والسياسة.. 9 اعتزالات في 9 سنوات"، وكالة الأناضول aa.com.tr، 30 أغسطس 2022.

(4) "هبّة الصدر أبعد من نصرة الإسلام.. أقرب لاستعراض القوة"، صحيفة العرب، alarab.co.uk، 21 يوليو 2023.

الشيعية، والتي وصلت إلى درجة قد تستحيل معها استعادة الوحدة، فالتنافس بين مرجعيتي النجف العراقية وقم الإيرانية لم يعد خافيًا، ومحاولات الصدر لإيجاد خيار ثالث بينهما وصلت تقريبًا إلى طريق مسدود.

ويمكن القول بإيجاز إن مرجعية النجف المتمثلة في السيستاني تؤثر الصمت في مواقف عدة، بينما لا يخفى امتعاضها من التدخل الإيراني في العراق، كما أنها تعجز عن احتواء الصدريين، ومرجعيتا طهران وقم -من حيث كونهما المرجعية الروحية للنظام السياسي الإيراني- تقفان وراء قوات الحشد الشعبي الشيعية العراقية -التي تشكلت بذريعة محاربة تنظيم الدولة وارتكبت بدورها جرائم طائفية- وهي أكثر قوة وتسليحًا من أنصار الصدر، كما أنها مدعومة من الحكومة العراقية رسميًا. أما التيار الصدري فقد تبرأت منه مرجعية الحائري، ولا يبدو أن الصدر قادر على مواصلة تحدي الموالين لإيران حتى لو ظل يحشد الملايين من أنصاره في الشوارع كل عام، إلا إذا كان الحل في النهاية هو اندلاع حرب أهلية فيما بين الشيعة أنفسهم، وهو ما حذّر منه رئيس الوزراء (الشيعي) مصطفى الكاظمي أثناء اعتصام الصدريين في البرلمان في أغسطس 2022 قائلا: "إذا انطلق الرصاص فلن يتوقف لسنين"(1).

الصراع في سورية

قبل قرن من الزمان، حرصت فرنسا إبان احتلالها لسورية على استقطاب الأقليات الطائفية للتطوع في "جيش المشرق"، ليكون القوة الضاربة التي يُحكم بها غالبية الشعب من المسلمين السنّة. وبعد جلاء فرنسا عام 1946 أصبحت تلك القوات هي نواة الجيش السوري، وحازت الطائفة العلوية تحديدًا -التي

(1) "الكاظمي محذرا: إذا انطلق الرصاص فلن يتوقف لسنين"، موقع سكاي نيوز عربية، 27 أغسطس 2022.

تُقدر نسبتها إلى بقية السكان بنحو 10%- على نصيب الأسد من الجيش في جميع مستوياته منذ عام 1955 (1).

وخلال فترة الوحدة مع مصر (1958- 1961)، تشكلت داخل حزب البعث المنحلّ خلية سرية تحت مسمى اللجنة العسكرية، على يد خمسة ضباط في الثلاثينات من العمر، ثلاثة منهم علويون وهم صلاح جديد ومحمد عمران وحافظ الأسد، واثنان إسماعيليان هما عبد الكريم الجندي وأحمد المير. وقد سبقت الإشارة إلى أن الإسماعيلية طائفة مارقة من الإسلام انبثقت عن التشيع، والعلوية (النصيرية) هي طائفة انبثقت بدورها عن الإسماعيلية (2).

لعبت اللجنة دورًا مهمًا في تحقيق الانفصال عن مصر ثم في حكم سورية بواجهة سنّية يمثلها الضابط أمين الحافظ، وفي عهده بدأت أولى مظاهر التمرد السني، وتحصّن الشيخ مروان حديد عام 1964 مع أنصاره في مسجد السلطان بحماة، ظنًا منهم بأن السلطات لن تقتحم المسجد احترامًا لحرمته كما كان يفعل جنود الاحتلال الفرنسي، لكن الجيش هدم المسجد بالدبابات وقتل البعض وحكم على الآخرين بالإعدام (3).

تشكلت إثر ذلك جماعة الطليعة المقاتلة المنشقة عن جماعة الإخوان المسلمين، ثم حاول بعض الإسلاميين في دمشق التحرك ضد السلطة، ويقول مؤرخون إن النظام نشر دعوة مزيفة للتجمع في الجامع الأموي الكبير

---

(1) عبد الله الدهامشة، سوريا مزرعة الأسد، دار النواعير، بيروت، ط1، 2011، ص 7-9.

(2) هناك خلاف بشأن الروايات التاريخية لنشوء هذه اللجنة وأعضائها، وما ذكرناه أعلاه هو الرواية الرسمية لحافظ الأسد الذي استأثر بالسلطة لاحقًا، بينما يقول البعض إن العلويين لم يكونوا من مؤسسي اللجنة بل انضموا لاحقًا وإن السنّة والدروز كانوا من مؤسسيها. انظر: أمير سعادة، "اللجنة العسكرية للبعث.. حقيقة أم خيال؟"، جريدة الناس نيوز، 8 يونيو 2022.

(3) سوريا مزرعة الأسد، مرجع سابق، ص 23.

استعدادًا للتظاهر في مطلع عام 1965، وعندما تجمع الشباب الإسلاميون هناك بالفعل اقتحم الجيش الجامع بالدبابات، وأطلق موجة قمع واسعة ضد السنّة (1).

تسلم حافظ الأسد وزارة الدفاع في تلك الفترة، ويتهمه كثيرون بالتآمر مع إسرائيل لسحب الجيش السوري وتسليم الجولان للصهاينة خلال حرب 1967 (2)، كما كان الأسد يعمل آنذاك على تصفية زملائه في اللجنة العسكرية إلى أن انقلب على السلطة فيما أسماه بالحركة التصحيحية عام 1970، بعد موجة واسعة من تسريح الضباط السنة (3)، وهكذا وصل العلويون إلى أعلى هرم السلطة وتمسكوا بها حتى الآن.

منح الأسد لجماعة الإخوان المسلمين في البداية هامشًا للنشاط الاجتماعي والسياسي، وكان في المقابل يسابق الزمن لمواصلة "تطهير" الجيش والمخابرات وتعيين أقاربه وأبناء طائفته في أعلى المناصب، بينما كان شقيقه جميل الأسد يعمل على نشر التشيع عبر جمعية المرتضى. وعندما تظاهر الإخوان ضد الدستور عام 1973، أطلق الأسد يد أنصاره لقمعهم وتعذيبهم، وبدأت سياسة إقصائهم عن المناصب والوظائف، ولا سيما في الجيش والتعليم (4).

شنّت الطليعة المقاتلة سلسلة مناوشات وتفجيرات واغتيالات منذ منتصف السبعينات، وكان النظام يرد بحملات الاعتقال والتعذيب والإعدام، لكن الطليعة واصلت صعودها إلى أن جاهرت بالتمرد والعصيان المدني عبر المدارس والمساجد في حلب وحماة وإدلب بأواخر السبعينات، حتى اضطر

---

(1) منير الغضبان، سوريا في قرن، 2006، الجزء الأول، ص 342.

(2) خليل مصطفى، سقوط الجولان، دار الاعتصام، القاهرة، ط2، 1980، ص 169.

(3) سوريا مزرعة الأسد، ص 79- 82.

(4) المرجع السابق، ص 120.

الأسد في خطاب جماهيري عام 1980 إلى استجداء التهدئة مع الإخوان (1)، بينما كان يدفع بالجيش إلى المواجهة -بدل عناصر الأمن- حتى نجح في تطويق مدينة حماة بالكامل في مطلع فبراير 1982، وقبل نهاية الشهر كان الجيش قد قتل ما بين 10 آلاف و30 ألفًا -وفقًا لتفاوت التقديرات- من السكان ودمّر الكثير من مباني المدينة التي يعود تاريخها إلى العهد الروماني (2)، كما ارتكب النظام مجازر أخرى في معاقل الإسلاميين بكل من حلب وإدلب، ليستتب الحكم بذلك للطائفة العلوية، في ظل صمت دولي استثنائي.



جانب من الدمار في حماة بعد المجزرة

كانت المجزرة مبررًا لسلسلة طويلة من إجراءات القمع والاستئثار بالسلطة، ونشأ جيل جديد على ثقافة الخوف إلى درجة جهل كثير من الشباب بما حدث في بلادهم في جيل الآباء. وعندما هبّت رياح الربيع العربي في مطلع عام 2011، وسقط النظامان التونسي والمصري في غضون أسابيع بفعل الاحتجاجات، تفاءل الشباب في سورية -وفي معظم دول المنطقة- بأن التجرؤ على الحشد في الشوارع سيكون كفيلًا بإنهاء كل مشاكل الفساد ويعيد إنشاء نظام سياسي

(1) المرجع نفسه، ص 150.

(2) المرجع نفسه: 181.

على أساس العدالة الاجتماعية، ولم تكن معضلة الطائفية وتعقيداتها ولا أحداث حماة الدامية حاضرة في ذهن الشباب المتحمسين في البداية، إلى أن جاء التصريح المبكر من بثينة شعبان مستشارة رئيس الجمهورية -وهي من الطائفة العلوية- بأن ما يجري هو "مشروع فتنة طائفية تحاك ضد سوريا" (1)، وذلك بعد تسعة أيام فقط من بدء الاحتجاجات، ما أوحى للكثيرين بأن النظام سبق إلى الحشد الطائفي قبل أن يفكر به المحتجون.

وبالرغم من الشعارات العلمانية التي يرفعها حزب البعث منذ تأسيسه، لكن جناحه الحاكم في سورية لم يكن سوى غطاء قومي علماني لمنع أي ملامح دينية سنّية من الظهور، سواء في التعليم أو الإعلام أو الجيش أو أي قطاع حكومي، وبذريعة ضرورة القضاء على "الرجعية" في سبيل "بعث" الأمة العربية وتحقيق انتصارها على الإمبريالية وإسرائيل (2). ومع أن هذه المبادئ كانت تُتلى على مسامع كل أفراد الشعب السوري يوميًا وبأساليب البروباغندا المقتبسة من الاتحاد السوفييتي وكوريا الشمالية، إلا أنها لم تنجح فعليًا في انتزاع هوية المجتمع كما حدث -جزئيًا- في مجتمعات المعسكر الشيوعي (3)، بل سرعان ما تحولت الاحتجاجات إلى ثورة بشعارات إسلامية سنّية، رفعها الشباب الذين نشؤوا في مدارس النظام، مع أنهم كانوا يُلقّنون قبل أن يتعلّموا القراءة والكتابة أنهم "طلائع البعث" و"شبيبة الثورة" (4).

---

(1) ليلى فرح، "حماية الأقليات.. الديماغوجية في خدمة النظام"، موقع مركز دراسات الجمهورية الديموقراطية drsc-sy.org، أكتوبر 2013.

(2) سوريا مزرعة الأسد، ص 179.

(3) كارستين ويلاند، سورية الاقتراع أم الرصاص؟، ترجمة حازم نهار، دار رياض الريس، بيروت، ط1، 2011، ص 180- 184.

(4) "طلائع البعث" هي منظمة أسسها حافظ الأسد لتضم كل أطفال سورية إجباريًا خلال مرحلة التعليم الابتدائية، أما "اتحاد شبيبة الثورة" فهي المنظمة التي تضم كل طلاب مرحلتي الدراسة

لا يمكن لهذا الفصل أن يستوعب موجزًا لأحداث الثورة السورية التي استمرت نحو عشر سنوات، والتي جمعتُ مقالاتي الصحفية عنها في كتاب أسميته "مقالات العشرية الحمراء" فجاء في 240 صفحة.

أعتقد أن هذه العشرية الدموية كانت من أكثر أحداث العصر الحديث تشعبًا وتشابكًا وتعقيدًا، فكل يوم من هذا العقد كان يحفل بحدث جديد يستحق التأريخ، سياسيًا كان أو عسكريًا أو إنسانيًا، ولكن ما يهمنا في هذا المقام هو الخط الطائفي الذي رُسم للأحداث، واضطرار الثوار السوريين لاتخاذ موقف طائفي سنّي بعد عدة شهور على انطلاق المظاهرات عندما اتضح لهم أن النظام كان يتحفز لمعركة طائفية، إذ كان البُعد الطائفي غائبًا عن أذهان معظم الشباب الجامعيين الذين استفزّهم حماس التغيير عندما رأوا الشوارع تنتفض في دول المنطقة، لكن استخفاف النظام بمطالب المحتجين وإصراره في الأسابيع الأولى على الزج بدبابات الجيش في شوارع المدن، بعدما فشل رصاص قوات الأمن في تخويفهم، شجّع بعض جنود الجيش من السنّة في حمص على إعلان الانشقاق، وذلك بعد شهرين فقط من بدء الاحتجاجات، ثم سرعان ما تشكلت فصائل معارضة من المنشقين والمتطوعين في بعض الجيوب، واستغرق الأمر بعض الوقت حتى تأخذ هذه الفصائل بعض الملامح الإسلامية مع أنها كانت تصرّ في اللقاءات الإعلامية على أنها ذات مشروع وطني.

في الوقت نفسه، أطلق النظام من سجن صيدنايا سيئ السمعة (1) عددًا من المعتقلين الإسلاميين، وكان الظاهر من هذه الخطوة هو مرسوم عفو من

= الإعدادية والثانوية، ما يعني أن كل مواطن في البلاد مُجبر على الانخراط في أيديولوجيا حزب البعث منذ سن السادسة، خصوصًا وأنه لم تكن في البلاد أي مدرسة خاصة قبل حكم بشار الأسد.

(1) هذا السجن كان مخصصًا لحبس وتعذيب الإسلاميين، ومنهم الشباب الذين عادوا من العراق بعد مشاركتهم في المقاومة ضد الغزو الأمريكي، فكان النظام يحبسهم مع عناصر من تنظيم القاعدة ويتيح للجميع إلقاء الدروس وتبادل النقاشات، ما جعل السجن نفسه مدرسة لتخريج الجهاديين.

رئيس النظام ضمن مشروع إصلاح، لكن باطنها يؤكد سعي النظام للزجّ بألدّ أعدائه في المعركة كي تنتقل مباشرة إلى حرب طائفية، وقد حدث هذا بالفعل، فلم تأت نهاية العام إلا بعد إعلان هؤلاء المعتقلين السابقين عن تشكيل الفصائل الجهادية السلفية (1).

كان النظام السوري يتوقع أنه سيقضي على الحراك المسلح كله خلال بضعة أشهر فقط، لكن موازين القوى كانت تتبدل بسرعة غير متوقعة، كما أتيحت للفصائل المعارضة عدة فرص للسيطرة على مخازن للسلاح، فضلًا عن التمويل والتسليح المحدود الذي حصلت عليه من الخارج، فاضطر النظام الإيراني للتدخل تدريجيًا، كما أمرت طهران حزب الله اللبناني بدخول المعركة بالرغم من نفي قائد الحزب مرارًا تورطه في المعركة.

في سبتمبر 2014 قُتل أهم قادة الفصائل الجهادية السلفية أثناء اجتماعهم في مقر محصّن لهم في إدلب، وما زال التفجير الذي استهدف لغزًا لا يُعرف بالضبط تورط أي جهاز مخابرات فيه. نجح هذا الحدث في إضعاف عزيمة المعارضة، لكن جهودها المضنية واصلت تحقيق الانتصارات، إلى أن أعلنت روسيا في سبتمبر 2015 تدخلها المباشر في الحرب، وعدم الاكتفاء بالدعم، فكانت هذه هي نقطة انقلاب موازين المعركة بعدما كان النظام على وشك السقوط.

سقطت مناطق المعارضة الواحدة تلو الأخرى بعد مجازر هائلة، وبدأت سلسلة التهجير في صورة صفقات تسوية، سلّم المسلحون المحاصَرون بمقتضاها أسلحتهم ونُقلوا بالحافلات إلى أقصى الشمال في الشريط الحدودي مع تركيا، ثم جاء التصريح الصادم من رئيس هيئة الأركان الروسية فاليري غيراسيموف في أبريل 2019، عندما قال في مؤتمر أمني بموسكو وبوضوح تام:

---

(1) "خرجوا من سجن صيدنايا إلى قيادة فصائل المعارضة"، جريدة عنب بلدي enabbaladi.net، 7 أغسطس 2017.

"إن القوات الجوفضائية الروسية بدأت عمليتها في سوريا، تلبية لطلب من النظام دمشق، في سبتمبر 2015، عندما كان يسيطر على 10% فقط من الأراضي، وكانت الدولة السورية مهددة بالزوال في غضون شهر ونصف أو شهرين" (1).



مبنى سكني دمرته غارة جوية في إدلب (khaled akasha, wikimedia)

في عام 2016 نشر البروفيسور السوري حسين إبراهيم قطريب بحثًا عن التغيير الديمغرافي في «سوريا المفيدة»، وهذا المصطلح أطلقه رئيس النظام بشار الأسد على محافظتي اللاذقية وطرطوس وأجزاء من محافظات دمشق وريف دمشق وحمص وحماة (2)، وجاء في الدراسة أن هذه المحافظات كانت تضم 46٪ من سكان سوريا بنهاية عام 2011، وكان التوزيع الطائفي لهؤلاء

(1) "اجتماع أستانة ينطلق اليوم وتركيز على «الدستورية السورية» وتبادل الأسرى"، صحيفة الشرق الأوسط، 24 أبريل 2019.

(2) كان الأسد يتحدث في بداية 2016 عن هذه المناطق بأنها المفيدة والتي سيدافع عنها بكل قوة، أما المناطق الأخرى التي دمرتها قواته فلا تتمتع بنفس الأهمية.

السكان هو: 69٪ سنّة، 21٪ علويون، 1٪ شيعة، 1٪ دروز، 2٪ إسماعيليون و6٪ مسيحيون. وبحلول عام 2016 كان عدد سكان هذه المناطق قد انخفض من 9.8 مليون إلى 7.6 مليون نسمة، وتغير توزيعهم الطائفي ليصبح: 52٪ سنّة، 24٪ علويون، 13٪ شيعة، 1٪ دروز، 3٪ إسماعيليون، 7٪ مسيحيون، أي أن نسبة الشيعة ارتفعت خلال خمس سنوات من 1% إلى 13٪، وتتركز هذه الزيادة في محافظتي ريف دمشق وحمص، حيث انخفضت نسبة السنّة في الأولى من 87٪ إلى 54٪، بينما انخفضت في الثانية من 64٪ إلى 21٪ فقط [1].

تضمنت الدراسة أيضًا حقائق عن حملات التشييع التي تعود إلى بداية حكم الطائفة العلوية لسورية في السبعينات، فما بين 1970 و2007 بلغ عدد المتشيعين في سورية 76 ألفًا، معظمهم من العلويين. وبعد استلام بشار الأسد للحكم خلفًا لوالده تضاعفت نسبة التشيع بين السنّة تحديدًا أربع مرات تقريبًا [2]، لكن التغيير الديمغرافي الهائل حدث بعد اندلاع الثورة في 2011 وشن الجيش حملته العنيفة على مناطق السنّة، حيث دُمرت مناطق واسعة في كل المحافظات ذات الأغلبية السنّية، ما دفع معظم سكانها للنزوح داخليًا أو للخارج، لتحلّ محلهم عائلات شيعية وعلوية.

ومن ملامح التغيير الديمغرافي الممنهج، منحُ النظام الجنسية السورية للشيعة المرتزقة الذين قاتلوا إلى جانبه بالتنسيق مع إيران وتوطينهم في دمشق وريفها ومحافظة حمص [3].

---

(1) حسين إبراهيم قطريب، "سوريا المفيدة" والتغيير الديموغرافي في سوريا، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، 2016، ص 8 وما بعدها.

(2) المرجع السابق، ص 12.

(3) المرجع السابق، ص 14.

الصراع في اليمن

تذكُر بعض المصادر الشيعية قبل اندلاع الثورة والحرب اليمنية في 2011 أن نسبة أتباع الطائفة الزيدية هي 28% من عدد سكان اليمن، إلى جانب 5% من الإسماعيلية، و2% فقط من الشيعة الإمامية الإثناعشرية [(1)]، لكن الدعم الإيراني لحركة التشيع في السنوات الأخيرة أدى إلى اندماج الكثير من الزيدية بالشيعة الإمامية حتى كادت الحدود التاريخية بينهما أن تزول، وكانت فرقة الجارودية هي حلقة الوصل بين الطائفتين [(2)]، فهي واحدة من فرق عدة تنتمي للزيدية لكنها أقرب نسبيًا إلى الشيعة الإمامية، وقد يعتبرها بعض الزيديين خارجة عن أصول مذهبهم.

تتشبث الزيدية بتاريخها ونظامها السياسي الخاص، فهي لا تتفق مع الشيعة الإمامية الاثني عشرية ولا مع نظرية ولاية الفقيه، بل كانت تتبع عدة سلالات إمامية حاكمة في مناطق صعدة الجبلية بشمال اليمن، وكان من أشهرها السلالة القاسمية التي أسسها الإمام القاسم بن محمد في القرن السابع عشر، ثم حكمت من بعدها المملكة المتوكلية بقيادة الإمام يحيى حميد الدين المتوكل، الذي اتسع طموحه ليشمل كل اليمن ومناطق من جنوب الدولة السعودية المعروفة اليوم، لكن دولته أسقطت بدعم من تنظيم الضباط الأحرار في مصر عام 1962، وانتهى بذلك حكم الأئمة وأقيمت على أنقاضه الجمهورية اليمنية.

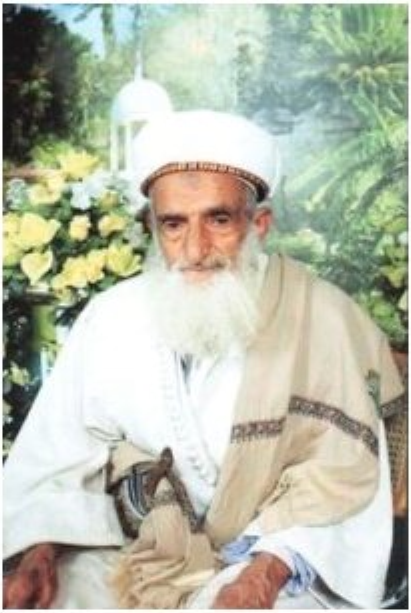
ظل حلم إحياء الإمامة الزيدية حاضرًا في أذهان الطائفة، وهم يرون أن الإمام (الخليفة) يجب أن يكون هاشميًا ومن سلالة آل البيت ، لكن هذا لا يمنعهم من القبول برئيس غير هاشمي باعتباره حاكمًا إقليميًا وليس إمامًا للمسلمين.

---

(1) الشيعة في اليمن، موقع مركز الأبحاث العقائدية (تحت رعاية مكتب السيستاني) aqaed.com.

(2) عبد الرحمن المجاهد، التشيع في صعدة، دار الآفاق للطباعة والنشر، 2007، ص 54.

في عام 1991، أسس المرجع الفقهي الزيدي بدر الدين الحوثي (مواليد 1926) حركة "الشباب المؤمن"، وبما أنه من آل البيت فقد تمتع بشعبية كبيرة، واستطاع أن يستقطب الكثير من شباب الطائفة، لكن الخلفية الجارودية للحركة كان بوابة لنشر أفكار الاقتراب من إيران.



بدر الدين الحوثي

تولى حسين الحوثي -نجل بدر الدين- قيادة الحركة التي تغير اسمها إلى "أنصار الله"، وازداد نشاطها التعليمي والثقافي بين الشباب بشكل أثار غضب السلطات، وكان لحسين الحوثي نشاط سياسي أيضًا عبر تأسيسه مع شخصيات زيدية حزب الحق في 1990، والذي فاز من خلاله بمقعد في البرلمان اليمني.

في عام 2003 رفعت الحركة شعارًا جريئًا يقول "الله أكبر، الموت لأميركا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، النصر للإسلام"، وصارت خطب حسين الحوثي مشحونة بالتحريض على مواجهة أميركا وإسرائيل واليهود، وكذلك خطب الجمعة التي يقدمها أنصاره، ما سبب حرجًا للحكومة التي اتهمت الحركة بالتطرف والعمالة لحزب الله اللبناني.



الشعار الذي ترفعه حركة أنصار الله منذ 2003

وبعد سلسلة من المضايقات والمناوشات، بدأت في عام 2004 أولى المواجهات المسلحة بين الحوثيين والسلطات اليمنية، وقُتل فيها حسين الحوثي بنيران الجيش، فتولى القيادة أخوه الأصغر عبد الملك، وتواصلت المعارك حتى عام 2010 الذي شهد الاشتباك أيضًا مع القوات السعودية عبر الحدود، لتأخذ المعارك بعدًا طائفيًا وإقليميًا (1).

وعندما انطلقت الثورة اليمنية ضد نظام الرئيس علي عبد الله صالح عام 2011 وقف الحوثيون إلى جانب المحتجين، ونجحت الاحتجاجات بعد سنة في إقناع الرئيس بالتنحي مع حصوله على الحصانة، و تولى نائبه عبد ربه منصور هادي رئاسة المرحلة الانتقالية. ثم وقّعت جماعة الحوثي على مخرجات الحوار الوطني في مطلع عام 2014 التي تنص على نزع سلاح كل الجماعات المسلحة، لكنهم لم يلتزموا بتسليم أسلحتهم، وعادوا للقتال ضد القوات الحكومية في فبراير 2014 للسيطرة على مدينة عمران الشمالية (2).

وتحت شعار الاحتجاج على زيادة أسعار الوقود، تظاهر آلاف الحوثيين في صنعاء في 18 أغسطس 2014، وطالبوا بإسقاط الحكومة مع إطلاق التهديدات وسط انتشار لمسلحيهم، ثم أغلقوا مداخل العاصمة، وارتفعت نبرة التهديد وحدة التوتر وصولًا إلى السيطرة على العاصمة وإسقاط الحكومة.

وفي يناير 2015 استقال الرئيس عبد ربه منصور هادي وانتقل إلى السعودية، وفي الشهر التالي اكتمل الانقلاب على السلطة عندما أعلن الحوثيون ما أسموه بالإعلان الدستوري. ومن عجائب السياسة أن صالح -الذي كان يتمتع بالحصانة وما زال لديه نفوذ في الجيش- تحالف مع الحوثيين

---

(1) "الحوثيون.. فرقة جارودية تحولت من الزيدية إلى التشيّع تؤمن بدور اليمن بـ"حروب القيامة" وتهاجم الصحابة وترتبط بإيران"، موقع سي إن إن، 26 مارس 2015.

(2) "جماعة الحوثيين في اليمن"، موقع الجزيرة نت، 12 أغسطس 2009.

الذين كانوا من ألدّ أعدائه طوال عقود، وهكذا سقط اليمن في حرب أهلية طاحنة.

أعلنت السعودية مع دول عربية وخليجية أخرى عملية عسكرية تحت مسمى "عاصفة الحزم" ضد الحوثيين في شهر مارس (1)، وامتلأت وسائل الإعلام بتحليلات كثيرة عن حرب إقليمية ذات بعد طائفي بين السنة والشيعة، وتحديدًا بين السعودية وإيران، بالرغم من محاولة المسؤولين في الرياض إنكار ذلك (2).

توالت التحليلات لوصف "عاصفة الحزم" بأنها خطوة أولى نحو وضع حد للتوسع الإيراني الشيعي في المنطقة، لا سيما بعد اكتساب التحالف تأييد باكستان وتركيا –سياسيًا وليس عسكريًا- مما يوفر توازنًا طائفيًا غير مسبوق في وجه إيران (3)، كما كشفت وسائل التواصل الاجتماعي عن اكتساب "عاصفة الحزم" تأييدًا شعبيًا واسعًا من الجمهور السنّي في المنطقة، في مؤشر إضافي على حدة الاصطفاف المذهبي.

حققت العملية في بدايتها بعض المكاسب، وكانت التصريحات كلها تؤكد أن الأمر لن يتطلب أكثر من أسابيع للقضاء على الحوثيين وإعادة الرئيس الشرعي إلى صنعاء، لكن الحوثيين فاجؤوا خصومهم بقوة تنظيمهم وحيازتهم لصواريخ بالستية وطائرات مسيّرة (4)، كما تمكنت إيران من تجاوز الحصار المفروض على الحوثيين مرات عدة وتهريب الأسلحة لهم. وعندما حاول صالح التملص من تحالفه معهم في ديسمبر 2017، تمكن الحوثيون من قطع الطريق عليه في محاولته للهرب وقُتل على الفور.

---

(1) "عاصفة الحزم": موسوعة الجزيرة، موقع الجزيرة نت، 26 مارس 2015.

(2) "الجبير: العملية العسكرية في اليمن ليست حربا بالوكالة"، موقع قناة روسيا اليوم، 31 مارس 2015.

(3) "عاصفة الحزم: إعادة ترتيب الأوراق الإقليمية"، مركز الجزيرة للدراسات، 2 أبريل 2015.

(4) "محمود الطاهر، ترسانة الحوثيين.. حجمها ومصادرها"، نون بوست noonpost.com، 1 فبراير 2022.

استمرت الحرب الطاحنة سنوات عدة، حتى أعلنت الأمم المتحدة مرارًا أن اليمن يعيش أسوأ كارثة إنسانية على مستوى العالم [1]، ولطالما فشلت الجهود في إقناع أطراف النزاع بوقف هذه المأساة التي أخذت بعدًا إقليميًا، حيث تهدف إيران من تدخلها في اليمن إلى دمج الحوثيين وظيفيًا في محورها الإقليمي الذي يشمل حزب الله في لبنان ونظام بشار الأسد في سوريا والفصائل الشيعية في العراق [2].

تراجعت حدة القتال بشكل ملحوظ بعد وقف إطلاق النار الذي توسّطت فيه الأمم المتحدة في أبريل 2022، وظلت الهدنة سارية حتى بعد انتهاء مدتها في أكتوبر 2022، ثم توالت مبشّرات التوصل إلى تسوية مع تواصل جلسات الحوار بين الحوثيين والمسؤولين السعوديين.

وإذا وضعنا جانبًا الملف الأمني وما خلفته الحرب من مأساة إنسانية هائلة، فلا يمكن إغفال ما تعرض له اليمن خلال هذه السنوات من تغيير ديمغرافي وسياسي، إذ عمل الحوثيون على إعادة هيكلة المؤسسات الدينية خلال فترة حكمهم لتصبح شيعية الطابع، كما تسارعت عمليات سيطرتهم على أراضي في صنعاء وغيرها منذ بداية عام 2023 مع قرب التوصل إلى تسوية، وفقًا لتصريحات معمر الأرياني وزير الإعلام في الحكومة التي تعمل في المنفى بالسعودية [3]، وذكرت تقارير إعلامية أن الحوثيين وضعوا أيديهم على أراضي

---

(1) "اليمن يعيش أسوأ كارثة إنسانية على مستوى العالم، والمأساة تتعمق أكثر فأكثر مع استمرار الصراع"، موقع مكتب صندوق الأمم المتحدة للسكان للدول العربية، 7 ديسمبر 2020.

(2) هاميس أشرف علي، "التدخل الإيراني في اليمن"، المركز العربي للبحوث والدراسات acrseg.org، 18 مارس 2023.

(3) "مخططات حوثية لإحداث تغيير ديموغرافي بصنعاء.. والحكومة تحذر"، موقع العربية نت، 5 مارس 2023.

في محيط صنعاء بذريعة وجود وصية تؤكد ملكية "آل البيت" لها، بهدف تطويق العاصمة بمستعمرات شيعية موالية لنظام ولاية الفقيه (1).

وكانت إيران تعمل منذ الثمانينات على استقطاب الحوثيين والتغلغل في قواعدهم الشعبية بمنطقة صعدة، فقدّمت الكثير من المِنح الدراسية للطلاب الزيديين للدراسة في حوزة قم كي يعودوا رجال دين شيعة، وافتتحت أيضًا دار العلوم العليا والمدرسة الجعفرية في عدن، ومركز بدر العلمي ومركز الدراسات الإسلامية في صنعاء، ومدرسة الهادي في صعدة، حيث تقدم هذه المراكز وغيرها دورات تتروح بين ستة أشهر وعامين تحت إشراف السفارة الإيرانية (2).

ونتيجةً لهذا، يمكن القول إن "الهلال الشيعي" (3) الممتد من البحرين والأحساء مروراً بإيران والعراق ووصولا إلى سورية ولبنان قد اكتمل بالفعل، فهناك خط متصل جغرافياً يتفرع أيضًا من شرق إيران ليشمل مناطق شيعية في أفغانستان وباكستان، بما يضمن انتقال المقاتلين الشيعة بين هذه المناطق بحرية، وإذا أضفنا إلى الهلال مناطق الحوثيين في اليمن، فسيضمن النظام الإيراني بالفعل تطويق جزيرة العرب.

ويجدر بالذكر أن قائد الحرس الثوري الإيراني السابق اللواء محمد علي جعفري خرق الأعراف الدبلوماسية واعترف صراحةً بمشروع "الهلال الشيعي"،

---

(1) "الحوثي يشرع في التغيير الديموغرافي قبل التسوية السياسية"، صحيفة إندبندنت عربية، 27 مارس 2023.

(2) "التدخل الإيراني في اليمن"، مرجع سابق.

(3) تنسب بعض المصادر هذا المصطلح إلى الملك الأردني عبد الله الثاني عندما حذر الأمريكيين أثناء زيارته لواشنطن في 2004 من وصول حكومة عراقية شيعية إلى السلطة في بغداد بما يسمح للنظامين الإيراني والسوري بإنشاء هلال شيعي يمتد إلى لبنان، وما زال المصطلح يستخدم كثيرًا في الدراسات الإستراتيجية ووسائل الإعلام.

فقال في خطاب جماهيري في عام 2015: "عندما يتم الحديث عن نمو الهلال الشيعي فإن ذلك بمثابة السيف الذي يتم غرسه في قلب إسرائيل... الهلال الشيعي يعني تضامن ووحدة المسلمين في دول المنطقة مثل إيران وسورية واليمن والعراق ولبنان والدول الأخرى في المنطقة التي تعتمد نهج المقاومة" (1).

وكان قادة النظام الإيراني وكبار مسؤوليه ينكرون دائمًا وجود مشروع كهذا ويندّدون بالمصطلح، ومنهم رئيس الجمهورية السابق حسن روحاني الذي تحدث بعد ثلاثة أشهر من تصريحات جعفري خلال مؤتمر في طهران، وقال: "ليس لدينا هلال شيعي، وإنما لدينا قمر إسلامي، ويجب أن نتحد معًا لمواجهة التحديات والمخاطر التي تحدق بنا" (2).

طموح وتحديات

قد يصعب التنبؤ بمستقبل الطائفة الشيعية سياسيًا ودينيًا، فالتطورات تتسارع باستمرار في ساحات الصراع التي استعرضنا أهمها. كان الطموح رومنسيًا وحالمًا للغاية عندما نجحت الثورة الإيرانية في عام 1979، كما كانت لحظة عودة الخميني من منفاه وهروب الشاه مشهدًا أسطوريًا دفع بحماس الجماهير الشيعية إلى أقصاه، ولم تكن الحرب مع العراق -ومن ورائها دول عربية أخرى- سوى نتيجة ضرورية لهذا الاندفاع نحو تصدير الثورة والتعجيل بخروج المهدي، كي يحكم العالم بالعدل وينتقم من "أعداء آل البيت" ويرضخ له الكفار من كل الطوائف الأخرى. ومع أن أكثر من أربعة عقود قد انقضت على تجدد هذا الحلم المؤجل منذ قرون، فما زال هناك من يؤمن به ويسعى إليه ويحسن الظن بأنه سيشهده في حياته، وسنؤجل الحديث عن هذا الجانب من الصراع المتعلق بالنبوءات إلى آخر الكتاب.

---

(1) "قائد الحرس الثوري الإيراني يقولها على المكشوف"، قناة أورينت orient-news.net، 8 مايو 2015.

(2) صالح حميد، "روحاني ينفي تأكيد قائد الحرس الثوري حول الهلال الشيعي"، العربية نت، 16 أغسطس 2015.

مع كل ما سبق، هناك مؤشرات كثيرة على تراجع حماس الأجيال الجديدة في إيران مقارنة بما كان عليه الحال إبان ثورة الخميني، وهذه هي سنّة التاريخ مع كل الثورات التي تنجح في استبدال السلطة، إذ ينغمس بعض رموزها في ملذات الحياة ونعيمها، وتبدأ أمارات الاستبداد والتكبّر بالتسلل إلى نفوسهم البشرية بعدما كانوا يندّدون بها أثناء ثورتهم، ثم يظهر الانفصام بين القادة المتنعّمين وبين قواعدهم الشبابية الذين يتلقون الأوامر ويرون بأعينهم تناقض سلوك الطبقة العليا مع مبادئها (1).

تكرّس هذا الانفصام بعد وفاة الخميني في صيف 1989، فظهر جيل جديد لم يُؤخَذ رأيه في اختيار شكل نظام "الجمهورية الإسلامية"، وبدأت المطالب بالتغيير. تلقّف تيار الإصلاحيين هذه المطالب، ونجح ممثلهم محمد خاتمي في الانتخابات الرئاسية عام 1997، ولكنه لم ينجح في إحداث تغيير حقيقي داخل النظام، بل اتُّهم من المحافظين بالتعاطف مع الليبراليين الرافضين لنظام الملالي، وبالتراخي الاجتماعي الذي أدى إلى انفلات قيمي في صفوف الشباب (2). وعندما فاز ممثل المحافظين محمود أحمدي نجاد في الانتخابات الرئاسية عام 2005 ازداد احتقان الشارع، إلى أن تفجر مع فوز نجاد بولاية رئاسية ثانية عام 2009، وبدأت بذلك احتجاجات «الحركة الخضراء الإيرانية»، والتي اعتُبرت أول حراك ثوري يعتمد على مواقع التواصل حديثة النشأة، إذ سماها البعض "ثورة تويتر"، وظهر فيها انقسام الشعب الايراني ورغبة الكثير من الشباب إلى تفكيك نظام ولاية الفقيه وإنشاء نظام ديمقراطي لا يعتمد على الدين.

---

(1) نجاح محمد علي، "ثورة إيران الإسلامية بعد 30 عاما.. إلى أين؟"، موقع سويس إنفو swissinfo.ch، 24 فبراير 2009.

(2) المرجع السابق.

استمرت موجة الاحتجاج قرابة العام، وأظهر فيها النظام استعداده للقمع بالقوة. ثم تجددت الاحتجاجات في إيران عام 2017 واستمرت حتى أوائل 2018، واندلعت مرة أخرى في نوفمبر 2019، ثم خرجت مظاهرات على نطاق واسع في أنحاء البلاد في سبتمبر 2022 عقبَ وفاة الشابّة مهسا أميني في السجن أثناء احتجازها من قِبل شرطة الأخلاق بسبب عدم التزامها بالحجاب كما قيل، وأخذت المظاهرات في هذه المرة بُعدًا علمانيًا واضحًا، وظهرت فيها ملامح التمرد على الدين، حتى أصبح خلع الفتيات الأغطية عن رؤوسهن خلال التظاهر أو في الصور المنشورة على مواقع التواصل من أبرز صور الاحتجاج والتحدي، بل وصل الأمر ببعض الشباب التباهي بصور "إسقاط العمامة"، أي التسلل وراء الشيوخ الشيعة أثناء سيرهم في الطرقات والإطاحة بعمائمهم على الأرض ثم الهرب [1]. وقد لقيت هذه الاحتجاجات ومطالبها ترحيبًا واحتفاءً كبيرين في الإعلام الغربي.



الجالية الإيرانية في فانكوفر الكندية تؤيد المتظاهرين في إيران ضد النظام في 2022

(1) برهام غوبادي، "مظاهرات إيران: 100 يوم على اندلاعها والاضطرابات لا تزال مستمرة"، بي بي سي عربي، 26 ديسمبر 2022.

تشير بعض استطلاعات الرأي في السنوات الأخيرة إلى أن الشباب الشيعة في إيران أكثر ابتعادًا عن التدين من الشباب السنّة في الدول المجاورة، بل ينفي الكثيرون عن أنفسهم التشيع نفسه، ففي استطلاع أجرته مجموعة التحليل وقياس التوجهات في إيران GAMAAN، قال 32% فقط من المشاركين إنهم يعرّفون أنفسهم كمسلمين شيعة، وهي نسبة ضئيلة جدًا قياسًا إلى الإحصاءات المتداولة التي لا نجد في أي منها أن نسبة الشيعة في إيران تقل عن 90%(1).

لم تكن هذه هي المفاجأة الوحيدة، إذ قال 9% من المستطلعة آراؤهم إنهم ملحدون، و7% روحانيون، و6% محايدون دينيًا. وفيما يتعلق بالطوائف الأخرى، قال 8% إنهم زرادشتيون، و5% مسلمون سنة، و22% من طوائف أخرى.

وعلق المحاضر بجامعة أوتراخت الهولندية والمشارك في إجراء الاستطلاع تميمي عرب: "يمر المجتمع الإيراني بتحولات ضخمة، مثل زيادة التعلم بمعدل مذهل، وما تشهده الدولة من عملية تمدن هائلة، وتغييرات اقتصادية تؤثر على البناء التقليدي للأسرة، ونمو معدلات الدخول على الإنترنت بما يشبه دول الاتحاد الأوروبي، وانخفاض معدلات المواليد".

واعتبر تميمي عرب أن الدراسة النتائج تشير إلى "ارتفاع في العلمانية وتنوع في الأديان والمعتقدات"، وأن المعيار الأكثر حسمًا يكمن في "تشابك الدولة والدين بما يتسبب في رفض السكان للمؤسسات الدينية بالرغم من إيمان الأغلبية بوجود الله"(2).

---

(1) جينيفرهوليس ورزان سلمان، "هل ابتعد شباب الشرق الأوسط وإيران عن الدين؟"، dw.com، 6 فبراير 2021.

(2) المرجع السابق.

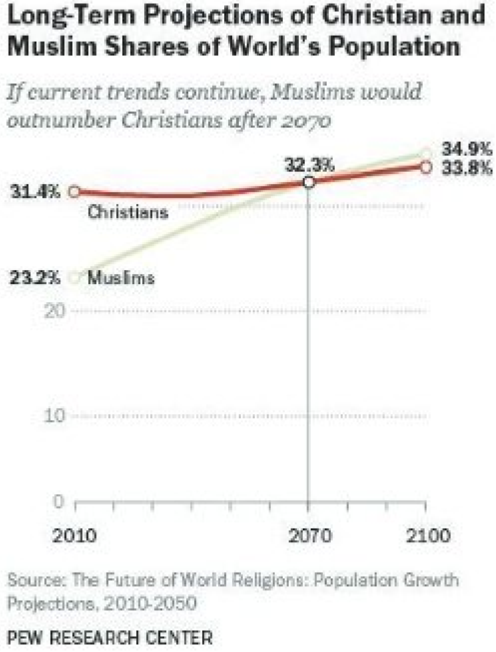
وإزاء هذه التغيرات الاجتماعية، هناك من يتنبأ بأن سلطة المرجعيات الكبرى على الجماهير الشيعية ستتضاءل بعد رحيل كل من آية الله علي السيستاني (مواليد 1930) وآية الله علي خامنئي (مواليد 1939)، فمع أن هناك مراجع آخرين يمكنهم ملء الفراغ العلمي إلا أن الشيعة مثل غيرهم يعيشون في عالم يزداد تفككًا، حيث يحظى المفكرون المجددون بإعجاب الشباب حتى لو لم يلتزموا بطرق التعليم التقليدية في الحوزات ولم يبلغوا درجة الاجتهاد (1)، بينما يرفض كثير من الشباب التدين والدين نفسه، أو لا يرغبون على الأقل في أن يظهر للتشيع أثر في حياتهم ونظرتهم للحياة والنظام السياسي الذي يعيشون في ظله.

---

(1) غزل أربحي، "قرن على التأسيس: ما هو مستقبل حوزة قُم وعلاقتها مع السلطة والمرجعية الدينية في إيران؟"، موقع البيت الخليجي للدراسات والنشر، 1 مارس 2023.

الإسلام.. هل نشهد صحوة قريبة؟

في عام 2015، أصدر مركز بيو للدراسات [1] دراسة تتنبأ بأن عدد معتنقي الإسلام سيقترب من عدد المسيحيين حول العالم في عام 2050، وإذا استمرت المعدلات الحالية فسيتساوى العددان في حوالي عام 2070 ثم سيصبح الإسلام هو أضخم ديانة في العالم، وذلك مع أن عدد المسيحيين كان يُقدّر في بداية القرن العشرين بنحو 560 مليونًا، مقابل 200 مليون مسلم فقط [2].



(1) "The Future of World Religions: Population Growth Projections; 2010-2050", pewresearch.org, 2 April 2015.

(2) Matija Šerić, "The Rapid Rise Of Islam In The West: Will Islam Become The Leading World Religion?", eurasiareview.com, 17 November 2022.

ونبّهت الدراسة أيضًا إلى أن عدد المسلمين سيتزايد بنسب ملحوظة في الدول الغربية، وهو الأمر الذي ما زال يثير حفيظة اليمين المتطرف في الغرب، ويدفع الحكومات إلى سن التشريعات لتقييد هجرة المسلمين، في حين يتخلى المزيد من الشباب عن المسيحية بتسارع حادّ، وتتخبّط أطروحات المفكرين في محاولات تقديم البديل العلماني "الإنسانوي"، ويبدو مستقبل الحضارة الغربية أكثر غموضًا.

ومن اللافت أن دراسة مركز بيو أطلقت سيلًا من التحليلات والمقالات منذ صدورها في 2015 وحتى اليوم، إذ تساءل الكثير من المحللين الغربيين عن سبب جاذبية الإسلام حتى لدى الكثير من الأشخاص الذين نشأوا في بيئات بعيدة ومغايرة للثقافة الإسلامية، وكان من بين الأجوبة ما ذكره -على سبيل المثال- الكاتب الكرواتي ماتيجا سيريتش قائلا: "من المعروف أن جميع الديانات الكبرى في العالم، بما في ذلك الإسلام، أرست أسس المبادئ الأخلاقية والمعتقدات التي تشكّل المجتمعات بطريقة إيجابية. وبشكل أساسي، يمتلك الإسلام إمكانات هائلة لحل مشاكل مثل الظلم الاجتماعي والعنصرية وعدم المساواة الاجتماعية والصراعات السياسية، كما أنه يحقق الهدوء والطمأنينة لمعتنقيه المخلصين، ويوفّر لهم التصالح مع الله والناس. ومع مرور الوقت سيكون الناس أقل تحيزًا، وأكثر استعدادًا للاستماع واكتشاف حقيقة الإسلام في جوهره. إن جاذبية وجودة الإسلام هي التي جعلت منه الدين الأسرع نموًا في العالم. فبساطة التعاليم الإسلامية وعقلانيتها وطابعها العالمي تجذب العديد من الأشخاص، سواء أولئك الذين خاب أملهم من المسيحية، أو لم يكونوا مؤمنين على الإطلاق في السابق"(1).

---

(1) المرجع السابق.



وقبل أن نتابع بحثنا ونناقش بعض الحقائق عن واقع المسلمين اليوم، لا بد أن أتوقف عند نقطة منهجية، وهي أن مناقشتي للطوائف في الفصول السابقة كانت تشمل غالبًا عوامل القوة والضعف لدى المجتمع الذي يعتنق دينًا ما، إلى جانب القوة الحضارية لهذا الدين والدور السياسي الذي يضطلع به، وحتى القوة الناعمة التي تستمدها منه السلطة في بعض الدول. أما عند حديثي عن دين الإسلام الذي أؤمن به، وعن الطائفة السنية تحديدًا التي أنتسب إليها، فلن أجد للأسف أي دور سياسي يُذكر لهذا الدين في أنظمة الدول التي يدين معظم سكانها به، بل أصبح مصطلح "الإسلام السياسي" لدى حكومات هذه الدول وصمة عار لا تُطلق إلا على من يُرمون تلقائيًا في خانة المعارضة والتآمر، ولا يستحقون سوى السجن والنفي، سواء كانوا متطرفين ومتهمين بالعنف أو مجرد أصحاب فكر، فما أقصده هنا هو أن جميع الحكومات المسلمة تعتبر أي انخراط لهذا الدين تحديدًا بالسياسة أمرًا مرفوضًا من حيث المبدأ وبغض النظر عن النتيجة، وهذا يعني بطبيعة الحال أننا لن نجد دولة تتخذ من الإسلام قوة حضارية تمثلها وتعتز بها وتنافح عنها، وبعبارة أخرى، فإن "الحضارة الإسلامية" التي وصفها هنتنغتون في كتابه

"صراع الحضارات" -باعتبارها كتلة حضارية متجانسة في مواجهة حضارات أخرى وعلى رأسها الغرب- ليست هناك قوة سياسية تتبناها، أو حتى تمثل جزءًا منها (1)، بل هي حضارة يحملها جزء من المجتمعات المؤمنة بهذا الدين، لكن من يحكُمون هذه المجتمعات لا يحملون تلك الحضارة ولا ينتمون إليها أصلًا.

قد تتخذ بعض الحكومات المسلمة من الإسلام قوة ناعمة لاستثمارها، لكن هذا يظل محصورًا في أضيق نطاق، وما يُستغل في العادة هو أحد المذاهب الإسلاميّة الذي ترى فيه الحكومة ما يحقق التميز والمصلحة، وغالبًا ما يتلخص في تكريس ثقافة الطاعة للسلطة والولاء لها، وهذا ليس من القوة الناعمة للإسلام نفسه في شيء بل بالأحرى تشويه له.

لذا سنخصص معظم حديثنا لأحوال المجتمعات الإسلامية في العالم الإسلامي والجاليات في بلاد غير مسلمة، فهي التي تشكل "الطائفة الإسلامية"، وليست حكوماتها.

---

(1) يحضرني هنا مثالان قد يحسب القارئ فهما تعارضًا مع المذكور أعلاه، وهما حكومة أفغانستان الوليدة تحت مسمى "حكومة الإمارة الإسلامية" والحكومة التركية، أما الأولى فهي التجربة الوحيدة التي انتزعت شرعيتها وتفردها بالقوة بعد حرب تاريخية مع أقوى جيوش العالم، وما زالت قيد التجربة، ومع أن المجتمع الدولي لم يمنحها الاعتراف بعد إلا أنه اضطر مكرهًا في أغسطس 2021 للقبول بوجودها في هذا العالم كأمر واقع، ونحن ما زلنا نراقب استمرارها ونجاحها قبل أن نحكم بإمكانية تساهل المجتمع الدولي مع هذا النموذج خشية أن يُنسخ في بلاد أخرى، حتى لو كان مجرد دولة فقيرة. أما الحكومة التركية فهي حكومة مرتبطة بحزب حاكم ذي هوية إسلامية لكنه يحكم ضمن نظام علماني صارم، وحتى لو قيل إنها تحمل بالفعل الحضارة الإسلامية وتسعى لتبنّيها في مواجهة الحضارات الأخرى فلا ننسى أن النظام السياسي في تركيا ليس كذلك، وأن المعارضة التي يدعمها نصف الشعب تقريبًا لا تحمل تلك الحضارة بل هي أقرب إلى أعدائها منها.

الإسلاموفوبيا

أفردتُ في كتابي "مستقبل الخوف"، الصادر عام 2021، فصلًا كاملًا لتحليل ظاهرة "الخوف من الإسلام"، مركِّزًا على صعود اليمين المتطرف في الغرب خلال السنوات القليلة الماضية.

ولفهم هذه الظاهرة، كان لا بد من العودة إلى الجذور، ففي بداية القرن العشرين كتب أحد مؤسسي جمعية الشباب القومية في فرنسا مقالًا يحذر من انخفاض معدل المواليد، ومن زحف المهاجرين إلى بلاده لتدمير هويتها، ثم رفع الفاشيون والنازيون شعارات إبادة الأقليات في كل من إيطاليا وألمانيا وإسبانيا، لكن هزيمة "دول المحور" في الحرب العالمية الثانية أدت إلى وضع التوجهات العنصرية في خانة التجريم، لاسيما أن "المحرقة اليهودية" كانت من أهم نتائجها.



ومع ذلك، كانت الحرب المدمرة سببًا غير مباشر في تأجيج العنصرية لاحقًا، إذ احتاجت أوروبا آنذاك إلى عدد غير مسبوق من العمال المهاجرين لإعادة الإعمار، وكان معظمهم من شمال ووسط أفريقيا ومن الهند وباكستان وتركيا، وهم الذين رفضوا لاحقًا العودة إلى بلادهم ليشكّلوا بذلك شريحة واسعة من المسلمين الأوروبيين.

ومنذ السبعينات، يتصاعد باستمرار خطاب اليمين المتطرف في عموم أوروبا والغرب، حيث ظهر آنذاك مصطلح "الاستبدال العظيم" الذي يزعم وجود مؤامرة خفية لتحويل أوروبا إلى مجتمعات مسلمة، ومن ذلك مثلا تقرير نُشر في صحيفة لوفيغارو قبل 35 سنة يتساءل "هل سنبقى فرنسيين في الثلاثين سنة القادمة؟"، والطريف أن المدة انتهت ولم تتجاوز نسبة المسلمين في فرنسا حسب التقديرات 5%، وهي نسبة أقل بكثير من نسب المسيحيين في دول إسلامية كثيرة (1).

ومع أن الجاليات المسلمة في الغرب أقل عددًا وتأثيرًا بكثير من الجاليات ذات الأصول الصينية والهندية، لكن أصابع العنصرية والتحذير تتجه كلها نحو المسلمين فقط، فالخوف يقتصر على سيناريو صعود الإسلام باعتباره ثقافة منافسة لا يمكن احتواؤها ولا التصالح معها، بالرغم من أن الجاليات المسلمة لا تسند ظهرها إلى أي دولة مسلمة ذات شأن على الساحة الدولية، بينما تصعد الصين والهند إلى مصاف الدول الكبرى التي ينبغي للغرب أن يخشى من منافستهما.

أشرتُ في كتابي السابق أيضًا إلى التصاعد المتسارع للإسلاموفوبيا منذ مطلع الألفية الجديدة، وتحديدًا بعد هجمات 11 سبتمبر 2001 من قبل تنظيم القاعدة، حيث أصبح الإسلام هدفًا مباشرًا للقوميين المتطرفين، سواء

---

(1) أحمد دعدوش، مستقبل الخوف، دار المازري، تونس، 2021، ص 293.

كانوا علمانيين أو مسيحيين متشددين. ومع الضخ الإعلامي اليومي للتخويف من انتشار الإسلام، صارت ملفات الهجرة واللاجئين و"مقاومة الأسلمة" من أهم القضايا المطروحة في البرامج الانتخابية للسياسيين في أوروبا، وتمكن من خلالها اليمينيون من حشد الأصوات لأحزابهم ومشاريعهم على حساب القضايا التي تمس حياة الناس العاديين كالاقتصاد والضمان الاجتماعي والصحة والتعليم.

فعلى سبيل المثال، جنّد اليمين المتطرف في سويسرا كل طاقاته في 2009 لطرح استفتاء شعبي يحظر بناء المآذن في البلاد، ومع أن مشهد المآذن نادر للغاية في كل الدول الغربية، حتى في أكثرها تسامحًا وتعددية، حيث يعتمد المسلمون غالبًا على شراء المباني الجاهزة لتحويلها إلى مساجد بدلًا من بنائها ورفع مئاذنها، لكن هذا لم يمنع اليمينيين من إشغال الشعب كله بالدعاية المتطرفة على مدى عدة أشهر، لتتوّج هذه الجهود بتأييد مشروع القانون بنحو 57.5% من الأصوات.



لوحة إعلانية في أحد شوارع العاصمة السويسرية عام 2019

ويقاس على هذا التوجه كل ما تكرر في الدول الأخرى من حملات لاستصدار قوانين من قبيل منع الحجاب في المدارس، ومنع النقاب في الأماكن العامة، ومنع السباحة بملابس محتشمة (البوركيني)، وتجريم أي طالب أو

طالبة في كليات الطب يمتنعان عن معالجة مريض من الجنس الآخر، وتقييد الذبح الحلال، وصولًا إلى إغلاق عشرات المساجد والجمعيات الخيرية، وتأتي فرنسا دائمًا على رأس الدول المشغولة بهذه الحملات.

ومع اندلاع الثورات والحروب في العقد الأخير، بلغ الرهاب من الإسلام أوجَه إثر موجة النزوح من سورية وبقية الدول المنكوبة، حتى أصبحت قضية الحفاظ على الهوية لدى الدول الغربية على رأس الملفات الساخنة في معظم الحملات الانتخابية.

واللافت أن أكثر الدول الأوروبية استقبالًا للمهاجرين، وهي ألمانيا، لا يكاد المسلمون يشكّلون فيها جالية مؤثّرة سياسيًا أو ديموغرافيًّا. فبعد كل الضجيج الذي أطلقه اليمينيون عن مؤامرة "الاستبدال العظيم" أصدر مكتب الإحصاء الفيدرالي الألماني للسكان الأجانب إحصائية في 2022 توضح أن عدد اللاجئين السوريين منذ 2011 بلغ حوالي 876 ألفًا فقط، أي أن البلاد استقبلت أقل من مليون سوري لإدماجهم في مجتمع يضم 83 مليون إنسان (1).

وحتى عندما يستشهد اليمينيون بالإحصائية التي تؤكد أيضًا أن أكثر من ربع الألمان ينحدرون من أصول أجنبية مهاجرة (2)، أي أن أحد الوالدين لم يكن يحمل الجنسية الألمانية عند الميلاد، فهذا لا يعني أن البلاد تفقد هويتها الأوروبية المسيحية، فنسبة المهاجرين من أصول تركية تبلغ تقريبًا 4% فقط، أما نسبة المهاجرين من أصول بولندية وإيطالية ومن دول أوروبية شرقية فتزيد عن الضعف، لذا فإن نسبة المسلمين في كل ألمانيا لا تكاد تزيد عن 6% فقط(3)، علمًا بأن الكثير من أبناء هذه الجالية لا يتمسكون بدينهم أصلًا.

---

(1) "ألمانيا تصدر إحصائية جديدة حول اللاجئين السوريين على أراضيها"، موقع تلفزيون سوريا syria.tv، 20 أبريل 2022.

(2) المصدر: رويترز، 13 أبريل 2022.

(3) بالرغم من تدني هذه النسبة، فقد أعرب مستشار ألمانيا الأسبق هيلموت شميت عن ندمه على =

ومن العجيب أن خطاب الحفاظ على الهوية من "غزو" الثقافة الإسلامية صار مشتركًا لدى اليمين واليسار في معظم الدول الأوروبية، فهناك انزعاج ومخاوف تختلف حدة التعبير عنها من أي ظهور لمظاهر التدين الإسلامي الفردي، حتى لو كان مقتصرًا على ملابس أصحابه وطريقة تناولهم للطعام وأدائهم للصلاة من غير أن يتعدّى ذلك إلى ما هو خارج نطاق حياتهم الشخصية، إذ يتفق المسيحي مع الملحد في أوروبا على الخوف من أن تؤدي هذه المظاهر إلى "أسلمة" القارة، مع أنهما يمارسان في الوقت نفسه طقوس اليوغا الهندوسية على الملأ، ويستمتعان بمظاهر انتشار الثقافة البوذية في كل المدن الغربية الكبرى تقريبًا، سواء في الأحياء التي تسمى عادة بالقرية الصينية (China Town) أو في أي مكان عام، ومن غير أن يندد أحد على الإطلاق بهذا الغزو الثقافي الوثني القادم من الشرق. كما أن جميع مظاهر "الأسلمة" التي تتجلى في تزايد أعداد المسلمين وانتشار مساجدهم في الغرب لا تكاد تُقارن بالوجود المسيحي في بلاد المسلمين، سواء كان وجودًا أصيلًا كما في سورية ومصر أو حادثًا كما في بعض دول الخليج، ومع ذلك لا يكاد يُسمع صوت في الشرق أو الغرب عن المخاوف على هوية هذه البلاد من "الغزو المسيحي"، بالرغم من فارق القوة بين العالمين!

هل يصعد الإسلام في الغرب؟

تشير الدراسات والاستطلاعات التي أشرنا لها سابقًا إلى أن المسيحية تتجه إلى الأفول في معظم الدول الغربية، فهل هذا يعني أن الإسلام سيملأ حيزًا مهمًا

= سماحه بهجرة العمال المسلمين، وقال في مذكراته الصادرة عام 2004 إن التسامح بين المسيحية والإسلام حلم صعب المنال. نقلا عن: هالة الحفناوي، "ولد في أوروبا: الجيل الثالث من المهاجرين المسلمين"، مجلة اتجاهات الأحداث، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، أبو ظبي، فبراير 2015.

من الفراغ الناشئ عن انحسار المسيحية؟ أم ستكون الغلبة للإلحاد واللادينية والروحانيات الجديدة؟

تبدو الإجابة على هذا السؤال معقدة للغاية، فالتغيرات الاجتماعية تتسارع بوتيرة قد لا يلاحظها بعض الباحثين، كما تتطلب الإجابةُ الحصولَ على معطيات حديثة لجوانب عدة، ومنها إحصاء عدد المسلمين المواظبين على العبادات في الغرب وعدم الاكتفاء بمن ينتسب للإسلام من غير التزام، وكذلك إحصاء عدد معتنقي هذا الدين من الغربيين، ثم تحديد أعداد الخارجين من الإسلام، سواء كانوا من أبناء المهاجرين أو ممن اعتنقوا الإسلام ثم فارقوه. وينبغي أيضًا ربط هذه المعطيات بمعايير دقيقة لقياس قوة المجتمعات المسلمة في الغرب من الناحية السياسية والاقتصادية، فإحصاء أعضائها لا يعطي بالضرورة تصورًا سليمًا لقدرة هذه المجتمعات على توحيد صفوفها وتشكيل قوة انتخابية مثلا، ولا لقدرتها على تشكيل جماعة للضغط (لوبي) يمكن الاعتماد عليها لإصدار التشريعات في المجالس التشريعية والبلدية.

حاولتُ أثناء إعداد هذا الكتاب الحصول على دراسات أو إحصاءات بشأن واقع التديّن لدى الجيل الثاني وما بعده من المسلمين في الغرب، وعلمتُ أن هناك مشروعًا لإجراء دراسة شاملة لدى جامعة أميركية في المستقبل القريب، أما المعطيات المتاحة حاليًا فتبدو شحيحة، إذ عثرتُ على إشارة لدراسة أجريت في الولايات المتحدة، وكشفت أن 32% من الذين تربوا على الإسلام لا يعتنقونه في مرحلة البلوغ(1)، كما أشار الشيخ خالد حنفي رئيس لجنة الفتوى في ألمانيا إلى دراسة صدرت عام 2021، وجاء فيها أن نسبة الشباب الذين يؤدون صلاة الجمعة في ألمانيا تبلغ 25% فقط، أما نسبة من يلتزمون بالصلوات الخمس في

(1) Darren E. Sherkat, "Losing Their Religion: When Muslim Immigrants Leave Islam", foreignaffairs.com, 22 June 2015.

منازلهم فتبلغ 37%، بينما أقرّ حوالي ثلث أبناء الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين بأنهم ملحدون (1).

ومع أن هذه النسبة تبدو مرعبة، فإنها لا تعكس واقع المسلمين بكل أبعاده في الغرب كله، وعندما نقارن وضع الشباب من أبناء الجالية المسلمة في ألمانيا بأقرانهم من الألمان الأصليين فالنسب تبدو مختلفة بوضوح، أما إذا قارنّاها بوضع الشباب المسلمين في بلادهم الأصلية فقد لا تكون النتائج صادمة كما سيأتي لاحقًا. فعلى سبيل المثال، وصف ثلث الشباب التونسيين أنفسهم بأنهم غير متدينين في 2019، وهي نسبة تقترب مما تذكره المصادر السابقة عمن تخلّوا عن الدين من أبناء الجيل الثاني في الولايات المتحدة وألمانيا.

من ناحية أخرى، قد لا يشكّل تخلّي تلك النسبة الكبيرة من الشباب عن إسلامهم، أو تساهلهم على الأقل مع الصلاة، نهاية القصة. فقد يصرّ معظم هؤلاء على التمسك بهويتهم الإسلامية حتى مع إقرارهم بالتقصير السلوكي والشعائري، أو حتى العقدي، فبعض الدراسات تشير إلى أن غالبية أبناء الجيلين الثاني والثالث يعرّفون أنفسهم على أنهم مسلمين، قبل انتماء آبائهم القومي، وأيضًا قبل كونهم أوروبيين (2)، وقد يقوّي هذه المقولة ما جاء في الدراسة المشار إليها سابقًا عن أبناء الجيل الثاني في الولايات المتحدة، فمع أن 32% منهم لم يعودوا مسلمين إلا أن نسبة من لا يحملون أي هوية دينية هي 18% فقط، أي أن أكثر من نصف الذين ارتدّوا (وهم الثلث) ما زالوا يقرّون بهويتهم الدينية.

---

(1) "كارثة تهدد الجيل الثاني والثالث من المسلمين بأوربا"، موقع الجزيرة مباشر mubasher.aljazeera.net، 19 أبريل 2022.

(2) "ولد في أوروبا"، مرجع سابق.

وفي دراسة أخرى أجراها معهد إبسوس لاستطلاع مواقف الشباب المسلمين في بريطانيا عام 2018، سئلت عينة من الشباب عن دور بعض العوامل في تشكيل هويتهم، فكانت العائلة تأتي في الصدارة لدى الجميع، ثم قال 74% من الشباب المسلمين إن الدين يأتي في المرتبة الثانية، مقارنة بنسبة 48% من الشباب الهندوس، و23% فقط من الشباب المسيحيين (1).

يضاف إلى ما سبق أن الاستطلاعات تشير إلى نِسب الشباب الذين اختاروا العلمانية أو الإلحاد، لكنها لا تتنبأ بمصيرهم المستقبلي، فمن خلال تفهّمنا للواقع المُعاش نرى أن نسبة معتبرة ممن يقرّرون التخلي عن دينهم -وخصوصًا في سن المراهقة- تعود إليه لاحقًا، ولا سيما أولئك الذين ما زالوا يقرّون بهويّتهم الدينية مع أنهم يعتبرون أنفسهم غير مسلمين.

في 2015، أصدرت عالِمة الاجتماع التركية- الفرنسية نيلوفير غول كتابًا بعنوان "مسلمون في الحياة اليومية: تحقيق أوروبي حول الجدل المحيط بالإسلام"، ووثّقت فيه نتائج مقابلات أجرتها على مدى خمس سنوات في أنحاء أوروبا مع الكثير من الشباب المسلمين الحاملين للجنسيات الأوروبية، وخلُصت من خلال بحثها إلى أن غالبيتهم يمارسون تعاليم دينهم وفقًا للسياق الأوروبي، أي أنهم تمكنوا من إيجاد "تسوية موقتة" للتأقلم مع الحداثة والعلمانية من دون التخلي عن دينهم وخصوصيتهم وهويتهم.

وبحسب الباحثة أيضًا، أنتج الجيل الثاني من المسلمين أشكالا جديدة من التهجين تختلط فيها الهوية الدينية مع الثقافة الأوروبية، وتضيف أن هؤلاء مندمجون تمامًا لأنهم متمكّنون من اللغة ولديهم وظائف جيدة ويعرفون

---

(1) "A review of survey research on Muslims in Great Britain", Ipsos Research Institute, March 2018, p. 37.

تقاليد وقوانين بلدانهم الغربية التي ينتسبون إليها، ولكن عندما يريدون ممارسة تدينهم يَبرزون ويظهر تميزهم بدلًا من أن يذوبوا في المجتمع [1].

وبالعودة إلى الدراسة الصادرة عن مركز بيو في عام 2015، والتي افتتحتُ بها هذا الفصل، فمن المتوقع أن تصل نسبة المسلمين في أوروبا إلى 10% بحلول 2050، وأن تتجاوز نسبة المسلمين في الولايات المتحدة نسبة اليهود بحلول العام نفسه [2]، علمًا بأن السبب الرئيس لهذه الزيادة هو ارتفاع معدلات الولادة عند المسلمين، إذ تتوقع الدراسة أن عدد الذين سيعتنقون الإسلام حول العالم حتى 2050 هو ثلاثة ملايين فقط. وفي دراسة أخرى، يتوقع الباحث في جامعة لندن إريك كوفمان أن المسلمين سيشكلون 15% من الأوروبيين الغربيين بحلول عام 2050 [3]، وليس 10% فقط.

من جانب آخر، تشير دراسة صادرة عن مركز بيو في 2018 إلى أن عدد الأميركيين الذين يعتنقون الإسلام، يماثل تقريبًا عدد أبناء المسلمين الذين يختارون الخروج من الدين، ما يعني -بحسب الدراسة- أن ظاهرة التخلي عن الإسلام لن تؤدي عمليًا إلى نقص عدد المسلمين ووزنهم النسبي في الولايات المتحدة طالما يتم تعويضهم باعتناق الآخرين لهذا الدين، فضلًا عن ارتفاع معدل الولادة لدى المسلمين [4].

---

(1) ريتا فرج، "الجيل الثاني من المسلمين الأوروبيين: توليفات بين الدين والحداثة"، مركز المسبار للدراسات almesbar.net، 2 أبريل 2018.

(2) "The Future of World Religions: Population Growth Projections; 2010-2050", pewresearch.org, 2 April 2015.

(3) Darren E. Sherkat, Op cit.

(4) "The share of Americans who leave Islam is offset by those who become Muslim", pewresearch.org, 26 Jan 2018.

أثناء إعداد هذا الكتاب أيضًا حدثت تطورات سياسية غير متوقعة، وكان لها أثر بالغ الأهمية على هذا الملف، ففي 7 أكتوبر 2023 شنت فصائل المقاومة في غزة هجومًا ضخمًا على الكيان الصهيوني، مطلقة نحو خمسة آلاف صاروخ على مناطق متفرقة، بالتزامن مع هجوم بري على غلاف غزة، وكانت هذه نقطة البداية لعدوان إسرائيلي وحشي، وبدعم غربي سافر، ضد قطاع غزة بالكامل. ونظرًا لضخامة الحدث على كل الأصعدة، فقد سُلطت أضواء الإعلام العالمي كله على غزة، وبعدما اكتسب الصهاينة تأييدًا هائلًا في بداية الأحداث سرعان ما قلب لهم الشباب الغربي ظهر المجنّ.

كشف استطلاع للرأي في منتصف ديسمبر 2023 أن 51% من الشباب الأميركيين، الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و24 عامًا ويُطلق عليهم اسم "جيل زد Z"، يعتقدون أن الصراع في هذه المنطقة لن ينتهي إلا بتفكيك دولة إسرائيل ورحيل اليهود عنها وعودة الفلسطينيين إلى أرضهم، مما دفع العديد من الصحف الأميركية والأوروبية للتحذير من تبعات هذا التغيير الصادم والسريع في ثقافة الجيل الجديد، بينما ظهرت حملات ضخمة على مواقع التواصل للتشكيك في كل ما نشأ عليه هذا الجيل، حتى تناقل الملايين "رسالة بن لادن" متحدثين عن صدمتهم من اكتشافها، وهي رسالة سبق أن نشرها زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن في صحيفة "غارديان" البريطانية عام 2002، عقب أحداث 11 سبتمبر 2001 والحرب على أفغانستان، حيث شرح فيها للشعب الأميركي أن الجواب على السؤال الذي كان مطروحًا آنذاك: "لماذا يكرهنا المسلمون؟" يتلخص في دعم الولايات المتحدة المباشر لجرائم الاحتلال الصهيوني، مضيفًا: "يجب الانتقام للدماء التي تسيل من فلسطين على قدم المساواة. يجب أن تعلموا أن الفلسطينيين لن يبكوا وحدهم؛ ونساءَهم لن

يترملن وحدهن. ولن يُيتّم أبناؤهم وحدهم" (1). والطريف أن الرسالة ظلت منشورة على موقع الصحيفة أكثر من عشرين سنة، ثم حُذفت فورًا عندما بدأ الشباب الأميركيون يتداولونها ويتحدثون عن صدمتهم من موقف حكومتهم الداعم لدولة أخرى تمارس الإبادة الجماعية في حق شعب أعزل.

الأغرب من ذلك هو حملات التعرف على الإسلام التي أطلقها الشباب الأميركيون في هذه الفترة، والتي بدأت بدافع الفضول لاكتشاف خلفيات الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وأيضًا لفهم السرّ العجيب الكامن وراء قدرة أهالي غزة على الصمود في وجه آلة القصف الوحشي، وكانت النتيجة دخول أفواج من الشباب في الإسلام. ولم نستطع التوصل إلى إحصاءات أو استطلاعات لفهم أبعاد هذه الظاهرة، لكن يمكننا الاستئناس ببعض التقارير والتغطيات الإعلامية، ومنها مثلًا ما نشرته محطة "فوكس نيوز" اليمينية الأميركية، التي أبدت انزعاجها الشديد من ظاهرة اعتناق الإسلام، واستضافت الملحدة المرتدة عن الإسلام أيان هرسي علي لتبدي أسفها على الشباب الذين اعتنقوا هذا الدين (2).

أما صحيفة "ديلي ميل" البريطانية فرصدت العديد من حالات اعتناق الشابات الغربيات للإسلام، بما فيهن بعض المثليات جنسيًا. كما استضافت الصحيفة بعض الخبراء الذين رأوا أن هذه الظاهرة تمثّل "التمرد النهائي" ضد الثقافة الغربية لدى بعض الشباب، وخصوصًا الذين لديهم مسبقًا مواقف مناهضة للرأسمالية والنزعة الاستعمارية. واستشهدت الصحيفة بدراسة

---

(1) سمير العركي، "رسالة بن لادن.. لماذا أعاد ناشطون أميركيون التذكير بها؟"، الجزيرة نت، 18 نوفمبر 2023.

(2) Bailee Hill, "Progressive Western women converting to Islam, sharing reasons on social media since 10/7 Hamas attack", foxnews.com, 20 November 2023.

نشرها معهد هارتفورد للأبحاث الدينية وجاء فيها أن ثمانية آلاف امرأة أميركية اعتنقن الإسلام في العام الذي أعقب أحداث 11 سبتمبر 2001 (1).

وبالرغم من تفاؤل كل ما سبق من حملات وإحصاءات، والذي تشير في المحصّلة إلى تزايد عدد المسلمين في الغرب، فهذا لا يعني بالضرورة أن قوتهم التنظيمية ستزداد، فالحكومات الغربية تعمل جاهدة على احتوائهم وإدماجهم، وصولًا إلى تذويبهم في الثقافة الغربية، بينما لا نسمع كثيرًا عن جهود موازية من قادة الجاليات لصدّ هذا الاحتواء.

يتفاءل بعض المراقبين بوصول عدد متزايد من أبناء المسلمين إلى مناصب قيادية (2)، ولكن معظم هؤلاء الواصلين قد حققوا بالفعل شروط الاندماج قبل وصولهم، ومنهم مثلًا رشيدة طليب وإلهان عمر، أول مسلمتين تفوزان بعضوية الكونغرس الأميركي، وصادق خان عمدة لندن، أكبر مدن أوروبا، وحمزة يوسف الذي نجح في سن السابعة والثلاثين في الفوز بلقب أول مسلم يتزعم الحزب الوطني الأسكتلندي ويترأس الحكومة نفسها. فهؤلاء جميعًا يصرّحون بتأييدهم لما يسمى "حقوق المثليين" وانخراطهم في الأجندة الليبرالية اليسارية، بل فاجأ حمزة يوسف الجالية المسلمة عندما سئل في لقاء تلفزيوني أثناء حملته الانتخابية عما إذا كان يرى في زواج الشواذ جنسيًا معصية دينية، فكان جوابه "أنا أؤمن بأن هذا الزواج ليس أقل من زواجي الشخصي من امرأة"(3)، ومع أن السؤال كان عن إيمانه بالحكم الشرعي وليس عن موقفه

---

(1) "Millennials and Gen-Z women are sharing their conversion to Islam in wake of Israel-Hamas war", dailymail.co.uk, 19 November 2023.

(2) يمكن الاطلاع على كتاب نشرته وزارة الخارجية الأميركية بعنوان "الأميركيون المسلمون" وساهم في كتابته النائب الأميركي المسلم كيث إليسون والناشط شاهد أمان الله ومستشارة أوباما السابقة داليا مجاهد، وغيرهم.

(3) السؤال ورد في مقابلة على قناة سكاي نيوز في فبراير 2023.

السياسي فقد اختار الانحياز لما يتعارض جذريًا مع حكم الإسلام، وهو موقف لم تجنح إليه المرشحتان المنافستان له على زعامة حزبه مع أنهما من غير المسلمين!

ومع أن بعض هؤلاء السياسيين المسلمين ما زالوا يلتزمون بأداء الشعائر الدينية من صلاة وصيام وحج، كما تصر إلهان أيضًا على مظهرها الإسلامي بالحجاب، لكن أحزابهم لم تجد في ذلك -كما يبدو- تهديدًا للثقافة والهوية الغربية، ما يوحي بأن التوافق الفكري هو الشرط الرئيس للاندماج المطلوب، أما الالتزام بالعبادات فلا يشكّل عائقًا طالما ظلّ محصورًا في نطاق الممارسة الشخصية.

وعلى هذا الأساس، يتزايد الجدل بشأن جدوى وصول المسلمين إلى المناصب السياسية، إذ يرى البعض أن هؤلاء السياسيين ما زالوا قادرين على خدمة قضايا الجاليات المسلمة، فضلًا عن القضايا الدولية الأخرى كالمتعلقة بفلسطين وكشمير والإيغور، حتى بعد تخلّيهم عن قضايا الأخلاق الأسرية ودعمهم للأجندة اليسارية، بينما يشكك آخرون في الأمر برمّته، ويعتبرون تقديم التنازلات السابقة هو السبيل الوحيد لوصول بعض المسلمين إلى مناصب عليا، ما يؤدي في المحصّلة إلى حرمان المسلمين من المنافع المأمولة، بل يشوّه صورة الإسلام نفسه بعلمنته وتحويله إلى وسيلة لمصالح شخصية وحزبية.

وإذا وضعنا المعايير السابقة جانبًا في سبيل البحث عن معايير أخرى، فقد يتفاءل البعض بتزايد عدد المسلمين لارتفاع معدلات الولادة وتدفق المزيد من المهاجرين، أو بتزايد عدد المساجد والمدارس والجمعيات الإسلامية في معظم الدول الغربية -باستثناء فرنسا التي شرعت في إغلاق العشرات منها- أو بتوالي مظاهر تكريس الوجود الإسلامي مثل امتلاء بعض الشوارع والساحات بآلاف المصلّين في صلوات التراويح والأعياد، وتزيين أحد شوارع لندن في رمضان،

والسماح لمساجد مدينة مينيابوليس الأميركية برفع الأذان عبر مكبرات الصوت للصلوات الخمس.

وقد يجدر بنا في هذا السياق الاستشهاد بتصريح وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف في منتصف 2023، عندما قال إن الإسلام يشهد في بلاده نهضة غير مسبوقة، لكن هذا الثناء كان مشفوعًا بإشارته إلى مشاركة العديد من مسلمي الشيشان في الحرب على أوكرانيا [1]، مما يذكّرنا في المقابل بمشاركة عدد من الأوكرانيين المسلمين في المعارك ضد الروس، حيث يرفع المسلمون من الطرفين شعارات إسلامية "جهادية" لمقاتلة الآخر وبنفس المسوّغات التي يسوقها القادة السياسيون من كل طرف. وهذا المثال يعيد إلى الواجهة واحدة من أهم المشكلات التي تعصف بالجاليات المسلمة، فهي في الغالب منزوعة القرار وخاضعة لتقلبات السياسة، وما زال همّها الأول هو حماية أبنائها من الانجراف في تيار الحداثة والإلحاد ومنعهم من الذوبان، أما التحول إلى كتل مؤثرة وقوى فاعلة فما زال حلمًا بعيد المنال.



الجامع الكبير في موسكو (A.Savin, WikiCommons)

(1) "لافروف: الإسلام في روسيا يشهد نهضة غير مسبوقة"، موقع روسيا اليوم arabic.rt.com، 19 مايو 2023.

وتعليقًا على قوة المسلمين في روسيا، نستشهد بالمؤلف الروسي يوري ميخائيلوف، الذي أسس دار النشر "لادومير" في مطلع التسعينات، وما زال مهتمًا منذ ثلاثة عقود بتعريف الروس بالثقافة الإسلامية، حيث نشر في 2002 ترجمة لمعاني القرآن الكريم. وكان قد نشر في عامي 2005 و2006 مقالات أعاد طبعها لاحقًا في كتاب، وهو مترجم إلى العربية بعنوان "حان الوقت لفهم القرآن"، وهو يخاطب فيه الطبقة السياسية في روسيا لإقناعها بالاستفادة من قوة الجالية المسلمة الضخمة في بلاده، بحيث يصبح الإسلام أحد أركان الدولة لتتصدر "الواجهة الأمامية للشرق" في مقابل الغرب، كما يدعو في كتابه إلى تأسيس جامعة إسلامية عالمية في موسكو، على أن يكون من أهدافها تكوين نخب إسلامية من "رجال الدين الذين يذودون عن مصالح روسيا في الأقاليم"[1]، أي أن المشروع الذي ينادي به يتلخص في النهاية بتحقيق مصالح روسيا الإستراتيجية عبر احتواء قوة الإسلام الروحية والأخلاقية والحضارية وصهرها في بوتقة الحضارة الأرثوذكسية التي تقودها روسيا في مواجهة الغرب العلماني.

وبالخلاصة، سيكون من الصعب في الوقت الراهن ترجيح أحد جانبي التفاؤل والتشاؤم، فقد تجري الرياح باتجاه غير متوقّع وفي وقت قصير كما هو حال السياسة دائمًا. لكن الوقوف على واقع الجاليات المسلمة في الغرب قد لا يكون معيارًا وحيدًا للتنبؤ بحال الإسلام نفسه هناك، فعندما عصفت الأزمة المالية باقتصادات الدول الكبرى في عام 2008 تعالت الأصوات من الغرب نفسه للاستفادة من نظام التمويل الإسلامي لكبح جماح التقلبات المدمّرة في النظام الربويّ، لذا قد لا نكون مغرقين في الأحلام الرومنسية عندما نضع احتمالًا لسيناريو انفتاح جزء من الغرب في المستقبل القريب على الإسلام،

(1) يوري ميخائيلوف، حان الوقت لفهم القرآن، مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث، الدوحة، 2023، ص 101- 103.

شريعةً وعقيدة، سواء للبحث فيه عن حلول لمشكلات العالم، أو حتى للبحث عن أجوبة للأسئلة الوجودية والخلاص في الآخرة. وربما لا يكون للجاليات المسلمة "الضعيفة" نفسها دورٌ في ذلك، بل قد يأتي هذا البعثُ على يد مفكّرين وعلماء وسياسيين غربيين بمبادرات ذاتية. ولكن علينا ألا ننسى أيضًا أن نجاح مشروع كهذا من داخل الغرب نفسه يتطلب نقضًا جذريًا لأهم أسس الثقافة الغربية التي تشكلت على مدى قرون، فقد يقتنع سنويًا آلاف الغربيين -من العوامّ والنخب على السواء- برسالة الإسلام، لكن إقناع شريحة معتبرة من المجتمع بها سيتطلب تغييرًا عميقًا لنمط الحياة وأسس التفكير، وهو أمر يبدو صعب المنال حتى لو لم يكن مستحيلًا.

قبل نحو قرن من الآن، اعتنق صحفي يهودي نمساوي الإسلام وتحول إلى مفكّر إسلامي متحمّس يحمل اسم محمد أسد (1)، وكان رحمه الله يبدي تفاؤلًا بقدرة الإسلام على حل مشكلات الغرب، ولكنه كان يراه مكبّلًا بتخلّف معتنقيه، فكتب كتابه "الإسلام على مفترق الطرق" لمحاولة لفت أنظار المسلمين إلى ضرورة الإصلاح الذاتي. أما مالكوم إكس (2)، الناشط الأميركي الذي اعتنق الإسلام بعد أسد بنحو عقدين، فكان يرى احتمال العثور على حلول لمشكلات الغرب -وعلى رأسها العنصرية- بالعودة مباشرة إلى منابع

---

(1) كان رحمه الله صحفيًا يهوديًا يتجول في أنحاء العالم الإسلامي، ثم اعتنق الإسلام واكتسب الجنسية الباكستانية، وترك عددا من المؤلفات المهمة، وتوفي عام 1992، أما الكتاب المذكور فترجمه الدكتور عمر فروخ، وهو مطبوع لدى دار العلم للملايين عام 1987.

(2) كان رحمه الله من الشباب السود المنخرطين في أعمال العصابات في شيكاغو، ثم اعتنق الإسلام في السجن على يد جماعة "أمة الإسلام" التي كان يقودها إلايجا محمد، وهي جماعة عنصرية سوداء لديها مفهوم مشوّه للإسلام، لكن مالكوم أعاد اكتشاف الإسلام المعتدل بعد أدائه للحج، واصطدم بالجماعة التي رفضته بعدما كان ناطقا باسمها، حتى اغتيل رحمه الله عام 1965 قبل أن يبلغ سن الأربعين.

الإسلام ومن دون انتظار الدعم من بلاد المسلمين. ثم جاء من بعدهما الدبلومامي الألماني مراد هوفمان، ليعتنق الإسلام بدوره ويحاول تقديم رؤية أكثر واقعية.



محمد أسد رحمه الله

ففي كتابه "الإسلام في الألفية الثالثة"، يسرد هوفمان العديد من المشكلات والحلول، ثم يقول "إني أثق في قدرة الإسلام على النجاح في أن يستبدل بالنموذج القائم نموذجه القادر على تجاوز فشل الحداثة، وذلك بالرغم من القصور بين أتباعه" (1).

(1) مراد هوفمان، الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود، ترجمة ياسين إبراهيم وعادل المعلم، مكتبة الشروق، ص 221.

وعندما نشرت الكاتبة الأميركية المسلمة بيتي باومان -بالاشتراك مع الكاتب مظفّر حكيم- كتابًا بعنوان "الشمس تشرق في الغرب" بنهاية القرن الماضي، وحاولت أن تثبت فيه أن مشروع تجديد الإسلام قد ينطلق من الولايات المتحدة نفسها ليعمّ العالم كله، استنادًا إلى فكرة تطابق قيم الإسلام مع قيم الثورة الأميركية، شكّك هوفمان في هذا الطرح الرومنسي، واستشهد بأمثلة عديدة لضعف المسلمين في أميركا قبل إشارته إلى أفكار بيتي باومان، وقال في كتابه "الإسلام في الألفية الثالثة" إن اختراق الإسلام للغرب وتحقيق انتصار فيه أمر غير متوقع حاليًا، حتى في أميركا الشمالية (1).

واللافت أن هوفمان نشر كتابه قبل هجمات 11 سبتمبر بقليل، مشيرًا إلى ما يتعرض له مسلمو أميركا من اضطهاد واتهامات جائرة بالإرهاب، ولا سيما على يد اللوبي الصهيوني، مستبعدًا بذلك أن يستمد الإسلام بواعث نهضته للألفية الثالثة من أميركا (2)، ولا شك في أن هذا أصبح أكثر وضوحًا وتأكيدًا بعد هجمات تنظيم القاعدة وانطلاق ما سمي بالحرب على الإرهاب. وإذا كان هذا هو حال المسلمين في أميركا الشمالية التي تعدّ موطنًا للأقليات المهاجرة وساحة للتنافس الأيديولوجي، فإن الدول الأوروبية ذات الثقافة العريقة والقوميات المتمسّكة بتاريخها وهويّتها هي أكثر تعنتًا بكثير إزاء أي بعث إسلامي قد يطل برأسه من داخل مجتمعاتها.

وماذا عن الشرق؟

تحدث هوفمان مطوّلا في كتابه عن المزايا الرائعة للمجتمعات المسلمة، والتي سحرت العديد من معتنقي الإسلام الغربيين وأقنعتهم بالهجرة نحو الشرق، وبعدما أتقن المؤلف رسم هذه الصورة الاستشراقية البديعة، أفرد

(1) المرجع السابق، ص 243.

(2) المرجع نفسه، ص 240.

عشر صفحات للحديث عن النصف الفارغ من الكأس كي تكتمل الصورة، فتحدث عن غياب العدالة الاجتماعية ومظاهر الترف والبذخ المفرطين في بعض الدول العربية، كما انتقد استثمار الأموال الفائضة لدى الحكومات والأفراد في البنوك الربوية الغربية، متسائلا عن سبب التساهل في ارتكاب هذه الخطيئة الشرعية الكبيرة.



مراد هوفمان (by Tarawneh, WikiCommons)

تحدث هوفمان أيضًا عن معضلة الاستبداد والسلطة المطلقة وغياب المساءلة، وعاد بالزمن إلى الوراء ليقول إن حقبة التراجع الحضاري التي بدأت في القرن الخامس عشر الميلادي تكشف أن الانحطاط هو الذي أدى إلى

الاستعمار وليس العكس، فأصل الوباء نابع من الداخل، وهو الذي دفع الآخرين للطمع في احتلال بلاد المسلمين وتغيير أنظمتها ونهب ثرواتها.

ومن الأمراض المؤلمة التي أشار إليها هوفمان شيوع عقلية المؤامرة لدى الكثير من المسلمين اليوم، فنسبها إلى تضييق مفهوم التجديد وتوسيع مفهوم البدعة، حتى أصبح التنديد بالبدعة سلاحًا يُرفع في وجه كل يسعى للتجديد الفكري، ما أدى بطبيعة الحال إلى الجمود الفكري [1].

وبهذا النقد العميق، يبدو لي أن هوفمان لم يقع في فخ التنميط، فلطالما كانت الصورة الشائعة عن العالم العربي أنه يضم أكثر المجتمعات تجانسًا، وخصوصًا أن حرية التعبير فيه مقيّدة، فحتى لو كانت السلطات المستبدّة منسلخة عن الدين فإنها تفضّل الحفاظ على المظهر المحافظ للمجتمع منعًا للاضطرابات والبلبلة، مع الإمساك بزمام "المؤسسات الدينية" ليبقى الخطاب الديني خاضعًا لسيطرتها ومحققًا لمصالحها.

ولكن هذا الواقع تغيّر جزئيًا منذ مطلع الألفية الجديدة، ففي ظل ثورة الاتصالات والمعلومات لم يعد الحجب ممكنًا، كما لم تعد السلطة تقبض بيدها الحديدية على كل ما يصل إلى الجمهور من معلومات. ومع انطلاق الربيع العربي في مطلع العقد الثاني من الألفية أصبح التغيير دراماتيكيًا، فاهتزت عروش السلطة، واهتزت معها الثوابت الاجتماعية والدينية، ودخلت الأجيال الشابة في دوّامة عارمة من التساؤلات الحادة.

ولفهم هذه التحولات، نعود إلى دراسات "شبكة البارومتر العربي" البحثية المستقلة، والتي طرحت منذ تأسيسها عام 2006 سبع دورات استطلاعية ضخمة، وتُعد حتى الآن من أهم المراجع البحثية للتحولات الاجتماعية في المنطقة.

---

(1) المرجع السابق، ص 55- 56.

تتجلى الفوارق بمقارنة نتائج الدورتين الثالثة والخامسة، حيث خُصصت الأولى لاستطلاع آراء الشباب في منطقتي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ما بين أواخر عام 2012 ومنتصف 2013، أما الثانية فما بين عامي 2018 و2019.

ونرى في هذه المقارنة أن نسبة التديّن تنخفض بحدة خلال فترة قصيرة، فمنذ عام 2013 ارتفعت نسبة الذين يصفون أنفسهم بأنهم "غير متدينين" من 8% إلى 13% عام 2019، حيث وصف ثلث التونسيين وربع الليبيين أنفسهم هكذا، أما في مصر فتضاعف حجم هذه الفئة، بينما تضاعف حجمها أربع مرات في المغرب خلال الفترة نفسها.

وكان جنوح الشباب نحو "عدم التديّن" واضحًا في كل الدول المشمولة بالدراسة، باستثناء اليمن، الذي انخفضت فيه نسبة "غير المتدينين" من 12% في عام 2013 قبيل اندلاع الحرب إلى 5% في عام 2019، وقد يعود ذلك إلى الاستقطاب الطائفي في هذا البلد.

ومع نشر نتائج هذه الاستطلاعات، كُتبت عشرات المقالات والتحليلات عن موجة الإلحاد التي تضرب العالم العربي، وعن الشباب العرب الذين "يديرون ظهرهم للدين والتديّن" [1]، إلى أن جاء التغيير المفاجئ نحو الطرف المقابل بأسرع من الانهيار السابق. ففي الدورة السابعة من الاستطلاعات (2021-2022)، تبيّن أن الشباب أصبحوا أقل إقبالًا على اعتبار أنفسهم "غير متدينين".

ويقول الباحثون في الشبكة إن انحسار التديّن على مدى عقد كامل تقريبًا دفع البعض إلى التساؤل عمّا إذا كانت المنطقة ستصبح أقل تدينًا في السنوات

(1) انظر على سبيل المثال: "الدول العربية في سبعة رسوم بيانية: هل بدأ الشباب العربي يدير ظهره للدين؟"، موقع بي بي سي عربي، 23 يونيو 2019.

المقبلة، ويضيفون: "يبدو أن الإجابة هي لا، أو على الأقل لن يحدث هذا في المستقبل القريب"[1].

وجاء في أحدث دورات الاستطلاع أنه في جميع الدول التي غطاها الاستطلاع، قال 1 من كل 10 أشخاص أو أقل إنه "غير متدين"، وبالمقارنة بدورة الاستطلاع التي جاءت قبل سنتين فقط، فهذه المعدلات تمثل تراجعًا كبيرًا، وذلك بواقع سبع نقاط في المغرب وست نقاط في مصر وخمس نقاط في الجزائر وأربع نقاط في الأردن وفلسطين والسودان وتونس، على التوالي. وكان الاستثناء فقط في لبنان والعراق.

وفسّر الباحثون استمرار تراجع التديّن في لبنان بتعرض البلاد لانهيار تام في نظامه المالي، فمع إخفاق النظام الطائفي على تحقيق التوازن ألقى الشباب باللائمة المنظومة الدينية برمتها إلى حد ما[2].

ويجدر بالذكر أن استطلاعات الشبكة لا تقدم صورة كاملة عن المنطقة، فدول الخليج وسورية غائبة عنها، باستثناء الكويت التي شاركت في الدورات الأولى، وكانت إدارة الشبكة قد بررت ذلك بأن دول الخليج لم توفر الصلاحية والحرية الكافية لإجراء الاستطلاع، أما سورية فكانت تعيش حربًا طاحنة على مدى عقد تقريبًا، ولا يمكن بسهولة التنبؤ بتحولات التدين بين شبابها الذين تنوعت مواقفهم بشدة ما بين الانتماء إلى الثورة بملامحها الدينية والجهادية والانحياز للنظام بخلفيته الطائفية المعادية جذريًا للتدين السنّي، وتبقى هناك شريحة واسعة في الوسط من شباب الجيل الذين نشؤوا في ظل هذه الأزمة ولم ينخرطوا فيها، لكن آثارها الكارثية عصفت بهم ووضعتهم في مواجهة أسئلة

---

(1) "الشباب العربي يتصدرون عودة المنطقة إلى الدين"، موقع الباروميتر العربي arabbarometer.org، 27 مارس 2023.

(2) المرجع السابق.

وجودية صعبة، مع انهيار للمجتمع وغياب للقدوات، ما أدى إلى تشظي الكثير منهم بين أقطاب التيارات والأفكار التي قد يصطدمون بها على شبكة الإنترنت، بعدما باتت الملاذ الوحيد للهروب من الواقع.

مستقبل غامض

لا يخفى أن المعطيات التي تناولناها أعلاه تقتصر على تقصّي واقع التديّن لدى المجتمعات فقط، أي مدى تمسّك الشباب بتعاليم الدين وعباداته، وأن عودة الشباب إلى التديّن صارت أمرًا واقعًا لا يمكن إنكاره، فهل يمتد هذا التحوّل المفاجئ إلى ما يتوقّعه الشباب من الإسلام في الجوانب السياسية والاجتماعية أيضًا؟

قد لا يكون مفاجئًا أن التغيّر في مواقف الشباب من دور الدين في السياسة يتشابه مع التغيّر في نسب التديّن، إذ يقول رئيس الباروميتر العربي مايكل روبنز أن "الإسلام السياسي" في طريقه للعودة، ففي أغلب الدول التي شملها الاستطلاع الأخير، يعرب المواطنون من الصغار والكبار سنًا على السواء عن تفضيل واضح لزيادة دور الدين في السياسة، وذلك لأول مرة تتضح فيها زيادة دعم "الإسلام السياسي" بقدر يُعتد به منذ انطلاق الانتفاضات العربية في 2011 (1).

ويضيف "في الوقت الراهن، تلعب الأحزاب الإسلامية دورًا أصغر بكثير في سياسة المنطقة، مقارنة بالوضع في السنوات التالية للانتفاضات العربية"، لافتًا إلى أن معظم الجماعات والأحزاب الإسلامية باتت محظورة أو تتعرض للتضييق والملاحقة والإقصاء، ومع ذلك تتزايد نسب قبول الشارع العربي بأن يحظى الدين بدور أكبر في السياسة (2).

(1) مايكل روبنز، "شباب العالم العربي بات يؤيد عودة الدين إلى السياسة.. لكن ليس عودة الإسلام السياسي"، موقع البهموت albahamut.com، 13 مايو 2023.

(2) المرجع السابق.

ويقول روبنز إن هذا التغيّر في المواقف لا يعني بالضرورة أن أيديولوجية "الإسلام السياسي" ستنمو وتتحول إلى حركة شعبية كما كان الوضع قبل الانتفاضات، أي أن الأرقام لا تعكس زيادة شعبية الأحزاب ذات الخلفية الدينية، بل تكتسب فكرة دور الدين في السياسة قبولًا أكبر في عقول وقلوب الناس، ومن دون انتماءات حزبية أو حركية (1).

لم يبحث الاستطلاع في أسباب هذه التحولات، ولكن يمكننا أن نتنبأ بأن الكثير من الشباب الذين فقدوا الثقة في الأحزاب المحافظة وذات الطابع الديني عادوا لتصحيح مواقفهم من خلال تصحيح العلاقة مع الدين نفسه، أي أنهم لم يحمّلوا الإسلام مسؤولية الفشل، بل عادوا للبحث من خلاله عن الأمل.

ويكتسب هذا التغير أهميته من حدوثه في وقت متأزم للغاية، فمعظم الدول العربية تعاني من أزمات سياسية واقتصادية خانقة، وجميع الشعارات التي رفعها الشباب في الانتفاضات ذهبت أدراج الرياح، وما زالت مشاكل الاستبداد والفساد وغياب العدالة الاجتماعية تهيمن على المنطقة.

ومع أن دوافع الثورات التي انطلقت في مطلع العقد الثاني من هذا القرن لم تكن دينية ولا طائفية في جوهرها، إلا أنها سرعان ما اكتسبت زخمها من الشعارات الدينية، ولا سيما في سورية التي اتخذ فيها المحتجّون من المساجد منطلقًا لمظاهراتهم الأولى، ثم وجدوا أنفسهم في صراع مسلّح بطابع ديني مع محاولات النظام الأولى لتحويل بوصلة الثورة نحو الصدام الطائفي. لكن فشل مشاريع الإصلاح السياسي في المنطقة أدى -إلى جانب عوامل أخرى- إلى تراجع الثقة بالدين نفسه وبما يسمى "الإسلام السياسي"، لتُستعاد الثقة تدريجيًا في نهاية العقد الدامي كما تشير الاستطلاعات السابقة.

---

(1) المرجع نفسه.

ومع أن الأوضاع كانت أقرب إلى الاستقرار والركود قبل الثورات، إلا أن بعض المحللين كانوا يقرّون آنذاك بصعوبة التنبؤ بالمستقبل، وهو أمر يبرّر لنا التذرّع بصعوبة التنبؤ بمستقبل واقعنا الأكثر غموضًا اليوم. ففي أواخر 2009، أصدر المفكر الأميركي من أصل إيراني آصف بيات كتابًا بعنوان "الحياة سياسة: كيف يغير بسطاء الناس الشرق الأوسط"، وقال فيه إن الشرق الأوسط يبدو أنه دخل في طريق مسدود لا يستطيع أحد أن يتنبأ بالخروج منه إلا النزر اليسير، مشيرًا إلى أن هذه المنطقة تتمتع بخصوصية ثقافية، وأن الأطر التقليدية للتحليل لا تنطبق عليها[1].

واعتبر المفكر العلماني آصف بيات أن القوى الغربية النافذة تطبق معايير مزدوجة في المنطقة العربية، فهي تدعم النظم الاستبدادية. وفي الوقت نفسه تتغاضى عن أي حراك اجتماعي في هذه المنطقة يتعارض مع المصالح الغربية[2].

وسواء تدخّل الغرب لإسقاط الأنظمة كما في العراق وليبيا، أو امتنع عن التدخل لوقف مجازرها كما في سورية، فالنتيجة النهائية لا تكاد تختلف عن الحالتين، إذ لم تمنع الديمقراطية الناشئة في العراق وليبيا استمرار التدخلات الخارجية واندلاع الصراع الداخلي مجددًا، بينما لم يختبر السوريون تجربة الديمقراطية بعد منذ القضاء عليها في ستينات القرن العشرين، وفي الحالتين ما زالت التدخلات الإقليمية والغربية تحول دون نجاح أي تجربة سياسية بطابع إسلامي، وخصوصًا عندما يكون في الجانب السنّي.

وبالرغم من العداء الشديد بين القوى الغربية والنظام الإيراني ذي الطابع الديني الشيعي، إلا أن الوقائع تؤكد أن الغرب لا يمانع في تقبل النفوذ

---

(1) آصف بيات، الحياة سياسة: كيف يغير بسطاء الناس الشرق الأوسط، ترجمة أحمد زايد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014، ص 69.

(2) المرجع السابق.

السياسي الشيعي وتمدده في المنطقة، بالتوازي مع محاولات احتوائه ليبقى تحت السيطرة، إلا أنه لا يكاد يسمح بأي نفوذ سنّي مقابل، حتى لو كان موصوفًا بالاعتدال. وحتى على الصعيد الأمني يبدو التمييز واضحًا، إذ يصرّح بعض السياسيين الأوروبيين بأن "الإرهاب السنّي" هو الذي يؤرّقهم وليس "الشيعي"، مع أن بعض المنظمات والمليشيات الشيعية المحسوبة على إيران تُصنَّف في قوائم الإرهاب الغربية، ففي زيارة قام بها وزير الداخلية الفرنسي جيرالد دارمانان إلى نيويورك في منتصف 2023، قال بصراحة: "أتينا لنذكّرهم أنه بالنسبة إلى الأوروبيين ولفرنسا، فإن الخطر الأول هو الإرهاب الإسلامي السنّي، والتعاون لمكافحة الإرهاب بين أجهزة الاستخبارات ضروري للغاية".

وتابع الوزير: "بينما قد تكون للأميركيين رؤية وطنية أكثر للأزمات، مثل التفوّق العرقي الأبيض وحوادث إطلاق النار الجماعية المتكررة والتآمر، لا ينبغي أن ينسوا ما يبدو لنا في أوروبا بمنزلة التهديد الأول: الإرهاب السنّي" (1).

ومع إعادة النظر إلى هذا المشهد المعقد، يصبح التنبؤ أكثر صعوبة مما كان عندما وضع آصف بيات كتابه، فالأجيال التي فشلت في التغيير عبر تجربة "الربيع العربي" أصبحت أكثر انقسامًا وتشتتًا وارتيابًا من الأجيال السابقة، والأجيال التي تصعد لتحتل مكانها ما زالت تتلمس طريقها في واقع أكثر غموضًا وقهرًا وتسارعًا، وما زالت القوى المتنفذة داخليًا وخارجيًا تحاول توظيف تصوّراتها الخاصة للإسلام في تكريس نفوذها، لكن الإسلام سيبقى عصيًّا على التحريف، وقادرًا -كما كان دائمًا- على إطلاق الطاقات الكامنة في نفوس معتنقيه للإصلاح والتغيير.

(1) "الإرهاب الإسلامي السني عدونا الأول.. فرنسا تتحسر لتراجع نفوذها بأفريقيا وتبث لأميركا مخاوفها"، موقع الجزيرة نت، 20 مايو 2023.

صراع النبوءات..
المشاريع المسكوت عنها في عالم السياسة

بعد الجولة التي اطّلعنا منها على تاريخ الطوائف وواقعها المعاصر، ومحاولتنا استشراف بعض ملامح التنافس والتدافع، لن تكتمل الخارطة حتى نقف على الرؤى التي يضمرها بعض القادة والأتباع في هذه الطوائف لمستقبل الصراع الديني، وتحديدًا تصوراتهم الغيبية لقصة نهاية العالم.

قد يتفاجأ بعض القراء إذا علموا أنه لا يكاد يخلو دين أو معتقد في هذا العالم من رؤية مستقبلية لآخِر الزمان، وأن هذه الرؤى تشغل حيزًا مهمًا في العلوم الدينية (اللاهوتية)، وتُصنَّف ضمن مجال بحثي يدعى عِلم الأُخْرَوِيَّات أو عِلم آخر الزمان (Eschatology). كما لا يخلو دين تقريبًا من نهاية حتمية للعالم، وأن تكون مرتبطة بنزول المخلّص أو المنتظَر بواسطة قدرة إلهية (1).

وبالرغم من شيوع الاعتقاد بنبوءات آخر الزمان في كل الأديان، إلا أن صناع القرار والمشتغلين بالسياسة ومحلليها لا يكادون يشيرون إلى شيء من هذه المعتقدات إلا نادرًا، ولا يُظهرون اكتراثهم بها أثناء اندلاع الصراعات السياسية والعسكرية، بينما تدل بعض المؤشرات على إيمان بعضهم بها، بل وسعيهم أحيانًا لتحقيقها، ولعل هذا الحرص الواضح على تجنب الخوض في تلك الأمور يعود أولًا إلى سيادة المرجعية العلمانية في جميع الدساتير التي أقيمت عليها المنظومة السياسية الغربية، والتي امتدت لتشمل معظم دول العالم بقوة التأثير الغربي، حتى أصبح العُرف السياسي يقتضي نبذ أي مفهوم ديني في بُنية الدولة ومرجعيتها ونموذجها الاقتصادي وخططها العسكرية. ومع

(1) فالح المهدي، البحث عن منقذ، دار رشد، بيروت، 1981، ص 426.

ذلك، يظل هناك قادة سياسيون في دول شتى، بما فيها الولايات المتحدة التي تُعد "قائدة العالم الحر"، يعتنقون أفكارًا دينية تؤثر مباشرة على تصوّراتهم للعالم ومستقبله، وتحديدًا عقيدة آخر الزمان، وقد أشرنا لذلك في فصل "المسيحية المتصهينة"، وهو ما سنعيد التطرق إليه في هذا الفصل.

إضافة إلى ما سبق، قد يتعمد السياسيون والمحللون إخفاء قناعاتهم الدينية المتعلقة بهذا الملف عن الجمهور، أو حتى التظاهر بتسخيف هذه الأفكار في الفضاء العام، نظرًا لخطورة شيوع الاقتناع بها في المجتمعات، فمعظم النبوءات المتعلقة بآخر الزمان تقدم تصوّرات كارثية (ديستوبيا)، قد تصل إلى دمار العالم وانهيار الدول وإبادة شعوب كاملة، ولا شك في أن انتشار فكرة اقتراب هذه الأحداث الجسيمة سيبث الرعب في قلوب الناس، وقد يدفعهم للتقاعس عن العمل، بالتوازي مع انتشار الفوضى والجرائم. وربما يتهرب السياسيون أيضًا من الإفصاح عن اقتناعهم بسيناريوهات آخر الزمان كي لا يبدو ذلك مسوّغًا لانتهاكاتهم العسكرية، لاسيما إذا كانت تلك العقيدة مرتبطة بمعركة هرمجدون التي تسوّغ للبعض ارتكاب إبادة جماعية!

سنستعرض في هذا الفصل أهم السيناريوهات الأخروية لدى الديانات والطوائف الكبرى، وذلك بهدف الاطلاع والاستكشاف كي تكتمل خارطة الطوائف بين أيدينا، ونتجاوز مهمّة النقد والتقييم، مع الحرص على الإيجاز غير المخلّ.

1- في طائفة السنّة:

يشغل هذا الملف حيزًا مهمًا من العقيدة الإسلامية، وقد أفرد المؤلفون منذ بدء عصر التأليف كتبًا ومصنفات كثيرة لأشراط الساعة، أي علامات اقتراب يوم القيامة. ويمكن أن نوجزها فيما يلي:

العلامات الصغرى: وهي تشمل علامات بعيدة ظهرت وانقضت، ومنها بعثة النبي ﷺ، وانشقاق القمر في حياته، وخروج نار عظيمة بالمدينة المنورة [1].

وتشمل أيضًا علامات متوسطة ظهرت ولم تنقض بعد، ومنها أن تلد الأمَة ربّتها، وتطاول الحفاة العراة رعاء الشاء في البنيان [2].

العلامات الكبرى: هي عشر علامات هائلة، نجدها في الحديث الشريف: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اطّلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم» (رواه مسلم).

وجاءت في أحاديث أخرى علامات كبرى إضافية، ومنها خروج المهدي، وهدم الكعبة، ورفع القرآن من الأرض [3].

---

(1) النار العظيمة وردت في حديث نبوي، وتوالى الحديث عن خروج براكين في محيط المدينة المنورة، أولها كان في عصر الصحابة، ثم في سنة 654 للهجرة. انظر: محمد العريفي، نهاية العالم، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ط8، 2017، ص 15- 16.

(2) المرجع السابق، ص 20- 21.

(3) المرجع نفسه، ص 21- 22.

وما يهمّنا في هذا السياق من أحداث آخر الزمان هو الجانب المتعلّق بالملاحم والصراع، ففي مرحلة ما من المستقبل ستكثر الفتن، ومنها فتن ثلاث جاءت في الحديث: قال عبد الله بن عمر: «كنا قعودًا عند رسول الله فذكر الفتن، فأكثر في ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس فقال قائل يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: هي هرَب وحرب، ثم فتنة السراء دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني وإنما أوليائي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كورِك على ضلع، ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدًا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة، فإذا قيل انقضت تمادت يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، حتى يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجّال من يومه أو من غده» (رواه أبو داود وأحمد، وصححه الألباني).

وفي الفترة نفسها تقع الملحمة الكبرى بين المسلمين والروم، وتُفتح القسطنطينية، والراجح أنه غير الفتح الذي حدث على يد العثمانيين لأن الفتح القادم مرتبط بأحداث مستقبلية لم تقع. ويُطلق مصطلح الروم تاريخيًا على اليونان الأرثوذكس، وقد يشمل الروس، لكنه لا يُطلق على الأوروبيين الغربيين كما يظن البعض. وقد جاء في الحديث: "عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال" (رواه أبو داود، وضعّفه الأرناؤوط وحسّنه الألباني).

والراجح أن الملحمة العظيمة ستكون مع عودة حكم الخلافة للأمة الإسلامية، ففي الحديث: وضَع النبي ﷺ يده على رأس عبد الله بن حوالة وقال: «يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك»

(رواه أبو داود وصححه الألباني)، وهذا يعني أن الخلافة ستنزل في آخر الزمان ببيت المقدس، وقد يكون هذا هو تفسير قوله: "عمران بيت المقدس"، والله أعلم.

وجاء في حديث طويل بصحيح مسلم أن الروم سينزلون بمنطقة دابق (قرب حلب)، فيخرج لهم جيش المسلمين من المدينة، ويطالب الروم بردّ أسراهم إليهم مما يدل على وقوع معركة سابقة بين الطرفين، ثم تقع الملحمة الكبرى، وينتصر فيها المسلمون وتُفتح على إثرها القسطنطينية، ثم يخرج الدجّال مباشرة بعد ذلك.

في الفترة نفسها أيضًا سيخرج إمام عادل (خليفة) يُدعى المهدي، ومع أن التشكيك في حقيقة هذه الشخصية صار شائعًا اليوم، وربما بذريعة منع العوامّ من التقاعس وانتظار خروجه، إلا أن مجموع الأحاديث الواردة في حقه يفيد التواتر. وقد ذكر الشيخ محمد بن إسماعيل المقدّم أن الذين أفردوا المهدي بالتصنيف في تراثنا بلغوا 31 مصنفًا [1]، كما ناقش المقدّم أحاديث المهدي باستفاضة في كتابه الضخم، مشدّدًا على صحّة بعضها، وكثرة طرقها.

وقد جمع الشيخ مازن السرساوي في كتابه "كشف المكنون في الرد على كتاب هرمجدون" -الصادر عام 2002- أقوال بعض العلماء المعاصرين في التأكيد على أن هذا ليس زمن المهديّ، فلا بد أن تعود الخلافة وتستقرّ قبل ظهوره، ونقل المؤلف عن كل من الشيخ الألباني وسعيد حوّى وسليم الهلالي وزياد الدبيج أن ظهور المهدي سيُسبق بالملحمة الكبرى مع الروم، وأيضًا بفتح القسطنطينية (مركز الأرثوذكسية) وروما (مركز الكاثوليكية)، وباستعادة المسلمين لبيت المقدس [2].

(1) محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم ،المهدي، الدار العالمية للنشر والتوزيع، ط11، 2008، ص 65-66.

(2) مازن السرساوي، كشف المكنون في الرد على كتاب هرمجدون، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط1، 2002، ص 2-34.

ومع أننا نوافق على هذا الرأي في عودة الخلافة قبل ظهور المهدي، لكن ترتيب الأحداث قد يكون محل نظر، إذ تشير الأحاديث السابقة إلى أن الدجال سيخرج مباشرة بعد الملحمة وفتح القسطنطينية، كما جاء في بعض الأحاديث أن فترة مكوث الدجال هي أربعون يومًا، وسيُقتل في فترة حكم المهدي، والمهدي سيحكم ثماني أو سبع سنوات، ما يعني أن بدء حكمه سيكون سابقًا على الملاحم، والله أعلم.

ومما يجدر الاستشهاد به هنا الحديث الصحيح: "يتبع الدجالَ من يهود أصبهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة" (رواه مسلم)، ثم سيُقتل الدجال في باب لدّ بفلسطين، وهذا يرجّح أن المعركة الكبرى بين المسلمين واليهود ستكون بعد خروج الدجال، وفي حياة المهدي وأثناء خلافته وليس قبله. وقد جاء ذكرُ هذه المعركة في الحديث الصحيح: «لا تقومُ الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمون اليهودَ، فيقتلُهم المسلمون، حتى يختبئ اليهوديُّ من وراءِ الحجر والشجرِ، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلمُ يا عبدَ الله هذا يهوديٌّ خلفي فتعالَ فاقتلْه. إلا الغرقَد، فإنه من شجرِ اليهود» (رواه البخاري). ويرى كثير من العلماء المسلمين أن المسيح الذي ينتظره اليهود في آخر الزمان -كما سيأتي لاحقًا- هو الدجال نفسه، وأنهم سيكونون من أتباعه معتقدين أنه المسيح، وهذا ما أكده ابن تيمية (1).

ومن الأدلة على عودة الخلافة في آخر الزمان الحديث: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن

---

(1) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، مكتبة المدني، بدون تاريخ، ج 3، ص 292.

يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة» (رواه أحمد والطيالسي والبيهقي والطبري، وصحّحه الألباني وحسّنه الأرناؤوط)، وأيضًا الحديث الصحيح: "إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة" (رواه مسلم)، وقد جاء الحديث بعدة روايات في صحيحي البخاري ومسلم، وقال النووي في شرحه ناقلًا عن القاضي عياض: "ويحتمل أن يكون المراد مستحقي الخلافة العادلين، وقد مضى منهم من عُلم، ولا بد مِن تمام هذا العدد قبل قيام الساعة" (1)، واستشهد القاضي بالحديث: "الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة، ثم مُلك بعد ذلك" (2)، وقال إنه لم يكن في ثلاثين سنة إلا الخلفاء الراشدون الأربعة والأشهُر التي بويع فيها الحسن بن علي، ما يعني أن عدد الخلفاء الاثني عشر الذين سيعزّ بهم الإسلام لم يكتمل بعد. ونضيف أن الخليفة المهدي الذي سيعاصر نزول عيسى المسيح ومقتل الدجال قد يكون هو آخر الخلفاء الصالحين (3)، فسيتولى النبي عيسى عليه السلام الحُكم، كما في الحديث: "يوشك المسيح عيسى بن مريم أن ينزل حكمًا قسطًا وإمامًا عدلًا..." (رواه أحمد)، وسيحكم عليه الصلاة والسلام أربعين سنة (4)، ثم يعود الكفر والظلم والفساد إلى الأرض حتى تقوم الساعة، ويُستنتج من ذلك أنه لن يكون بعد المهدي خليفة (5).

---

(1) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتب العلمية، ج6، ص 171.

(2) مع أن الإمام أحمد صحّح هذا الحديث الذي رواه سفينة، لكن البعض ضعّفه. انظر مقال "ضعف حديث: الخلافة ثلاثون سنة"، موقع الشيخ محمد الأمين ibnamin.com.

(3) جاء في رواية: "ثم لا خير في الحياة بعده"، رواه أحمد لكن سنده ضعيف.

(4) جاء هذا في حديث رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(5) هناك آراء أخرى قد لا يتسع لها المقام، وقد ناقشها النووي في شرح مسلم، كما ذكرها ابن حجر في فتح الباري بالتفصيل، ناقلًا عن ابن الجوزي والقاضي عياض، ومنها ما ذكره أبو الحسين بن

بالخلاصة، تتضمن نبوءات آخر الزمان لدى المسلمين السنّة ما يلي: معركة حاسمة بين المسلمين والروم، سيطرة المسلمين على معاقل المسيحية الأرثوذكسية والكاثوليكية، عودة حكم الخلافة الجامعة لكل المسلمين وتوحّد الدول الإسلامية في دولة واحدة، خروج شخص ذي قدرات خارقة يدّعي الألوهية وهو الدجال وتحالُف اليهود معه، نزول المسيح عيسى بن مريم عيسى عليه السلام من السماء لقيادة المسلمين، انتصار المسلمين على الدجال وعلى اليهود وتحرير فلسطين، مقتل الدجال على يد عيسى عليه السلام وفي أرض فلسطين، قضاءُ عيسى عليه السلام على الديانة المسيحية التي كانت تؤلّهه، خروج جيوش هائلة الحجم (يأجوج ومأجوج) لمحاصرة المسلمين الذين يقودهم عيسى عليه السلام ثم مقتل هذه الجيوش بتدخّل إلهي وبدون قتال، استمرار حكم عيسى عليه السلام للأمة الإسلامية أربعين سنة، وهي فترة يعمّها الرخاء والسلم، وفاة عيسى عليه السلام وانتشار الكفر والظلم والفساد مرة أخرى، ثم تُهدم الكعبة ويُرفع القرآن ولا يبقى أثر للإسلام حتى تقوم الساعة على شعوب لا تعرف الإسلام.

ومع أن آخر الزمان يتضمن انتصارات كبرى في بعض مراحله للمسلمين، لكن هذه الانتصارات والفتوحات مسبوقة بفتن كبرى، وبانتشار الهرج والقتل والزنا والفواحش والزلازل، لذا لا يتعجّل المسلمون قدوم هذه الأحداث، وقد ورد عن بعض الصحابة والتابعين أنهم كانوا يخشون حدوثها في زمانهم.

= المنادي عن أن الخلفاء الاثني عشر سيظهرون بعد المهدي، لكن ابن حجر يرجح وجود اثنى عشر خليفة في جميع مدة الإسلام إلى يوم القيامة يعملون بالحق وإن لم تتوال أيامهم، ثم يكون الهرج، أي الفتن المؤذنة بقيام الساعة، من خروج الدجال ثم يأجوج ومأجوج، إلى أن تنقضي الدنيا. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، دارالريان، 1986، ج 13، ص 224- 228.

ومن الملاحَظ أيضًا أننا لا نجد في النصوص الإسلامية أي إشارة لمعركة "هرمجدون"، فمع أن الأحاديث تؤكد وقوع معركة بين المسلمين واليهود على أرض فلسطين لكن بدون الإشارة إلى تحالف المسيحيين مع اليهود، بل تنص الأحاديث على أن عيسى عليه السلام سيكسر الصليب عندما ينزل، ما يعني أن المسيحية ستنتهي بنزوله، وقد يُستنبط من ذلك أن من كان مسيحيًا آنذاك فسيؤمن بنبوة عيسى ويتخلى عن تألهه، وربما يلتحق بجيش المسلمين ضد اليهود. كما لا نجد في الأحاديث ما يشير إلى أن هذه المعركة ستكون ملحمة كبرى، أو أن شعوبًا أخرى ستتحالف مع المسلمين أو مع اليهود.

2- في الطائفة الشيعية:

ينفصل الشيعة عن السنّة في تفاصيل عقدية وفقهية كثيرة، وقد سبقت الإشارة إلى بعضها في فصل "الشيعة"، ومن أهمها مبدأ الإمامة، والاعتقاد بالولاية والعصمة للأئمة الاثني عشر المتحدرين من سلالة الإمام الأول علي بن أبي طالب، كما يؤمن الشيعة بأن المهدي الذي سيخرج في آخر الزمان هو الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن المهدي، الذي وُلد في عام 255هـ، وورث الإمامة عن والده الحسن العسكري.

اضطر المهدي بحسب معتقدهم للتخفي عن الأنظار لأن السلطة العباسية كانت تلاحقه، وكان يعيّن نوابًا له يتحدثون باسمه، وسمّيت هذه الفترة بالغيبة الصغرى. وبعد وفاة النواب الأربعة واحدًا تلو الآخر، بدأت الغيبة الكبرى، وأصبح خروج المهدي من السرداب -الذي يعتقدون أنه يعيش فيه حتى اليوم بمدينة سُرَّ منْ رأى (سامراء) في العراق- مشروطًا بتوحد صفوف الشيعة، وبتهيئة الظروف المواتية لظهوره كي يسيطر على العالم.

وقبل ظهور المهدي لا بد من مقتل ثلثي البشرية، إذ يروي الشيعة عن الإمام الصادق قوله: "لا يكون هذا الأمر حتّى يذهب ثلثا الناس". قيل له: فإذا ذهب ثلثا الناس فما يبقى؟ فقال: "أما ترضون أن تكونوا الثلث الباقي". ويرجّح المفسرون أن هذه الإبادة ستكون بحرب كونية شاملة بين الدول القوية، وأنها لا تشمل المؤمنين، كما سيُقتل الكثيرون بالأوبئة، ويستشهدون على ذلك بمقولة تُنسب للإمام الصادق: "قدّام القائم (أي المهدي) موتان، موت أحمر وموت أبيض، حتى يذهب من كل سبعة خمسة، الموت الأحمر السيف، والموت الأبيض الطاعون" (1).

(1) "لا يكون هذا الأمر حتى يذهب ثلثا الناس"، مركز الأبحاث العقائدية بإشراف مكتب السيستاني aqaed.net، 11 ربيع الأول 1436.

يقود المهدي أتباعه من الشيعة، فيظهر عدوه اللدود في الشام الذي يسمى السفياني، لأنه من سلالة الصحابي أبي سفيان الذي يكفّره الشيعة، وتنطلق صيحة مدوّية من جبريل في السماء تؤكد أن الحق مع المهديّ، فيسمعها كل أهل الأرض، ويسير السفياني بجيشه نحو المدينة المنورة، لكن الأرض تُخسف به وبجيشه في البيداء قبل وصوله، ولا يستمر حكمه أكثر من تسعة أشهر (1).

أما الدجال فلا يرِد ذكره كثيرًا في مصادر الشيعة، ومعظم صفاته التي يروونها تأتي نقلًا عن كتب المسلمين السنّة، بينما تركّز معظم كتبهم على السفياني الذي يعدّ العدو الأول للمهدي وليس الدجال، ويعلّل بعض شيوخهم ذلك بأن الشيعة في مأمن من فتنة الدجال (2).

ومع قلة الآثار المتعلقة بالدجال فهي تشير إلى أن المهدي سيسير إلى بيت المقدس، وأنه سيقتل الدجال ويقضي على أتباعه اليهود، وهكذا يستتب الأمر للمهدي ويحكم العالم بالقسط والعدل (3).

تشهد هذه المرحلة أيضًا معجزة الرجعة، وهي عودة قسمين من الأموات إلى الحياة قبل يوم القيامة، وهم المؤمنون الشيعة والكفار، أما الشيعة فيرجعون للحياة كي يتمتعوا بحكومة العدل الإلهي تحت قيادة المهدي، وأما الكفرة الظلمة فيُخاصَمون. وسيكون آل البيت من بين المؤمنين الراجعين للحياة، وأوّلهم الحسين بن علي، وهو الذي سيدفن المهدي بعد موته.

---

(1) تذكر بعض المصادر أن السفياني هو الدجال نفسه، وأنه أعور العين. انظر: محمد الناصر صدّيقي، فكرة المخلّص.. بحث في الفكر المهدوي، ص 162.

(2) السيد عبدالهادي العلوي، "ما هو موقف الشيعة من خروج المسيح الدجال وهل توجد لدينا روايات معتبرة فيه؟"، مركز الرصد العقائدي التابع للعتبة الحسينية المقدسة alrasd.net، 25 يونيو 2021.

(3) الحز العاملي، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، 1425هـ، ج 5، ص 354.

وبالخلاصة، يعتقد الشيعة أن الملاحم والأوبئة ستسبق ظهور المهدي، وستقضي على أعدائهم من دون أن تمسهم بسوء، كما ستُخسف الأرض بالسفياني وبجيشه قبل أن يصل إلى المهدي، ولن يخوض المهدي إلا معركة واحدة ضد الدجال لاستعادة فلسطين، ويستتب بذلك حكم الأرض للمهدي، لذا يعدّ خروج المهدي منتهى أحلام الشيعة وأقصى طموحاتهم، ويحرصون على الدعاء بتعجيل فرَجه في صلواتهم واحتفالاتهم ومناسباتهم، بينما تضع قياداتهم السياسية (إيران وحلفاؤها) إستراتيجياتها بناء على مركزية الأيديولوجيا المهدوية.

يتضح مما سبق أن مشروع آخر الزمان لدى الشيعة مختلف جذريًا عن النبوءات لدى المسلمين السنّة، فالفكرة المركزية لدى الشيعة هي عودة الإمام الأخير من غيبته لينتقم من خصومه، وعلى رأسهم السلطة السنّية التاريخية الممثلة بالدولتين الأموية والعباسية، والتي سيجسّدها في المستقبل العدو اللدود السفياني، ثم سيتبيّن لمن بقي حيًا من المسلمين أن الحق كان مع الشيعة وأنهم الممثلون الوحيدون للإسلام الحقيقي فيتشيّعون، أما قصة الصراع مع اليهود وقائدهم الدجال فتتشابه مع ما يؤمن به المسلمون السنة لكنها قصة فرعية لدى الشيعة، وستأتي لاحقًا بعد الثأر لآل البيت وانتصار التشيّع.

3- في اليهودية:

أشرنا سابقًا في فصل اليهودية إلى اعتقاد اليهود بأن الرب اختارهم شعبًا له ووعدهم بإخضاع بقية البشر لهم في "يوم الرب"، وهو اليوم الذي سيأتي في آخر الزمان، ويتضمن كل ما يؤمن به المسيحيون والمسلمون من نعيم وعذاب، إذ أنكرت طائفة من اليهود البعث في الآخرة، وجعلت الحساب في هذه الدنيا، فالنعيم الذي ينتظرونه هو الذي سيتحقق مع انتصارهم على بقية الشعوب.

يتضمن مشروع آخر الزمان لدى اليهود سلسلة من الأحداث المهمة، وقد يستغرق حدوثُها فترة طويلة، فهي تبدأ بإنقاذ الرب لهم من السبي البابلي، وقد حرّرهم قورش إمبراطور فارس بالفعل من هذا السبي وسمح لهم بالعودة إلى أرض فلسطين وإعادة بناء الهيكل، لكن تدمير الهيكل الثاني وتشتتهم على يد الرومان في عام 70م دفعهم لانتظار المرحلة التالية، وهي إعادة الشتات من أصقاع الأرض إلى "أرض إسرائيل"، وقد بدأ تحقق هذه المرحلة أيضًا في عام 1948 بالإعلان عن تأسيس دولة إسرائيل على يد الصهاينة.

وقبل ظهور الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر كان الشائع بين الحاخامات انتظار تحقيق وعد الرب، واعتبار الهجرة إلى أرض الميعاد معصية، لكن هذا لا يمنع محاولات التدخل البشري لتعجيل خروج المسيح، فالتلمود يؤكد أن كل عمل إيجابي يعجّل خروجه، كما تؤمن الطائفة الحسيدية بأن ممارسة الصلاة الجماعية تساعد في التعجيل [1]، ثم تبنّت الصهيونية فكرة "بداية الخلاص"، وعندما رأى الحاخامات الدعم الغربي الاستعماري لمشروع الدولة اليهودية أعادوا تفسير نصوصهم ومعتقداتهم حتى أصبحت غالبيتهم

---

(1) خالد السيوطي، أسطورة المسيح المنتظر في اليهودية وأثرها على المقدسات الإسلامية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط 1، 2010، ص 23.

تؤمن إيمانًا عميقًا بإمكانية التعجيل، بل صاروا يعتبرون تدخلهم ضروريًا لتحقيق وعد الرب لهم (1).

في المرحلة التالية، ينبغي على اليهود إعادة بناء بيت داوود وهيكل سليمان في أورشليم، وعندئذ سيقيم الربّ وصيًا من بيت داوود، وهو المسيح المنتظر (الماشيَّح أو المسيّا)، ليقود الشعب اليهودي والعالم، ويبدأ عصر العدالة والسلام (العصر المسيّاني)، والذي سيختفي فيه الفقر، حتى أن الأرض تطرح الفطير وملابس الصوف، وتصبح حبة القمح في حجم الثور (2).

وظهور هذا المسيح مشروط بهدم المسجد الأقصى بالكامل لبناء الهيكل الضخم في مكانه، ووضع قدس الأقداس في موضع قبة الصخرة تحديدًا.

أما في تعاليم القبّالاه اليهودية، فيأخذ التاريخ شكل الدورات الكونية، وسيمر الكون في سبع دورات متتالية، كل منها مكوّنة من سبعة آلاف عام، كما تنقسم كل دورة إلى حقبة زمنية طول كل منها سبع سنوات، وعندما تكتمل دورة التاريخ الأخيرة "الشخيناه" سيحين موعد آخر الزمان ويسود شعب إسرائيل على العالم (3). وهذا التفسير يحظى أيضًا باهتمام الحركة الصهيونية، لا سيما أنه يسوّغ تجميع شتات اليهود قبل خروج المسيّا. وتزعم القبالاه أيضًا -وفقًا لأساطير تشكلت في القرون الميلادية الأولى- أن المتصوّفين منهم يمكنهم الارتقاء بأرواحهم إلى السماء السابعة، وأن يتمكنوا من معرفة موعد خروج المسيح (4).

---

(1) سمر الفوالجة، "اليوم الآخر عند اليهود والصهيونية"، مجلة الرشاد alrashad.org، 4 أبريل 2022.

(2) خالد السيوطي، ص 25.

(3) عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، ط 6، 2010، ص 41.

(4) خالد السيوطي، ص 32.

ولن يتحقق حلم خروج المسيّا -في اعتقادهم- إلا بسيطرة اليهود الكاملة على ما يعتبرونه أرض الميعاد التي منحها لهم الرب، فحتى مع سماح اليهود لبعض العرب والمسلمين بالبقاء في هذه الأرض فهذا لا يعني إطلاقًا التساهل مع منحهم أي فرصة للسيطرة، ولو كان ذلك في صورة حكم ذاتي إقليمي، بل ينبغي أن تكون الهيمنة المطلقة لليهود على كامل الأرض.

لذا فإن مساعي الدول الغربية لحل الصراع في المنطقة بتطبيق حل الدولتين لا يلقى أي قبول إسرائيلي، بل ما زالت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تعمل على إفشال اتفاقية أوسلو منذ عام 1993 التي تقضي بمنح الفلسطينيين حق تقرير المصير على جزء من أرضهم في الضفة الغربية وقطاع غزة، مع إبقاء الهيمنة الإسرائيلية. فالضفة قُطِّعت أوصالها بأعداد لا نهائية من المستوطنات والحواجز والطرق، ثم أطلق الاحتلال عملية عدوان واسعة النطاق لتدمير غزة في أواخر 2023.

وأثناء هذه الحرب، أجرى الرئيس الأميركي جو بايدن مكالمة هاتفية مع رئيس وزراء الاحتلال بنيامين نتنياهو في 19 يناير 2024 لتذكيره بمشروع إقامة دولتين، على أساس أن تكون إسرائيل "مضمونة الأمن" في هذا المسار، وأن تنال فرصة التطبيع الكامل والاعتراف بالوجود من قبل بقية الدول العربية، لكن نتنياهو صرح بكل وضوح في اليوم التالي قائلًا: "لن أساوم على السيطرة الأمنية الإسرائيلية الشاملة على كامل المنطقة الواقعة غرب نهر الأردن، وهذا أمر يتعارض مع إقامة دولة فلسطينية"، ثم أصدر بيانًا باللغة العبرية في اليوم التالي يقول: "إصراري هو الحاجز الذي منع -على مر السنين- إقامة الدولة الفلسطينية التي لو أقيمت لكانت خطرًا وجوديًا على إسرائيل". وكان قد صرح أيضًا قبل يوم من مكالمة بايدن بقوله: "على مدى 30 عامًا، كانت تصريحاتي متسقة للغاية، وما أقوله واضح تمام الوضوح... هذا الصراع لا يدور حول عدم

وجود دولة، أي دولة فلسطينية، بل حول وجود دولة، وهي دولة يهودية". كما صرح العديد من النواب والوزراء اليمينيين في حكومة نتنياهو بتأييد هذا الموقف، ومنهم مثلا وزير الثقافة والرياضة الإسرائيلي ميكي زوهار الذي قال: "أقولها بوضوح لكل من لا يزال عالقًا في يوم 6 أكتوبر: لن نسمح أبدًا بإقامة دولة فلسطينية"(1).

وبالتزامن مع الحرب على غزة أيضًا، نشر البروفسور الفرنسي جان بيير فيليو مقالًا بصحيفة لوموند يرصد مساعي الحكومة الإسرائيلية اليمينية لتشجيع المجموعات المسيحانية ودعمها، مشيرًا إلى كتاب "الهيكل الثالث" لمؤلفه يشاي ساريد الذي أجرى مئات المقابلات مع ناشطي الحركة المسيّانية في مستوطنات الضفة الغربية، ليكشف لنا أنهم يأخذون مشروع إقامة الهيكل الثالث على محمل الجد، وهم الذين كانوا وراء اغتيال رئيس الوزراء اليساري إسحاق رابين في عام 1995 لمعاقبته على المضي في مسار السلام مع الفلسطينيين، فهذا التيار المتدين لا يقبل بأي مهادنة، ويرى أن التنازل عن أي شبر من الأرض لغير اليهود بمثابة تأخير لخطة الرب(2).

ويعدّ "معهد الهيكل" من أهم المنظمات التي تعمل على تعجيل هدم الأقصى وبناء الهيكل، وقد تأسست في عام 1992، أي قبل اتفاقية أوسلو بقليل، ويقع مقرها في البلدة القديمة بالقدس، ولها علاقات وثيقة بمنظمات إيفانجيلية في الولايات المتحدة، وكان من آخر مشاريعها استيراد 5 بقرات حمر بالكامل من تكساس في وقت ما من عام 2023، وذلك تمهيدًا لتحقيق أحد الشروط المهمة، إذ تنص التعاليم التوراتية على ذبح بقرة حمراء (خالية من أي

---

(1) "لن نسمح أبداً بوجود دولة فلسطينية.. ما الذي يريد نتنياهو إقامته من النهر إلى البحر؟"، عربي بوست، 22 يناير 2024.

(2) "بروفسور فرنسي: العد التنازلي لبناء الهيكل الثالث يتسارع"، الجزيرة نت، 4 ديسمبر 2023.

شعرة بيضاء أو سوداء) على جبل الزيتون، ثم حرق جثمانها ونثر رمادها قبالة الأقصى، وخلط بعض الرماد بالمياه، وذلك لتطهير الشعب اليهودي من كل آثامه كي يصبح مؤهلًا لتحقيق وعد الرب، وتبدأ بذلك طقوس إقامة "الهيكل الثالث" والتجهيز لصعود ملايين اليهود إلى "جبل الهيكل" (المسجد الأقصى). وقد ظل اليهود المتدينون يبحثون عن بقرة حمراء تحقق عدة شروط صعبة في تكوينها وتربيتها، واهتدوا أخيرًا إلى التعديل الجيني لتعجيل ظهورها.

وفي أواخر يوليو 2023، كشفت القناة 12 الإسرائيلية في تقرير مصور عن وجود تنسيق وتعاون بين عدة وزارات حكومية لتمويل استيراد البقرات الخمس وتربيتها، حيث تتوافق الأحزاب اليهودية المشاركة بالائتلاف الحكومي على ضرورة تنفيذ فكر بناء "الهيكل"(1).

تتضمن الرؤية اليهودية لنهاية التاريخ أيضًا قيام حرب هائلة يهلك فيها ثلثا البشر، وهي التي يطلق عليها المسيحيون المتصهينون اسم معركة "هرمجّدون"، وبعدها سيبدأ العصر المسيّاني بظهور المسيح المنتظر "المسيّا" من نسل داوود، وسيدرك غير اليهود أن إله إسرائيل هو الإله الحقيقي الوحيد، وحينئذ يعمّ العدل والرخاء تحت قيادة بني إسرائيل، ويعيد الرب إحياء الموتى، ويخلق سماءً وأرضًا جديدتين، وهذا كله في نهاية هذه الحياة الدنيا وليس في الآخرة.

ويرى الدكتور الراحل عبد الوهاب المسيري أن الرؤية الصهيونية للتاريخ قائمة على فكرة الحلولية، أي حلول الإله في الشعب الإسرائيلي وفي التاريخ نفسه، وأن هذا التاريخ الحلولي المقدّس يشكّل الخريطة الإدراكية للصهاينة، بحيث لم تعد لديهم أي حساسية تجاه حقوق الآخرين أو حتى إنسانيتهم، لأن الرب -حسب معتقدهم- قضى بأن يكون جميع البشر خدمًا لهم، لذا يصبح

---

(1) محمد وتد، "موازنات حكومية و5 بقرات حمراء.. خطة إسرائيلية لبناء "الهيكل الثالث" في باحات الأقصى"، الجزيرة نت، 30 يوليو 2023.

احتلالهم لفلسطين أمرًا طبيعيًا، وذبحُهم للفلسطينيين مجرد دفاع عن النفس وعن الحقوق اليهودية المطلقة الممنوحة لهم من الرب، وكل ما فعلوه هو عودة شعب مقدس إلى أرضه المقدسة، وسيأتي الماشيَح (المسيّا) في النهاية لتحقيق الحلقة الأخيرة من سلسلة التاريخ فقط، وسيحدث العصر المسيّاني خارج التاريخ، بحيث ينتهي التاريخ الزمني على يده ويعود التاريخ المقدس [1].

(1) عبد الوهاب المسيري، "الرؤية الصهيونية للتاريخ"، الجزيرة نت، 10 يناير 2008.

4- في المسيحية:

جاء في إنجيل متّى أن الشيطان سيهجم في آخر الزمان على ملكوت الرب، وسيكون هذا هجومه الأخير وبكل قوته وسلطانه، وسيخرج في هذا الزمان أنبياء كذبة لتضليل الناس، وأخطرهم هو "عدو المسيح" (الدجال) الذي سيجلس في هيكل الرب ويدعي الألوهية، وبقوة الشيطان سيحقق المعجزات فيؤمن به كثير من الناس، ثم سينزل المسيح للقضاء عليه (1).

وكان البابا غريغوري الأكبر المتوفى عام 604م قد بشّر بقرب نهاية العالم، وذلك قبل مولد النبي محمد ﷺ بفترة قصيرة، وأدّت نبوءة البابا إلى تبرع الكثير من النبلاء بأراضيهم للكنيسة (2)، ثم تكررت هذه البشارة في بداية القرن العاشر الميلادي، وانتشر في أنحاء أوروبا الاعتقاد بأن نهاية الزمان ستحل مع نهاية الألفية الأولى، فتبرع الكثير من الأغنياء بأموالهم للكنيسة أيضًا (3).

وتختص عقيدة "الألفيّة" بملف آخر الزمان ونبوءاته لدى الطوائف المسيحية، وقد تعرّضنا لهذا الموضوع بالتفصيل في فصل "المسيحية المتصهينة"، مع الإشارة إلى تطوره التاريخي من التأويل المجازي الذي لم يكن يعتقد بالمجيء الثاني للمسيح في آخر الزمان، إلى حين تبلوره في التأويل الحرفي على يد البروتستانت في عصر النهضة الأوروبية.

تنقسم العقائد تجاه ملف الألفية إلى تيارين رئيسين، وهما:

1- تيار الشيلغورية (Chillegorism): لم نجد ترجمة عربية لهذا المصطلح، وهو المذهب الذي يُنكر المجيء الثاني للمسيح وتأسيس مملكة حقيقية له في

---

(1) فالح المهدي، مرجع سابق، ص 138- 139.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001، م 7، ج 14، ص 345.

(3) المرجع السابق، ص 382.

آخر الزمان، ويتمسك بالتأويل المجازي لنصوص سفر الرؤيا التي تتحدث عن مملكة المسيح والمستقبل، وينقسم إلى عقيدتين، هما:

أ- اللاألفية (Amillennialism): يرفض أتباعها الرأي القائل بأن يسوع المسيح سيملك جسديًا على الأرض لمدة ألف عام، ويقولون إن الألفية بدأت بالفعل وتتزامن مع عصر الكنيسة الحالي، فقد أسس المسيح مملكته روحيًا في الملكوت وما زلنا نعيش فيها الآن، وإن مجيء المسيح سيكون في يوم الحساب وليس في هذه الدنيا، وهذه العقيدة هي التي كانت شائعة قبل ظهور البروتستانتية.

ب- البعد-ألفية (Postmillennialism): تضم عدة تفسيرات لكنها تتفق على أن يسوع المسيح أسس مملكته (مجازيًا أو رمزيًا) على الأرض من خلال الفداء، وأننا نعيش فيها الآن من خلال السلطة الروحية للبابوات والبطاركة، ولا تنظر هذه العقيدة إلى الألفية على أنها ألف عام بالضبط، ولكنها فترة ممتدة لمدة محدودة، وسينتهي الزمان بالقيامة العامة والدينونة النهائية التي يتبعها الخلود.

2- تيار الشيلية (Chiliasm): لم تجد لهذه الكلمة أيضًا ترجمة في المعاجم العربية، وهي تمثل المذهب الذي يعتنق فكرة المجيء الثاني للمسيح وتأسيس مملكة أرضية حقيقية له في آخر الزمان لمدة ألف عام [1]، مع الأخذ بالتفسير الحرفي لسفر الرؤيا، ويتفرع هذا التيار إلى:

أ- الشيلية اليهودية (Judeochiliasm): هذه العقيدة هي الشائعة بين كل طوائف اليهود تقريبًا، حيث يعتقدون كما أسلفنا أن المسيح (الماشيّح أو المسيّا) الذي جاء ذكره في التوراة لم يظهر بعد -بينما يؤمن المسيحيون والمسلمون أنه هو عيسى بن مريم نفسه- وأنه سيظهر في آخر الزمان من سلالة النبي الملك

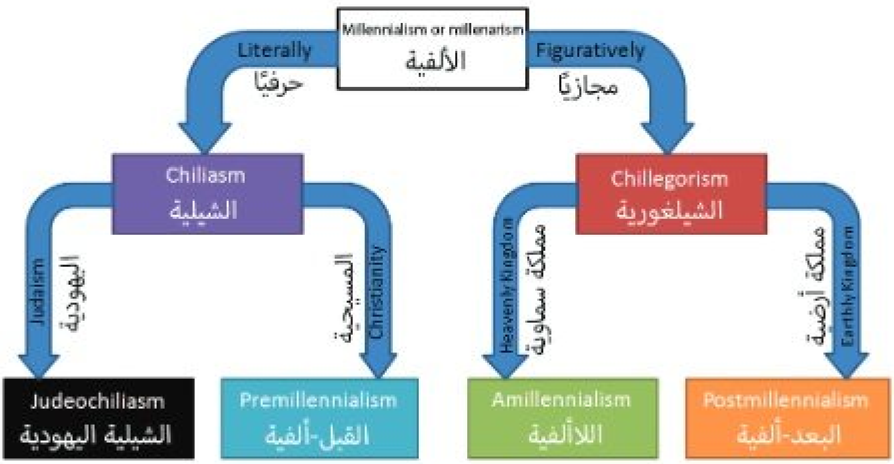
---

(1) "Chiliasm", New Catholic Encyclopedia.

داود عليه السلام، وسيؤسس المملكة المسيّانية بالمعنى الجسدي -وليس الروحي أو الرمزي- التي ستشمل العالم كله، وسيتمتع أتباعه بنو إسرائيل بكل أنواع الملذات الحسّية في ظل حكمه.

ب- القبل-ألفية (Premillennialism): هي العقيدة التي يعتقنها الكثير من المسيحيين البروتستانت، وعلى رأسهم الإيفانجيليون، وتتضمن الاعتقاد بأن يسوع سيعود جسديًا إلى الأرض (المجيء الثاني) قبل الألفية، وسيقود المعركة ضد الشر المتمثل بالشيطان و"عدو المسيح" (الدجال)، وسينتصر عليهما، ثم يبدأ بذلك تأسيس مملكته بالمعنى الجسدي -وليس الروحي أو الرمزي- التي تمتد ألف عام، وهذه العقيدة هي محل بحثنا هنا.

واختصارًا، يُطلق مصطلح "الألفية" على تيار الشيلية، أي على من يؤمن عمومًا بأن المسيح سيؤسس مملكته الحقيقية على الأرض، وسيحكم ألف عام.



ويتضمن سيناريو آخر الزمان لدى البروتستانت المؤمنين بالتفسير الحرفي خطةً إلهية للدهر، وهي تقوم على أساس تمييز شعب بني إسرائيل عن بقية البشر، بحيث ينبغي السعي لإعادة هذا الشعب إلى أرض الميعاد وتأسيس دولة إسرائيل، وهدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل، تمهيدًا لنزول المسيح.

وقبل نزوله لا بد من بعض العلامات، مثل تكاثر الحروب والزلازل والفساد، ثم سينزل المسيح إلى الغيوم ويصعد إليه كل من آمنوا به، سواءً كانوا أحياءً أم أمواتًا، ولا يبقى على الأرض سوى غير المؤمنين بيسوع، لتبدأ فترة "المحنة العظيمة" أو "الضيقة الكبرى" (Great Tribulation) بتسلط الأمراض والكوارث عليهم.

ترى بعض الطوائف أن المسيحيين الأحياء في تلك المرحلة لن يصعدوا، وعليهم أن يتحمّلوا ويصبروا على آلام المحنة، ويرى آخرون أنهم سيصعدون في منتصف المرحلة. وهناك خلاف أيضًا على تحقق هذه الفترة وطولها، فالبعض يرى أنها وقعت في عصور سابقة وكانت عقوبة لليهود، لكن الإيفانجيليين عمومًا ينتظرونها في آخر الزمان ويرون أنها ستمتد سبع سنوات.

يؤمن الإيفانجيليون أيضًا بأن المحنة العظيمة ستشهد خروج "عدو المسيح" (Antichrist)، الذي يماثل الدجال لدى المسلمين، وهو طاغية يقود جيوش الشر ويتحالف مع الشيطان، ونظرًا لقوته الهائلة فسيسيطر على العالم ويدنّس الهيكل في أورشليم، ويعيد بناء مدينة بابل التي تعدّ مدينة الخطيئة لدى كل من اليهود والبروتستانت.

وبعدما يعمّ الفساد والظلم الأرض، يحين موعد "المجيء الثاني" بنزول المسيح مع المؤمنين به، فيؤمن به بنو إسرائيل ويتخلّون عن يهوديتهم، ويصبحون حلفاء للمسيحيين. ثم تبدأ الملحمة الكبرى "هرمجّدون" في منطقة مجيدو على أرض فلسطين، ليحتشد فيه المسلمون مع بقية الأمم خلف قيادة "عدو المسيح" (الدجال) والشيطان "لوسيفر"، في مقابل اليهود والمسيحيين خلف قيادة المسيح، ويُقتل "عدو المسيح" مع كل جنوده في ما يشبه الإبادة الجماعية، بينما يُرمى الشيطان في "الهاوية" ويُقيّد بالسلاسل، ولا يبقى على الأرض سوى المسيح ومن آمن به، لتبدأ بذلك فترة الألف عام، وهي التي يقيم فيها المسيح مملكة الألفية ليحكم الأرض بالعدل، ويعمّ الخير والرخاء.

وبعد انتهاء الألفية، يرتفع المسيح والمؤمنين به إلى السماء، وتنكسر قيود الشيطان ليخرج مع جنوده من الهاوية، ويستدعي جيوشَ يأجوج ومأجوج لمحاصرة أورشليم، فيُرسل عليهم الربُّ النار ويرميهم في بحيرة النار الأبدية، ويعيد الرب خلق السماوات والأرض بعد دمارها، ويعيش المؤمنون في جنة المسيح إلى الأبد.

تلعب هذه العقيدة دورًا مهمًا في تصورات شريحة واسعة من الأميركيين كما أسلفنا، وتحدد مسار حياتهم وخياراتهم الانتخابية، وقد لعبت دورًا بارزًا أيضًا في السياسة الخارجية لبعض رؤساء أقوى دولة في العالم، وعلى رأسهم رونالد ريغان وجورج بوش الابن.

أما الكنيسة الكاثوليكية الممثلة بالفاتيكان فتأخذ بالتأويل المجازي ولا تعتنق فكرة الألفية، لكن أتباعها ينتظرون مع ذلك ظهور "عدو المسيح" في آخر الزمان، حتى مع إنكارهم لفكرة حكم المسيح في الألفية السعيدة.

ويؤمن الأرثوذكس أيضًا بفكرة خروج "عدو المسيح" (الدجال)، ويقول المفكر الروسي البارز ألكسندر دوغين -وهو مقرّب من الرئيس فلاديمير بوتين ومؤثر في سياسته- إن هذا الاهتمام اتخذ في روسيا شكلًا مستقرًا بحلول نهاية القرن الخامس عشر، مع ظهور نظرية موسكو- روما الثالثة، أي مع سقوط القسطنطينية (روما الثانية) وتحول مركز ثقل الإمبراطورية الأرثوذكسية إلى موسكو، وهنا أصبح الشعب الروسي مقتنعًا بأن مهمة روسيا هي إبطاء مجيء "ابن الهلاك" (الدجال). ومع أن هذا الحماس الديني تراجع في عصر الإصلاحات الغربية فقد عاد للانتعاش مرة أخرى في القرن التاسع عشر، بل ظهرت طائفة روسية تدعى "خليستي" تؤمن بالمجيء الثاني "للمسيح الروسي"(1).

(1) ألكسندر دوغين، "سبع حضارات ستحكم النظام العالمي الجديد"، موقع الخنادق alkhanadeq.com، 1 سبتمبر 2023.

لاحقًا تبنى البلاشفة (لينين وزملاؤه) الفلسفة الشيوعية الإلحادية، لكن الروس ظلوا مع ذلك يؤمنون بالحتمية التاريخية في الصورة العلمانية الماركسية لنهاية التاريخ -والتي سنأتي على ذكرها لاحقًا- ثم انهارت الشيوعية، وتبنى بوتين الخلفية القومية الأرثوذكسية لإعادة الهوية التقليدية لروسيا، وأصبح الروس مقتنعين الآن بأنهم يواجهون الحضارة الليبرالية المادية الملحدة في الغرب. ويقول دوغين: "وبطبيعة الحال، فإنه مع ترسيخ روسيا لنفسها كحضارة منفصلة، فإن دور عِلم الأمور الأخيرة والأهمية المركزية لوظيفة التعليم المسيحي سيتزايد" (1).

هناك أيضًا طوائف أخرى قد تُعتبر منشقة عن المسيحية، ولديها تصوّرها الخاص عن آخر الزمان، ومن أشهرها جماعة "شهود يهوه" التي نشأت في أوائل سبعينات القرن التاسع عشر في ولاية بنسلفانيا الأميركية على يد تشارلز تاز راسيل، وهي تعتبر نفسها منفصلة عن كل الكنائس المسيحية، وربما تبدو أقرب إلى اليهودية من أصلها المسيحي. ويعتقد أتباعها أن الشيطان ملاك ساقط، وأنه هو حاكم النظام العالمي الحالي من خلال سيطرته على معظم الحكومات، وأن الأمم المتحدة تمثل رأس الشر. كما يعتقدون أن العالم دخل في مرحلة "الأيام الأخيرة" منذ عام 1914، وسيعلن الشيطان قريبًا حربه عليهم لأنهم وحدهم أتباع الحق، لكن الرب "يهوه" سيطلق حرب "هرمجدون" الشاملة لتدمير كل البشرية باستثناء أتباعه المخلصين، ويبدأ بذلك حكم الألفيّة بقيادة الرب لتصبح الأرض مثل الجنة.

---

(1) المرجع السابق.

5- في العلمانية الإلحادية الغربية:

قد يبدو تناولنا للإلحاد في حديثنا عن عِلم آخر الزمان (Eschatology) غريبًا ومستهجنًا، لكن غريزة حب السيطرة والتطلع إلى صياغة المستقبل -بعد صياغة الحاضر- قد تدفع الملحدين إلى تبني أيديولوجيات لا تختلف كثيرًا في بعض جوانبها عن العقائد الدينية، ومنها نظريات نهاية التاريخ.

ما نقصده هنا هو خليط من النظريات التي تشكّل بمجموعها ملامح الرؤية الإلحادية للمستقبل، والتي قد لا تكون رؤية شاملة ومشتركة بين كل الملحدين الليبراليين، لكن الملامح الرئيسة قد تحقق الحد الأدنى من الشمولية.

من أهم هذه النظريات التي نشأت في الحضارة الأوروبية الحديثة فكرة "التقدم الاجتماعي"، وهي نقيض الفهم المسيحي للتاريخ، فإذا كانت المسيحية تبشّر بالانهيار الأخلاقي وتزايد مؤشرات الفساد في آخر الزمان، وصولًا إلى خروج الدجال، فإن الفكرة المضادة هي رفض كل هذا الانحطاط والإيمان بقدرة العِلم المادي على حل المشكلات والارتقاء بالحضارة والإنسان (1).

وهنا يأتي أيضًا دور النظرية الداروينية في النشوء والارتقاء، فكما يتطور الكائن الحي إلى كائن أكثر تعقيدًا عبر سلسلة التطور الممتدة لملايين السنين فإن الحضارة نفسها تتطور، وبفعل آلية الصراع وانتخاب الأقوى والأصلح سيستمر مسار الإنسان في الصعود والارتقاء نحو الأفضل.

النظريات الاجتماعية والأنثروبولوجية الإلحادية تتفق كلها تقريبًا على أن الإنسان ارتقى من حالة وحشية عندما كان يعيش في الكهوف، إلى التفكير الوجودي وابتكار الأساطير، ثم إنشاء المنظومات الدينية وتشكيل الحضارات والدول، وصولًا إلى تشكيل المجتمعات العلمانية القائمة على النظرة العِلمية المادية للعالم.

---

(1) المرجع نفسه.

ومع استمرار هذا التطور الاجتماعي، بالتوازي مع التقدم التكنولوجي على كل الأصعدة، سيصل الإنسان -حسب هذه الرؤية- إلى اكتشاف سر الخلود ومقاومة الموت، وسيُبدع تقنيات خارقة في مجال الذكاء الاصطناعي لتحمل عنه كل الأعباء. وهنا قد تنشق النظريات المستقبلية إلى شقين، أولهما يتفاءل بقدرة الإنسان على توظيف هذه الاختراعات لصالحه، حتى يعم السلام والأمن وتنتهي الحروب وتسود الديمقراطية الكونية على كل الكوكب وتصبح اليوتوبيا (المدينة الفاضلة) حقيقة واقعة. والثاني على النقيض وهو يتصور النهاية الكارثية (ديستوبيا) للبشرية بسيطرة الروبوتات على كل شيء وانقراض البشر، أو بافتراض اندلاع حرب نووية تقضي على كل شيء. وثمة سيناريوهات أخرى تتصور دمار الكوكب بسبب التغير المناخي والتلوث والحروب، وهروب أقلية من البشر إلى الكواكب الأخرى لبدء مسيرة جديدة للبشرية.

ولعل نظرية "نهاية التاريخ" للمفكر الأميركي من أصل ياباني فرانسيس فوكوياما من أشهر الأمثلة على السيناريو المتفائل، إذ وضع نظريته في منتصف التسعينات ليعلن أن سقوط الشيوعية هو دليل على انتصار الديمقراطية الغربية بمنظومتها الاقتصادية الرأسمالية، وأن التاريخ البشري قد وصل بذلك إلى نهاية تطوره! أما الكاتب الإسرائيلي الملحد يوفال نوح هراري فيبدو أكثر تطرفًا، إذ لخّص في كتابه "العاقل: تاريخ مختصر للجنس البشري" الرؤية الإلحادية للتطور البشري من رجل الكهف إلى الإنسان الليبرالي الذي لم يعد يتقيد حتى بجنسه البيولوجي [1]، ثم اعتبر في كتابه "الإنسان الإله" الصادر عام 2016 أن التقدم التكنولوجي غير المسبوق في مجال الذكاء الاصطناعي قد رفع الإنسان إلى مرتبة الآلهة، وسيسمح له قريبًا بترقية جسده وعقله اصطناعيًا. وقد تتفاوت مواقف هذا المؤلف بين التفاؤل والتشاؤم، وتحظى كتبه ودروسه بترويج استثنائي من كبار السياسيين ووسائل الإعلام في الغرب،

---

(1) تجدر الإشارة إلى أن هراري نفسه شاذ جنسيًا ويعيش في حالة زواج مع رجل مثله.

حتى بيعت كتبه بعشرات الملايين من النسخ، ونال عدة جوائز عالمية، مع أن طرحه لم يأتِ بجديد في الوسط الثقافي الإلحادي!

من جانب آخر، ظهرت في الجناح الإلحادي غير الليبرالي نظرية أخرى لنهاية التاريخ، ونقصد هنا في العالَم الشيوعي الماركسي، ومع أن نفوذ هذه النظرية في الجانب السياسي قد اندثر عمليًا إلا أن الأفكار قد تبقى حية على الدوام.

كانت بداية هذه النظرية على يد الفيلسوف الألماني فريدريش هيغل المتوفى عام 1831، مؤسس النظرية الجدلية (الديالكتيكية)، إذ كان يرى أن التاريخ يتطور في سلسلة دورات جدلية، تتصارع فيها الأضداد حتى تصل الحضارة إلى حالة أكثر تطورًا بنهاية كل دورة، وقد أثّرت هذه النظرية على الرايخ الثاني في ألمانيا بقيادة بسمارك، ثم أثرت أيضًا على الرايخ الثالث والحكومة النازية التي قادها أدولف هتلر، لكن مؤسس الشيوعية الألماني كارل ماركس قدّم تصورًا مقلوبًا لهذه النظرية، وبنى فهمه الشيوعي للتاريخ على أساس صراع الطبقات، زاعمًا أن البشرية ستنتهي أخيرًا إلى شيوعية شاملة تتلاشى فيها الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وتدير حكومةُ الشعب كل شيء في ظل المساواة المطلقة، وطبعًا تحت راية الإلحاد. وقد تبنّت حكومة الاتحاد السوفييتي هذه النظرية بكل حماس، وأقامت عليها سياستها للسيطرة على ملايين البشر في روسيا والدول المحيطة بها.

وبالخلاصة، قد تقدِّم النظريات السابقة للسياسيين الملحدين -من الليبراليين والشيوعيين- مسوّغات أخلاقية للسيطرة على العالم، كما كانت الداروينية الاجتماعية من أهم أدوات الدفاع عن الاستعمار واسترقاق الشعوب التي اعتُبرت أقل تطورًا من الإنسان الأبيض، وقد تشكل أيضًا أحد الروافد الفكرية للخطط الإستراتيجية لدى بعض الدول الغربية اليوم، وخصوصًا مع الانهيار المستمر والسريع للخلفية المسيحية.

6- في الهندوسية:

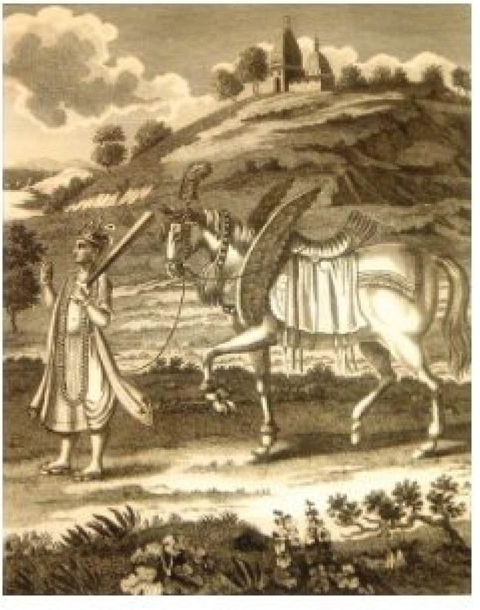
تنص الأساطير الهندوسية على أن العالم يمر بعدة دورات زمنية طويلة، ولسوء الحظ فنحن نعيش حاليًا في رابع وأسوأ العصور، وهو عصر كالي يوغا (Kali Yuga)، والذي بدأ حسب زعمهم في عام 3102 قبل الميلاد، ومع أن أكثر من خمسة آلاف سنة قد مرّت على بدايته إلا أننا ما زلنا في البدايات، فطول هذا العصر يبلغ 432 ألف سنة.

يعدّ العصر الحالي حسب اعتقادهم مليئًا بالصراع والخطيئة، وهو عصر الظلام والرذيلة والبؤس والنفاق، وعندما يقترب من نهايته سيظهر في عالم البشر الكائن العظيم كالكي، قادمًا من عالم شامبالا الخفيّ الذي تعيش فيه الآلهة والأرواح الخالدة، وكالكي هو الصورة الرمزية (أفاتار) العاشرة للإله فيشنو، وسيقاتل الشيطان الشرير كالي يوغا وينتصر عليه، وينتهي بذلك العصر المظلم ويبدأ العصر الجديد "ساتيا يوغا"، وهو عصر الخير الذي تقوده الآلهة، وسيمتد لمدة مليون و728 ألف سنة، ويكون الجميع فيه صالحون وأتقياء، ثم تعود دورات الزمن للتجدد ويظهر عصر كالي يوغا مرة أخرى بعد ملايين السنين.

قد لا تشكل هذه العقيدة أهمية كبيرة في الهندوسية، وربما يبدو للبعض أنها لا تترك أثرًا مهمًا في الحياة اليومية للشعب الهندومي، فنهاية هذا العصر حتمية ومعروفة، والأهم من ذلك أنها بعيدة جدًا في المستقبل، لكن الإيمان بالكارما عمومًا وبعصر النفاق والانحطاط الأخلاقي الحالي يؤثر بالفعل في بعض قرارات الهندوس، وأيضًا في سلوك الحكومة. فعلى سبيل المثال، كشفت دراسة أجريت عام 2010 أن الإيمان بالكارما طويل المدى يخفف تأثير حساسية عدم التأكيد على التوقعات لدى المستهلكين، أي أنهم يسعون لزيادة المتعة على المدى

القصير [1]. كما يظهر أثر هذه العقيدة في محاولات تفسير ما قد يحدث من كوارث طبيعية، أو حتى ما يسود العالم عامةً والهند خاصةً من طبقية وقهر وفقر بأنه من لوازم العصر الذي نعيش فيه، وقد يدفع البعض للتقاعس عن الإصلاح.

من جهة أخرى، كثيرًا ما ادعت بعض الشخصيات الدينية والسياسية أنها تمثل كالكي، مع أن الأسطورة تنص على أن ظهوره ينبغي أن يتأخر أكثر من 400 ألف سنة عن عصرنا الحالي، لكن هذا لم يمنع الطامحين إلى التصدّر من محاولة الاستفادة من الأسطورة، حتى أشاعت بعض الدوائر القومية الهندوسية المؤيدة لرئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي أنه يمثل كالكي نفسه، أو على الأقل هو النذير الذي يبشّر بقرب ظهوره!



يُصوَّر كالكي دائما على هيئة رجل مع حصان أبيض ومعه سيف

وفي عام 2000 أسست جماعة صوفية في بريطانيا "مؤسسة أفاتار كالكي" (Kalki Avatar Foundation) لتتبنى الدعوة إلى أفكار الداعية الصوفي الهندي رياض أحمد جوهر، الذي ادعى أنه المهدي وكالكي في آن واحد، ويبدو أنه سار في ذلك على خُطا من سبقوه، إذ ادعى مؤسّسا القاديانية والبهائية أنهما يمثلان المسيح والمهدي وكالكي معًا.

---

(1) Praveen K. Kopalle, Donald R. Lehmann, John U. Farley, "Consumer Expectations and Culture: The Effect of Belief in Karma in India", Journal of Consumer Research, Volume 37, Issue 2, August 2010, Pages 251–263.

7- في البوذية:

يؤمن البوذيون أيضًا بأن الكون يمرّ بدورات طويلة ومتعاقبة، وأن تعاليم بوذا ستظل حية لخمسة آلاف سنة بعد رحيله، وبعدها سيبدأ الاضمحلال والفساد.

سيتراجع عمر الإنسان حتى يبلغ عشر سنوات فقط، وسيتقلص حجمه أيضًا، وسيصبح عدوانيًا للغاية ومحبًا للحرب، لكن هذه الفترة الرهيبة لن تطول، وسيأتي المخلّص "مايتريا" لإنقاذ البشرية، وهو بوذا الخامس والأخير، وسيحقق الاستنارة الكاملة خلال حياته، كما سيعيد إحياء تعاليم الدارما كما فعل سلفه من قبل.

يعتقد البوذيون أن مايتريا يعيش حاليًا في توشيتا، وهي إحدى العوالم الخفيّة في السموات، والتي كان يعيش فيها بوذا السابق قبل ولادته. وبما أن مايتريا حيّ الآن فيمكن للبعض التواصل معه، كما يزعم البعض أنه زارهم في الواقع أو في الرؤى والأحلام.

تنص بعض التعاليم البوذية على أن ظهور مايتريا الأول سيكون في الهند، وعندما يراه الناس بأحجامهم الصغيرة وهو على هيأته الجميلة سيسألونه عن السبب، فيقول إنه نتيجة تأمّله الدائم في الحب، وعندها سيبدؤون بتعلم الحب والتأمل لأول مرة، وسرعان ما ستبدأ أعمارهم وأحجامهم في الزيادة، ويدخل عصر الملوك العالميين العظماء، وفي نهاية المطاف سيبلغ عمر الإنسان 80 ألف سنة.

وعند الوصول لهذه الذروة، وقبل أن يعود عمر الإنسان للانخفاض مرة أخرى، يحين موعد ظهور مايتريا كمعلّم عالمي، فهذا هو الوقت الذي سيكون فيه العالم جميلًا وسعيدًا للغاية، فالأرض ستكون خالية من الجبال الوعرة، والرزق متوفر، والسلام يعمّ العالم. لن يكون بوذا مايتريا بحاجة للتقشف كما

كان أسلافه، إذ لن تبقى هناك معاناة في هذه الحياة، وسيصبح الحب هو شعار العالم (1).

وبعد هذا السلام سيحين وقت الاندثار، وتبدأ الشمس بالتضخم وتجفيف مياه الأرض، ثم تظهر ستة شموس أخرى لتقوم كل منها بتجفيف أحد مصادر المياه أو إشعال البراكين، وبظهور الشمس السابعة ستحترق الأرض كلها وتتبخر، فلا يبقى لها أي أثر (2).

وكما هو الحال في الهندوسية، فإن مجيء المخلّص مايتريا في آخر الزمان سيكون بعيدًا جدًا، إذ تصل بعض التقديرات إلى أنه لن يأتي قبل خمسة مليارات و670 مليون سنة من الآن، لكن هذا لا يمنع البوذيين من التفاؤل بظهوره المؤقت والتعلم منه في عصرنا الحالي. كما يتفاءلون أيضًا بأن يعودوا للحياة في العصر الذهبي الذي سيظهر فيه مايتريا، ولا تنصّ كتبهم على العمل لتحقيق هذا العصر الذهبي أو تعجيله، إذ لا يمكن التدخل في الطبيعة الدورية للزمن.

ويتشابه الموقف البوذي مع الهندوسي أيضًا في نسبة الكثير من الكوارث لقوانين الكارما، فاجتياح وباء كورونا للعالم في عام 2020 مثلًا لم يكن سوى نتيجة للعمل الكارمي، وكانت وراءه أربعة أسباب، وهي: العولمة التي سهّلت التنقل والسفر حول العالم، وزيادة معدلات التحضر في المجتمعات البشرية، والدمار البيئي وتغير المناخ، وظاهرة الجشع والاستهلاك التي أشاعها النظام الرأسمالي التنافسي (3). لذا ينصح القادة البوذيون بمقاومة هذه المؤثرات

---

(1) Tsenshap Serkong Rinpoche, "The Coming of Maitreya Buddha", November 1982, Study Buddhism by Berzin Archives, studybuddhism.com.

(2) Yalith Wijesurendra, Buddhist Answers: For the Critical Questions, XLibris, 2013, p. 108.

(3) Tsetan Namgyal, "Buddhist world-view during covid-19 pandemic", Journal of Indian Research, Vol.9, No.1&2, January-June-2021, p. 29.

للحيلولة دون وقوع المزيد من الكوارث، لكن منظورهم الأوسع لدورات الزمن يظل مقيدًا بضرورة الاضمحلال التدريجي.



مخطوطة يابانية قديمة تتضمن تصورًا لشخصية مايتريا

8- في حركة العصر الجديد:

يمكننا القول إن هذه الطائفة هي الأكثر اهتمامًا بنبوءات آخر الزمان، فوجودها قائم أصلًا على هذا المعتقد. وكما سبقت الإشارة في فصل "حركة العصر الجديد" فهناك فريق يعتقد أن العصر الجديد (الدلو) على وشك البدء، وفريق آخر يعتقد أنه بدأ بالفعل، وكلاهما ينتظر المايتريا الذي ينتظره البوذيّون، لكنه أقرب للظهور في رأيهم مما يعتقد أتباع بوذا.

كانت البداية على يد هيلينا بلافاتسكي مؤسِّسة جمعية الثيوصوفيا، والذي ذكرت في كتابها "العقيدة السرية" أن الإنسان يتحدر من سبعة "أعراق جذرية"، وهي تتطور منذ ملايين السنين، وكل عرق جذري ينقسم إلى سبعة أعراق فرعية، وكل منها ينقسم إلى سبعة أخرى، ونحن نشهد الآن المراحل الأخيرة من وجود العرق الجذري الخامس، والذي انقرضت منه أربعة أعراق فرعية، عاش كل منها أكثر من مئتي ألف سنة. وبعد حوالي 25 ألف سنة سيزدهر العرق السادس، وأخيرًا لن يبقى على الأرض إلا العرق السابع والأخير، وهو الأكثر تطورًا وقربًا من الكائنات الروحية، وفي نهاية هذه الدورة سيصبح الإنسان من الكائنات السماوية التي شيّدت الكون، وسيعيش حياة روحيّة ويسبح بين الكواكب [1].

ذكرت بلافاتسكي أيضًا أن الكائنات الروحية التي تحكم عالمنا تعيش على كوكب الزُهرة (نجمة الصباح)، وأنها تساعدنا على النمو الروحي حتى نرتقي ونصبح مثلها في نهاية المطاف، معتبرة أن الأديان أساءت فهم هذه الكائنات الملائكية واعتبرتها من الشياطين، وعلى رأسها كائن يدعى "سانات كومارا" (Sanat Kumara)، وصفاتُه تتطابق مع صفات إبليس [2]. كما أكدت

(1) "Fifth Root-Race", theosophy.wiki.

(2) The Secret Doctrine, vol. II, p. 106.

بلافاتسكي أن لكل عِرق مرشده الخاص (بوذا)، وأن المايتريا يتكرر ظهوره عبر التناسخ في كل العصور والأعراق، وسبق له أن تجسد في عرقنا الحالي على هيئة الإله الهندوسي كريشنا، ثم في صورة بوذا، ولاحقًا في صورة يسوع المسيح، وسيعود للتجسد قريبًا.

كانت جمعية الثيوصوفيا رائدة في استيراد الأفكار الهندوسية والبوذية ونشرها في الغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر، لكنها أضافت عليها الكثير من التعديلات، وقد جعلت التمهيد لاستقبال مايتريا على رأس أولوياتها، ثم راهنت الجمعية على الصبي الهندي جيدو كريشنامورتي ليكون هو المايتريا، لكنه تخلى عن هذا الدور في أوائل ثلاثينات القرن العشرين، وظل أتباع الحركة ينتظرون البديل، ولعل أشهرهم البريطاني بنيامين كُريم الذي روّج منذ الثمانينات فكرة وجود مايتريا بالفعل وأنه يعيش متخفيًا في لندن، وظل كُريم يكرر هذه المزاعم حتى وفاته في عام 2016.

ربما كانت حركة العصر الجديد مسؤولة بشكل غير مباشر أيضًا عن ظاهرة ادعاء الكثير من الشخصيات أنهم هم المايتريا، أو محاولة بعض الأتباع إلصاق هذا اللقب بقادتهم الدينيين، ومع أن هذا الادعاء قد ظهر سابقًا في الصين وكوريا على مر القرون، لكن الظاهرة أصبحت أكثر شيوعًا وتكرارًا في القرن العشرين مع انتشار فكرة انتظار المايتريا في الغرب.

ومنذ ستينات القرن العشرين، استمدت "الثقافة المضادة" فكرة انتظار المايتريا من حركة العصر الجديد، ومع أن هذه الثقافة اندثرت تقريبًا لكن فكرة المايتريا ما زالت تقاوم الزمن وتتجدد، لاسيما مع تزايد نشاط الجماعات المؤمنة بوجود الكائنات الفضائية في القرن الواحد والعشرين، والتي أصبحت تنشر أفكارها عبر الإنترنت بكثافة، وهي تركّز باستمرار على فكرة وجود كائنات متطورة للغاية على الكواكب البعيدة وقد هبطت على الأرض مرارًا قبل آلاف

السنين، وهي المسؤولة عن تخليق الإنسان الأول مخبريًا، كما أنها ما زالت تراقب تطوّره وتقدّم له بعض المساعدة في الخفاء، وقد اقترب موعد ظهورها العلني لتنقذ البشرية من الدمار الذي يحلّ بالكوكب، سواء بالتغير المناخي أو بالجشع والاستهلاك الرأسمالي. ومع أن هذه الجماعات لا تتحدث غالبًا عن المايتريا نفسه ولا تلتفت إلى الجانب الروحي لكنها تتمسك بسيناريو مشابه لآخر الزمان، مع تطلّعها إلى الخلاص القادم من كائنات متطورة.

9- في الغنوصية:

يُقصد بالغنوصية عمومًا تيار واسع من المذاهب الباطنية الممتدة على طول التاريخ، لكن المعنى الأخصّ يتعلق بالطائفة التي يعود تراثها إلى القرن الميلادي الثالث وما بعده، وهي طائفة سرية لا يُعرف الكثير عن مؤسسيها وقادتها وأتباعها، لكن أفكارها وعقائدها شائعة لدى كل الطوائف الباطنية والجمعيات السرية.

من أهم وثائق هذه الطائفة مخطوطة سمّاها المؤرخون "في أصل العالم" (On the Origin of the World)، وقد اكتُشفت ضمن مخطوطات نجع حمادي في عام 1945 في صعيد مصر، وتشرح هذه المخطوطة النظرية الغنوصية لأصل الخلق ونهاية الزمان (1)، فالخالق هو يلدابوث وليس الإله الذي يعبده المسيحيون، وهناك "حامل للنور" فتح عقول آدم وحواء على الحقيقة عندما أكلوا من شجرة المعرفة، وهو إبليس نفسه الذي تبجّله الغنوصية وكافة الطوائف السرية.

يبدو الكون لدى الغنوصية مليئًا بأنواع متعددة من الآلهة والكائنات السماوية، وهي منقسمة بين عالمي الخير والشر، وتاريخ الكون حافل بالصراع فيما بينها. وفي النهاية ستحدث حرب كبيرة بين الملوك العظماء، حتى تمتلئ الأرض بالدماء، وتظلم الشمس وينطفئ القمر، وتنهار السماوات واحدة تلو الأخرى، لكن النور هو الذي سينتصر ويقضي على الظلام، والمؤمنون بالغنوص سيدخلون عالم الخلود (2).

---

(1) Hans-Gebhard Bethge and Bentley Layton, "On the Origin of the World", The Gnostic Society Library, gnosis.org.

(2) Ibid.

ومع أن القصة ليست غنية بالتفاصيل، لكن يمكننا بسهولة استنتاجُ اعتقاد الغنوصية بأن إبليس هو قائد عالم النور الذي يبجّلونه، وأنه الإله الذي سينتصر في النهاية، وأنهم سيلحقون به في جنة الخلد. وسنجد أثر هذه العقيدة لدى أتباع الجمعيات السرية وحركة العصر الجديد، وفهم فئة من المتنفِّذين والنخب.

10- الزرادشتية:

تقوم هذه الديانة على عقيدة الصراع بين إله الخير أهورا مزدا وإله الشر أهريمان، وهو صراع ممتد منذ زمن طويل وقبل ظهور البشر، وعندما وُلد زرادشت بدأت الحقبة الأخيرة التي ستمتد ثلاثة آلاف سنة، وسيظهر في نهاية كل ألفية نبي مجدّد، أو مُخلّص، لنشر تعاليم زرادشت حول العالم، ومكافحة الفساد والظلم والانحلال، وسيكون آخرهم "شاو شنياط" أو "شوشانز" أو "سوشيانت"، وهو بمثابة المنقذ للبشرية في آخر الزمان.

تقول الأسطورة إن عذراءً ستنزل للاستحمام في بحيرة كانا سافا، فتتسرب إلى رحمها بذور زرادشت التي حفظتها الملائكة بانتظار اليوم الموعود، وهكذا تحمل العذراء شوشانز في رحمها ويولد من نسل زرادشت، إذ لا بد أن يكون المخلّص إنسانًا مولودًا من أبوين بشريين، لأنّ خلاص العالم في النهاية هو مسؤولية الإنسان.

تعتقد الزرادشتية أن الصراع بين عالمَي الخير والشر سيبلغ ذروته في هذه المرحلة، وسيمتلئ العالم بالظلم والكفر والفساد. وعندما تبلغ القلوب الحناجر، ويتطلع البشر لظهور المخلّص، يولد شوشانز بتلك الطريقة الإعجازية، ثم يعلن عن ظهوره بعلامات عديدة، ومنها أن الشمس ستقف في كبد السماء ثلاثين يومًا، وعندها سيأمر شوشانز الناسَ الطيبين والصالحين بالانضمام له كي يحاربوا قوى الشر والظلام معه، ثم يقود المعركة الأخيرة الفاصلة ضد أهريمان، ويقضي عليه.

وهكذا ينتهي الشر وتعلو كلمة أهورا مزدا، وينتشر الخير والعدل والصحة والسعادة، ويُبعث المؤمنون من قبورهم ليعيشوا في هذه الجنة الأرضية التي

ستمتد ألف عام [1]. ومع أن الطائفة الزرادشتية لم يعد لها وزن كبير في خارطة الطوائف، فقد ارتأينا ذكر خطتها لآخر الزمان لإبراز تشابهها مع ما ورد في الأديان الأخرى، لا سيما أن أتباعها -وهم قلّة- يعوّلون كثيرًا على قرب تحققها.

ويجدر بالذكر أن الديانة المانوية التي ظهرت في إيران، بصفتها نسخة معدّلة من الزرادشتية، قالت أيضًا بظهور المخلّص في آخر الزمان، وقد كان أتباعها في ظل الدولة العباسية ينتظرونه، حيث زعم أبو سعيد المانوي، وهو أحد قادتهم، أنه بقي لآخر الزمان خمسون سنة [2].

صراع النبوءات

يمكننا إضافة نبوءات أخرى إلى ما سبق، فهناك سيناريوهات لأحداث آخر الزمان لدى كل من البهائية والقاديانية، والديانة الراستافارية التي ظهرت في جامايكا وكانت تؤلّه الإمبراطور الإثيوبي هيلا سيلاسي الأول، وأيضًا لدى بعض الطوائف المسيحية واليهودية الصغيرة، وكذلك لدى بعض الديانات الشامانية عند قبائل السكان الأصليين في الأميركتين، ونجد أيضًا في تاريخ مصر القديم أن الإسكندر الأكبر عندما دخل مصر استقبله كهنة "أمون" بحفاوة كي يطرد الفُرس، واعتبروه المخلّص المنتظَر لآخر الزمان [3]، لكننا تجاوزنا كل ما سبق للتركيز على الأديان المؤثرة في جماعات بشرية أكبر، وقوى سياسية فاعلة، فهناك أيضًا رؤى أخروية لدى ديانات مندثرة مثل الأساطير الإسكندنافية، التي لم يعد يعتنقها إلا القلة من الباحثين عن الروحانيات القديمة.

---

(1) محمد عوني بدران، "المسيح المخلّص في الأديان والحضارات القديمة (الزرادشتيّة نموذجًا)"، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، طرابلس- لبنان، عدد 75، ص 91.

(2) محمد الناصر صدّيقي، فكرة المخلّص.. بحث في الفكر المهدوي، دار جداول، بيروت، ط 1، 2012، ص 52.

(3) فالح المهدي، مرجع سابق، ص 29.

في المقابل، هناك أمة ذات وزن كبير لكنها لا تستبطن أي رؤية أخروية، وهي الصين، فمعظم الشعب الصيني ملحد، والحكومة تتبنى الإلحاد الشيوعي بصرامة، وحتى مع إعادة اكتشافها لتراثها الطاوي والكونفوشي فهذا لا يغيّر الكثير لأن أساطير هاتين الديانتين لا تذكر شيئًا عن آخر الزمان. وتكتفي الطاوية بالاعتقاد بأن الإمبراطورية الصينية هي صورة للتسلسل الهرمي الكوني، فما يحدث في الصين هو انعكاس لما يحدث في العوالم الخفية من الكون، والإمبراطور ينال الحكم بتفويض من السماء، وهذا كل شيء.

بناء على كل ما سبق، سنحاول إجمال تأثير نبوءات آخر الزمان على رؤى أطراف الصراع الرئيسة في خارطة الطوائف، وذلك في الإيجاز التالي:

1- العالم الإسلامي السنّي: وهو مقسم إلى عشرات الدول متنوعة الأعراق والمذاهب واللغات، ومع أن الكثير منها ينص في دساتيره على أن الإسلام هو المصدر الأسامي للتشريع، أو ربما المصدر الوحيد، لكن تبنّي الإسلام تطبيقًا عمليًا في سياسة الحكم الرشيد ليس له وجود، كما لا يبدو أن هناك أي حكومة في هذا العالم السنّي تستمد جزءًا من رؤيتها الإستراتيجية من رؤى آخر الزمان، ولو كان ذلك على المدى البعيد. أما أفراد المسلمين فنتوقع أن الغالبية الكبرى منهم تؤمن بحقيقة ما جاء في القرآن والسنة عن آخر الزمان، وليست هناك إحصاءات أو استطلاعات رأي يمكننا التعرف منها على مدى تأثير هذه النبوءات على سلوك الأفراد والجماعات -بعيدًا عن قرارات الحكّام- لكن يمكننا القول من خلال اطلاعنا على مجريات الأحداث أن الاهتمام بتنزيل أحاديث الفتن والملاحم على الوقائع يزداد في أوقات الحروب، كما حدث أثناء حرب الخليج (عاصفة الصحراء) وخلال الثورة السورية (التي اندلعت في 2011)، وأيضًا كلما تجدد العدوان الصهيوني على قطاع غزة، ثم يخفت هذا الاهتمام في حالات السلم والهدوء، وهناك شريحة من الشباب -لا نملك

إحصاءات عن حجمها- تتشوّف في كل الظروف لتنزيل النصوص على الوقائع من خلال اهتمامها ببعض الكتب التجارية [1] والقنوات المتخصصة في هذا الملف على شبكة الإنترنت.

2- العالم الإسلامي الشيعي: وهو ممثل -من الناحية السياسية- بإيران في الدرجة الأولى، والتي يقودها منذ أواخر السبعينات نظام ديني مؤسس على نظرية ولاية الفقيه، ويتبنى بكل حماس رؤيته الخاصة لمشروع آخر الزمان، القائم على تعجيل خروج المهدي. ونظرًا لشيوع البروباغندا (الدعاية) الطائفية التي يتبنّاها النظام الإيراني وبقية المرجعيات الشيعية في العراق ولبنان وغيرهما، تنتشر حمّى انتظار خروج المهدي بين الجماهير الشيعية بشكل قد لا نجد له مثيلًا لدى أي طائفة أخرى.

3- العالم الغربي: ممثلًا بأميركا الشمالية والاتحاد الأوروبي وأستراليا وحلف شمال الأطلسي (نيتو)، وهو يضم أغلبية سكانية لادينية أو ملحدة، كما تقوده مؤسسات وأنظمة تتخذ من العلمانية دستورًا صارمًا. وقد تتفاوت درجة تبنّي هذه الدول للعلمانية في بعض الشكليّات، ففي فرنسا مثلا هناك حساسية

---

(1) تبدو ظاهرة اهتمام شريحة من العوامّ بهذا الأمر شائعة على مر العصور، فكتاب "الفتن" للشيخ نعيم بن حماد (من القرن الثالث الهجري) ما زال يُطبع ويُقرأ على نطاق واسع، مع أن كبار العلماء ما فتئوا يبيّنون للناس تهافت هذا الكتاب وامتلاءه بالأخبار الموضوعة والواهية، فهو لا يصح أن يكون مرجعًا في هذا الباب. ونظرًا لجاذبية قصص الفتن وغرابتها، وما قد تحتوي عليه من أمل بالخلاص في زمن الشدة، ما زال بعض المؤلفين المتهوّرين ينشرون كتبًا من هذا النوع، وبعضهم لا يتورع عن الكذب والافتراء وتلفيق الأحاديث على ألسنة الصحابة، وبعضهم قد يكتفي بليّ أعناق الأحاديث أو الاستشهاد بفتن ابن حماد لتنزيلها على واقعنا المعاصر. وقد أحسن الباحث السعودي عبد الله العجيري في وضع ضوابط مهمة لفهم هذه النصوص في كتابه "معالم ومنارات في تنزيل نصوص الفتن والملاحم وأشراط الساعة على الوقائع والحوادث"، كما خصص الشيخ محمد العريفي في كتابه "نهاية العالم" جزءًا لتفصيل قواعد التعامل مع أشراط الساعة وتنزيلها على الواقع. انظر: نهاية العالم، ص 12- 20.

متطرفة في النفور من الأديان وفي تبنّي العلمانية الشاملة في السياسة والفضاء العام في المجتمع، لكن النمط العلماني الأنجلوسكسوني يبدو أكثر تصالحًا مع الدين، ومع هذا تبقى العلمانية دستورًا للنظام السياسي في العالم الغربي كله، ومن ثمّ تصبح الرؤية الإلحادية المادية للمستقبل هي النموذج الرسمي لإستراتيجيات العالم الغربي.

مع ذلك، هناك طائفة إيفانجيلية ذات وزن لا يستهان به في الولايات المتحدة تحديدًا، وبنسب أقل بكثير في دول أنجلوسكسونية أخرى، وقد يكون لها دور ما في صياغة بعض المواقف السياسية والعسكرية المبنية على سيناريو "الألفية" لآخر الزمان، وبالطريقة التي سبقت الإشارة لها في إدارتَي ريغان وبوش الابن، لكننا نستبعد ذلك في المستقبل القريب مع تزايد انتشار الإلحاد والعلمانية في المجتمع الأميركي وانحسار المدّ الإيفانجيلي.

والأهم من ذلك أن جزءًا لا يستهان به من المتنفذّين العلمانيين في العالم الغربي ليسوا ملحدين، بل يُحسبون على الطوائف الغنوصية وحركة العصر الجديد، وهم غالبًا أعضاء في الجمعيات السرية (الماسونية وغيرها)، وهذا يعني أن تصوّراتهم الإستراتيجية مبنيّة على فكرة جوهرية وهي ترقّب ظهور المايتريا (الذي يبدو أنه الدجال) أو السعي إلى تعجيله، وربما ممارسة طقوس العبادة وتقديم القرابين إلى "لوسيفر" نفسه وهو إبليس، وقد يتضمّن ذلك العملَ على كل المشاريع التي تحقق غايات إبليس في مناهضة الأديان والانحلال الأخلاقي ومسخ الفطرة البشرية. وبما أن هذا الانتماء الطائفي سرّي بحت، فمن الصعب تقدير وزنه ومدى انتشاره بين النخب، خصوصًا أن بعض القرارات التي تصبّ في صالح هذا التيار -مثل أجندة الجندر وما بعد الإنسانية- قد تصدُر عن خلفية إلحادية بحتة وليست غنوصية شيطانية.

4- الطرف اليهودي: مع أن دولة الكيان الصهيوني (إسرائيل) محسوبة سياسيًا على العالم الغربي فلا بد في هذا السياق من عزلها في جزء مستقل، لأن

الرؤية اليهودية لآخر الزمان مستقلة تمامًا. والشائع في الأوساط السياسية أن الحركة الصهيونية أقيمت على نواة علمانية، وغُلّفت بقشرة دينية ظاهرية، أي أن قادتها ملاحدة، وهم يوظّفون الحماس الديني لدى شركائهم المتدينين لتحقيق مآرب سياسية بحتة، لكننا نرجّح أن قيادات الصهيونية تجمع خليطًا من الطرفين، وأن الجامع الذي يوحدهم في عمل مشترك هو تقاطع المصالح المتمثل في قيام واستمرار دولة إسرائيل.

بناء على ما سبق، فهناك عدة رؤى لسيناريو آخر الزمان لدى الطائفة اليهودية على مستوى العالم. الرؤية الأولى علمانية إلحادية، لا تختلف عما سبق شرحه لدى الملاحدة الغربيين، لكنها في الطرف اليهودي تكتسب خصوصيتها من الشعور بالتفوق اليهودي، حتى مع عدم الإيمان بالدين نفسه. وهذه الشريحة (اليهودية الملحدة) قد ترسم إستراتيجياتها للصراع بناء على ضرورة بقاء ونمو دولة إسرائيل، وبدون اكتراث لأي نبوءات دينية.

الرؤية الثانية يهودية متدينة، لا تنظر للعالم إلا من زاوية التعالي على بقية البشر، وينتظر أصحابها بكل حماس لحظة بناء الهيكل وخروج "المسيّا" وبدء العصر المسيّاني. وكل القرارات السياسية لدى هذه الشريحة من اليهود مبنية على هذه العقيدة.

الرؤية الثالثة شيطانية بحتة، وهي مطابقة لرؤية معتنقي الأديان الغنوصية، وكبار الأعضاء في الجمعيات السرية، وأصحاب هذه الرؤية من النخب في العادة، وهم لا ينتظرون خروج المسيّا في آخر الزمان، بل المايتريا، أي الدجال.

5- العالَم الأرثوذكسي: بقيادة الدولة الروسية، ويضم دولًا أخرى تدور في الفلك الروسي في أوروبا الشرقية. وسياسة الكرملين تتبنّى فعليًا رؤيتها القومية الأرثوذكسية لآخر الزمان، وترسم إستراتيجياتها في ضوء الصراع الحتمي مع

رؤى القوى الأخرى، وعلى رأسها العالم الغربي. ومن الراجح أن شريحة كبيرة من الشعب الروسي، تزيد عن النصف، تتبنى هذه الرؤية أيضًا.

6- العالَم الهندوسي: صانعو القرار في الهند مهووسون باستمداد أفكارهم وتصوّراتهم للعالم من أساطيرهم الدينية، لكن ملف آخر الزمان ليس مؤثرًا كما أسلفنا لأنه بعيد جدًا في المستقبل.

7- العالَم البوذي: كما هو الحال في العالَم الهندوسي، لا يترك ملف آخر الزمان أثرًا واضحًا على الثقافة والسياسة في العالَم البوذي، لا سيما أن قدوم مايتريا المتوقع سيكون بعيدًا جدًا في المستقبل، كما أن الدول ذات الأغلبية البوذية لا تتمتع بوزن إستراتيجي كبير على الساحة الدولية، وهي كمبوديا وتايلاند وفيتنام وميانمار وبوتان وسريلانكا ولاوس، ولكن إذا أضفنا اليابان إلى هذا العالم فستميل الكفة بقوة، مع أن اليابان دولة شنتوية بالأساس، لكن شعبها يتبنى خليطًا من الأديان كما أسلفنا، ويميل إلى تفضيل البوذية بالتوازي مع تراثه الشنتوي. وعلى أي حال، لا تبدو الأوساط السياسية اليابانية متأثرة بالبوذية، ولا تقيم وزنًا لقدوم مايتريا في إستراتيجياتها.

الخاتمة

في نهاية المطاف، وبعد مرور ثلاثة عقود على صدور "صراع الحضارات"، نرى أن صامويل هنتنغتون كان محقًّا في تأكيده على أن تباين الخلفيات الثقافية والهويّات هو المحرك الرئيس لتدافع الأمم، وأن هذه الحقيقة ما زالت قائمة حتى مع تزايد نسبة العلمنة وانحسار التدين بدرجة لم يدركها هنتنغتون عندما صاغ نظريته مع أفول حقبة الحرب الباردة. فالعلمانية نفسها تنقلب باستمرار إلى دين وأيديولوجيا، وتكتسب مع الزمن معتقدات صلبة ومقدّسات ينافح عنها الملاحدة بحماس قد ينافس التطرّف الديني. كما تستمر غريزة التعالي الثقافي والتدافع بين قادة الأمم ومفكريها كما كانت على مر العصور، وبنفس الدوافع والمسوّغات.

ونحن نضيف إلى الدوافع الثقافية والدينية -في فهمنا لصراع الطوائف- التباين في رؤى آخر الزمان، وبالأحرى الصّدام الحتمي فيما بينها، إذ تبيّن لنا أن معظم الطوائف الكبرى تنتظر أو تترقب، أو حتى تتعجّل، خطّتها الخاصة لآخر الزمان، والتي تتضمن غالبًا انتصارها الدنيوي على بقية الأمم، فالأديان لا تكتفي بتبشير أتباعها بالنعيم والخلاص في الآخرة فقط، بل تبشرهم أيضًا بانتصار ختاميّ على الأعداء والخصوم والمنافسين، وقد يتضمن هذا الانتصار في بعض الأديان وعدًا بعودة أتباعها الموتى إلى الحياة أيضًا للمشاركة في هذا الانتصار، بحيث لا يقتصر على من حالفه الحظ بالعيش في ذلك الزمن فقط.

ولمزيد من التوضيح في خاتمة هذا الكتاب، نقول إن المسلمين السنّة يترقبون توحّد أمتهم تحت قيادة خلافة واحدة، وانتصارًا ملحميًا على العالَم المسيحي، ثم نزول النبي عيسى عليه السلام ليقود الانتصار على الدجال

واليهود معًا، ثم هلاك شعوب أخرى (يأجوج ومأجوج) بدون قتال، فلا يبقى وزن كبير لمن بقي من غير المسلمين على بقية الأرض. أما الشيعة فينتظرون خروج إمامهم المهدي ليبيّن للمسلمين السنّة أن التشيع هو الحق، وتفنى معظم البشرية في حروب وأوبئة من غير أن يمسّ الشيعة سوء، ثم ينتصرون أيضًا على اليهود والدجال ويسيطرون على الأرض. وبهذا فإن مشروعهم صريح في استحالة تقاربهم وتحالفهم مع السنّة ما لم يتشيّعوا، كما أنه صريح في صدامهم مع المشروع اليهودي (انتظار المسيّا) ومع المشروعين الغربيّين (العلماني والإبليسي).

أما روسيا فهي تتطلع لتحقيق سيادتها الخاصة في صدامها مع الغرب الذي تراه ممثلًا للدجال (عدو المسيح)، وأما الغرب فتتنازعه خطّتان رئيستان لآخر الزمان: إلحادية علنية ظاهرية، وإبليسية سرّية، وكلاهما في صدام حتمي مع مشاريع وخطط كل من المسلمين السنّة والشيعة وروسيا. وهناك أيضًا خطة ثالثة فرعية في الغرب تتبناها الطائفة الإيفانجيلية التي تنتظر ملحمة هرمجدون لإفناء معظم البشر والاحتفال بالمجيء الثاني للمسيح، ثم العيش في ظل حكمه ألف سنة، لكن هذه الطائفة لم تعد مؤثرة بقوة في صنع القرار. وأما اليهود فإما ينتظرون خروج "المسيّا" للاحتفال بخضوع كل الأمم لهم تحت قيادته، بما فيهم حلفاؤهم الإيفانجيليون، وإما ينتظرون الدجال ولتحقيق الهدف نفسه أيضًا في إخضاع البشر لحكمهم، وهم في الحالتين يقبلون بالتحالف مع أي طرف لتحقيق مصالحهم، مع إيمانهم بحتمية إخضاع الجميع في النهاية.

وأما الصين والهند فلكل منهما مشروع خاص، وهو لا ينبني بالضرورة على سيناريو أخرويّ، وهما في صِدام حتمي مع مشروع العالم الإسلامي، لكن علاقتهما بالمشروع الإلحادي العلماني الغربي مبنية على تدافع وتقاطع المصالح.

يتنبّأ الكثير من المحللين بأن العالم يمر بمرحلة مخاض سريعة، إذ كشفت أزمة وباء كورونا (بدءًا من عام 2020) عن مواطن خلل جليّة في منظومة العولمة، وتسبّبت أزمة التضخم الناشئة عنها في تعميق الهوة بين الفقراء والأغنياء على المستوى العالمي، وما زالت عملة الدولار تواجه ضغوطًا متصاعدة وتهديدات جادّة مع تزايد أزمة الديون، كما قدّمت قمةُ مجموعة "بريكس" المنعقدة في 2023 تصوّرًا طموحًا لعالم متعدد الأقطاب يتحدى الانفراد الأمريكي، تزامنًا مع صمود روسيا في تحدّيها للعالَم الغربي على الجبهة الأوكرانية، ومواصلة الصين نموّها الاقتصادي المتسارع، والانهيار غير المسبوق للمنظومة الأخلاقية الغربية في دعمها السافر للإبادة الإسرائيلية الوحشية في قطاع غزة، وأيضًا في محاولتها فرض معاييرها الجندرية والجنسية المصادمة للفطرة التي تتوافق عليها معظم شعوب العالم.

ومع كثرة هذه العناصر والأحداث وتعقّد نقاط التشابك، نقرّ بتواضعٍ بصعوبةِ التنبؤ بما يحمله لنا المستقبل، ونكتفي ختامًا بالتأمل في هذا الاقتباس من القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118- 119].

خارطة

الطوائف

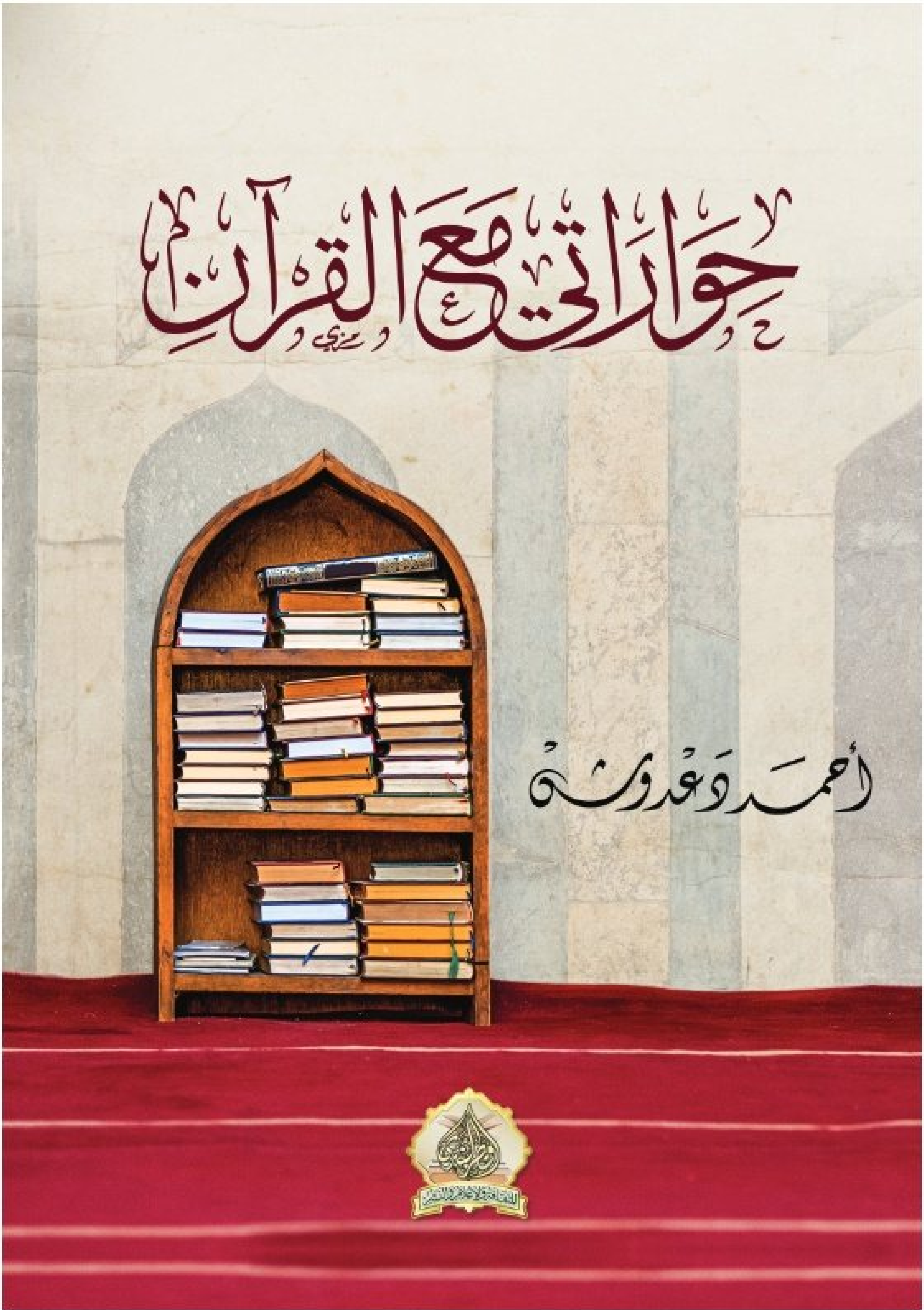
مِنْ إِصْدَارَات

دارة الملك عبد العزيز

مستقبل الخوف

أحمد دعدوش




حواراتي مع القرآن
أحمد دعدوش